حوليات جزائرية

بقلم

أ. بيليسيي

المجلد الثالث



أصالة
Assala
culture

حوليات جزائرية

بقلم:

أ. بيليسيي

قائد الأركان ورئيس مكتب العرب بالجزائر في 1833 و1834

انشاء مستعمرة يتطلب حكمة أكثر
منه انفاقا (المصاريف)
راينال

المجلد الثالث



العنوان الأصلي: Annales algériennes
Tome troisième
الترجمة: سعاد أوسعيدان
[illegible]: محمد [illegible]

ردمك: 978-9931-340-49-2
الإيداع القانوني: 2012-3879

إعلان

يحتوي هذا الكتاب على إدارة المشير كلوزيل واللواء دامرمون، بعض الوثائق الرسمية ذات الصلة، والموجودة إما في الجزء الثاني، إما على شكل مدونات في الجزء الأول، قد نشرت سابقا في كتيبات المشير كلوزيل والعميد دارلانج وكذا في كتاب ديجوبير. فيما يخص الوثائق الأخرى التي استعملتها، فأعطيت لي من طرف الأشخاص الذين تخصهم شخصيا. لم أحصل على أي وثيقة بفضل الوضعية الإدارية التي شغلتها في إفريقيا. كان علي أن أوضح هذا الأمر حتى لا أتهم بإفشاء الأسرار.

يوجد في الجزء الثاني مقالان لم أكتبهما، الأول من طرف السيد لاكورديان، وفيه شرح مفصل للهجوم على قسنطينة، والآخر عبارة عن كتيب من طرف السيد مانجاي، ويروي حالة الملكية في مدينة الجزائر قبل الغزو.

أ. بليسي

حوليات جزائرية

الجزء الأول

الكتاب 17

وصول المشير كلوزل إلى الجزائر بصفته حاكما عاما ـ الكوليرا موروبوس ـ تعيين البايات - حملات في منطقة الجزائر ـ أحداث عنابة وبجاية ـ حملة معسكر ـ قتال في سيغ ـ قتال في الهبرة ـ دخول الفرنسيين إلى معسكر وإحراق المدينة ـ انتهاء حملة معسكر.

وصل إلى الجزائر المشير كلوزل، الذي عُيّن حاكما عاما للممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا، يوم 10 أوت 1835، بيومين بعد رحيل الكونت درلون، الذي سبقه في الوظيفة. ذكريات إدارته القصيرة عام 1830 كانت مؤيدة له بشكل عام، ورأى فيها الكثير من الناس خلاصا للمستعمرة.

الأشخاص المتعقلين، الذين لا يتفقون مع هذا الحماس، اعترفوا مع ذلك للحاكم الجديد بإرادة قوية قادرة على التغلب على العديد من العقبات، إذا وافقها توجه سليم، وبموهبة عسكرية كانت تستدعيها الظروف التي كانت تسود في إفريقيا آنذاك. كان من المستحيل، من ناحية أخرى، أن لا نكون ممتنين للحماسة التي دافع بها عن مصالح ممتلكاتنا الإفريقية. مع اجتماع كل هذه الأسباب، تلقى المشير لدى وصوله إلى الجزائر العاصمة العديد من التهاني الخالصة.

ذهب نائب العمدة، السيد جيرو، نيابة عن المجلس، إلى حد المنح له في خطاب رسمي، لقب المحي،ولكن هذا التأهيل سرعان ما سقط في غياهب النسيان مثل كل الألقاب التي يثيرها الحماس، قبل أن تصدقها الأفعال الحقيقية.

مع هذه الثقة في النفس التي لا يكللها إلا النجاح إذا اتسمت بالاتزان، أعلن المشير أن تعيينه كحاكم للجزائر دليل قاطع على النوايا الحسنة التي يكنّها ملك الفرنسيين للمستعمرة.

منذ هجمات العرب المعادين والتي كان لابد من إيقافها بسرعة، قال هذه الكلمات المطمئنة للسكان الأوروبيين: "في غضون شهرين، سنحدّ من هجمات الحجوطيين." هذه الكلمات التي تداولتها الألسنة بررت على ما يبدو الآمال التي وضعت في المشير كلوزل. فهم من ذلك الأعداء اللدود ون والتلقائيون للسكان الأصليين على أنه تهديد بالإبادة الذي من شأنه

أن يكون له مفعول سريع، ورأى في ذلك العقلاء التدابير الحكيمة التي تهدف إلى وضع حد للأعمال العدائية. كان الجميع سعداء بذلك، وأعرب الأوربيون بمظاهرات صاخبة باعترافهم المسبق للحاكم الجديد، وثقتهم في المستقبل.

ظهر الكوليرا في الجزائر بعد أيام قليلة من وصول المشير كلوزيل، وخصّ اليهود في المقام الأول. حدث نفس الشيء في وهران العام السابق. فُسّرت هذه الأفضلية في اختيار الداء ضحاياه في هذا الجزء من السكان بالقذارة التي يعيشون فيها، محشورين في منازل صغيرة وغير صحية. فتحت لها الإدارة ملجأ في بوزريعة، الموقع الأكثر صحية في ضاحية الجزائر. وجدت هناك العناية اللائقة، الهواء النقي والطعام الجيد.

شغل السيد فيالار،الذي تحدثنا عنه من قبل، منصب مدير هذه المؤسسة. كرس نفسه تماما لهذا الفعل الخيري مادام هذا الوباء مستمرا، بمساعدة كثيفة من أخته، رئيسة راهبات المستشفيات. وقد حلّت هذه النساء بالجزائر منذ بضعة أيام فقط، عندما ظهرت الكوليرا، وبذلك لم تتسن لهن الراحة، بل دخلن في معركة ضد الوباء فور وصولهن.

ومنذ ذلك الحين، واصلن توفير الرعاية والمواساة للفقراء والمرضى، دون أي تمييز بسبب العرق أو الطائفة. والمسلم الذي يدرك أنه أنقذته أيدي مكرسة ليسوع المسيح، يتعلم ألاّ يلعن دينا حث على مثل هذا

التفاني الخالص للبشرية.

ولم يكن السيد فيالار الوحيد من سكان الجزائر الذي أتاح له الكوليرا فرصة التفاني في العمل الخيري.

من بين الذين تميزوا في هذا الظرف الصعب هناك السيد جيرو، نائب عمدة[1]، جريبي مدير المستشفى المدني، مونتيرا، وهو قس كاثوليكي، توليز و لاقون، وهم تجار. بشكل عام، لم يخف السكان الأوروبيون ويلات هذا الوباء. لهذا السبب لم يمرض منهم إلا القليل. هذه الفئة من السكان قوية ومتعافية، وذلك، تماما مثل عيوبها،متأصل في طبيعة تكوينها. قام ضباط الصحة وطلاب المستشفى التعليمي بواجباتهم بتفان، وذهبوا أبعد من ذلك في كثير من الأحيان، وتضرر العديد منهم من هذا المرض. وأظهر زملاؤهم في وهران نفس الحماس في عام 1834، وكذا في بون،حيث دخل الكوليرا أيضا في عام 1835.

عانى العرب أكثر امنا من الكوليرا، خاصة في مدينة البليدة التي تضررت كثيرا. هكذا ركع تحت سيطرة الوباء الجنسان اللذان كانا يتنافسان عل الأراضي الإفريقية. وعلقت الحرب لمدة شهرين وظلت راكدة. وأخيرا، استعادت الحرب أنفاسها عندما ولى المرض.

قال كلوزل أن أول شيء يجب القيام به هو الثأر من الهزيمة في المقطع. لذلك اتخذت ا لحكومة قرارا بالقيام بحملة ضد معسكر، لكن ظهور

(1) السيد كويش، عمدة الجزائر، عاد إلى فرنسا منذ عدة أشهر ولم يعوض بعد.

الكوليرا وتهاون الحكومة في إرسال التعزيزات اللازمة لمثل هذه العملية أخر هذه الحملة.

في غضون ذلك، وللاستئثار باهتمام الناس الذين كانوا متحمسين لرؤيته في العمل، كوّن المشير بيالك وعيّن بايات وهمية لها. في 9 سبتمبر، أصدر أمرا بتعيين بن عمر[1] في منصب وهمي بايا لمليانة وشرشال. في الخامس عشر من الشهر نفسه، عيّن شيخا تركيا يدعى محمد بن حسين، الذي نجا من الإبعاد عام 1830، في منصب باي للتيطري. لم يرُق هذا التعيين لجزء من سكان هذه المحافظة الذين كانوا يودون الاقتراب منا،لأنه كان يزعج بن عودة المختاري في مشاريعه، ولم يعترف بهذا الباي. قررت الإقتداء بهذا المثل القبائل الجنوبية، ولكن قبائل الحابيين والدوريين وكذا قبيلة حسن بن علي التي تنتمي إليها زوجة الشيخ محمد ارتأت إرسال نواب إلى الجزائر للتأكد من نوايا الفرنسيين أكثر منه للاعتراف بالباي الجديد، وهذا ما أثبتته الأحداث بعد ذلك.

هذه الخطوة البسيطة أثارت استياء معظم القبائل، فانتاب النوابَ الخوفُ من التعرض للاعتقال وسوء المعاملة، إذ لم يتجرؤوا على اتباع الطريق العادية، بل أتوا إلى الجزائر خلسة من طرق غير مباشرة.

تلقاهم المشير بامتياز، وجمعهم في قصره، أين أعلن رسميا محمد بن حسين بايا للتيطري وأخذ منه اليمين بالوفاء لفرنسا،وأعطاه سيفا

(1) هو نفسه الذي عُيّن بايا للتيطري سنة 1830.

وعندورة[1]. كما قُدِّم لجميع النواب برانس وهدايا أخرى اعتاد العرب التعامل بها.

ثلاثة أيام بعد الحفل، غادر اللواء راباتيل مخيم بوفاريك مع طابور من 2000 جندي لمرافقة حسين باي على طريق محافظته. وكان من المفترض أن يتم الترحيب به من قبل الكثير من الناس. ولكن عند الوصول إلى سفح الجبل، على أراضي قبيلة موزاية، أدرك العامة أن ذلك كان مجرد وهم،وأنه في الواقع لابدّ من القتال، إذا أرادوا التوغل في الجبال. كان رجال قبيلة موزاية مسلحين. دخلنا في مفاوضات معهم،ولكن دون جدوى. كان عدد جنود اللواء راباتيل قليلا جدا، وكذا المئونة للتفكير في المرور بقوة.

من ناحية أخرى، المرور من جهة المدية لن يكون مجديا، لأن إقليم التيطري لم يكن يساندنا. وكان رأي قادة الفيالق العودة إلى بوفاريك. تبعاً لذلك، بعد أن خيم الطابور قرب مزرعة موزاية في 4 أكتوبر، تراجع في الخامس أكتوبر في الصباح. قبيلة موزاية، التي لم تطلق رصاصة واحدة أمس، شرعت في أعمال عدائية ضد مؤخرة الطابور. حدث اشتباك صغير حيث أصيب السيد برو بجروح بليغة، وهو ملازم أول في الفوج الأول من قناصي إفريقيا، وقُتل جواده. تخلت عنه الفرقة، فدافع عن نفسه ببسالة ضد ثلاثة أعداء، على الرغم من ضعفه، ولكنه كان قد مات عندما

(1) لباس تشريفي.

التحق به الرائد لاموريسيير والنقيبان غران وبونوراند.

ترك اللواء رباتيل في بوفاريك حسين بن محمد، وعاد إلى الجزائر، بالقرب من المشير، الذي كان ينبغي أن يفهم من تلك اللحظة أنه لا يكفي اتخاذ قرارات رسمية لخلق مناصب البايات في إفريقيا .تُرك أيضا السيد المقدم ماري في بوفاريك رفقة السبايس والزواف[1]. كانت مهمته خوض حملتين صغيرتين التي تدعوها العرب غارة، ونحن غالبا ما نستخدم أيضا هذا الأسلوب في أفريقيا كمواساة لنا بعد الفشل السياسي للحملات الكبرى. في ليلة 7 إلى 8 أكتوبر، غزا هذا الضابط السامي حوش بن برنوح وحوش بن صالح في المرجية، حيث كانت تتجمع عدة عائلات من بني خليل، الموالون لقبيلة حجوط، وقمنا بنهب الماشية وسبي النساء والأطفال.

في ليلة 9 إلى 10، سار السيد مرعى، دائما مع الفرسان الجزائريين والزواف، على منزل مرابطين سيدي حبشي، على سفوح جبال الأطلس، على بعد فرسخين من بوفاريك. واتُّهم سيدي يحيى، احد المرابطين،بأن له علاقة مع الحاج الصغير[2]، الذي كان نسيبه، وأنه يستقبل الحجوطيين. فدمر منزله. أما إخوته فلاذوا بالهروب، لكن تم القبض عليه مع زوجته وتم تحويله إلى الجزائر. عند عودتهم من هذه الحملة، تعرض الزواف لنيران بعض القبايل، وقُتل لهم رجلان.

(1) جنود فرنسيون بلباس جزائري أو مغربي.
(2) الحاج محي الدين الصغير بن سيدي علي بن مبارك كان أغا تابع لنا تحت حكم اللواء برتزان ودوق روفيغو، وكان في هذه الأونة بايا لمليانة مواليا لعبد القادر.

خسر مرابطي سيدي حبشي الكثير في هذه الحملة، والتي أثرت سلبيا على عقول المواطنين. تم تبادل النساء والأطفال الذين وقعوا في سبي يوم 7، بعد أيام قليلة، مقابل عائلة عربي موال لنا كان قد اختطفه الحجوطيون.

بقي محمد بن حسين بضعة أيام فقط في بوفاريك، بعد أن ملّ من الدور الغامض الذي أوكل له. فقرر إذن التنقل إلى محافظة التيطري مع بعض الفرسان الذين كانوا حوله، بعدما لم يرغب الفرنسيون أن يرافقوه بأنفسهم. وأعرب عن أمله في إنشاء حركة شعبية لصالحه. فذهب إلى بوفاريك أثناء الليل، عبر الأطلس دون أن يلاحظه أحد ووصل عند حسن بن علي، حيث انضم إليه عدد قليل من الأصدقاء من عائلة زوجته. وبعد عدة زيارات فاشلة لإقناع القبائل الأخرى، تخلى عنه حتى أتباعه الضعفاء. لجأ حينئذ عند نسيبه، الذي اضطر في كثير من الأحيان لإخفائه في مطمورة عن أعدائه الذين كانوا يبحثون عنه.

عرف مشروع تعيين باي في شرشال نفس مصير تعيين باي التيطري. فقد سمح المشير لبن عمر بتجنيد بعض المتطوعين، وتمكن هذا الأخير أن يجمع حوالي مئة متشرد، براتب فرنك في اليوم. كلف معاونه، القائد درانسي، لتعيينه نيابة عنه، ولكن بن عمر كان يعرف جيدا أن شعب شرشال لن يرغب في استقباله، وكان يخشى خصوصا بني مناصر.

لهذا السبب قاوم، وقد تم استخدام القوة لكي يركب في القارب، هو وأهله. كان خائفا إلى حد أنه بكى كثيرا في شوارع الجزائر في طريقه إلى الميناء، وكان يصرخ بأنه قد أرسل إلى حتفه. وصل القارب البخاري الذي كان يقله، والذي وضع تحت تصرف السيد درانسي، إلى شرشال في ظروف مناخية سيئة للغاية. وجدنا صعوبات كبيرة في جمع بعض الناس للإتيان بهم إلى القارب والذين صرحوا أن مواطنيهم لا يكترثون ببن عمر، وإذا نزل من القارب سيذبّح. بالتالي، أعاده السيد درانسي إلى الجزائر. كان بن عمر أوفر حظا من الشيخ محمد، وتمتع بكل طمأنينة بين أفراد أسرته بمعاش 6000 فرنك الذي قدمته له الدولة.

نتائج العمليتين السياسيتين الأوليين للمشير كلوزل أثارت سخرية الجيش. الأراء الرسمية نصحته أن يكون أكثر تحفظا في تقييمه لأفعال السلطة. لذلك قرر المشير أن يتخطى بدايته المؤسفة بالقيام بحملة كان يتوقع منها نتيجة أفضل. تتمثل هذه الحملة في السير ضد الحاج الصغير، باي مليانة الحقيقي، الذي ظهر في السهل بقوات يقال أنها كبيرة. وقد حان الوقت أيضا لتحقيق الوعد الذي قطعه فيما يخص قبيلة حجوط التي أصبحت تتجرأ كل يوم أكثر فأكثر.

في 17 أكتوبر، ذهب المشير رفقة حوالي 5000 جندي إلى معسكر

بوفاريك الذي تعرض أمس ذلك اليوم لهجوم فاشل من قبل العرب.
في يوم 18، غادر المشير المعسكر على رأس ثلاثة ألوية صغيرة بقيادة اللواء روبل و العقيدين مارت و هكت. كان اللواء رباتل في الحملة التي ذهبت إلى أراضي حجوط. على مسافة قصيرة من المعسكر ظهر العدو، ولكن بأعداد قليلة، وما لبث أن تلاشى بعد إطلاق النار من طرف بعض المشاة والمدفعية ورجع إلى العفرون عند مدخل ممر ضيق حيث عسكر الحاج الصغير. استراح الفيلق قليلا عند الشفة ثم سار إلى معسكر العرب الذي كان يبعد بما يقرب من ثلاثة أميال.

عند اقتراب القوات الفرنسية، أرسل الحاج الصغير أمتعته في طريق مليانة وصفّ المشاة على مرتفعات الضفة اليسرى لوادي بورومي الذي ينبع من ذلك المكان. اصطف مئات الفرسان على الجانب الأيمن لحجب التراجع، فهجم عليهم المشير كلوزل بكوكبتين من القناصين وفصيلة من فرسان الحرس الوطني المتمركز في الجزائر. لم تتوقع العرب هذه الصدمة وتراجعوا، لكن ظهور مسيل حال دون ملاحقتهم. على الضفة اليسرى، هاجمت الفرقة التي يقودها اللواء رباتل شخصيا قوات الحاج الصغير التي كانت في طريقها للتراجع إلى مليانة، لكنها واجهت مع ذلك الزواف من تلة إلى أخرى.

كبدناهم بعض الخسائر. في هذه المعركة، جاب اللواء رباتل خط

المواجهة من جهة إلى أخرى مع فرقة صغيرة من المقاتلين، فوجد خلف تلة عددا كبيرا من جنود العرب، فهاجمهم دون تردد رغم العدد القليل من جنوده، وقتل عدوا بيده، وهرب الآخرون. ولكن لما لم يكن في خطة المشير التوغل في الجبال، ترك الحاج الصغير يواصل طريقه إلى مليانة،وجمع قواته على الضفةاليمنى من النهر حيث عسكر.

في اليوم التالي 19، دخل المشير إلى السهل. عندما بدأ المسيرة، أطلقت بضع طلقات نارية من بعيد على الطابور، لكنها كانت قليلة جدا ولاتكاد تذكر، حتى أن الزواف الذين شكلوا المؤخرة لم يهموا بالرد. سار المشير عبر أراضي حجوط بأكملها، متوجها نحو بحيرة علولة، وحرق جميع المنازل في طريقه، وحتى كل أكوام التبن، الأمر الذي أدى في تلك الليلة واليوم التالي إلى فقدان علف الأحصنة. فضلا عن ذلك، لم نلتق أي كائن حي، باستثناء امرأة وطفل قبضنا عليهم.
في المساء، خيمنا على ضفاف البحيرة حيث وجدنا بعض الحيوانات المهجورة. يوم 20، ذهب المشير لزيارة قبر الرومية، ثم قاد الطابور نحو حواف الشفة حيث أمضى الليل.

يوم 21، وصل إلى البليدة التي وفرت الخبز للقوات، واغتنم هذه الفرصة اللواء رباتل لزيارتها. بات في بوفاريك في تلك الليلة ثم عاد إلى الجزائر يوم 22.

لكن انتشرت الإشاعة، لا ندري كيف، في هذه المدينة، أنه قد تم قتل أو القبض على جميع المحاربين الحجوطيين،وهكذا وفى المشير بوعده. خرج جزء من السكان الأوروبيين للترحيب به، على رأسهم المجلس البلدي والوكيل المدني الذي ألقى خطابا لتمجيده. أضيئت المباني العامة ليلا بعد النصر العظيم. فرحة السكان كانت غامرة، لدرجة أن الذين شاركوا في الحملة حاولوا سرد الوقائع الحقيقية لجمح ذلك الغلو، إلا أن هذه المهمة قام بها الحجوطيون نفسهم، لأنه في حين كان يُحتفل بإبادتهم في الجزائر ثاروا لإحراق أكواخهم واستولوا على قطعان حلفائنا.

في يوم 21، لما كان المشير في طريقه إلى بوفاريك، أغار الحجوطيون على مزرعة بابا علي ونهبوها، وهي لا تبعد سوى بميل واحد عن جسر واد الكرمة، وهي أيضا ملك للسيد كلوزل نفسه. عندما عُرفت هذه الحقائق، فإن معظم الناس، وهم دائما على استعداد للذهاب من النقيض إلى آخر،أبوا إلاّ أن يعتبروا هذه الحملة كنزهة أثارت مشاعرهم. ومع ذلك،أجبرت هذه الحملة الحاج الصغير للذهاب إلى مليانة، وكان هذا تخفيف طفيف للنتيجة المؤسفة لحملتي التيطري وشرشال.

تلقى المشير كلوزل لدى عودته إلى الجزائر، بعد مسيرته إلى حجوط،

خبرا بأن ترددات الوزارة في بعث التعزيزات فيما يخص حملة معسكر قد توقفت، ويجري توجيه التعزيزات اللازمة لإفريقيا.

استعد بالتالي للذهاب إلى وهران، ولكن قبل أن نتبعه، يجب تعريف القارئ بالأحداث التي حدثت في عنابة وبجاية في الأشهر الأخيرة من 1835.

في عنابة، نُظمت حملة صغيرة في أكتوبر ضد بنو صالح. السبب: سطا بنو صالح على عرب قبيلة عيشاوة ورفضوا إرجاع ما نهبوا. اشتكى العيشاوة للشيوخ الذين أجابوا أن سلطتهم لم تعُد معترفا بها، وبالتالي لن يتمكنوا من منع الفوضى. من أجل وضع حد لهذه الفوضى، سار اللواء أوزر نحو بني صالح. لم يشارك إلا جزء من القبيلة في التمرد، والكثير منهم فرّ عند قدوم اللواء، بينما كان الجزء الآخر غائبا، لأنه قام بعمليات سطو أخرى على قبيلة العيشاوة. استولى اللواء على قطعانهم ودخل إلى عنابة. في اليوم التالي، أتاه المتمردون أنفسهم لطلب العفو. بذلك رُدت لهم ماشيتهم، إلا ما خصص لتعويض العيشاوة وما اختلسه الفرسان الجزائريون المساعدون.

لم يحدث أي شيء غير عاد في عنابة منذ هذه الحملة حتى ذهاب اللواء أوزر في شهر مارس التالي، كما سنرويه لاحقا.لم تقم القبائل بأي عمل عدائي، لا بينهم ولا ضدنا.

إلا أن لصًا يدعى العربي ارتكب بعض الجرائم قرب عنابة، ولكن لم يُقبض عليه.

وصل المشير كلوزل إلى الجزائر مع نية إخلاء بجاية، أين كان يرتئي تعيين حكومة محلية خاضعة للجزائر. كان في معتقده أنه يمكن التخلي، دون عائق أخلاقي، عن هذا المكان الذي كان يحرجنا، في الوقت الذي كانت الحكومة على استعداد لنشر قوات على نقاط أخرى. ونتيجة لذلك، أعلن الإخلاء وأعطى أوامر للاستعداد لذلك. حماية بجاية جندت بين 3000 إلى 4000 جندي، الشيء الذي أثر بقوة على العقلية العسكرية للمشير. لكن شرع السيد عقيد الهندسة لومر بإضعاف وتدمير هذا التفكير ونجح في ذلك، حيث أقنع المشير أنه يمكن الدفاع عن بجاية بسهولة من قبل حامية من 1000 رجل، شريطة الشروع في بناء منشآت دفاعية جديدة. عندئذ أقصيت كل عوائق الاحتلال، ولم تعد قضية التخلي مطروحة.

وكان هذا التغيير مفاجئا حتى أن السيد العميد جيرو، الذي كان يحكم بجاية ، وصلته في نفس الوقت أوامر بالإخلاء وتعليمات من كبير المهندسين تلغيها. لكن لم يكن واثقا من الدفاع عن بجاية بألف رجل فقط، لذلك رفض إجراء يستهجنه، وبالتالي طلب استدعاءه. وقد حل محله السيد ديلاروشيت، عميد من خط 63. تولى هذا

القائد مهامه في لحظة سيئة.أصبح الحرمان والعزلة مؤلمين، وخاصة منذ الإعلان عن الإجلاء الذي أعطى الأمل لتحسن الأوضاع قريبا. واستولى الملل والإحباط والاشمئزاز على هذه الحامية الشجاعة. لذا بذل السيد ديلاروشات كل جهده لمعالجة هذا الوضع. شرع إذن في إنشاء غرفة للقراءة للضباط، وكذا مسرحا اجتماعيا للجنود. ثم أمر بزرع الحدائق. باستخدامه الذكي لهذه الطرق الصغيرة، رفع معنويات جنوده. من جهة أخرى، لم يخفض عدد الباقين في الحامية إلى 1000 رجل، بل شعرنا باستحالة ذلك. رغم ذلك، اقتصرت على كتيبة إفريقيا 2 وقليلا من المدفعية وسرية مهندسين، فقد كانت هذه الحامية دائما مكونة من أكثر من 2000 رجل في عام 1836. ولم تتغير إلا قليلا منذ ذلك الوقت.

تحت قيادة السيد دلاروشيت، احتللنا نهائيا موقع دموس الذي كان، بطريقة أو بأخرى، المقر الرئيسي للقبايل في هجماتهم ضد بجاية، والذي كان يشكل نافذة لهم على المدينة، من مسافة صغيرة. من هناك، كانوا يرون كل شيء في الموقع المركزي وفي المعسكرين المتحصنين. كان بإمكانهم الوصول إلى دموس من السهل أو من الجبل، وكانوا يسيطرون على تراجعهم، لأنه لم يكن في إمكاننا أن نتخذ أي إجراء للالتفاف حولهم من دون أن يلاحظوا ذلك. تقرر الاستيلاء على هذه النقطة في الزيارة

التي قام بها المشير إلى بجاية يوم 28 أكتوبر أثناء هجوم للقبايل. أزالت هذا الاستيلاء إمكانية نظر العدو إلى الموقع المركزي، وفي الوقت نفسه أعطانا نظرة إلى المرعى، مما جعل رعي ماشيتنا أكثر أمنا.

يوم 7 نوفمبر، قبل طلوع الشمس، استقرت قواتنا على الستار الذي تشكل فيه دموس النقطة الرئيسية. كان هناك برج قديم، كنا نعتقد أنه مطحنة قديمة. تمّ سدّ الثغور في هذا البرج، ثم وضعنا تحصينا في الطابق العلوي. بعد ذلك بنينا على أنقاض المنازل القديمة صورا محصنا موصولا بالبرج، وأطلقنا على هذه المنشأة اسم حصن كلوزل. سعى القبايل بهجماتهم لإيقاف الأعمال. يوم 7، قضينا اليوم كله في تبادل إطلاق النار على التلال.

تتكون حامية بجاية من كتيبة إفريقيا الثانية، كتيبة من الخط 13، فصيلة الزواف ومفرزة من الفوج الثالث لسلاح فرسان إفريقيا. لقد أدّت كل هذه القوات واجبها، المشاة في الجبال، وسلاح الفرسان في السهول.

يوم 8 نوفمبر، هجر القبايل قرى دار النصر، زيتون وطارمينا. استقرت مراكزنا المتقدمة في القرية الأولى، وأصبح بذلك عمال برج كلوزل في مأمن. في السهل، هجم فرساننا على فرسان الشيخ امزيان الذين تم تفريقهم. أرسلت عليه قلعية ليامون، المتمركزة في بجاية، ضربات مدفعية متواترة. أصيب امزيان في العملية. حل هذا الشيخ مؤخرا محل شقيقه سعيد ولد اورباح، الذي توفي من جراء المرض. يوم 9 كان هادئا

جدا. أصيب دلاروشيت بجروح طفيفة أثناء حملة الاستطلاعية على الصومام.

في صباح يوم 10، احتل مرة أخرى القبايل قرية دار النصر[1]. ولكن استرجعها منهم جنود كتيبة أفريقيا الثانية وفصيلة الزواف. كان كل شيء يسير على ما يرام حتى الآن، ولكن السيد دلاروشيت لم يكتف بالسيطرة على المرتفعات، وأراد أن يتمكن أيضا من السهول. من أجل ذلك، أنزل الكتيبة 13 وفصيلة الزواف، وشكل طابورا بدون اتصال بينهما. اغتنم العدو هذا الخطأ وهبّ على الزواف الذين كانوا بعيدين جدا عن الكتيبة 13 لكي تنقذهم، فأُجبروا على التراجع بعد أن خسروا عشرة رجال. أصيب القائد دافي الذي كان يقودهم بجروح بليغة. وفي اليوم التالي، يوم 11، خرج القائد العام مع كتيبة إفريقيا الثانية إلى ساحة المعركة لدفن الموتى.

لدى عودته هاجمه القبايل، لكنه صدهم وكبدهم خسائر كبيرة. في الأيام التالية، لم يظهر القبايل إلا بأعداد صغيرة، حتى يوم 19 عندما توقفوا تماما عن الظهور. بما أن أشغال حصن كلوزل انتهت، عُزّزت هذه المُنشأة من اليمين واليسار بتحصينين جديدين، بُغية استكمال المنظومة الدفاعية الجديدة. أُطلق اسم دوريك[2] على تحصين الجهة اليمنى، واسم ريال على تحصين الجهة اليسرى. أُخلي المعسكر المحصن، لأن الوضعية فيه كانت غير صحية للغاية. ثم عادت الكتيبة 13 وفصيلة الزواف إلى الجزائر. تم إرسال

---

(1) سميت دار النصر، لأنها كانت مقر القائد العام للواء العربي الذي انتزع بجاية من رومان الإمبراطورية البيزنطية. ملاحظة من الكاتب.
(2) اسم ضابط قُتل عند الاستيلاء على بجاية.

الكوكبة الثالثة لمقاتلي إفريقيا إلى عنابة،ما عدا مفرزة صغيرة.

لقد تطرقنا في الكتاب السادس عشر لأحداث محافظة وهران، حتى إخلاء مسرغين من طرف القايد إبراهيم الذي تراجع مع الدواير والزمالة حتى خطوط تحصيناتنا، خوفا من بني عامر. حدث هذا التراجع يوم 27 اوت، تحت تغطية اللواء دارلانج. يوم 29، ظهرت فرقة كبيرة من العرب أمام مراكزنا المتقدمة وهاجموا الدواير والزمالة الذين لاذوا بالفرار، ولكن سرعان ما تمت ملاحقتهم من طرف القوات الفرنسية.

في ليلة 31 اوت، قام قايد الدواير، عدّه بن عثمان، بهجوم على مسرغين مع 50 فارسا و 59 من المشاة، وفاجأ بني عامر، وقتل لهم عدة رجال وسلبهم بعض الخيول. لحسن الحظ، عاد إلى وهران بعد هذا الهجوم الخاطف والجريء.

بعد أيام قليلة، شن القايد إبراهيم من جهته هجوما سريعا على الغرابة ،ونجح هو أيضا في محاولته.

لم يكن اللواء دارلانج قادرا على التحرك نظرا للضعف الشديد لحامية وهران، ولم يكن يستطيع سوى تأمين حلفاءنا داخل الخطوط بعد هجماتهم. في 2 أيلول، تغيرت الأمور بوصول كتيبة الخط 47. وهكذا، يوم 14 من الشهر نفسه، ذهب السيد دارلانج إلى موقع فيغي، على بعد ثلاثة أميال من الموقع المركزي، وبنى معسكرا محصنا. هذه العملية كانت جدّ مفيدة للدواير والزمالة، لأنها فتحت مراعي جديدة وخصبة لمواشيهم، التي لم تكن تجد سوى القليل من العشب داخل خطوطنا. في 6 أكتوبر، قام اللواء باستطلاع عميق إلى طليلات، حيث وجد الهياكل التي بناها اللواء تريزل في جوان السابق سليمة. في طريق عودته،

وقع تبادل لإطلاق النار بين مؤخرة جيشه وبين مائتين إلى ثلاثمائة من العرب.

في اليوم نفسه، قام قائد الكتيبة فريول، من كتيبة الخط 66، والذي كان يحكم في مستغانم، بغارة وسلب العرب الكثير من الماشية، كانت حاميته بأشد الحاجة إليها. يوم 31، قتل العرب أحد أتراك مستغانم بالقرب من الموقع المركزي، ثم فرّ القتلة إلى مازغران، فقام القائد فريول بغارة ثانية قُتل بعض العرب أثناءها. يوم 25، هاجم العرب مستغانم، إن كان ممكنا وصف نيران البنادق الموجهة ضد مواقع محصنة هجوما. بعض طلقات المدفعية كانت كافية لإنهاء هذه المعركة التافهة.

منذ بعض الوقت، سُرقت حظيرة الثيران للحامية الصغيرة في ارزيو من طرف بعض الغرابة الذين قتلوا لنا بعض الرجال، ولكنه لا جدوى من الخوض أكثر في تفاصيل قليلة الأهمية بالنسبة للقارئ.

لم يظهر عبد القادر طوال هذه الحرب الصغيرة التي أوكلها لحماسة القبائل، للاحتفاظ بحق الشجب. سلوكه الحذر والمتحسب، إضافة إلى الرسائل العديدة التي كتبها إلى الكونت درلون، بعد معركة المقطع، تثبت أنه كان لديه إحساس بالعاصفة التي كانت على وشك أن تهب عليه، وبالتالي كان يريد أن يُنسي فوزه هذا أكثر مما كان يريد أن يفتخر به. ومع ذلك، كان يستعد بقصارى جهده للقتال رغم أنه كان يريد اجتنابه.

حالما تقرر القيام بحملة ضد معسكر، أمر المشير باحتلال الجزيرة الصغيرة، أو بالأحرى صخرة حار شغون، التي تقابل مصب الطافنا. يوم 30 أكتوبر، استقر هناك رئيس الكوكبة صول مع 150 رجلا. كان هذا الاحتلال تدبيرا

ممتازا، لأنه ألقى الخشية في قبائل المنطقة الغربية الذين كانوا ينتظرون من لحظة لأخرى اجتياح الفرنسيين لأراضيهم، الأمر الذي أقعد في منازلهم المحاربين الذين، لولا ذلك، لعززوا قوات عبد القادر. كان لها أيضا تأثير على موقف كولوغلي المشوار في تلمسان. كانوا مراقبين من قريب لبعض الوقت من قبل بن نونة وضاقت عليهم الأحوال. ولكن ذلك القايد توجه نحو الساحل لدراسة التحركات الفرنسية، فأصبح حصار المشوار أقل صرامة. هكذا تمكن الحصن من الحصول على الغذاء، ثم نظم غارة نجح فيها.

في النصف الأول من شهر نوفمبر، وصل إلى وهران الفوج 11 لمشاة الخط، وأفواج 2 و 17 من المشاة الخفيفة، وكذلك حراس الميدان أودينو وبيريغو [1]. تم إرسال السيد دغيروى، نائب التموين،إلى الجزائر لقيادة العمليات الإدارية. نظم للمرة الأولى في أفريقيا، في هذه المناسبة، النقل الإضافي بمساعدة موارد الجماعات المحلية. تم استئجار أكثر من ستمائة من الإبل لهذا الغرض من عند الزمالة، خصصوا لنقل المواد الغذائية.

يوم 21 نوفمبر، وصل إلى وهران المشير كلوزل، الذي كان يقود حملة معسكر شخصيا، يرافقه دوق أورليان، الأمير الشاب الذي أراد أن يشارك في الحملة. وقد اصطحب المشير معه كتيبة الزواف المتمركزة في الجزائر وفصيلة النخبة من كل فوج كان هناك، وهم الفوج 10 الخفيف وأفواج الخط 13 و 63. كان جيش الحملة العسكرية يضم حوالي 11000 رجل، ومتكونا من أربعة ألوية واحتياط، متشكلة ومسيّرة على النحو التالي:

(1) قد أرسل أيضا السيد اللواء ديميشال إلى افريقيا لحملة معسكر، ولكن المشير ابقاه في الجزائر.

اللواء الأول. - اللواء أودينو.

الدواير والزمالة وأتراك إبراهيم.

الفوج الثاني من قناصي أفريقيا.

الزواف.

الفوج الثاني الخفيف.

سرية متخصصي المناجم.

سرية النقابين.

2 قذّافو الجبال.

اللواء الثاني. - اللواء بيريغو.

ثلاث سريات النخبة من الجزائر.

الفوج 17 الخفيف.

2 قذّافو الجبال.

اللواء الثالث. - اللواء دارلانج.

الكتيبة الأولى لمشاة إفريقيا الخفيفة.

فوج الخط الحادي عشر.

2 قذّافو الجبال.

اللواء الرابع. - العقيد كومب.

فوج الخط 47.

2 قذّافو الجبال.

الاحتياطي. - المقدم بوفور، من فوج الخط 47

كتيبة من فوج الخط 66.

سرية متخصصي المناجم.

4 قذّافو الجبال.

سرية مدفعية ميدان.

كان الموسم متقدما قليلا لخوض رحلة استكشافية في بلد بعيد، خالي من الطرق والجسور، وكنا خائفين من الأمطار في أفريقيا التي تكون غالبا قوية في فصل الشتاء وذات استمرارية مخيفة، ولكن قرر المشير أن يتكل على حظه. مكث خمسة أيام في وهران،من يوم 21 حتى يوم 25. يوم 23، تمّ الإعلان عن إبراهيم بايا لمعسكر. كان الطقس رديئا جدا منذ وصول المشير، لكنه تحسن يوم 25. في يوم 26، تم وضع المقر الرئيسي في مُعسكر لفيغيي. كان لدينا بعض المشاكل في آخر لحظة لجمع الإبل التي كان من المقرر أن تأتي بها الزمالة والدواير. هؤلاء العرب أبعدوها بعدما انتابهم الشك في شيء ما، واضطررنا لإخراج بعض الجنود لاستعادتها.

يوم 27، خرج اللواء أودينو بلوائه، الرابع،إلى طليلات، وكتيبة إفريقيا للواء الرابع. في يوم 28، وضع المقر العام في نفس المكان، أين اجتمع كل الجيش الذي غادره يوم 29، متجها إلى سيغ، مع اللواء الأول في المقدمة، تتبعه مدفعية الاحتياط، الأمتعة، القافلة، الإبل والسيارات. كان يحميها عن اليمين اللواء الثاني، وعن اليسار اللواء الثالث. أما اللواء الرابع، فكان

في المؤخرة. كان الجيش، بهذه الطريقة، يشكل مربعا كبيرا، يضم في وسطه الإبل، السيارات والأمتعة. كان الاحتياط يسير أيضا في وسط هذا المربع رفقة القافلة.

اجتاز الجيش غابة مولاي اسماعيل دون أن يلتقي بالعدو.عند الخروج من الغابة، قام بعض الفرسان العرب، لوقت قصير، بتبادل إطلاق النار مع المؤخرة، وقبضوا على متقاعص واحد. وصل الجنود في المساء إلى ضفاف واد السيغ، إلى مكان يدعى مرابط سيدي عبد القادر متاع الأربعاء، حوالي ميل من مكان تقاطع طريق معسكر مع الواد. عسكر الجنود في شكل مربع على الضفة اليسرى، بينما أقامت كتيبة ورجال إبراهيم وحدهم على الضفة اليمنى. في الليل، الأنوار الكثيرة المشتعلة كانت توحي بتواجد العدو في الجبال.

توجد ثلاث طرق مستعملة تربط بين سهل صراط وسيغ وبين معسكر، تعبر الجبال الفاصلة بين هذا السهل وسهل غريس. الطريق الأول، عند المجيء من وهران، وهو طريق مباشر، يمر عبر خانق كروف وواد همان. هو طريق صعب للسيارات، وتمر على الجبال لمسافة ثمانية أميال تقريبا. الطريق الثاني، لا يصلح في أغلبه للسيارات، ويمر عبر المخنق الذي ينبع منه واد الهبرة. تبعد معسكر بخمسة أميال من هذه النقطة التي تتواجد على بعد خمسة أميال شرق كروف. الطريق الثالث،

على بعد ثلاثة أميال شرق الثاني، يمر بالمرابطين سيدي إبراهيم وسيدي جرارة والعين الكبيرة. طوله من ستة إلى سبعة أميال، يمر على الجبال، ولكنه صالح للسيارات.

قرر المشير اتباع الطريق الأول، غير أنه لم يخف انزعاجه من عدم تمكن السيارات والعربات من المرور. لذلك ارتأى أن يترك السيارات والمدفعية في سيغ تحت حماية ألف جندي اختارهم من الفرق المختلفة التي تشكل الجيش. لهذا الغرض، أمر بتشييد موقع محصن، وشرع الجنود في ذلك يوم 30. أثناء ذلك، أقام عبد القادر على بعد ميل ونصف فوق موقعنا، في سفح الجبل، عند مرابطين سيدي عامر الماجي. بعث من هناك بن العزيز، أحد قادته، إلى مخيم إبراهيم برسالة سلام. تتمثل المهمة الصعبة للغاية لهذا الضابط في إقناعنا أن الأمير يريد السلام، لكن يجب تقديم الطلب بذلك له. لما كان من المستحيل التفاوض في هذا الشأن، رجع المرسل بعدما عرضنا عليه بكل وضوح وجهة نظرنا.

كان الطقس رائعا، وكان الجيش لا يطلب سوى القتال، بما أنه كان مزودا بالمئونة والذخيرة. سلات الشعير الكثيرة وكومات العلف المتعددة التي وجدناها غير بعيد من المخيم سمحت لنا بتعليف الخيل، مما يعني أن كل شيء كان على ما يرام.

يوم أول ديسمبر، أراد المشير أن يتعرف عن قرب على القوة الحقيقية

للعدو، الذي سكن في حمول، فسار نحوه بالفرسان والزواف وكل فرق النخبة. عندما اقتربنا، ثنى العرب خيامهم والتحقوا بسفوح الجبال تحت ضربات مدفعيتنا. لاحظنا عندئذ أن قواتهم لا تتجاوز 4000 رجل. تراجعهم المتسرع أوحى لنا بأنهم أصيبوا بالإحباط لكن تبين لنا في ما بعد أن تسرعهم كان سببه المفاجأة عندما رأونا قادمين، ثم ما لبثوا أن استعادوا الثقة في أنفسهم وجاءوا يهاجموننا بدورهم. سريتان للقناصين، اللتان غامرتا كثيرا نحو اليمين، سقطتا في مأزق [1]. اضطررنا أن نرسل لهم المشاة لحماية دخولهم في الطابور، الذي عاد إلى المعسكر، بعدما أدى مهمته الاستطلاعية. لاحق العرب بكل ضراوة الطابور، مشكلين نصف دائرة خلفه، ولم تتمكن لا مدفعيتنا ولا قنابلنا من تأخيرهم إلا قليلا. من جهتهم، ناور جنودنا بكل رزانة ودقة. مع ذلك، استدعى المشير ثلاثة كتائب من المعسكر لتغطية التراجع، الذي تم بنظام دقيق.

هذه المعركة، التي لا نستطيع أن نقول أننا فزنا فيها، غيرت أفكار المشير، الذي تخلى عن طريق الكروف وعن فكرة ترك جنود في معسكر سيغ، الذي تم بناءه في مساء 2 ديسمبر. في صباح يوم 3، عبر الجيش واد سيغ على جسرين من حوامل، وضعتهما مصلحة الهندسة. بالرغم أن الواد لم يكن عميقا إلا بقدر بعض أصابع. اتجه نحو الهبرة في نفس الترتيب الذي كان عليه يوم 29.

(1) قتل في هذه القضية السيد دارنو، ملازم أول مساعد للمشير كلوزل، وقد تصرف بشجاعة.

تأخرت مؤخرة الجيش عند عبور الواد، لضرورة طي الجسرين، إلا أنها نكلت من طرف حوالي ألف من العرب طوال النهار بطلاقات نارية، كانت أكثر إتعابا منه خطورة. للحظة، افترقت المؤخرة عن بقية الجيش الذي كان يسير بسرعة. كان الأمير يتبع طريقا موازيا لطريق الجيش الفرنسي ويسير بمحاذاة الجبال، مترقبا لتحركاتنا. تفطن لانحلال الطابور الفرنسي، وقام بتحرك جانبي لاستغلال الوضع. لكن مع ظنه أن مدفعيتنا، التي تتكون من أربعة مدافع رديئة، أقوى من مدفعيته، باعد أقصى ما يمكن بين طريقه وطريق جيشنا، مما سمح للمؤخرة بالالتحاق بباقي الجيش قبل أن يتوغل بينهما. حدث التواصل بعد اجتياز غابة، بعد عبور السيغ.

لما ضم المشير كل ألويته، أجرى تغييرا في الاتجاه نحو اليمين لكل لواء، ماعدا اللواء الرابع الذي بقي مع القافلة والاحتياط على الطريق القديم. بهذا التحرك المنفذ بنظام والمصمم بإحكام، أصبحت الألوية الثلاثة الأولى متدرجة في رمشة عين، من اليسار وبترتيب معاكس، وسارت في هذا النظام نحو الجبل أين أبعدت العدو. بعد ذلك، أجرى المشير تحركا مماثلا من اليسار، فسارت من جديد نفس الألوية المتدرجة من اليمين وفي الترتيب العادي في الاتجاه الأصلي. حدث كل هذا في نظام هائل، الذي كان يوحي ببراعة الجنرال والتدريب الجيد للجيش. كان من المستحيل تطبيق المبادئ التكتيكية بفطنة أكبر على المقتضيات الإستراتيجية لتلك اللحظة. من جهته،

ناور عبد القادر في ذلك اليوم بأفضل ما كانت تسمح له العناصر الرديئة التي كانت معه. لما اضطر أن يتخلى عن هجمته عن الجانب، سبقنا عبر الجبال على طريقنا، وأقام في موقع هائل يقطع فيه عموديا اتجاهنا، مستندا يمينا إلى الغابة ويسارا إلى الجبال. اتخذت مدفعيته موقعا يسارا على تلة قريبة من الجبال، أين كان يستطيع التراجع في حالة الهزيمة. انتظرنا بهذه الطريقة في هذا المكان الضيق أين كان يسيطر على تراجعه. اختيار هذا الموقع والتدابير التي اتخذها للدفاع عنه تعتبر من الأعمال التي تتشرف بها الألوية الأوروبية، لكنه نسي أنه كان لديه جنود عرب. تجاهل العلاقة الوطيدة الموجودة بين طريقة استعمال شعب للحرب وبين عاداته وتقاليده وتنظيمه الاجتماعي أمر خطير.

أربعة مرابطين من سيدي مبارك كانوا يتواجدون في مقدمة وضعية الأمير. عند الوصول إلى مستواهم، أصيبت قواتنا بوابل من الرصاص من مشاة العدو الذين تموقعوا خلف المرابطين. رفض جنود إبراهيم الذين كانوا يسيرون في المقدمة الهجوم عليهم، ولكن اللواءين 2 و 3، الذين كانوا وراءهم، واصلوا مسيرتهم كما لو أنه شيئا لم يكن وفرقوا بقوة اختراقهم وحدهم عدوا غير معتاد أن يحارب في صف. في الوقت نفسه، أمطرت مدفعية عبد القادر، التي كانت مزودة كما ينبغي، اللواء الأول. قواتنا التي لم تتعود على القذائف كالعرب، الذين يتلقون في استطلاع بسيط ما تلقته قواتنا

في كل الحروب معهم، فرحت للحظة، لكن هذه اللحظة كانت قصيرة. طلب اللواء أوديو الإذن من المشير للمناورة بغية الاستيلاء على مدفعية الأمير، ولكن كان ينبغي تتبعهم في الجبال، وكان الوقت متأخرا، فرد عليه المشير أن يتركهم عن يمينه ومواصلة السير. أصيب هذا اللواء بجرح في الفخذ بعد إطلاق النار، فخلفه العقيد ماك من الفوج الثاني في قيادة لوائه.

تراجع العدو، الذي ظهر في كل مكان، إلى الجبال، وحتى بعض الفرسان الذين ظهروا على الجانب الأيسر وكذا الذين تبادلوا إطلاق النار مع المؤخرة تراجعوا، ولكن مكثوا في السهل. واصل الجيش مسيرته، ووصل جد متأخرا إلى الهبرة، إلى المكان الذي ينبع منه هذا الواد من الجبال، والذي يبدأ منه الطريق الثاني الذي تكلمنا عنه أعلاه.

هذا اليوم، باستثناء الخطأ الطفيف في الصباح، عندما انفصلت المؤخرة عن بقية الجيش، كانت درسا عظيما في الحرب لضباطنا الشباب. درس دوق أورليان بالتفصيل ما حدث، وذهب إلى كل مكان يسمح له أن يرى جيدا ما يجري، ولم يجتنب الخطر، أو دون التظاهر بالبحث عنه. أصابته كدمة طفيفة في الفخذ.

في الليل، كلل العدو بأصواته القليلة مرتفعات مخانق الهبرة. وذهب المشير بنفسه إلى سيارة الإسعاف لتفقد الجرحى، لمعرفة ما إذا لن يتحرج منهم في

مسيرته. كان عددهم قليلا، ومع ذلك كان يشاع أنه سيتركهم في مستغانم قبل أن يسير نحو معسكر.

في صباح يوم 4، غادر الجيش الهبرة، على جسر الركائز الذي ألقته مصلحة الهندسة دون الحاجة كما حصل في سيغ. هوجمت المؤخرة، تماما كأمس ذلك اليوم، ولكن العدو كان أقل بكثير. أخذ المشير أولا اتجاه مستغانم، الشيء الذي أكد إشاعات الليلة التي مضت، ولكن بعد فترة راحة طويلة نسبيا وبعض التردد الفعلي أو الظاهري، غير الاتجاه وسار شرقا. لاحق العرب، الذين كان عددهم 2000 على الأكثر، المؤخرة وساروا على الجانب الأيمن، بيننا وبين الجبال. كانت المدفعية الجبلية ترسل عليهم من وقت لآخر قذائف وصواريخ كنغرف.

بعد المشي بعض الوقت إلى الشرق، وصل المشير إلى بداية الطريق الثالث، عندئذ تحول فجأة إلى اليمين، وتوجه إلى الجبال. احتل اللواء الأول، الذي تولى قيادته اللواء ماربو، واللواء الثاني التلال الأولى عن يمين ويسار الطريق. أما القافلة واللواءين الأخيرين فتوقفوا في السهل. تم طرد بضع مئات من العرب بسهولة من الجبال، وأوقف آخر اللواءين أولئك الذين كانوا في السهل وبأكبر عدد. لما انتهت مهمة الاستطلاع، استأنفت القافلة وهذه الألوية طريقها ودخلت الجبال. ولما رأتنا العرب نهائيا على طريق

معسكر، انصرف بعضهم إلى قبائلهم، والبعض الآخر التحق بعبد القادر في الهبرة، من أين انطلقوا إلى معسكر في نفس اليوم.

رأينا بعد ساعات قليلة طابورهم على اليمين،كان يسير في الطريق الثاني وخيم الجيش، يوم 4، عل شكل مربع غير منتظم، قرب مرابطين سيدي إبراهيم، في الجبال. و في يوم 5، عند الفجر، تحرك الجيش من جديد. السير في هذا الاتجاه يتبع بشكل عام الوديان، وأقحم فيه المشير القافلة والاحتياط. اتبع اللواء الثاني تلال اليسار، بينما اتبعت الألوية الثلاثة الأخرى تلال اليمين رفقة المشير. كنا نتوقع لقاء العدو في ذلك اليوم، ولهذا كان من واجبنا الحذر، وبالتالي السيطرة على المرتفعات. لم ير اللواء الثاني إلا بعض العرب، على الجانب الأيسر، وظن للحظة أن عبد القادر كان متواجدا عند مرابطين في سيد جرارة، ولكن لم يكن كذلك. أما الطابور الأيمن فقد التقى بعض العرب من قبيلة بني شغران، الذين كانوا منتشرين على تلة لتغطية تراجع أسرهم وقطعانهم، إلا أنهم لاذوا بالفرار عند طلقات النار الأولى للزواف والكتيبة الخفيفة الثانية.

واجهت القافلة ثلاث مسايل لم تعبرها حتى تدخل جنود الهندسة لجعلها سالكة، مما أدى إلى إبطاء تقدمها بشكل ملحوظ، وقد فاتها الطابوران وانكشفت. واقترب منها العرب، الذين شاهدهم اللواء الثاني على اليسار، وبلغ الرصاص حتى سيارة الإسعاف. حينئذ، أخذ أحد ضباط الأركان عل

عاتقه أن يطلب كتيبة من اللواء الثالث، قادها ومنع العدو من الاقتراب.

ابتعد الطابور الأيمن عن الطريق لما اتبع اتجاه التلال. وسرعان ما اضطر للهبوط، عابرا وادي عميق، وصعد إلى تلال أقرب للطريق. بعد فترة وجيزة، واجهت القافلة طلعة حادة، وصرح جنود الهندسة أنهم لن يتمكنوا من جعلها سالكة قبل حلول الظلام. عندئذ أمر المشير بوقف جميع الألوية حيثما كانوا : اللواء الثاني في عين كبيرة، الأول إلى الوراء قليلا، الثالث عند المرابط سيدي محمد، والرابع مع القافلة. هذه الأخيرة، بفضل النشاط الهائل لقوات الهندسة والسيد لمرسيي عقيدهم، تمكنت من عبور الخانق في الليل. في نفس الليلة، تلقى المشير أخبارا متناقضة عن عبد القادر، لهذا السبب قرر تعجيل مسيرته على معسكر. يوم 6 في الصباح، ذهب مع اللواءين الأولين والإبل وبضع قطع المدفعية الجبلية للوصول بسرعة إلى هذه المدينة. غادر بقية الجيش والسيارات تحت قيادة اللواء دارلانج، مع الأمر بمتابعة نفس الاتجاه إذا سمحت صعوبات الطريق بذلك. تم التخمين أن يصل هذا اللواء إلى معسكر بعد يومين من وصول اللواءين الأولين.

وفي أعالي عين كبيرة، من الشرق إلى الغرب، توجد هضبة واسعة تمتد حتى معسكر، تتخللها أخاديد غير عميقة تصب في سهل غريس. توجد في بدايتها قرية كبيرة، أو بالأحرى بلدة صغيرة، تدعى البرج. فتقدم شيخ

هذه البلدة بنفسه إلى المشير ليعلن أن سكانها لن يحملوا السلاح ضدنا إذا سلمت بلدتهم من أيدينا، فأعطوا وعدا بذلك. أعلن المشير للشيخ وللعرب الذين رافقوه أنه سيعطي 30000 فرنك لأولئك الذين يسلمو عبد القادر، لكن ذلك لم يؤثر عليهم. وفي ذلك الحين، ترددت شائعات أن الأمير كان ينتظرنا في عين الفرس، على طريق معسكر، على بعد ميلين من البرج، ولكن عند الوصول إلى ذلك المكان، لم نجد سوى يهوديا من معسكر فقط، الذي قال أن عبد القادر قد غادر المدينة مع السكان المسلمين بأكملهم، وما بقي فيها سوى اليهود الذين نُهبت أملاكهم ونُكل بهم من قبل العرب في أثناء فوضى الإخلاء. عندما تلقى هذا الخبر، عجل المشير بقوات إبراهيم إلى الأمام، ثم تبعهم بنفسه على مسافة قصيرة مع عدد قليل من الجنود، وترك وراءه الألوية التي لم يكن في استطاعتها السير بسرعة. أصبح الطقس رديئا، والسير تحت المطر كان صعبا للغاية. وصلت القيادة العامة، وحدها تقريبا، في بداية الليل إلى معسكر، وكانت تستطيع مجموعة من 300 فارس اختطافهم وتسليم كل من قائد الجيش الفرنسي و ولي العهد المفترض لعبد القادر. لم تصل الألوية إلا بعد ساعتين.

استقرت قيادة أركان الجيش والزواف والمدفعية وبعض الفصائل في المدينة، واحتلت بقية الجيش الضواحي، بينما أقام ولي العهد والمشير معا في بيت عبد القادر. تم العثور في المنازل كلها تقريبا على كميات من الحبوب

والأمتعة، وحتى بعض المؤن الأخرى، وكانت العديد من الحدائق المحيطة بمعسكر تزخر بالخضر. وبعد يوم من وصولنا، جلب الفلاحون العرب الثيران، بأعداد صغيرة. هذا صحيح، ولكن ذلك كان بداية التسوق. كان يمكننا أن نبقى شهرا في معسكر دون استنفاد مواردها. وكان عبد القادر قد رحل إلى كاشيرو، على بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب، مع السكان الهاربين.

وفي يوم 7، كان الجيش يعتقد أنه أتى إلى معسكر ليضع سلطة جديدة محل سلطة عبد القادر، ولكن فوجئ عندما علم أنه سيغادر في اليوم التالي. فمن الصعب أن نقول ماذا حمل المشير على استعجال التراجع، دون أن يحاول جمع الناس حول الباي الذي عيّنه. كنا نعرف أن قبائل الشلف وفليتة والبعض الآخر لا تؤيد الأمير. ولو بقينا بعض الوقت في معسكر، كان يمكننا أن نقدم لهم الخيار في أن يقرروا، وخاصة لو حاولنا الدخول في مفاوضات معهم. من جهته، أراد إبراهيم أن يضم إليه على الأقل الدواير والزمالة الذين كانوا لا يزالون مع الأمير، لكنه لم يحصل على تأجيل الرحيل حتى يوم 9 إلا بمشقة. وهذه الأربع وعشرين ساعة لم تُمكنه من شيء. أعطاه المشير خيارا : إما العودة إلى مستغانم أو البقاء في معسكر، في قلعة صغيرة، ولكنه فضل الخيار الأول.

وتساءل الجميع في المقر العام لماذا جئنا إلى معسكر، ولم يستطع أحد الإجابة عن هذا السؤال. لكن أخيرا أعلن أن معسكر موقع سيء للغاية،

دون تأثير على البلاد وحيث كان لا لزوم لوضع باي هناك، وبالتالي كان علينا حرقها لكيلا نتركها لعبد القادر. كان هذا تناقضا : لأنه إذا لم تكن هذه المدينة ذات أهمية، بماذا نكترث نحن إن احتلها الأمير؟

جاء هذا القرار يوم 8، وانتشرت الأخبار سريعا في الجيش، الأمر الذي أدى إلى فوضى كبيرة. ظن الجنود أن الشروع في التنفيذ كان فوريا، واضطررنا للمناداة إلى التجمع لاستعادة النظام العام في صفوف القوات. في اليوم نفسه أحرقت أبواب المدينة، وكذلك عربات المدفعية التي وجدت في معسكر، نحو عشرين، والحطب، والكبريت، والحبال... باختصار، كل ما تم العثور عليه في ترسانة عبد القادر.

في صباح يوم 9، غادر اليهود المدينة بحزن، وبالشيء القليل الذي بقي لهم، وتجمعوا في مقبرة الشرق على الطريق المؤدي إلى مستغانم، ثم أضرمنا النار في كل مكان. يبدو أن الجدران قاومت وحدها هذه النيران.

بسبب إهمال أركان الجيش، لم تكن الجمال المخصصة لنقل الذخيرة في مكانها، لذلك اضطررنا لترك 000 150 خرطوشا تلتهمها النار.

انسحب الجيش بعد ذلك، سائقا السكان اليهود أمامه، وتاركا الأنقاض وراءه. الدخان الكثيف، مدفوعا بالرياح الغربية، تابع الجيش طويلا، مثل الندم الطويل الذي ترسله الهمجية إلى الحضارة.

أمضى المشير الليل مع كتيبته في قرية البرج التي هجرها سكانها. في يوم 10، اجتزنا الجبال في المطر الغزير والضباب الكثيف الذي لم يسمح لنا أن نرى أين نضع أقدامنا. في كل لحظة كانت الخيول والجمال خاصة تهوي إلى المسايل وترتطم بالصخور. كان اليهود يزحفون في الوحل أكثر مما كانوا يمشون، ووجدنا بعض الصعوبة في تمييز أشكالهم. هلك العديد منهم من البؤس والبرد والتعب. أظهرت قواتنا مشاعر العطف والكرم أكثر من المعتاد(1) وجمعت الأطفال المتخلى عنهم.

يوم 10 في المساء وصلنا إلى المرابط سيدي إبراهيم حيث تم تجميع الجيش بكامله.

كان اللواء دارلانج، كما رأينا، في الجبال مع السيارات، في حين كان المشير يهاجم معسكر. في اليوم الأول من الانفصال، عمل المهندسون بجد على إصلاح جميع السيارات باستثناء عربة الأعلاف التي اضطررنا للتخلي عنها، فوصلت كلها على هضبة عين كبيرة. في اليوم التالي 7، وصلنا إلى مشارف البرج. لما كانت الخيول تفتقد العلف، أردنا شراءه على السكان الذين رفضوا بكل وقاحة أن يبيعوه لنا، فقرر المشير احتلال القرية، وأخذ ما يحتاجه.

يوم 8، بعث له المشير، عن طريق مرسول عربي الأمر بالرجوع إلى سيدي

(1) رأيت أحد قناصي إفريقيا يحمل على جواده طفلين صغيرين، حتى أنه كان يمضغ البسكوت ثم يضعه في فمهما ليطعمهما.

إبراهيم. أجريت هذه الحركة في يومي 9 و 10، يوم جمع الجيش. عانت ألوية اللواء دارلانج الكثير من المطر والجوع خلال هذه الأيام الأربعة. عند الانطلاق من وهران أُعطي لكل رجل كيس صغير من المئونة لمدة خمسة أيام، مع التوصية للحفاظ عليها لوقت الشدة.

لم تحارب الألوية الأولى في طريقها من معسكر إلى سيدي إبراهيم، لأنه لا يمكن أن نسمي قتالا تلك الطلقات النارية القليلة في مؤخرة الجيش. أما ألوية دارلانج فتبادلت مرارا وتكرارا إطلاق النار، وأحيانا بشدة، مع حوالي ألف من العرب.

يوم 11، نزل الجيش بأكمله إلى السهل وعسكر في موقع اسمه مسرى، على أراضي مجار. حدث أيضا تبادل لإطلاق النار ذلك اليوم. يوم 12، وصل الجيش إلى مستغانم، حيث أبحر في السفينة الدوق دي أورليان.

قرر المشير إتمام هذه الحملة، مع استعداده لإغاثة مصطفى بن اسماعيل وحامية المشوار في تلمسان عن قريب. تم شحن المعدات إلى وهران، حيث وصلت الألوية عن طريق البر، من 16 إلى 21. أما اليهود، فاقتسموا بين وهران ومستغانم، وساعدهم بسخاء إخوانهم في الدين.

ترك إبراهيم في مستغانم مع الأتراك. لم يستطع المشير استبداله مكان عبد القادر، فرغب في محو الفشل السياسي لحملة معسكر بوهميات، فوقّع

مرسوما في هذه المدينة يُقسّم إلى ثلاث بيالك محافظة وهران، وهي: بايلك تلمسان، بايلك الشلف وبايلك مستغانم. يمكن تطبيق هذا النظام على بلاد فارس أو أي دولة أخرى، ولكن ليس على الجزائر. يجب على السلطات تجنب مثل هذه التصرفات التي لا تخدع أحدا.

في 18 ديسمبر، عاد المشير كلوزل إلى وهران، وقد ركبت البحر الكتيبة الثانية الخفيفة، منقوصة من فرق النخبة، متجهة نحو الجزائر، لتحل محل الكتيبة 10 الخفيفة التي عادت إلى فرنسا في فبراير.

الكتاب 18

أحداث وقعت في الجزائر خلال بعثة معسكر. ـ المفاوضات مع عبد القادر. ـ المشير كلوزل يسير نحو تلمسان. ـ دخول الفرنسيين إلى المدينة. ـ مساهمة تلمسان. ـ احتلال المشوار. ـ قتال في الطافنا. ـ دخول القوات الفرنسية إلى وهران وعودة المشير إلى الجزائر ـ حملات اللواء بيريغو في محافظة وهران.

بينما كان اهتمام الرأي العام منصبا على محافظة وهران، كانت الجزائر العاصمة مسرحا لبعض الأحداث ذات أهمية ثانوية، ولكنها مع ذلك ينبغي أن تذكر. عُزز الحجوطيون ببعض المهاجرين من القبائل التي رضخت لنا، مما جعل توغلاتهم مستمرة في المناطق الداخلية من خطوطنا، وكانوا

يضايقون باستمرار اتصالاتنا، فسار ضدهم طابور من المشاة والفرسان تحت قيادة السيد ماري، ليلة 27 إلى 28 نوفمبر. فاجأ قريتين عربيتين مجاورتين للقليعة، شعبية ودواودة، وغنم منهما.

بعد يومين، توغل الحاج الصغير، باي مليانة، في الساحل مع 600 فارس. تموقع في المرابط سيدي عبد المومن، غير بعيد عن معالمة، وسار على القرية العربية الدويرة بنصف جنوده. قامت هذه المفرزة بنهب الماشية وسرقة الناس في طريقها. ناقوس الخطر سرعان ما دق وانتشر الخبر إلى المخيم. في حين اخذ المشاة السلاح [1]، كان الفرسان، المتكونين من سرب واحد لقناصي أفريقيا وبعض السبائس،قد ركبوا الخيل وساروا بسرعة نحو العدو. النقيب دو سينتي، الذي قاد الفرسان، قسمهم إلى مجموعتين: الأول سار مباشرة على الحجوطيين والآخر ناور لقطع تراجعهم. هذه الحركة المزدوجة نجحت تماما.

لما رأى الحجوطيون أنفسهم أنهم هوجموا من الأمام ورغم كثرتهم فزعوا وتخلوا عن غنائمهم واندحروا. قتلنا لهم عشرين رجلا، بينما تراجع الباقي إلى احتياطي الحاج الصغير،الذي عاد لتوه إلى مليانة عندما شعر بهزيمته.

---

(1) مخيم الدويرة واسع جدا ويستغرق وقتا طويلا لتفقد وحدات القوات المختلفة، المفصولة بفجوات كبيرة وغير ضرورية. وكان الفرسان، الذين يقع مقرهم بالقرب من القرية، قد لاحظوا العدو قبل قائد المعسكر. لما كان الخطر محدقا، قرر القائد دو سينتي بإخراج الفرسان ولم ينتظر الأمر بالهجوم على العدو. السيد فرجي، وهو ملازم أول عند السبايس، هو الذي شاهد الحجوطيين قادمين، وقام بإنذار المعسكر. تصرف هذا الضابط بكل شجاعة أثناء القتال و قُتل جواده تحته.

وكان الصراع حول المخيم قد انتهى عندما وصل مشاة معسكر الدويرة إلى أرض المعركة. السيد القائد دو سينتي، الذي قاد الهجوم بذكاء وشجاعة، هو نفسه الذي قتل، لما كان برتبة ملازم، خلال تمرد 1832، قايد بني موسى بن أوشفون. ففي الوقت الذي سارت المفرزة الأولى للحاج الصغير نحو الدويرة، توجهت مفرزة أقل عددا نحو أولاد منديل، لكنها صُدت من قبل فرقتي الانضباط التي كانتا تسهران على أعمال الطريق.

في 31 ديسمبر، أمر اللواءُ راباتيل اللواءَ دي ميشيل أن يسير ضد الحجوطيين، الهائجين دائما والذين لا يشعرون بالإحباط إطلاقا. أخذ معه قوات كبيرة، تتألف من جميع الفرسان، وجزء من الكتيبة الخفيفة العاشرة، وكتيبة إفريقيا الثالثة، وفصائل الزواف التي بقيت في الجزائر، وبعض فصائل الانضباط. انطلق هذا الطابور من بوفاريك على الساعة الثامنة صباحا، متجها نحو غابة خرايسية، الملجأ العادي للحجوطيين. فاجأت عند الفجر العرب الذين كانوا هناك، واستولت على عدد كبير من الماشية، بعد معركة قصيرة حيث خسرت القليل من الرجال. بعد ذلك، أراد اللواء دي ميشيل العودة من طريق القليعة ومقطع خيرة، ولكنه تاه في الأدغال وتعذر عليه العثور على الطريق الصحيح. بعدما بحث عنه طويلا، قرر الرجوع من طريق بوفاريك. ذهب لينام بين الشفة

وهذا المعسكر لأنه مشى أربع وعشرين ساعة من دون انقطاع تقريبا. في 2 يناير، عاد إلى بوفاريك. لكن عندما غادر المخيم حيث أمضى ليلته، جاء بعض العرب لتبادل إطلاق النار مع مؤخرة جيشه، فجلب معه نصف الغنائم فقط، لأنه فقد الباقي في الغابة، وسقط أربعة متقاعصين أحياء في أيدي العدو.

كانت هذه الحملة، مثل كثير من الأخريات، دون جدوى. لم تُثن عزيمة الحجوطيين، بل أصبح هؤلاء أكثر شدة، ولكن أدخلوا في الحرب مبدأ الإنسانية، وقد كان غير معروف حتى الآن عند العرب في تعاملاتهم معنا؛ أصبح لديهم سجناء. هذا التحسن في الأخلاق العربية الذي يزداد يوميا كان يجب أن يلاحظ.

مبدأ اتخاذ السجناء كان أول تنازل من الحروب للإنسانية. وأخيرا، بقبول من كلا الجانبين، حدث تبادل السجناء. حصل التبادل الأول لفائدة المرابط سيدي يحيى الحبشي، الذي أبدل مع أسرته مقابل السجناء الأربعة الفرنسيين الذين قُبض عليهم في حملة اللواء دي ميشيل وأربعة أوروبيين من غيرهم قُبض عليهم في ظروف مختلفة. لم يمكن لسيدي يحيى العودة إلى دياره، فذهب إلى مليانة، مع شقيقه، وانظما إلى عبد القادر.

وقد عاد هذا الأخير، بعد أيام قليلة من رحيل الفرنسيين، إلى معسكر ومعه السكان المسلمون. كانت النيران قد انطفأت بعد نزول المطر ولم تخلف

خسائر كبيرة كما كنا نعتقد، بل توجد ضاحيتان لم تمسهما النار قط، وهما عين البيضاء، أين أقامت أسرة عبد القادر، وعقوب اسماعيل. هذا الأخير كان محتلا من طرف الدواير والزمالة، الذين كان لديهم أقارب يسكونته. أما عين البيضاء، فقد احتلته كتيبة بيريغو. حالما عاد الأمير إلى معسكر، قصد بني شغران الذين بدوا على استعداد للقطيعة معه، ولكن سرعته وحزمه أبقاهم تحت هيمنته. عندئذ جنّد رجالا من هذه القبيلة ووضعهم تحت قيادة الشاذلي، قايد بني شغران، ووجههم إلى مدينة صغيرة، القلعة، للقبض على بعض السكان الذين رغبوا في الالتحاق بنا. كان الشاذلي رجلا مرهفا وماكرا. ففي محاولة لكسب أصدقاء في جميع الأطراف، بعث سرّا إلى هؤلاء الرجال المزمع القبض عليهم وأخبرهم بذلك. عندما وصل إلى القلعة لم يجدهم، لأنهم هربوا إلى الجبال. من هناك ذهبوا إلى مستغانم، عند الباي إبراهيم، أين لم يتوانوا في مدح الشاذلي. هذا القايد، بعدما تلقى من سكان القلعة ولاءهم لعبد القادر، عاد إلى جانب الأمير الذي استقر على الهبرة مع نحو ألفين من الفرسان وسبعمائة من المشاة. كان يؤثر من هناك على القبائل لإبقائهم في طاعته.

ومع ذلك، شهد عبد القادر ردة أحد رجاله، وكانت حساسة للغاية، لكنها جاءت إثر خطأ. ذلك الرجل هو المزاري، أحد آغاته. هو ابن شقيق مصطفى بن إسماعيل. كان عدوا للأمير، ولكن قضى معه خمسة عشر شهرا

وخدمه بكل وفاء، وأصيب حتى في القتال في الهبرة. لكن، وكما في كثير من الأحيان، تجعل المصيبةُ الإنسانَ غير عادل. لذا، بعد انهزاماته المتابعة، أظهر الأمير شيئا من عدم الثقة للمزاري، ما ولّد عند هذا الأخير خشية مبررة، وربما واستفاقت عنده الأضغان القديمة.

تبعا لذلك اتصل المزاري سرا بالباي إبراهيم، ولما تأكد أنه سيُرحب به، لجأ إلى مستغانم، رفقة جزء من الدواير والزمالة الذين ضلوا أوفياء لعبد القادر بعد التمرد الثاني لقبائلهم. لما علم المشير بهذا الأمر الذي لم يكن هينا، أرسل له النقيب جوزيف ليطمئنه بحسن نيته ويأتي به إلى وهران، ورافقه عندئذ الباي إبراهيم وقدور المرفي، القايد السابق لبورجيا، الذي كان قد تخلى أيضا عن الأمير رفقة عدد قليل من رجال فصيلته. رحب المشير بالمزاري ومنح له راتبا وعينه برتبة ملازم للباي إبراهيم، وكذا آغا سهل وهران.

ارتد ضابطان آخران عن الأمير، القايد ذو المظلة [1] وابن الأغا، الحاج بوعلام، وذهبا إلى وهران أيضا ليرضخوا للفائز، ولكن نيتهما بدت مشبوهة، وكانا على وشك أن يقبض عليهما عندما أعلنا، كما لو كانا يريدان أن يبرهنا على أنهما منشقان حقيقيان وليسا بجواسيس، أنهما قتلا قاضي معسكر، عدوهما الشخصي، في فوضى إخلاء تلك المدينة. وبما أن هذه الجريمة كانت معروفة، لا يمكنهما التفكير في العودة إلى الأمير. ثم تُركا بعد ذلك أحرارا، لكنهما كان يُنظر إليهما باحتقار كمجرمَيْن. ولكن اتهما أنفسهما زورا، لأنهما

(1) كان من أول الضباط من بيت الأمير. كان يحمل مضلته الشمسية وكان يمشي دائما بالقرب منه.

في اليوم التالي اختفيا وذهبا دون شك عند عبد القادر ليطلعانه على ما رأيا وسمعا في وهران.

كتب ابني سيدي العريبي في نفس الوقت تقريبا لإبراهيم باي أنهما على استعداد للاعتراف به، لكنهما لم يظهرا أي عداوة للأمير. هذا الأخير لم ينزعج للمراسلات التي تتفاوت في الأهمية والتي كانت تتبادلها القبائل البعيدة مع أعدائه، بحيث كان يعلم أن الأهم هو منع القبائل القريبة من وهران من الانضمام إلى المزاري، إذا خاطرتهم الفكرة، مشكلين بذلك نواة للمقاومة العربية لسلطته. ونتيجة لذلك، نقل معسكره إلى سهل المليطا. في يوم 28 ديسمبر، هاجم الدواير والزمالة الموالين لنا على بعد مسافة قصيرة من وهران، وقتل لهم أناسا واستولى على الكثير من الماشية. جاءت بعض القوات من وهران لمساعدة حلفائنا، ولكنها وصلت بعد فوات الأوان. يومين بعد ذلك، كتب الأمير إلى القبيلتين، اللتان كانتا حتما مرعوبتين من الهجوم الذي شنه عليهما، وحثهما على العودة إلى عِقده. أكّد لهما صداقته، مبرهنا بذلك أنه ليس هو الذي هاجمهما يوم 28، ولكن بني عامر، الذين تصرفوا دون أوامر. سُلِّمت هذه الرسالة إلى المزاري الذي أرسلها لبني عامر، على أمل أن يفسد علاقتهم بعبد القادر، ولكن لم يحدث ذلك.

على الرغم من أن الدواير والزمالة لم يُظهروا استعدادهم للانضمام إلى عِقد الأمير، لم يكونوا مرتبطين بالباي إبراهيم. جاءوا في يوم من الأيام

يطلبون من المشير أ يضع محله رجلا يُدعى مصطفى بن عثمان، الذي كان والده باي وهران تحت الأتراك. دون أن يأخذ طلبهم على محمل الجد، رد المشير أن تنصيب باي جديد يتطلب تكلفة كبيرة، فإنه بذلك لن يغيره إلا إذا وافقوا على دفع هذه التكاليف. منذ ذلك الحين، سكتوا عن مطلبهم ولم يفكروا قط في مصطفى.

ومع ذلك، منذ عودته من معسكر شرع المشير كلوزل في الاستعدادات للحملة التي خطط لها على تلمسان. فبطؤها أثبت من جديد أن الاحتياجات الهائلة للجيوش المتحضرة تعطيها الأفضلية على الجيوش الهمجية، لم تجده هذه من سرعة وسهولة الحركة. من جهته، عاد عبد القادر إلى حملته منذ خمسة عشر يوما، على الرغم من خسائره، وكان على أبواب وهران، بينما لم يكن الجيش الفرنسي قادرا على الخروج. تعب المشير من هذا التأخير، وأقدم أكثر من مرة على التخلي عن الحملة. في واحدة من لحظات الحرج تلك، سمح لليهودي دوران، شقيق رجل الثقة للكونت درلون، بمراسلة الأمير لتحقيق الهدنة على أساس الولاء لفرنسا. أجاب عبد القادر أنه قبل أن يعترف بالسيادة عليه ، يريد أن يعرف ما هي المكانة والضمانات التي ستُعطى له. ما لبث دوران أن يُعلم المشير بهذه الإجابة، فسلمه هذا الأخير تصريح أمان لميلود بن عراش،

وكلفه أن يكتب للأمير أن يبعث بن عراش إلى وهران للنقاش معه في كل هذه الأمور عندما وصلت الرسالة الثانية إلى مُعسكر الأمير،كان ميلود قد غادر إلى مدينة معسكر، وكان عبد القادر يُعدّ للخروج في مسيرة إلى تلمسان لمحاربة رجال أنجاد الذين كانوا يسعون لفتح المشوار. كتب لدوران قائلا ان هذا الحادث لا يجب أن يوقف المفاوضات، ولكنه مضطر لمنع أعدائه من تحقيق مشروعهم، لأنه إن كان خلاف ذلك سيتغير موقفه، وبالتالي تكون الشروط التي تقدم له أكثر صعوبة.

رجال أنجاد، من حزب الغوماري، وتحت قيادة الابن البكر لهذا الشيخ، اقتربوا بالفعل من تلمسان، لكن عبد القادر سار بخفة وسبقهم تحت أسوار المدينة. وكان مصطفى بن إسماعيل وجزء من كولوغلي المشوار قد خرجوا من مواقعهم بكل تهور لملاقاة رجال أنجاد، فانقض الأمير عليهم، وقتل البعض منهم ودفع بالبقية إلى المشوار. وعلى الفور غير اتجاهه وسار نحو رجال أنجاد فهزمهم، وأُصيب الشاب الغوماري بجروح خطيرة.

لكن، بعد أن علم المشير بأحداث تلمسان، ولما رأى أن الأعمال التحضيرية للحملة انتهت أخيرا، تخلى عن طريق المفاوضات، وخرج من وهران يوم 8 يناير على رأس 7500 رجل مشكلين ثلاثة ألوية [1].

(1) رواية حملة تلمسان، كما سنقرؤه، نُشرت في الجرائد عام 1836. الشيء نفسه بالنسبة لحملة اللواء بيريغو إلى الشلف، وكل الحملات الصغيرة الأخرى التي حدثت في نفس الفترة في الجزائر.

تم التشكيل الأول، بقيادة اللواء بيريغو، من فوج 21 لقناصي إفريقيا، الزواف، فصيلتين من النقابين، كتيبة النخبة [1]، الخفيف 17، والدواير والزمالة و 2 من قذافي الجبال.

التشكيل الثاني، بقيادة اللواء دارلانج،مكون من كتيبة إفريقيا الأول، فوج الخط 66، و 2 من قذافي الجبال.

أما الثالث فيتألف من فوج الخط 11، تحت قيادة العقيد فيلمورين، و 2 من قذافي الجبال اللذان التحقا بهذا اللواء.

يوم غادر الجيش، قضى الليلة في بريدية، ويوم 9 على ضفاف واد مالح أو ريو سالادو، في المكان الذي قُتل فيه بربروس من قبل الإسبان في 1517. وصل الجيش إلى واد سنان يوم 10 وقضى الليلة هناك. في يوم 11، بات في عين البريج، حيث توجد الكثير من الآثار الرومانية. ابتعد اللواء الأول بثلاث أميال وعسكر على ضفاف واد يسر،نهر كبير، مقارنة بوديان هذه البلاد. يوم 12، عسكر الجيش كله على ضفاف واد أميغر.

في الليل، تلقى المشير رسالة من مصطفى بن إسماعيل يعْلمهُ فيها أن الأمير والحضرة (سكان المدينة) أخلوا المدينة، وعسكروا على جبل عشوبة، على ميل ونصف شرق تلمسان.

(1) تكونت هذه الكتيبة من أربع فصائل من النخبة للواء الثاني الخفيف ومن ثلاث فصائل النخبة أتت من الجزائر.

يوم 13، غادر الجيش واد أميغر عند الفجر. بعد بضع ساعات من السير، نزل إلى سهل تلمسان الجميل. جاء مصطفى بن إسماعيل لملاقاة المشير، وكان له حديث طويل معه. هذه المقابلة بين محاربين اثنين، كلاهما في أوج عطائهما، وكلاهما شهير في وطنه، قدمت للجيش عرضا لا يفتقر للعظمة [1].

دخلت القوات الفرنسية إلى تلمسان على الساعة الواحدة. وصل أول لواء من طريق معسكر، وقد تلقى أمرا بالسير إلى أقصى اليسار في مطاردته لبعض فرسان عبد القادر الذين كانوا في هذا الاتجاه، لكنه لم يستطع الوصول إليهم.

وقع احتلال تلمسان بنظام كبير. كانت المدينة مهجورة، باستثناء منطقة المشوار المأهولة بالكلوغلي واليهود، ولكنه وجد فيها وفرة الموارد الغذائية، لأن السكان قد سارعوا في الهروب، ولم يكن لهم الوقت ولا الوسائل ليأخذوا كل شيء. يوجد عدد كبير من المطاحن داخل وخارج المدينة، والتي أعيد تشغيلها، ووزعت المئونة على الجند بانتظام.

يوم 15 جانفي، أمر المشير بالسير نحو موقع عبد القادر اللواء الأول والثاني، وفرسان مصطفى والمزاري، وكذا الأتراك والكولوغلي الذين

(1) مصطفى بن إسماعيل رجل فاضل وبارز، من أصل تركي أكثر منه عربي، لهذا السبب لا يؤثر كثيرا على السكان الذين يرون فيه رمزا حيا لنظام قد كرهوه.

جدد تسليحهم في الليلة التي مضت [1]. عند اقتراب هذه الجيوش التي كانت تناور لاحتوائه، ابتعد الأمير بسرعة. أربعون أو خمسون من أتباعه سقطوا بين أيدي معاونينا الذين قتّلوهم.

في الليلة الموالية، جاء سيدي حمادي بن سقال، القايد السابق لتلمسان، رفقة السكان الهاربين، ليسلم نفسه للواء بيريغو، الذي كان يعسكر في قرية إيدر.

اللواء الذي كان يقوده دارلانج ناور في السهل ليقطع عل الأمير طريق معسكر، وبات تلك الليلة في مولاي حلو،على بعد ميلين من تلمسان.

يوم 16، لّمت ألوية الحملة أيضا بعض الهاربين في خوانق الجبال، لكننا فقدنا الأمل بالالتحاق بعبد القادر وبن نونة، قايد تلمسان، الذين أوشكنا أن ندركهم في الليلة التي مضت. يوم 17، عادت الألوية إلى تلمسان، مصاحبة معها حوالي 2000 شخصا، أغلبيتهم من النساء والأطفال، مع القليل من الرجال.

فقد عبد القادر في هذه الحملة جزءا مهمّا من أمتعته، وبعض الخيول وراية استولى عليها فارس شجاع من الزمالة،، اسمه محمد بن قدور. لم يمكث قرب تلمسان إلاّ لاعتقاده أن القوات الفرنسية لن تقيم فيها

(1) في الاستعراض الذي قام به بهذه المناسبة قائد الأركان، تأكد من وجود 775 تركيا أو كولوغليا قادرين على حمل السلاح. من بين هذا العدد الذي يمثل الكولوغلي أكثر منه من الأتراك، 343 لم يكونوا مسلحين. هذا يعني أن 420 رجلا حرسوا المشوار مدة 5 سنوات.

طويلا،كما فعلت في معسكر، غير أن المشير كانت لديه مشاريع أخرى في تلك الآونة.

لم ير الجيش منذ انطلاقه من وهران إلا بلدا حزينا ومملا، إلا أن ضواحي تلمسان أهدته مشاهد خلابة. لا يوجد أي مكان في هذه البلاد أين تنمو النباتات بهذه النضارة. يوجد شمال الهضبة التي شيدت عليها المدينة سهل شاسع وجميل ومزروع. يحمي المدينة من ريح الجنوب جبٌ مرتفع، تكسوه الثلوج أحيانا في فصل الشتاء. الماء متوفر، بينما الأرض خصبة. يُبرز الجبل عدة نتوءات، تشكل عددا من الطوابق مكونة من تربة أين تنبت نباتات أوروبية وأخرى إفريقية، مختلطة، متفرقة، مختلطة من جديد، حسب الارتفاع وهيئة المكان. تنحدر الجداول من طابق لآخر، وتحيي كل شيء في طريقها، تنبعث منها الحيوية والفرحة. على بعد ربع ميل شرق المدينة، توجد قرية سيدي بومدين الجميلة، وعلى بعد ميل إلى الجنوب قرية عين الحوت. إلى الغرب من تلمسان، يتمتع المتجول بآثار المنصورة. هي قلعة محصنة قديمة، توجد في وسطها بقايا مسجد كان يبدو عظيما. لم تكن المنصورة سوى مُعسكر محصن شيده إمبراطور مغربي جاء دون جدوى يحاصر تلمسان.

يوجد المشوار [1] أو القلعة في جنوب المدينة ومتصل بأسوارها. هو موقع لا يفيد للدفاع إلا ضد العرب، لأن أي مدفعية أوربية تُسقطه في بضع ساعات.

كانت تلمسان عاصمة مملكة عظيمة، فاحتفظت ببعض آثار مجدها القديم قائمة بكل شموخ في وسط حدائقها الخلابة وغابات الزيتون الضخمة، تظهر لنا تلمسان بيوتها العربية التي لا ينالها القِدم رغم تساقطها والمبنية على أسس المنازل الرومانية.

تشبه في ذلك الشعب الماهر الذي جعلها مزدهرة، فهي قادرة على الاستيقاظ من سباتها العميق. لكن الاحتكاك بنا، والذي يجب أن يعطي الحياة أينما حدث، كان بمثابة الكارثة لها.

رؤية هذا البلد الجميل الذي احتلته القوات الفرنسية بهذه السهولة هيج مخيلة المشير كلوزل. حدث نفسه أن هذه المنطقة من البلاد ستصبح من أغنى مناطق العالم تحت رعاية إدارة كفئة. لما أقنع نفسه أن هذا الأمر قد تم، ظن أن أهالي تلمسان الحزينين والمجروحين أناس ذوي ثروات كبيرة. أخذت هنا أفكاره اتجاها ساخطا، ففرضت ضريبة على السكان لم يعلن عن قيمتها.

كان هدفها بداية رد الأموال التي صرفت أثناء هذه الحملة، ثم النفقة

(1) كلمة مشوار تعني مجلس الشيوخ. لما يطلق على مبنى، فمعناه الكلمة اللاتينية كوريا Curia.

على 500 جندي عزم المشير أن يتركهم في المشوار، ومكافأة للجنود الذين شاركوا في الحملة. طُبق هذا الإجراء على الكولوغلي خاصة، لكن لما أعلنوا أنه يستحيل عليهم تلبية كل هذه النفقات، لأنهم صرفوا من أموالهم الخاصة طيلة ستة سنوات [1] وقد أرهقهم ذلك، سُجن أعيانهم. لقي اليهود نفس المعاملة.

(1) هاهي الرسالة التي كتبها للمشير كلوزل بالمناسبة مصطفى بن إسماعيل، باسم الأتراك والكولوغلي :

"نحن رعاياك، أطفالك أيها الأمير. لمدة ست سنوات ونحن في حالة حرب ضد العرب في المدينة وما جاورها. جئت بجيشك المنتصر فهاجم وصد أعدائنا الظالمين. وتسألنا عن تسديد النفقات التي بُذلت من قبل جيشك منذ وصوله من فرنسا: لا نطيق هذا الطلب بالنسبة إلى مواردنا، بل لعله أكبر من قدرتنا لدفع جزء من هذه النفقات. وبناء عليه، فإننا نناشد رحمتك ومشاعرك الجيدة تجاهنا نحن، أطفالك، والذين لا يستطيعون تحمل هذا العبء، لأنه لا يوجد بيننا لا أغنياء ولاتجار، ولكن الضعفاء والفقراء. نحن جميعا ندرك الخدمة التي قدمتها لنا، ونحن ندعو الله أن يجزيك. فيما يخصنا، سنقدم كل ما لدينا، وهذا هو القول: المنازل التي نعيش فيها، المنازل الريفية وغيرها من المباني التي لدينا. يرجى أن تعطينا مهلة، لأننا رعاياك وأولادك، وأنت سلطاننا، ونحن لدينا فقط الله وأنت لدعمنا. نحن تحت أوامرك وعلى استعداد لنتبعك كجنود حيثما تريد."

أحد يهود وهران، المدعو لاصري، الذي تبع المشير وكان حافظ أسراره، الرائد جوزاف والمدعو مصطفى بن مقلش، ابن باي سابق، هم الذين كُلفوا بجباية هذه الضريبة.

تبرر الحرب أحيانا أشياء، لكن سخط بريتوس لم يكن له أن يصيب الأحباب والحلفاء [1].

في الوقت الذي كان عماله منهمكين في إدخال الجباية، كان المشير ينظم في كتيبة المتطوعين الذين سيشكلون حامية المشوار. شغل

---

(1) وجاء في كتيب مجهول، وزع على المجلسين في عام 1836، انه قبل عدة اشهر من حملة تلمسان ان اتراك وكولوغلي المشوار، الذين كانوا حريصين على ان يشرع فيها، كانوا قد كتبوا إلى المشير كلوزل انهم سيتكفلوا بدفع تكاليفها. هذا خطأ، لم يكتب أحد شيئا من هذا القبيل. لذلك لم يشر السيد كلوزل لهذا في "التفسيرات" التي نشرت في 1837. وعلاوة على ذلك، فإنه ليس من الضروري اللجوء لهذا لإثبات حق القائد العام لجباية الضرائب في بلاد مغزوة. على ما أعرف، لم ينكر اي احد على المشير كلوزل هذا الحق. قلنا فقط انه لم يستخدمها استخداما سليما، وفي هذا كنا على حق. كان بالتأكيد تهورا وبخلا أن نبدأ في البلد الذي غزوناه بالضغط على الجزء من السكان الذين دعونا، خصوصا أن هذه الفئة من السكان كانت فقيرة. صحيح أن المشير كان في وهم كامل في هذا الصدد. لان هذا كان يعتقد في فقر الكلوغلي، فإنه على الأرجح لم يكن ليفكر في فرض الجباية عليهم، لأنه يقول لنا في تفسيراته، أنه أوصى الجباة ألا يجبوا إلا الأغنياء. في هذه التفسيرات، قال المشير أنه، نزولا عند رغبته، الإدارة الفرنسية كانت بعيدة تماما عن جباية الضريبة، وكان زعماء السكان الأصليين هم الوحيدون الذين تعاملوا معها.

الضباط وضباط الصف الذين انخرطوا في هذه الكتيبة وظائف تخول عادة لذوي الرتب العليا، فأعطاهم المشير عهدا أن يطلب لهم الرتب اللائقة بهذه الوظائف. أسندت قيادة هذه الكتيبة للنقيب كافينياك، من الهندسة، ضابط مُقدّر كثيرا في الجيش.

إقامة حامية في تلمسان أجبرت المشير في تأمين المواصلات بين هذه المدينة ووهران التي تبعد بأكثر من ثلاثين ميلا.

وقالت لجنة الميزانية في 1837 عن هذا في تقريرها أن الحكومة تعتقد أن الخطأ كان حيث وُضع العذر في الواقع، وفقا للوائح في هذا الموضوع، أفراد إدارة الجيش هم المسئولون عن ضرائب الحرب. ولكن، من ناحية أخرى، فإنه ليس صحيحا القول أن زعماء السكان الأصليين تصرفوا بمفردهم، بل الجباة الثلاثة الحقيقيون هم الذين ذكرنا أسماءهم: إنها حقيقة واضحة، والجيش كله يعلمها، ومن المستحيل انكارها على محمل الجد. نستطيع أن نطالع في ذلك تقرير اللجنة المشار إليها أعلاه، ولكن هؤلاء الثلاثة، الأول والثاني بالتأكيد لا يمكن اعتبارهم من زعماء السكان الأصليين لتلمسان. أما بالنسبة لمصطفى بن مقلش، فقد عين في 2 فبراير، بينما بدأت الجباية في 21 يناير مساهمة. لكن هذا ليس له أهمية قصوى.

إفريقيا بلاد استثنائية، إذن، فلكثر من أي مكان، يجب أن نأخذ بالمضمون أكثر منه بالشكل. في هذه الحالة كان المضمون إجراء سيئا وليس في محله، بغض النظر عن الشكل الذي أُدخل فيه. فُرضت أيضا ضريبة في قسنطينة، دون أن تتدخل الحكومة الفرنسية في التفاصيل، ولا أحد احتج على ذلك، لأن قسنطينة احتُلت بالهجوم الخاطف، ولم تكن في نفس الموقف الأخلاقي الذي كان فيه الأتراك والكلوغلي الذين لم يكونوا أعداء بل حلفاء.

ظن الأمير أن هذه الاتصالات ستمر عبر مصب الطافنا وجزيرة رشغون الصغيرة، مما يبقي سوى عشرة أميال برا، لأن المسافة الباقية ستكون في البحر.

بالتالي غادر المشير تلمسان يوم 25 جانفي رفقة الكتيبتين الأولى والثانية، وكذا بعض سرايا القناصين والمساعدين من السكان الأصليين، من أجل الاستطلاع على مجرى الطافنا وتشييد موقع محصن عند مصبه، ثم إقامة الاتصال مع رشغون. تُركت الكتيبة الأولى لحماية تلمسان. لم تنل هذه العملية النجاح المنتظر. وصلت فرقة الحملة إلى الرمشي، عند ملتقى الطافنا ويسر، دون أن يلتقي بالعدو. لكن قيل للمشير في الليل أن جيش عبد القادر يمكث في الخانق الذي يلي هذا المكان. بالفعل، أضواء كثيرة كشفت عن تواجد العدو على ضفتي الطافنا، ليلة 25 إلى 26، التي قضتها الفرقة بين الواديين.

في صباح يوم 26، أمر المشير كل قواته بعبور واد يسر، ما عدا كتيبة 11 للخط التي بقيت على الضفة اليسرى لحماية الأمتعة والمرضى الذين نقلوا إلى رشغون، ومن هناك إلى وهران. تلقى اللواء دارلانج، قائد اللواء الثاني، الأمر بتسلق المرتفعات مع الكتيبة الأولى الخفيفة لمشاة إفريقيا، المساعدين العرب تحت قيادة مصطفى، و 300 كولوغلي بقيادة

الرائد جوزيف. أقام العقيد دي غوي في أسفل المرتفعات مع الفرقة الثانية لقناصي إفريقيا والكتيبة 66 للخط لملاقاة العدو في السهل، عندما يطردهم اللواء دارلانج من مواقعهم. الكتيبة الثانية 66 للخط تموقعت بين العقيد دي غوي والأمتعة. هاهي الآن مواقع العدو : كان عبد القادر يستند إلى الجبل على اليمين مع 2000 فارس، بينما كان ألف من المشاة يتموقعون على مرتفع في أسفل الجبل، عند الدخول إلى السهل. أما قبايل ولهاصة، فكانوا يحتلون مرتفعات الضفة اليسرى للطافنا. بعض هؤلاء الفرسان عبروا الواد وتموقعوا في السهل، قبالة الفرقة 11 للخط. شكل العدو بهذه الطريقة نصف دائرة حول جيشنا.

بدأت المعركة على العاشرة صباحا. استهلها مصطفى بهجومه مع جنوده على قوات عبد القادر. كان الأمير تحت نيران مدفعية دارلانج، لهذا لم ينتظر خصمه أكثر فنزل إلى السهل. تفرق عنه جزء من جناحه الأيسر الذي صعد إلى المرتفعات ولم يشارك في المعركة. تشجع مصطفى بهذا الفوز الأول، وبمساندة الكولوغلي، أخذ بملاحقة الأمير. لكن عند الوصول إلى السهل، أدرك العدو العدد القليل من ملاحقيه، عاد على أدراجه وهمّ بطرد الأعوان نحو الجبال، إلا أن العقيد دي غوي هجم عليه بفوجه، المدعم بالكتيبة 66 للخط.

تصرفت السرية التركية لهذه الفرقة، تحت قيادة الملازم مسمر، بكل شجاعة في هذا الظرف، بينما قتل الرقيب محمد سليمان ثلاثة فرسان من جيش عبد القادر، ولذلك رقي إلى رتبة رقيب أول في أرض المعركة. وجد الأمير بعض الصعوبات لعبور الطافنا من جديد، لأن العقيد دي غوي سار في ملاحقته معتليا الواد. أثناء ذلك، اعتلى المشير الواد من الضفة اليسرى، رفقة بعض الفرق من الكتيبة 66، مقتل العرب تحت نيران مدفعية الميدان. انتهت المعركة على الساعة الرابعة، واختفى العدو. جمع المشير قواته وبات تلك الليلة في الموقع الذي قضى فيه الليلة التي مضت.

خلال هذه العمليات، هوجمت الأمتعة بشدة، لكن رد فعل سرية واحدة، بقيادة القائد برنار، والمعززة بفرقة المقنبلين التابعة للكتيبة 11 للخط، بقيادة القائد ريبتر، كان كافيا لتفريق المهاجمين.

لم تكلفنا عملية 62 جانفي سوى 3 قتلى وبعض الجرحى. عند عودتهم إلى المُعسكر، كان الكولوغلي يحملون رؤوس العرب على حرباتهم. بعدما طلب منهم الفدية أولئك الذين جاؤوا لغوثهم، بدوا محبطين ويئسين، لكن دم أقدم أعدائهم محا في تلك اللحظة تذمرهم من حلفائهم المتلبسين.

أظهر العجوز مصطفى بن اسماعيل في هذه المعركة خبرته في الحرب وبسالة مفعمة بالحيوية، وكذا المزاري الذي تألق بشجاعته ومهارته. لاحق الملازم سافاريز أحد حاملي لواء الأمير، وأوشك أن يمسك به، إلا أنه هوى في مجرى الطافنا، من أعلى الهاوية التي تحد الواد. رغم ذلك، فقد استطاع أن ينقذ الراية، الذي استرجعها عربي نزل إلى الواد من منحدر سهل. الليلة التي تلت معركة يوم 26 كانت هادئة، وكانت أضواء العدو قليلة، مما كان يوحي أنه انسحب مرة أخرى. في صباح يوم 27 أراد المشير استطلاع مخنق الطافنا قبل الولوج فيه، فبعث بسرية استطلاعية كبيرة، لكن أثناء التحضير لإرسالها، وصل السيد دي منتوبان ، قائد الفرقة الثانية لقناصي إفريقيا، والذي أتى بالعلف، فأخبره أن طوابير عديدة من الفرسان والمشاة جاءت من الغرب وتسير تجاه معسكرنا. بعدما تأكد من صحة هذا التقرير، اتخذ المشير التدابير للقاء العدو، الذي كان يضم من 8000 إلى 10،000 رجل. غادرت القافلة السهل وتموقعت على هضبة تشرف على طريق تلمسان، إلى الخلف قليلا من وضعيتها الأولى، بينما احتل اللواءين المرتفعات على يمين ويسار هذا الطريق. مكث الفرسان في السهل، عند أسفل المرتفعات، ووضع الأعوان في الجناح الأيسر للمشاة الفرنسيين. لم تكد

هذه التحضيرات تنتهي حتى هاجم العدو الأعوان والفرسان.

انحدر الكولوغلي وتراجعوا نحو لواء دارلانج. حتى الفرسان اقتربوا من خطوطنا، ظنا منهم أن العدو كان ذو عدد كبير. بدأ إطلاق النار كثيفا على اليسار وفي الوسط، لكن لم يدم سوى بعض الدقائق، لأن العدو ما لبث أن يبدأ في إطلاق النار ثم الانسحاب بانتظام لكن بسرعة، دون أن يبرر ذلك تحرك للجيش الفرنسي، بل كان راجعا إلى الوصول المفاجئ للواء اللواء بيريغو الذي كاتبه المشير الليلة التي مضت. توغل هذا اللواء على يسار طريق تلمسان، وهب ضد مؤخرة العرب. لهذا السبب فضل عبد القادر الانسحاب، لكيلا يجد نفسه منحصرا بين جيشين. عسكر الأمير على بعد ميلين من معسكرنا، في اتجاه منبع الطافنا.

كانت معركة يوم 27 قصيرة ولم تكن دموية، لكن تركت لنا الانطباع السيئ أن عبد القادر لم يصب بالإحباط الذي كان من حقنا انتظاره. كان المشير يريد الهجوم عليه في معسكره يوم 28، وأمر بذلك في برنامج ذلك اليوم. كان علينا استعلاء الطافنا باتباع المرتفعات للوصول إلى موقع العدو، تاركين القافلة عند التلال والهجوم بكل القوى الأخرى على معسكر الأفارقة. لكن هذا المشروع لم يُنفذ، بسبب مصاعب

الطريق، ولأننا لاحظنا أيضا عند الإقتراب من عبد القادر أنه اختار موقعه جيدا ولن تكون لنا أي مقدرة على قطع الطريق عند تراجعه. عدل بالتالي المشير عن هذا الهجوم المقرر وعاد إلى تلمسان يوم 28 على الساعة الثامنة مساءا.

لما أدرك العدو انسحابنا أرسل ألفا من الفرسان الذين تبادلوا إطلاق النار مع مؤخرتنا. بعد نصف ساعة من إطلاق النار التافه، انسحب العدو محتفلا بطلاقات نارية ما كان يعتبره انتصارا. في الواقع، رغم أن العدو انهزم في معركتين، فقد أرغم المشير على العدول عن مشروعه إقامة الاتصال مع رشغون.

في هذه الأثناء، أرسل المقدم بوفور، الذي كان يحكم وهران في غياب اللواء دارلانج، زوارق إلى رشغون، بأمر من المشير[1]، محملة بالمعدات اللازمة لموقع الطافنا، لكن هذه الزوارق وصلت حين دخل الجيش عائدا إلى تلمسان. تواجد هذه الزوارق في هذه الأنحاء أثار مخاوف قبايل وهاصة، الذين كاتبوا المشير، بأسلوب يظهر علامات الولاء له. غير أن هذه الزوارق ما لبثت أن غادرت المكان، فلم يرسل القبايل أي رسالة أخرى.

كنا نطمع أن تعترف بالسلطة الفرنسية قبائل بني ورنيد والكروسل

(1) كانت الاتصالات بين وهران وتلمسان تتم عن طريق مراسلين عرب، كانوا لا يسافرون إلا بالليل مع كل المخاطر التي كانت تحيط بهم

والحواسن وقبائل أخرى من ضواحي تلمسان، وحتى قبيلة بني عامر، لكن كان علينا التخلي عن هذا الأمل، بعدما هوجم العديد من مواقعنا المتقدمة، مما أكد للمشير أنه لا يزال محاطا بالأعداء. من الوهلة الأولى أين أظهرت هذه القبائل رغبتها لموالاتنا تسرعنا إلى مصادرة خيولهم، مما أدى بهم إلى الابتعاد عنا. ارتكبنا نفس الأخطاء مع رجال أنجاد الذين جاءوا ليعرّفوا المشير بشيخهم، طفل صغير، الابن الأخير للغوماري والوحيد لعائلة مات كل أعضائها في مقاتلة عبد القادر، الأشخاص الذين كُلفوا باستقبالهم والتحدث معهم قابلوهم بغطرسة، ولم يجدوا الحصان المهدى للمشير جميلا بما فيه الكفاية، وأمروهم جلب آخرين،ليس فقط للمشير، ولكن لأتباعه أيضا. ذهب هؤلاء الرجال مع الوعد بالعودة بما طُلب منهم، ولكن ذهبوا فورا عند عبد القادر ليبايعوه.

ماذا حدث في تلمسان بشأن الضريبة لم يكن ليزيد من عدد أنصارنا. فقد سجنوا حتى بورسالي، قايد المشوار، لكن سرعان ما رأوا أن السجن لا يكفي، فاستعملوا التعذيب الجسدي[1]. المساكين الذين أخضعوا

---

(1) وهذا يعني الضرب بالعصا، ما يسميه اللواء كلوزل في تفسيراته وسيلة لإكراه الناس العاديين في إفريقيا. صحيح أن الضرب بالعصا تسمح به الأحكام والقوانين للجرائم والجنح، وتنصح به ، لكن في مجال الضرائب هذا

للتعذيب افتدوا أنفسهم بذهب نسائهم وصياغتيهن وكذا أسلحتهم الفاخرة. قُبل العرض[1]، ولكن قُدّرت هذه الأغراض من طرف لاصري، الذي تسلمها بثمن بخس. كل ساكن كان يدعى بدوره أمام

ظلم كبير، في إفريقيا وغيرها، ويمكن استخدامه عند الشتائم، ولكن ليس في العمليات العادية للجباية، حيث ملكية دافعي الضرائب التي يمكن احتجازها تلبي دائما ما هو مطلوب. للجميع رأي في العقاب البدني، الذي يسلط بصورة قانونية في بعض البلدان حيث توجد هذه العقوبة.

يمكن للمرء أن يقول أن الضرب بالعصا هو وسيلة ممتازة لتسليط عقاب يناسب الجريمة، وله ميزة أنه لا يطبق إلا على الجاني، في حين أنه في كثير من الحالات، احتجاز رب عائلة فقيرة يؤدي إلى خراب هذه الأسرة. يمكننا استخدام هذه الحجج للحفاظ على التشريعات القائمة في إفريقيا في هذا الصدد، ومن هذا المنطلق تحدث السيد لورانس، الذي يستشهد به السيد كلوزل، عن الضرب.

ولكنه لم يخطر ببال السيد لورانس، أو أي شخص عاقل، الخلط بين القاعدة والتعسف في تطبيقها. لكن لا يحالون أن يجعلونا نصدق، من خلال النكت البالية على حساسية أهل الخير، أنّ السكان الأصليين لا يكونون سعداء إلا عندما يتم نهب أموالهم وسحقهم تحت العصا.

(1) وهذا يعني أن لاصري أخذ المجوهرات لنفسه كثائن للضرائب بالمال الذي ستقدر به. هذا ما نفهمه من تفسيرات المشير كلوزل الذي عارض أن تظهر هذه المجوهرات في الضريبة، رغم أن الذين دفعوا هذه الضريبة طلبوا أن تظهر. اعتقد أن عرض المشير جدير بالثناء،لأنه كان يظن أن تقدير ثمن المجوهرات سيؤدي إلى تجارة ممنوعة ورغب في تجنب ذلك (تفسيرات المشير كلوزل، صفحة 69). ولكن الطريقة التي استخدمها انقلبت عليه رغم

الجباة ويعلم بالنصيب الذي يجب عليه أن يدفعه، ويتعرض للضرب بالعصا حتى يدفع. غالبا ما كان يستدعى الفرد نفسه عدة مرات، إذا ظنوا أنه لا يزال عنده أموال. وكان يجري كل هذا باسم فرنسا، فشعر الجيش بالخجل والسخط.

لما أخذ كل ما يمكن أخذه، وأصبح جليًا أن العصا لن تأتي بالمزيد من الأموال، أُعلن عن التخلي عن الضريبة، وسيتم اقتطاع المبالغ التي دُفعت بالفعل من الضريبة السنوية لبالِيك تلمسان، والذي حدد ب 200.000 فرنك[1]: دُفع مبلغ 35.200 فرنك نقدا، الوارد من الضريبة، للمتصرف في صندوق الجيش، الذي تلقى الأمر بتسليمه

نواياه الحسنة وشجعت هذه التجارة الممنوعة، لان لاصري الذي كان في الواقع دون منافس، اشترى بالسعر الذي أراده من أناس تحت العصا يفترض أن يكون تقدير المجوهرات أكثر عدلا لو دفع للضرائب مباشرة، مما كان يحول دون استعمالها لمصلحة شخصية.

الحاجة التي كان فيها الكولوغلي للجوء إلى مجوهرات نسائهم لتسديد الضرائب بالتأكيد دليل مقنع على فقرهم. يبدو أن المشير كلوزل كان متأثرا بذلك في الأول، ولكن يبدو أيضا انه اقتنع أن هذا لا يثبت شيئا،لأنه يقول في تفسيراته، في الصفحة 47، "في افريقيا، نذهب إلى السوق بالمجوهرات"،الشيء الذي لا أعتقد أن أحدا شاهده قبله. ربما هناك خطأ مطبعي أو مداخلة في النص.

(1) يوجد هذا القرار في رسالة من المشير كلوزل إلى مصطفى بن مقلش. يبدو انه منذ ذلك الحين صدر أمر مؤرخ في 6 فبراير، والذي حدد ب 150.000 فرنك الضريبة المفروضة على سكان تلمسان كرسوم المشاركة في الحملة

لمصطفى بن مقلش، المعين بايا لتلمسان يوم 1 فيفري فقط. لكن لم تكن تلك هي وجهتها : 29.000 فرنك دفعت بها أجور الجيش، بين ما دفعت 6.000 فرنك لقائد المشوار.

هذا المبلغ من 35.200 فرنك هو الجزء الوحيد لاستعمال الضريبة الذي تم الاعتراف به قانونا من قبل السلطات أثناء إقامة المشير كلوزل في تلمسان[1].

ولصيانة حامية المشوار. وينص أيضا على أن هذه الضريبة ستسدد لتلمسان بعد جباية أموال البايلك.

تم تجاهل هذا المرسوم، الذي لم ينشر في أي مكان،عندما تمت طباعته في كتيب، من دون اسم المؤلف، والتي تم ذكره في الحاشية في الصفحة 54. مع ذلك، نرى في تقرير لجنة الموازنة في 1837 أنه تم إرساله إلى الوزير، يوم 14 فبراير 1836. يوم 28 من الشهر نفسه، أعطى امر حقيقي هذه المرة ونشر في صحيفة أعمال الحكومة، لضريبة تلمسان، المحددة دائما ب 150.000 فرنك، بأكثر وضوح صفة القرض القسري. كل هذه الأفعال الوهمية التي كُتبت بعد فوات الأوان تثبت الحاجة التي شعر بها المشير لإضفاء صفة الشرعية على حدث لا شرعية له. وأخيرا يقول تقرير لجنة الميزانية أن المشير، الذي علم جيدا طبيعة هذه الضريبة بعد شكاوى الرأي العام، كان في حاجة لوضع حد للنقاش. ونتيجة لذلك، تم الإعلان عن تسديد الضريبة غير المستعملة في صحيفة لومنتور. تم التصويت على الأموال من قبل الغرف لتسدد كلية، بناء على بيانات الدخل المقدمة من طرف الجباة، والتي تبلغ 94.444 فرنك فقط، ولكن حتى الآن لم يتم تنفيذها بسبب تشتت ذوي الحقوق.

(1) لم ترِد إلى الإدارة أي معلومة رسمية حول ما أنتجته الضريبة، ناهيك

بينما كان المشير عل الطافنا ، جزء من عرب تلمسان اللذين أتى بهم جيشنا إلى هذه المدينة يوم17، غادروها من جديد للإفلات من الابتزاز الذي سُلِّط عليهم. كان الكولوغلي عل وشك أن يحذوا حذوهم، لولا

عن 35.200 فرنك المدفوعة لأمين الصندوق. جعلها الإعلان عن التخلي عن الضريبة تعتقد أن هذه الثروة تُركت للباي الذي عينه السيد المشير. لكن سرعان ما عُلم أن هذه الثروة كانت تتبع المشير إلى وهران منقولة في سيارة إلى مقر القيادة. في وقت لاحق، تم اكتشاف أن لاصري ذهب من وهران إلى الجزائر، وصرح للجمارك 110.000 فرنك من الذهب والفضة؛ وأنه تم بيع المجوهرات عند السادة باكوي وبلار، تجار في الجزائر؛ وأن لاصري نقل غيرها من المجوهرات إلى تونس. مما أفشى بعض الشائعات التي لا محالة جرحته. ويترتب على ذلك هذه التفسيرات التي أرغمته هذه الشائعات أن يعطيها في حاجة لإعطاء قيم المجوهرات والأشياء الأخرى مثل الفضة التي نقلها لاصري من تلمسان، ينبغي تبديلها نقدا من جانب واحد، ومفاد هذا أن لاصري كان عليه أن يحصل على المقابل النقدي لهذه المجوهرات ويبعثه للباي على هذا الشكل إلى غاية المبلغ النقدي في حدود المبلغ المدون في دفتر الإيرادات لقباضة الضرائب الذي تمثله هذه الثروة، أو بالأحرى الذي هي رهنه. ومن أجل سلامة هذا الرهن، وضعه المشير في إحدى عرباته. ولكنه ألم يشارك مباشرة في العملية التي رغب أن تكون الإدارة الفرنسية بعيدة عنها؟ فهل من المستغرب أن يعتري الناس الذين لم يكونوا يعلمون ما يدور في ذهن المشير بعض الشكوك الغامضة والمؤلمة؟ سوء الظن هذا أمر مؤسف ربما، ولكن ألم يسببه السيد كلوزل نفسه؟ ألم يكن أول عمل لأول قيادة له في إفريقيا معاديا، في هذا الصدد، لتسيير سلفه؟ ثم في قضية تلمسان، ألم يكن من الطبيعي أن العنف المرتكب، المثير للوعي، جعل العقول أكثر شكا؟

أنهم لم يكونوا مشتبهين عند عبد القادر. وفي اليوم نفسه الذي قُرر فيه إنهاء الضريبة، تجمهر حشد من هؤلاء المساكين وأغلقوا الشارع أين يقطن المشير، هاتفين بأنهم أظهروا الولاء لفرنسا بحسن نية، وإذا كنا نريد معاملتهم بدون شفقة، كأعداء أخضعوا في المعركة، ستفرق بين القبائل.

لم تكن هذه سوى كلمات فارغة انتزعها اليأس، لأن المساكين كانوا يعلمون يقينا أن حاجة قاهرة تجبرهم عل القبوع في تلمسان. كانوا قد عُينوا للإثبات للسكان الأصليين أنه من الأفضل لهم أن تكون أعداءهم من أن تكون أحبابهم.

هذه الحقيقة المحزنة تدوم منذ تسع سنوات، ونتمنى أن يتغير هذا الحال من أخطاء وأفعال تستحق تسمية أقبح.

رسائل وجدت عل بعض العرب الذين قتلوا في معركتي الطافنا أعلمت المشير أن عبد القادر استعمل كأعوان في هاتين الحالتين مغاربة من ضواحي وجدة.

لذلك لن يلوم لمشير سوى نفسه بعد الإشاعات التي جرحته.

كنت أودّ السكوت عن حكاية تلمسان، لكن لما كان ذلك مستحيلا، كان علي أن أعطي تفاصيل كافية لكي يتسنى للقارئ فهم طبيعة حدث استقطب الاهتمام في فرنسا. ولم أذهب أبعد من ذلك.

كتب المشير لقايد هذه المدينة التي لا تبعد إلا بثلاثين ميلا عن تلمسان، ليشتكي من هذا الخرق للحياد، وكانت عاقبة هذا الأمر مهمة العقيد دو لارو إلى مكناس.

حتى وإن لم يستطع المشير أن يؤمن الاتصالات بين تلمسان ووهران، ولم يقم سيطرة فرنسا على المنطقة، إلا أنه أصر على مشروع إقامة حامية فرنسية في المشوار. كان في الإمكان أن تصبح هذه الحامية مفيدة، لو عرفنا كيف نجمع حولها وحول الكولوغلي أهالي أصدقاء. كان ممكنا التوصل لذلك، لكنا فعلنا كل شيء للوصول إلى العكس. حينئذ كان ربما من الأجدر هدم المشوار واصطحاب الكولوغلي وعائلاتهم إلى مازغران، كما فكرنا في ذلك حينا، لكن عندئذ كنا سنسَلّم المدينة بأسرها لعبد القادر، ويصبح هدف الحملة تخليصه من الكولوغلي. بهذا نرى أنه عندما نخطئ بداية، لا يبقى لدينا نهاية إلا الخيار بين الأخطاء.

قبل مغادرة تلمسان، جمع المشير العرب والكولوغلي وحثهم على التعايش في السلم، فطبقوا تلقائيا ما قيل لهم. ربما القمع الذي تعرضوا له بدون تمييز أذهب الأضغان القديمة التي كانت بينهم.

بعدما مُوِّن المشوار بوفرة وعُززت دفاعاته، أوكلت قيادته للنقيب الكفء كافينياك. بعدها خرج الجيش عائدا إلى وهران، يوم 7 فيفري،

محمّلا معه مئونة ثمانية أيام، أي كلما كان متوفرا تقريبا في مدينة لم تصلها المؤن منذ شهر. من أجل خداع العدو أو لمعرفة جزء آخر من البلاد، لم يرد المشير أن يأخذ الطريق التي أتى منها. سار على طريق معسكر وأثار الشك عن نواياه عند السكان الأصليين. سار الجيش بجناحه الأيسر في المقدمة، وبات قرب واد أميغو ليلة 7، وليلة 8 قرب واد يسير، في أماكن أقرب بكثير إلى منبع النهرين من حيث عبروا قبل شهر. وكان هذين اليومين متعبين جدا، بسبب صعوبات الطريق الذي يجتاز أرضا جد وعرة. قوات الهندسة العسكرية أزاحوا الحواجز بفضل قوة عملهم. يوم 9، وصل الجيش بل تجاوز ذروة الجبل الكائن بين وهران وتلمسان، وبات بالقرب من منبع ريو سالادو، أبعد من المكان الذي يفترق فيه طريقي وهران ومعسكر. في ذلك اليوم، جاء المئات من فرسان العدو للمناوشة مع مؤخرة الجيش. في الليل، تسلل بعض العرب إلى المعسكر وسرقوا أسلحة.

يوم 10، استأنف الجيش سيره، إلا أن العدو ظهر بأعداد أكبر من أمس ذلك اليوم. على الثامنة صباحا، أتى عبد القادر نفسه ليهاجم مؤخرة الجيش بأعداد معتبرة. لكن لم يكن له أن يوقف مسيرته لولا العقبات التي اعترضت طريقه والتي تطلبت أعمالا كبيرة. حينما كانت هندسة الجيش منهمكة فيها بتفانيها وهمتها العاديتين، تموقع اللواء

الذي كان يقوده بيريغو، والذي كان يشكل مؤخرة الجيش، ليصد هجمات العدو. عندما أصبح إطلاق النار أكثر حيوية، حدث حادث ليس له أهمية تذكر في حد ذاته، ولكنه يثبت خفة العقل وتقارب الطباع بين الشعبين المتحاربين. فجأة خرج خنزير يجري، خائفا من ضجيج الأسلحة النارية، ومر بين الخطين العربي والفرنسي. أوقف المتقاتلون على الفور إطلاق النار على بعضهم البعض، وبدئوا توجيه طلقات على العجل الجديد، مع تبادل النكت من جهة لأخرى، لما نجا الحيوان بنفسه، استأنف القتال. كما يفعل المرء في الصيد.

لما انتهت أعمال الهندسة، واصلت قافلة الأمتعة سيرها تحت حماية اللواءين، ولما ابتعدوا مسافة كافية، أمر المشير المؤخرة أن تدخل في الخانق، بينما كان يحتل هو المرتفعات مع اللواء الثاني. ضاعف العدو حينئذ في حماسه وجدد هجماته، وبدا مصمما على تكبيدنا خسائر كبيرة.

لكن المشير، دون أن يقحم قواته، شل خصمه بمناوراته. أمر كل الجيش أن يتراجع بتدرج، دائرا تارة على جناح، وتارة على جناح آخر، مقدما دائما للعدو شوكة تستطيع الالتفاف به.

لما أدرك عبد القادر عجزه أمام هذه المناورات سحب جيشه بعيدا عن مدى المدفعية. استأنف الجيش سيره وبات معسكرا في آخر سفوح المرتفعات. في تلك الليلة، هوجمت بعض المواقع. في اليوم التالي، يوم

11، وصل الجيش إلى سهل غرب سبخة فعسكر على بعد ثلاثة أميال من بريدية. كان ذلك آخر يوم من الحملة. يوم 12، دخل المشير إلى وهران.

بهذا انتهت حملة تلمسان. القوة المادية لعبد القادر لم تضعف إلا قليلا، بينما ازداد نفوذه المعنوي مما خسرناه من اعتبار بسبب إجراء مشئوم. لكن المشير نشر إعلانا يصرح فيه بتفخيم أكثر مما يقول الحقيقة أن عبد القادر لا يفكر إلا آن يختبئ في خوانق الأطلس والصحراء تمرده وخيانته، وأن الحرب قد انتهت.

في الحقيقة لم يكن في تصرف عبد القادر لا خيانة ولا تمردا، بل كان من طرف السيد المشير قصورا عن سحقه، لأنه ترك له دائما أسبقية الوسائل المعنوية التي لم يعرف أبدا السيد كلوزل استعمالها.

أثناء الحملة التي رويناها، كانت جماعة وفيرة من فرسان قبيلة الغرابة تناور في الريف قرب وهران، وهاجمت مرتين فرق الحامية اللواتي ذهبن يحططبن، وأين قتل بعض الرجال. الدواير والزمالة، المحرومون من مقاتليهم الذين تبعت أغلبيتهم الجيش، كانوا مرغمين على اللجوء بين المواقع المحصنة والمدينة. تم هذا التحرك ليلا وفوضويا. صراخ النساء والأطفال بلغ حتى الموقع المركزي أين نشر الرعب، رغم أن العرب لن يجرؤوا أن يهاجموا هذا الموقع.

في أواخر فيفري، عاد المشير إلى الجزائر أين كان غائبا منذ ثلاثة أشهر. ترك اللواء بيريغو في وهران وكلفه أن يخرج تارة بالجيش إلى البراري. غير أن اللواء دارلانج بقي دائما حاكما لإقليم وهران.

قبل أن يغادر، ذهب المشير لزيارة رشغون، أين قرر إنشاء موقع عص عند مصب الطافنا تحت رعاية اللواء دارلانج، الذي كان عليه فتح خط اتصال بين تلك النقطة وتلمسان، ما لم نستطع تحقيقه من تلمسان بعدد أكبر من الجنود من أولئك الذين تُركوا في مقاطعة وهران. الزواف وفرق النخبة المشكلة في كتائب صعدت في الباخرة إلى الجزائر.

كان اللحم مفقودا في وهران. كان الدواير والزمالة، حلفاؤنا الوحيدون، مرهقين، وكان العرب الآخرون يبتعدون بعناد عن أسواقنا. كنا ملزمين أن نذهب لنحضر بأنفسنا ما منعنا منه. يوم 23 فيفري، خرج اللواء بيريغو من وهران مع 4000 جندي، وسار نحو السيغ بسير حثيث على الطريق المتوسط بين طريق معسكر وطريق طليلات. وصل إلى ضفاف الواد في صباح يوم 24. الغرابة، الذين أذهلتهم المفاجأة، فروا إلى الجبال عبر مخنق الكروف، تاركين قطعانهم. لم نلاحقهم إلا قليلا، لأن الجنود كانوا جد متعبين. قضى اللواء بيريغو ليلته في الموقع المحصن الذي شُيد أثناء حملة معسكر، والذي لم يتنبه العرب لتدميره. في صباح اليوم التالي، 25، أراد هذا اللواء أن يتقدم في طريق الهبرة، غير أن الصعوبات التي وجدناها في توجيه القطعان التي غنمناها من العدو ألزمته على العودة

على أدراجه، وبات تلك الليلة في طليلات. حدث اشتباك خفيف في غابة مولاي اسماعيل. في الليل، بعث عبد القادر بعض الجنود وحدث تبادل لإطلاق النار مع الكتيبة 66 للخط التي كانت متموقعة على تلة. يوم 26، شرع الطابور في العودة إلى وهران، أين وصل نفس اليوم. تبعه العرب لبعض الوقت، مع إطلاق النار من بعيد. جلب معه حوالي ألفي رأس من الماشية،مما أعاد الوفرة.

خرج العقيد كومب من مستغانم مع جزء من الحامية، قدور المخفي وبعض العرب ليلتقي باللواء بيريغو. إبراهيم باي والمزاري، اللذين غادروا وهران بحرا نحو مستغانم، أجبروا أن يتوقفوا في ارزيو. في هذا الميناء، أخبروا بتحرك العقيد كومب، فذهبوا للقائه. لما وصل هذا العقيد إلى السهل،علم أن اللواء بيريغو قد انسحب إلى وهران. فعاد إلى مستغانم دون أن يلتقي العدو. يوم 14 مارس، خرج اللواء بيريغو للمرة الثانية من وهران مع الكتيبة 11 للخط ، الكتيبة 68 للخط ، الكتيبة 17 الخفيفة، بعض سرايا قناصي إفريقيا، ثلاثة مدافع ميدان، ثلاثة مدافع جبلية وفرسان مصطفى بن اسماعيل. بات في ينبوع غديل، ثم يوم 15، توجه نحو المقطع، مرورا بأرزيو القديم وعسكر ما وراء الواد.

يوم 16، انضم إلى العقيد كومب والباي إبراهيم والمزاري اللذان راسلهما وأمرهما بالتحرك. حدث ملتقى الجيشين في مكان يدعى آسيان

(الآبار). كان مع العقيد كومب 700 رجل من ال 47 للخط، بينما لم يكن مع المزاري وإبراهيم سوى 150 من المشاة و 50 فارسا. ظهرت في ذلك اليوم فرقة من العرب، من قبائل بني شغران، وحبيب شراقة، وحميان وبورجيين، تحت قيادة أحد ملازمي عبد القادر. سار مصطفى إبراهيم والمزاري مع مساندة الطابور بأسره نحو العدو الذي أبعد إلى ما وراء الهبرة، بعدما سقط له حوالي أربعين رجلا. من بين الموتى، كان قايد القلعة، محمد بن جليل، وحامل الراية، أخذت رايتين. بات الجيش في الضفة اليمنى للهبرة، قبالة الموقع الذي احتله المشير كلوزل يوم 3 ديسمبر، في طريقه إلى معسكر. نزعنا للعدو ثيرانا وكباشا وحوالي خمسين حصانا. كانت نتيجة هذه المعركة خضوع البورجيين.

يوم 17، توغل الجيش في جبال بني شغران. استعملت في هذه العملية الخيالة الفرنسية والخيالة المحلية و 1600 من المشاة. خطفنا لبني شغران ماشية، خيم وقطع من الخبز؛ كما سبينا 43 امرأة وطفلا.

في تلك الأمسية، جاءت قبائل حميان، بني غادون وجزء من بني شغران ليعلنوا خضوعهم لنا. قرر اللواء بيريغو المكوث على ضفاف الهبرة لإعطاء الفرصة لقبائل أخرى أن تبدي رأيها. استغل المشير هذا الوقت لبناء موقع محصن، لأن التجربة أثبتت لنا أن هذه المنشآت تفيدنا كثيرا في حملاتنا، ولا تتطلب المكوث فيها على الدوام، لأن العرب

لا يحسنون استعمالها للدفاع عن أنفسهم ولا حتى يكلفون أنفسهم بتدميرها.

لما كان اللواء معسكرا على ضفة الهبرة، جاءه سكان أرزيو[1] القدماء، الذين كانوا متفرقين في سهل صراط ، يطلبون منه الإذن بالعودة إلى ديارهم التي بقيت مهجورة. فأُعطي لهم الإذن بذلك، شريطة احترام قوانين النظام العام، لكن الأحداث التي ألغت نجاحات اللواء بيريغو لم تمكنه من الاستمتاع بذلك.

لو نجحت هذه العملية، لكانت أول مرة تنجح فيها حملة عسكرية فرنسية في إعادة إعمار مدينة في إفريقيا، لأننا حتى تلك اللحظة لم نحسن سوى التدمير.

يوم 21 مارس، غادر اللواء بيريغو الهبرة وأقام عند ماضر، المنتمون لقبيلة المجاهر القوية. يوم 22، تقدم إليه سيدي شعبان وليد العريبي، ابن المتوفى سيدي العريبي وشيخ القبيلة التي تحمل نفس الاسم، رفقة قايد مقالية. هذا الحدث المهم ضمن خضوع تقريبا كل سهل الشلف. منذ ذلك الحين، مسيرة اللواء بيريغو كانت تشبه التجوال. انضم العرب

(1) يتعلق الأمر هنا بما نسميه أرزيو القديم، وليس بالموقع العسكري الذي نسميه أرزيو والذي يسميه العرب المرسى (الميناء). انظر الكتاب الثاني لحوليات جزائرية.

بجموع إليه، وأصبحت البضائع متوفرة في سوقه، واتصالاته مع مستغانم من أين كان يحصل على ما لم تستطع القبائل توفيره له، أصبحت آمنة. استطاع هذا اللواء، بكرامته وبشاشته، وكذا عدله الصارم والانضباط الذي فرض على جنوده، أن يحصل على حب وتقدير السكان الأصليين الذين أصبحت احتياجاتهم وقضاياهم في علمه بفضل مثابرته وعمله الدءوب.

يوم 24، غير موقع معسكره إلى الواد الصغير إليل، ويوم 25 إلى المينة أين أقام يوم 26، أين جاءت لزيارته كل عائلة سيدي العريبي. يوم 27، بات في صور كرميتو، على الضفة اليسرى للشلف، بين المينة والبحر. ذلك اليوم، أجبرنا على مقاتلة فرقة من قبايل بني زروال التي جرحت لنا عشرة رجال، من بينهم المزاري. هُزم هذا العدو الضعيف بسهولة، ولكنه تراجع إلى الجبال ولم يخضع لنا.

صور كرميتو، أين عسكر الجنود يومي 28 و 29، هو مدينة رومانية قديمة ومهجورة، وتوجد في موقع جميل يشرف على الشلف. يوم 30، ذهب الجنود إلى ينبوع ستيدية، تاركين مستغانم على اليمين. بعد أوامر جاءت من الجزائر، خُفف تعداد حامية مستغانم إلى 400 جندي، ما لم يرق للباي إبراهيم. بات الجيش يوم 31 في غديل ودخل وهران يوم 1 أفريل.

دلت هذه الجولة السعيدة على كل ما كنا نستفيد منه في حملة معسكر من قبائل الشلف، لو علمنا كيف نتصرف معها، لأن هذه القبائل أقل تشبثا بعبد القادر.

لو أعطيناهم بايا منهم وليس تركيا وصرفنا القليل من الأموال لتنصيبه، لكونا قوة عربية منافسة للأمير. من بين كل ألويتنا التي كانت موجودة في إفريقيا في ذلك الحين، كان بيريغو الأجدر أن يتم هذه المهمة، ولكنه غادر في الأيام الأولى لأفريل وتركها غير كاملة. لم يكن منصبه واضحا في مقاطعة وهران التي كان يحكمها غيره، لكي يبقى مدة أطول. بعد مغادرته، أفلتت ثانية القبائل التي كانت يوما خاضعة لنا، كما سنرويه في الكتاب اللاحق.

بينما كان اللواء بيريغو يمشي نحو الشلف، خرج اللواء دارلانج، على رأس فرقة صغيرة من 1200 جندي، متجها غربا حتى بريدية، أين شيد بعض المواقع المحصنة. لم يقاتل كما لم يحصل على أي خضوع. كان عبد القادر في عين الحوت، بالقرب من تلمسان. كان ينتظر هناك فرصة سانحة تمكنه من النصر، ولم تلبث أن سنحت له هذه الفرصة.

الكتاب 19

عودة المشير كلوزل إلى الجزائر- حملة الأطلس - استدعاء اللواء أوزير - جوزيف المملوكي، باي قسنطينة - سفر المشير إلى فرنسا - الحملة التعسة للواء دارلانج - معسكر الطافنا - الهزيمة والقبض على باي المدية الذي نصبه المشير- اللواء بيجو في إفريقيا - قتال وانتصار في صيكاك - أحداث بجاية - اغتيال الرائد سلومون.

عند عودته إلى الجزائر بعد حملة تلمسان، وجد المشير كلوزل المنطقة في الحالة التي تركها فيها،أي تحت ضغط الحجوطيين. يوم 1 مارس، خرجت من بوفاريك فرقة استطلاعية كبيرة، تحت قيادة اللواء راباتل، مشكلة من كتيبتين صغيرتين للمشاة، من الفوج الأول لقناصي إفريقيا، السائس النظاميين، مدفعي ميدان ومدفعين جبليين، لتستطلع الطريق المباشر نحو القليعة. عسكرت هذه الفرقة الصغيرة في الشفة، في ليلة 1 إلى 2 مارس. في الصباح، استأنفت مسيرتها بهبوط الشفة على الضفة اليمنى. حوالي 150 حجوطي تجرؤوا رغم قلة عددهم أن يعبروا الواد ويتبادلوا إطلاق النار مع

مؤخرة الجيش. تركناهم يتقدمون إلى أقرب من نصف ميل، ثم قام الفريق بمهاجمتهم ومجابهتهم بفريقين من القناصين، بينما اجتاز الواد السابر الذين كانوا على رأس الطابور ليقطعوا عنهم طريق الانسحاب عاد العدو أدراجه، عابرا الواد، ملاحقا من القناصين، لكن أحد الفريقين الذي هاجم متفرقا، وجد نفسه منفصلا عن الثاني الذي كان في مساندته استدار عندئذ الحجوطيون وحدث اصطدام عنيف.

لما التحقت الفرقة الثانية بالأولى بدأتا بالتراجع نحو الطابور. استقبل اللواء راباتل هاتين الفرقتين عند عبوره الواد مع بقية الخيالة الفرنسية. دخل السبايس في مستنقع فأوحلوا فيه، فلم يشاركوا في هذه المعركة الصغيرة التي مات لنا فيها قناصان وسجلنا فيها خمسة جرحى، من بينهم ضابط. دخلت الفرقة الاستطلاعية إلى بوفاريك في الأمسية.

في اليوم التالي، تفقدت ضفاف واد بوفاريك، بين منبع الواد والمعسكر، لكن لم تجد عدوا. فقد العرب ثمانية رجال في معركة 2 مارس، من بينهم قدور بن لوطو، مهاجر من بني موسى.

هذه العراكات المتعددة في إفريقيا لم تكن تعني شيئا ولم تكن تخدم مصالحنا. كان اللواء راباتل يحسب ذلك، رغم أنه اغتنم الفرصة لإظهار شجاعة مميزة. أبلغ الحجوطيين مسبقا أن تحركاته في الشقة غير عدوانية،

وأنه إن لم يُهاجَم لن يُهاجِم. لكن لما تتأجج الأحقاد، لا تهدئها كما تريد.

مع ذلك، ظن الوزير، الذي كانت تصله تقارير مرضية عن إفريقيا، بطيش أنه يستطيع التقليص من نفقاته وإعادة جيش الاحتلال إلى عدده العادي، أي الذي كان عليه قبل حملة معسكر. أرسل المقدم دو لارو، أحد أعوانه، إلى الجزائر بأوامر في هذا الصدد. كان السيد المشير يعلم أكثر من أي واحد مساوئ هذا التدبير غير المناسب، لأن مبالغاته الرسمية كانت إحدى الأسباب فيه. لذلك، حتى وإن ظهر متحمسا لتطبيقه، بذل كل ما في وسعه لتخفيف أثاره وتأجيل العمل به. كنا في شهر مارس، أثناء حملة بيريغو في الشلف، بينما كان المشير نفسه ملزما أن يخرج محمد بن الحسين من الورطة التي أدخله فيها. هذان السببان كانا كافيان لعدم التسرع. أظهر مزاياهما، وبعد تعيينه للعودة إلى فرنسا كلا من الكتيبة 13 للخط ،وال66، وال59، والكتيبة الثالثة لافريقيا وبعض فصائل الانضباط . قرر تأجيل الذهاب إلى ما بعد نهاية حملة بيريغو وكذا الحملة التي كان هو بنفسه يفكر فيها.

هذه الأخيرة، التي كانت شأن الخاص والعام، كانت تبدو أن تؤدي بنا إلى المدية ومليانة. لهذا فقد تكلم المشير بهذا الشأن بطريقة لا مجال للشك بعدها.

لكن حينما أتت لحظة التنفيذ، وبعدما تذكر ما حصل له في الطائفا، علم أنه من الخطر على سمعة اللواء أن يعلن دونما حاجة على مشاريع قد يجبر على التخلي عنها، لذلك أطلق على حملته لفظ استطلاع والتي لم تتوجب شيئا يذكر. يوم 29، اجتمعت أربعة ألوية صغيرة في بوفاريك، تحت قيادة الألوية ديميشال وبرو، والعقيدين كونيغساغ وهكت.

غادرت في صباح يوم 30 واتجهت نحو مزرعة موزاية، وكانت الطليعة تتقدم بقية الجيش بميل.

أطلقت بضع طلقات من الحجوطيين عند واد الشفة. بعد أن عبروا، رأى المشير على اليسار، عند سفوح الجبال، عددا كبيرا من العرب والقبايل على استعداد لاستقبالنا. أراد أن يهاجمهم السبايس المساعدين الذين تقدموا الجيش للهجوم على الفور، ولكن رأى أنهم كانوا يتبادلون إطلاق النار مع العدو ببساطة، فقرر إقحام السبايس النظاميين بقيادة اللواء راباتل.

عند وصوله إلى مكان المعركة، لاحظ اللواء أن العدو محمي بمسيل عميق بما فيه الكفاية. عبر اللواء حينئذ المسيل، لكن لم يخط مئة خطوة حتى وجد مسيلا آخر كانت لقبايل مصطفة على حافته. أطلق هؤلاء

النار بكثافة على السبايس وأسقطوا منهم العديد[1]. لم يفكر اللواء من تلك اللحظة إلا في كيفية إخراج السبايس من ذلك المأزق. إلا أن الانسحاب دون تغطية من المشاة أمر خطير، فأرسل في استقدامهم، ومكث يقاتل بشجاعة حتى وصلوا. عندئذ تم الانسحاب بنظام. استأنف الطابور سيره وبات على بعد ميل من موزاية.

في صبيحة يوم 31، وصلنا إلى مزرعة موزاية، وترك هناك المشير كل العربات تحت حراسة مفرزة من الجنود المحكوم عليهم بالأشغال ذات المصلحة العامة، والذين سُلِّحوا أثناء هذه الحملة وأحسنوا التصرف أثناءها.

دخل الجيش في الجبال في الترتيب التالي : الطليعة تحت قيادة اللواء برو، مشكلة من الزواف،الثاني الخفيف، كتيبة إفريقيا الثالثة ومدفعي جبال، وسار في طابورين. سلك الأول طريق المدية المشقوق، بينما استأنف الثاني سيره متبعا خاصرات الجبل، على يسار هذه الطريق. سار اللواء راباتل خلف اللواء برو بالثالث عشر الخفيف ومدفعية الميدان وكل الأمتعة التي احتفظنا بها. ومن جهته تابع المشير السير على اليمين مع كل الفرسان، الثالث والستين للخط ومدفعين، وسلك طريق مليانة بعض الوقت، مفرقا بالمدفعية جمع كبيرا من العرب الذين تموقعوا فيه.

(1) من بين المجروحين يوجد القائد بوكاسان،الذي اخترقت جسمه رصاصة.

اتجه بعد ذلك يسارا واقترب من بقية الجيش الذي توجه بكامله نحو هضبة تتوسط المنحدرات السفلى الخفيفة للأطلس والمنحدرات العليا الحادة. دخل الطابور الأيسر، الذي كان في مقدمته الزواف، في مواجهة عنيفة أسقطت من ثلاثين إلى أربعين رجلا بين قتيل وجريح. قضى الجيش ليلته على الهضبة، بينما نُقل الجرحى إلى مزرعة موزاية التي لم تكن بعيدة من مكان الاشتباك.

يوم أول أفريل، كان الهدف بلوغ الممر الجبلي المدعو الثنية، والذي اشتهر اسمه بعد معركة 21 نوفمبر 1839. تلقى اللواء برو الأمر بلوغ هذا المكان مرورا بالتلال الموجودة على اليسار، رفقة الزواف، الكتيبة الثالثة لإفريقيا والثاني الخفيف. لم تسمح وعورة المسلك بإلحاق المدفعية بهذا الطابور. افتتح الثالث عشر للخط سالكا الطريق المشقوق. وصل اللواء برو إلى التلال، غير أنه لم يستطع التسلق إلى القمم التي تشرف على الممر الجبلي بسبب التعب الشديد للجنود. في هذه الأثناء وصل الثالث عشر للخط إلى أسفل المنحدر، لكن كان من التهور تسلقه بدون تغطية عن اليسار من طرف اللواء برو الذي تخلف. أراد المشير أن يرسل له الأمر بأن يسرع، لكن نظرا لابتعاد هذا اللواء تردد في تعيين الضابط الذي سيقوم بهذه المهمة الخطيرة مع تواجد العدو في كل مكان. تطوع السيد فيلنوف، قائد في قيادة الأركان، لهذه المهمة، وكان جدُّ محظوظا بالوصول إلى مقصده. تم تنفيذ الأوامر بكل ذكاء وفي التوقيت المحدد.

دون الأبواق، وهجم الزواف، مطلقين صرخاتهم القتالية على العدو، بمساندة الكتيبة الثالثة لإفريقيا والثاني الخفيف.

طُرد القبايل من أعلى القمة حتى تدحرجوا وراء الممر الجبلي. وقد حققت هذا مقدمة الطابور المكونة من الرجال الأكثر رشاقة والذين كان حماسهم يسبق أوامر الضباط. بعدئذ، تموقع الجيش على التلال وعسكر هناك.

يوم 2 أفريل، اشتغلت مصلحة الهندسة العسكرية بكل حيوية وهمة على إنشاء طريق يُمكّن من عبور الأطلس بسهولة من هذا الجانب، وقد تم هذا العمل تحت حماية المشاة الذين لم يفتروا في صدّ هجمات العدو.

يوم 3 أفريل، استأنف العمل والقتال. نجح القبايل في انتزاع موقع كان في حوزة 25 قناصا من الكتيبة الثالثة لإفريقيا، لكن سرعان ما استعاده هؤلاء بمساندة مفرزة من الزواف بقيادة القائد ديمون دردون.

عند انتشار خبر وصول الفرنسيين إلى الممر الجبلي، هجر المدية أغلبية سكانها، باستثناء الكولوغلي، بعض الحضرة واليهود. حينئذ خرج الشيخ محمد بن الحسين من مخبئه وذهب إلى المدية أين استقبله الكولوغلي. أعانه في هذه القضية نجل بومزراق، باي التيطري الأسبق، الذي سجنه المشير عام 1830. كان في مقدور هذا الشاب الحازم أن يكون قائدا لفرقة ما، لكن هواه وفجوره أفقداه الاحترام والتقدير من الغير، ولم يكن في وسعه إلا أن يكون تابعا للغير. ناصر في هذه القضية بن الحسين. كتب هذا

الأخير، عند دخوله إلى المدية، إلى المشير طالبا منه أن يقدم استعراضا لمصلحته، الشيء الذي لم يكن في وسعنا رفضه ، بل كانت توافق مشاريع المشير. نتيجة لهذا، أرسل اللواء ديميشال إلى المدية قائدا لكل الخيالة، الثالث والستين للخط ومدفعين جبليين. بدا الفزع على الكولوغلي، ولم يكن مع محمد بن الحسين سوى بعض الفرسان العرب. كانت تقريبا كل المنازل مهجورة، وخيم الحزن والشك على الوجوه.

من الواضح أن عدم فرار الكولوغلي كان راجعا إلى أن هؤلاء لم يكونوا ليجدوا نفس الاستقبال عند العرب كالذي وجده الحضر الذين غادروا المدينة. بذل اللواء ديميشال كل ما في وسعه لطمأنة هؤلاء السكان، إلا أن كلماته لم يكن لها إلا تأثيرا محدودا.

توسل إليه الباي بالمكوث بضعة أيام، لكن أوامره لم تسمح بذلك. راسل المشير في ذلك الأمر تلك الليلة، غير أنه، في اليوم التالي على الزوال، لم تأت الإجابة، فكان مجبرا على اتباع الأوامر التي تلقاها في البداية واتجه نحو الممر الجبلي، بعدما وزع على الكولوغلي 600 بندقية و 50000 خرطوشا جُلبت لذلك الغرض.

عند وصوله في المساء إلى زبوج لزهارة، تلقى اللواء ديميشال الإذن بالبقاء يوما إضافيا في المدية لتأديب قبيلة وزرة التي عارضت علنيا الباي الذي عيناه. لما كانت قبيلة وزرة أقرب من زبوج لزهارة منه إلى المدية،

لم يعد اللواء أدراجه، بل كتب إلى الباي وواعده ليوم الغد في أراضي هذه القبيلة، وكلا الفريقين جاء من طريقه. لم تُظهر قبيلة وزرة أي مقاومة، وابتعدت بعدما أعلنت أنها لاتريد لا الفرنسيين ولا بايهم. غضب محمد بن الحسين من احتقارهم له، فانتقم منهم بإحراق منازلهم. بعد ذلك افترقا هو واللواء وعاد إلى المدية أقل إحباطا من اليوم الذي مضى. من جهته، ذهب اللواء للمبيت في زبوج لزهارة.

في اليوم الموالي، 7 أفريل ، اتجه نحو الممر الجبلي أين وصل باكرا، من أين استأنف الجيش بأكمله الطريق نحو الجزائر. أرسل جزء قبيلة موزاية الأقرب إلى الطريق ببعثة إلى المشير لتظهر خضوعها، فاشترط منها المشير بعض الثيران وبعض الرهائن الذين سيجندون مع الزواف. ولما لم يحققوا أيا من الشرطين، أمر المشير بإحراق أراضيهم.

بات الجيش في مزرعة موزاية يوم 7، أين استعاد القوات والعربات التي تركها هناك، وتوجه في اليوم التالي إلى بوفاريك. في ذلك اليوم، ما بين مائتين إلى ثلاثمائة حجوطي تبادلوا إطلاق النار مع المؤخرة. قُتل في هذه العملية الصغيرة أحد أبرز فرسانهم، محمد الحاج وليد رابح، الذي عينه عبد القادر قايد. يوم 8، بات الجيش في بوفاريك، ويوم 9 دخل المشير إلى الجزائر.

سجلنا في هذه الحملة التي دامت عشرة أيام 300 رجل بين قتيل وجريح، أي أكثر مما سجلنا في حملتي معسكر وتلمسان.

لما انتهت حملتي الأطلس والشلف، أبحر الثالث عشر للخط، والكتيبة الثالثة لإفريقيا وفصائل التأديب إلى فرنسا مغادرة إفريقيا، وجاء الحادي عشر للخط من وهران إلى الجزائر ليعوض الثالث عشر.

غادر المشير الجزائر يوم 14 أفريل، بعدما استدعاه إلى باريس الوزراء الذين خشوا أسئلة مجلس النواب حول قضية الجزائر وأيقنوا أنه لا يوجد أحسن منه للإجابة عن هذه الأسئلة والدفاع عنها.

من جهته، غادر الجزائر أيضا مدير الشؤون المدنية، السيد لوباسكي، لكن إلى غير عودة، لأنه لم يكن يتفاهم مع المشير بعد الخلاف الحاد بينهما؛ سنسرد ذلك في كتاب آخر.

سردنا الأعمال السياسية والعسكرية للسيد المشير كلوزل في الجزء الأول من قيادته في إفريقيا، الذي أظهره لنا مهيبا للعدو، كما في 1830، وكذلك طائش ومتهور في علاقاته مع العرب في نفس السنة، لا يعرف البلاد ولم يرد معرفتها، وأخيرا بإعطائه الثقة لأناس ليسوا بأهلها[1]. لكن ما كان يغتفر في 1830 مع انعدام دروس الخبرة، هل يغتفر بعد هذه الدروس؟

وضع السيد المشير نفسه كالرجل الوحيد الذي في مقدوره تسيير

(1) انظر المجلد الأول لحوليات جزائرية، الكتاب الخامس.

مسائل ممتلكاتنا الإفريقية، واستخدم الصحافة لنشر هذا الرأي، لكن ما لبث أن انقلب عليها لما أصبحت لا تجامله أو تتوفر على معلومات أكثر. في 1833، سافر إلى إفريقيا دون شك ليدرس ويتفقد ويقدر وضعية البلاد وأيضا ليثبت أفكاره ويهيئ خطة عمل للحظة التي سيعود إليها إلى الحكم. كل هذا كان يؤملنا في أن نجد حاكما عاما في 1835 أحسن من اللواء الذي كان كلوزل في 1830.

خلال تواجد المشير في تلمسان، أعطى للرائد جوزاف شهادة باي قسنطينة[1]. هذا التدبير كان السبب في النهاية المؤسفة لسنة 1836 في إفريقيا. في انتظار الظروف التي ستؤدي به إلى قسنطينة، كان على جوزاف أن يسير أمور القبائل التي تحالفت مع فرنسا بفضل الإدارة الأبوية للواء دوزر.

لكن كان جوزاف ينوي استعمال طرق أخرى في عمله والتي لم يكن ليرضى عنها دوزر، تقرر إبعاد هذا الأخير من عنابة، لفسح المجال أمام الباي الجديد.

(1) صعب على الحكومة تقبّل هذا التعيين، ولم تُصادق عليه إلا لاحقا. كتب الوزير إلى الحاكم العام قائلا: "رغم الشكاوي الخطيرة إثر التجاوزات التي حدثت في تلمسان، وافقت الحكومة على ترك جوزاف يتمتع بلقب الباي الذي منحتموه إياه لكن ضابط عام، قادر أن يسيره ويفرض نفسه عليه، سيعين في المقاطعة"

السيد دوزر، على غرار السيد كلوزل، اكتسب ممتلكات عقارية عديدة في إفريقيا. مصطفى بن كريم، الذي خوله دوزر ثقته كان في أعين الناس رجلا ذا مكائد ويحب المال. من جهته، كان صاروك، قاضي عنابة، قد أثار بعض الشكاوي ضد شخصه. عند تقريب هذه الظروف الثلاثة، أشيع أن ممتلكات دوزر التي اكتسبها عن طريق هذين الرجلين لم تكن نتيجة معاملات شريفة، بما يعني أن اللواء استخدم وضعيته ليتملك دون أن يدفع الثمن المناسب. كانت تستلزم هذه التهم توضيحات أكثر، إلا أنه كان على السيد المشير كلوزل، الذي كان عرضة لتهم مشابهة، أن يسير بحذر في هذه القضية الشائكة. لكن لم يكن الحال كذلك. وبناءا على طلبه، أمضي قرار إنهاء مهام حاكم عنابة وأرسل إلى الجزائر. في الوقت ذاته، كان اللواء دوزر مرهقا من المتاعب التي سُلطت عليه، وقدم بنفسه طلبا للعودة إلى فرنسا. قُبل طلبه باستخفاف ولم يخبروه بقرار إنهاء مهامه الذي اعتبر ملغى، وظهر بذلك أنه انسحب من تلقاء نفسه.

كانت المتاعب التي أثيرت حول السيد دوزر تكمن في التحقيق الذي فُتح ظاهريا في شأن مصطفى بن كريم وصاروك، ولكن في الحقيقة كان اللواء مستهدفا أيضا. كُلف بهذا التحقيق الوكيل العام

السيد ريالبي دوما وقاضي التحقيق السيد جاكوبي. وكان هذا الأخير الذي تحمل عبء التحقيق بأكمله أنجز مهمته بالنزاهة التي يتصف بها القضاء الفرنسي. لم يظهر التحقيق أي شيء ضد اللواء، كما أبطلت التهم الخطيرة الموجهة ضد مصطفى وصاروك [1]. لم يبق سوى بعض الشكوك الغامضة وانطباعا مبررا أن مصطفى اختلس أملاكا عقارية وأخفى مستندات الملكية لآخرين[2]. أرسل هذين الرجلين بعد ذلك إلى الجزائر ووضعوا تحت تصرف الحاكم، لكن استعادوا حريتهم بشرط التخلي عن مناصبهم. عندئذ قام جوزاف بمغازلة مصطفى الذي أعرض عنه باحتقار، وهاجر إلى تونس، رغبة في أن لا يبقى تحت سيطرة جوزاف وأن يأمن شره.

الاضطراب الذي أحدثه التحقيق أظهر بعض ميزات اللواء دوزر. عُلم أنه رغم زيادة أسعار العقارات، تنازل لضابط عجوز بسعر الشراء بأرض استصلحها. عُلم أيضا أنه لما اشترى قانونيا قطعة أرض على صاحبها الذي كان يظنها لا تصلح إلا للرعي، دفع ثلاث أضعاف السعر للبائع، دون أي ضغط من أي جهة، بعدما عرف أن هذه الأرض تصلح لأغراض أخرى وأن مالكها الأسبق لم يعرف قيمتها.

(1) اتُهم مصطفى بالتسميم وتبديل محكوم عليه.

(2) ظننا دائما أن اختلاسات مصطفى لم تطل سوى هذه المجالات (انظر الجزء الثاني من حوليات جزائرية، ص 69.)

الجزء الأول

انتُقد اللواء دوزر لعدم وجود ما يكفي من التحسينات المادية في عنابة، واستخدام العناصر العسكرية في غير الأشغال المنوطة بها. وهذا النقد مبرر أكثر من غيره، لأنه في الواقع، في جميع أنحاء الوصاية، عنابة هي المدينة الوحيدة التي قام فيها الجنود بأقل أشغال ذات منفعة عامة.

وكان للسيد اللواء دوزر أعداء من بين المستعمرين في عنابة. هؤلاء الأعداء اعتبروا لطفه مع المواطنين الأصليين وتعاطفه معهم جريمة، تكاد تكون خيانة في رأي البعض من الناس. مؤسفة جدا هذه الكراهية الوحشية التي تحرك هذا العدد الكبير من الأوروبيين ضد أناس لدينا الكثير من المصالح المعنوية والمادية في جلبهم إلينا. أشرنا إليها في العديد من المرات ولن نفتر في الاستمرار في قتالها.

السيد دوزر يحب العرب وكان هؤلاء يحبونه أيضا ولكن لم يتردد في قمع اللصوصية بقوة، عندما يتجرؤون على ذلك، لكنه لم يكن يسمح أن يُرتكب ضدهم أي ظلم. بعض الأوروبيين ممتلكي أراضي لم يريدوا استغلالها، حاولوا الربح منها بحجز القطعان التي تذهب للرعي فيها وحتى التي تعبرها، طبقا لعادات وتقاليد البلاد. وقد اشتكى اللواء في الكثير من الأحيان من هذا التعسف. ففي يوم من الأيام، حُجز عدد كبير من المواشي بهذه الطريقة، فأصدر أمرا بتسريحها فورا.

اعتبروا استخدام القوة العسكرية في المنع السياسي لهذا الظلم الشنيع اغتصابا.

لما ضُحي باللواء دوزر من أجل مجاملة المملوك جوزاف، ذهب هذا الشاب المغامر إلى عنابة التي دخلها تحت طلقات المدفعية التي قدمت له التحية بصفته بايا. وعُين رئيس الأركان، العقيد دوفيرجي، ليحل مؤقتا محل اللواء دوزر. أتى هذا الخيار من الدوافع الحقيقية التي استدعي اللواء من أجلها. قاد عنابة العقيد كوريار، من الفوج الثالث لقناصي إفريقيا، بين رحيل اللواء دوزر ووصول العقيد دوفيرجي[1].

سردت في المجلد الثاني من حوليات جزائرية العلاقات المرضية بين قبائل عنابة مع الفرنسيين، تحت إدارة اللواء دوزر. كان بإمكان الأوربيين السفر بحرية في البلاد على مسافة بعيدة، ويمكننا القول أنه باستثناء اللصوص المعزولين، لم يكن لدينا أعداء في دائرة نصف قطرها خمسة عشر ميلا. يبدو جليا هذا الوضع مع إقامة معسكر الدرعان، على بعد خمسة أميال من عنابة، وهي المنشأة التي شُيدت بعد وقت قصير من وصول العقيد دوفيرجي. حتى ذلك الحين، لم يقم بجولات خارج عنابة سوى بعض التجار وبعض الضباط المساحين اللذين كانوا منشغلين مع أعمالهم وخدمتهم عن قصة سفرهم، تتم فقط من رحلات عنابة. الذين كانوا منهمكين أكثر في أشغالهم، بدلا من

(1) وصل دوفيرجي إلى عنابة في نهاية مارس 1836.

أن يقصوا أسفارهم. لكن معسكر الدرعان جذب الفضوليين، وكان التحدث في كل الصحف على هذه المنطقة المزدهرة. للأسف هذا الازدهار الذي نتج عن تسيير الإدارة السابقة بدأ في الاندثار بسبب أخطاء الإدارة الجديدة، وذلك في الوقت الذي كان الحديث عليه كثيرا. بسبب الحماس أو المكر، نُسب هذا الازدهار إلى جوزاف الذي كان في الحقيقة يدمره. عندما عينه المشير كلوزل في منصب الباي، لم يحدد مهامه ولم يمنحه راتبا ثابتا. لم يكن جوزاف ليشتكي من هذا الأمر، وهو الذي رأى في كلمة باي كل الصلاحيات التي تركتها غامضة السلطات الفرنسية. تمكن حينئذ من خلق خدمات حقيقية في الجيش الفرنسي، على الرغم من شبابه وأعماله السابقة الملتبسة، وظن أنه يستطيع تحقيق ما أراد إذا تُركت له حرية اختيار الوسائل.

أولا، أراد أن يكون له مصرفي، واختار بالطبع لاصري. عقد مع هذا اليهودي صفقة تنازل له بموجبها على مدخول كبير من مداخيل البايلك مقابل سلفة. كان ينوي أن يكوّن هذه المداخيل من السطو على القبائل العربية لأدنى الأعذار. شرع الباي في هذا النمط من التسيير فور وصوله إلى عنابة.

أذن له المشير بتجنيد 1000 من الأتراك والكولوغلي والعرب. استطاع

تجنيد 280 في الجزائر، أما بقية كتيبته جندها باستخدام الصحافة عند وصوله إلى عنابة. تشبه هذه الصحافة تلك التي نجدها في المجر أو في إنجلترا، أين الحرية مترفة، غير حقيقية. جاب أعوانه المقاهي والمحلات وحتى المنازل لاختطاف كل رجل يستطيع حمل السلاح. لهذا الغرض اشتكى السكان الأصليون قائلين أنهم لا يعارضون حمل السلاح للدفاع المشترك، في صفوف الحرس الوطني، لا كجنود باي ليست له حتى الصلاحيات في المدينة. بالفعل، عُيِّن جوزاف بايا على قسنطينة، ليس عنابة التي وُضع سكانها تحت الحماية المباشرة للإدارة الفرنسية. تولى الدفاع عنهم السيد ديزان، نائب المسير المدني، واستعاد من جوزاف كل الرجال الذين جُندوا عنوة. تكونت فرقة مشاة الباي عندئذ من متطوعين فقط، ولم يستطع تجنيد سوى 300 رجل، وكان لجو زاف أيضا سرايا السبايس النظاميين الذين كان قائدهم، وكذا السبائس غير النظاميين المنتشرين بين القبائل الخاضعة لنا.

فور وصوله إلى عنابة ،نشر جوزاف إعلانا يخبر فيه العرب بمنصبه الجديد ويطلب من الأشياخ أن يأتوا المبايعته. من الناحية السياسية، نستطيع أن نقسم منطقة عنابة إلى دائرتين لهما نفس المركز. نجد في الدائرة الأولى الأقرب إلى عنابة ، القبائل أو أجزاء القبائل الخاضعة لنا، المعترفة بالسلطة

الفرنسية، وكان فرسانها يوالوننا. في هذا الصدد، سردنا في المجلد الثاني
بعض التجاوزات لحوليات جزائرية. أما الدائرة الثانية، فتتكون من
القبائل التي لا تعترف بسلطتنا، لكنها مسالمة وتربطنا علاقات تجارية
حسنة وحسن الجوار. اعترف أهالي المنطقة الأولى دون مشاكل بالباي،
رغم تحسرهم على اللواء دوزر، بينما تثاقل أهالي المنطقة الثانية للاعتراف
بجوزاف.

إحدى هذه القبائل، قبيلة رجات،قابلت إعلانه بأعذار، بقولها أنها
كانت بعيدة من عنابة وتخشى انتقام أحمد باي إن اعترفت بجوزاف، كما
وعدت أن تبقى محايدة على الأكثر وأن تُبقي علاقاتها التجارية مع عنابة.
عندئذ قرر جوزاف أن يبدأ عمليات السطو بقبيلة رجات، ورغب لو
أن العقيد كوربار أعانه بالجنود، لكن هذا الأخير لم يتلق أوامر في هذا
الشأن، بل أمر فقط ألا يعرقل عمل الباي. لذلك وعده بإرسال بعض
السرايا على الطريق الذي سيسلكه والتي ستحميه في حال الإخفاق.
سار إذًا الباي نحو الرجات بجنوده فقط، ونهب الديار الأولى على طريقه
أين سطا على 2000 ثور و 1200 كبش. غادر الرجات أراضيهم بعد
هذه الحملة ولجئوا عند بني مهنى، هذا يعني أنهم من محايدين أصبحوا
معادين. لما جاء وقت الحصاد، أظهروا للباي خضوعهم ليتمكنوا من

حصد أراضيهم، ولما فرغوا من أعمالهم عادوا عند بني مهنى.

بعدما رضي جوزاف بنتائج هذه الحملة الأولى، قام بحملة سطو ثانية بعد أيام قليلة على أولاد عطية، تشابك بعض رجال هذه القبيلة في عنابة مع العيشاوة بشأن امرأة اختطفت واتهموا بأنهم جاؤوا بالقرب من المدينة لتخريب ممتلكات أوروبية. فوجئ ونهب ثلاثة من دوارهم واختطف منهم العديد من الماشية وتسعة أسرى. لم يطلق سراح هؤلاء إلا بفدية.

انتشر الخبر بعد هذا السطو أنه تمّ القبض على قاتلي الضابطين الفرنسيين اللذين اغتيلا أثناء جولة للصيد، قبل بضعة أيام، من طرف العرب، لكن القتلة الحقيقيين لم يعثر عليهم أبدا. بعد هذه الإهانة، تلقى أولاد عطية إهانات أخرى من طرف عمال الباي.

نتيجة لذلك، هجر أغلبية أولاد عطية أراضيهم كما فعل الرجات. تمت عمليات سطو أخرى مماثلة للتي سردناها على قبائل أخرى.

إحدى هذه الحملات كان لها طابع عسكري أكثر من اللواتي سبقتها، وتتمثل في الهجوم على الرزقي، الذي يترأس أغلبية الحنانشة الذين كانوا يساندون أحمد باي ضد بن يعقوب. لكن في طريقه وجد قطيعا من

الثيران، ملك للعنابيال، الموالية للرزقي، ولم يتمالك نفسه للاستيلاء
عليها. أشهر عرب المنطقة السلاح ضده وأرغموه على التقهقر حتى
وصل إلى ميدان مشجر أين التقى بمشاته الذين افترقوا عنه بعد خطأ
في التحرك، عاد إلى عنابة حينئذ دون أن يزعجوه.

إذا كانت تصرفات جوزاف تنفّر منه العديد من العرب، كانت
تجذب إليه بالمقابل بعض الناس، الذين يشبهون قطّاع الطريق في
العصور الوسطى، والذين ينحازون دائما للطرف الذي يقوم بالنّهب.
كان حسناوي خصم الرزقي في قبيلة الخنانشة أين كان له رجال
كثيرون، وكان يبحث منذ وقت طويل على دعم فرنسي من عنابة.
وكان قد كتب في هذا الشأن العديد من الرسائل للواء دوزر الذي
شجعه على المكوث في موضعه والمحافظة عليه حتى تبتّ الحكومة
في شأن قسنطينة.هذا ما فعله الحسناوي. لكن عند تعيين جوزاف،
واستقواء حزب الرزقي بعد كل التجاوزات التي قام بها جوزاف
والتي أثارت كره العرب له وللفرنسيين، لم يستطع الحسناوي أن
يبقى أكثر مع الخنانشة، وانضم إلى جوزاف بحوالي 200 فارس.
تلقاه الباي بترحيب كبير وأشركه في كلّ سطوة وأهدى له الهدايا.
جلب جوزاف إليه أيضا القايد سليمان، أحد الملازمين القدماء لباي
قسنطينة، الذي لجأ إلى تونس، وهو شخصية مهمة وماهرة. ضمّ

هذين الرجلين أعطاه قوة جديدة، بداية بتهدئة الأوضاع بعد الضجة
التي أحدثتها تصرفاته.

بدت عندئذ قبائل الشرق كلها خاضعة ومنقادة. وبعد ذلك نصّبت
مفرزة مكونة من 5 أتراك في القالة، تحت قيادة ضابط فرنسي. هذا المكان
الذي كان قديما مقرّ الامتيازات الفرنسية أصبح في قبضتنا. أنجز بعض
الفرسان الضباط بعض المفارس، مما سهل توزيع البريد والمراسلة
بين عنابة وتونس. لم ير جوزاف كل المحاسن التي بإمكانه التمتع
بها بعدما يبسط نفوذه و يلبي احتياجاته المالية. لم يتمكن من التفكير
في المستقبل بوضع نظام معين، بل كان كل همّه استغلال الحاضر.
والعقيد دوفيرجي لم يكن له لا الوسائل ولا الإدارة لتسييره. من
جهة أخرى أراد أن يدعي لنفسه بعض الانتصارات التي كان يظن
بكل سذاجة أن يحققها جوزاف. بذلك أصبح دوفيرجي لا يرى ولا
يسمع إلاّ بجوزاف بعدما تبعه في كل ما يخص عنابة، لكن كان يقول
للمقربين منه أن جوزاف ينفذ مخططا وضعه هو العقيد لإخضاع
البلاد بأسرها، وما جوزاف إلاّ معين تحت أوامره.

حينما ظفر جوزاف بحسناوي وتخلص من رقابة دوفيرجي، أصبح
جبروته بلا حدود. هذا النمط من التسيير العنيف جلب له أموال
طائلة أثناء الصيف، لكن لم تلبث بين يديه إلا قليلا، لأنه أنفقها في

الهدايا على أولئك الذين كان يظنهم أوفياء له وحاجاته التي لا تدخل في نطاق الميزانية الممنوحة له.

كان للرائد جوزاف كاتبا يدعى خليل، قاضي سابق لعنابة. في الأصل لم يرد هذا القاضي العيش تحت السيطرة الفرنسية، فهاجر إلى تونس عام 1832 عند سقوط عنابة. كانت له مراسلة منتظمة مع الباي أحمد الذي أوكل له بعض المهام. لما علمت السلطة الفرنسية، أجبرت باي تونس على تسليمه لها، فاقتيد إلى الجزائر مع كل المستندات التي كانت في حوزته والتي وجدت في منزله. أغلبية هذه الوثائق كانت مكتوبة بالأرقام والأخرى لم تكن ذات أهمية فضلا عن ذلك لم يكن خليل ليتابع قضائيا، لأنه لم يكن تحت سيطرتنا في أي يوم من الأيام واعتقل في بلاد محايدة، بعدما حبس بعض الوقت في الجزائر، أرسل إلى عنابة أين وضع تحت الحراسة، أي حراسة السلطة المحلية، لما كان خليل رجلا ذا أهمية، أراد جوزاف ضمّه إلى فريقه ونجح في ذلك بعد الإلحاح. لما رأى خليل أفعال جوزاف وبّخه على ذلك، فأصبح مشكوكا في أمره.

في إحدى الليالي، بعد ما قضى السهرة في لعب الشطرنج رفقة الباي في الذّرعان، اختطف من خيمته وقطع رأسه، دون أن يعلم الضابط السامي قائد المعسكر بهذا الإعدام. قيل إن خليل أراد أن يسمّم

جوزاف، لكن لم تقدمّ أيّ بينة بذلك، إلاّ رسالة مزعوم أنها من أحمد باي يجنده بها للقيام بهذه الجريمة. علاوة على ذلك، لم يقدم أي دليل بالشروع في الجريمة ولا حتى النية بالقيام بها، رغم الرسالة المزعومة. أمر جوزاف باعتقال يهودي وعربي بتهمة التواطؤ في الجريمة مع خليل. لكن انتزعتهما منه السلطة المدنية وأطلقت سراحهم بعد ثمانية وأربعين ساعة بعدما لم تقدم أي شكوى ضدهم[1].

أفشى موت خليل الرّعب في كل مكان، مما أجبر بلقاسم على الهروب من عنابة، خشية أن يصيبه ما أصاب خليل، كان بلقاسم قايد سابقا لسطورا وكان يعمل رقيبا عند السبائس ولجأ إلى الجزائر بالقرب من اللواء رابتل الذي كان يحكم في غياب المشير. كان بلقاسم بدراية كبيرة بما يجري في البلاد، وكان يحظى بثقة اللواء دوزر، وكان بذلك مشكوكا فيه لدى الإدارة الجديدة.

أتى إلى الجزائر وفي حوزته اتهامات خطيرة ضد جوزاف، لكن لم يكترث بها. غير أن السيد ملسيون دارك، المحاسب العام العسكري لجيش إفريقيا، كان قد أشار من قبل إلى أن هذا النشل المستمر للماشية المرتكب من طرف جوزاف كان في مصلحة التموين الجيد للجيش.

---

(1) من الشك ان يكون أحمد باي أقدم على اغتيال جوزاف، الذي كانت سياسته القطيعة تخدمه. ومن جهة أخرى، لم يكن لجوزاف أي مصلحة في اغتيال خليل، إلا أن يكون قد مكر به أحد أعداء خليل من العرب. هذا هو الرأي الذي كان منتشرا آنذاك بين السكان الأصليين.

كان الجزء الكبير من هذه الماشية يصدّر إلى تونس أو يباع مباشرة إلى المالطيين، مما أثار مخاوف السيد ملسيون أن تستنزف ثروات البلاد. بناءا على هذا التقرير، أرسل الوزير للواء راباتل طالبا منه منع تصدير الماشية في شرق البلاد حتى إشعار آخر، وأمضي قرارا في هذا الصدد يوم 20 جويلية. وأصبحت السلطة المركزية بهذا في وضعية تسلحها لمكافحة التجاوزات التي هي مسؤولة عنها في البداية. كما بعث الوزير برسائل توبيخية إلى جوزاف، لكن هذا الأخير لم يكترث بها، لأنه كانت لديه رسائل من المشير تدعّم ما كان يقوم به[1].

هذا النظام العنيف والمتهور أتى بثماره أخيرا: ابتعد عن عدد كبير من العرب اقتداء بالرجات وأولاد عطية. أمّا أولئك الذين كانوا يظهرون الخضوع لنا، كانوا على اتصال سري بأحمد باي، الذي طلب منهم التريث قليلا، حالما يأمرهم ويمكنهم بالجهر بموالاتهم له.

أشياخ بني محمد، والسقا، وعرب اعوان وجندل لم ينتظروا تلك اللحظة، وذهبوا إلى قسنطينة لإظهار الولاء لأحمد باي، كان تفكير العرب بسيطا جدّا، بحيث كانوا يقولون: بما أن باي الفرنسيين أقسى علينا من أحمد، فمن الأجدر العودة إلى أحمد.

بهذا استطاع جوزاف أن يدمر في بضعة أشهر ما شيده اللواء دوزرد بإدارته. تفطّن جوزاف بنفسه إلى أنّ معظم القبائل ستفلت من يده،

(1) لظهر هن للسيد لوبيسون، النائب العام للمحكمة العليا.

ويبذل كل ما في وسعه لإخفاء هذا التدهور، واستطاع أن يخدع بوسائل سخيفة رجالا ذوي مكانة عالية حول نفوذه الحقيقي، لكن ما لبث أن انقلب عليه هؤلاء الرجال الذين أصبحوا في منزلة المتهمين له وللمشير. استغل جوزاف بفضل الوضعية التي مكنه منها السيّد كلوزل، وبكل احتيال، إعجاب إدارتنا الساذج لكل ما هو غريب وعجيب.

استبقنا الأحداث لنبرز خاصية إدارة جوزاف في عنابة، التي كان لها تأثيرا كبيرا على الأحداث لتجاهل التفاصيل التي قدمناها.

قام السيد العقيد دوفيرجي، أثناء قيادته في عنابة، بتحركات مع الجيش، فضلا عن بناء معسكر الدّرعان الذي سماه معسكر كلوزل. وقام يوما بجولة استطلاعية في أراضي الرجات أين عسكر. وفي اليوم الموالي، عاد إلى المعسكر وقام في اليوم الموالي بجولة استطلاعية أخرى إلى أسكور، أين توجد بعض الآثار الرومانية.

وبعد بضعة أيام من ذلك، خرج بجيش أكبر نحو قالمة، مدينة رومانية مخربة، على طريق قسنطينة. وفي شهر سبتمبر، قام باستطلاع إلى المعالفة و لم يكن وقتها بن عيسى، أحد ملازمي أحمد باي، بعيدا من هناك، لكن لم يذهب دوفيرجي إليه بل أعلن تواجده بطلقات مدفعية.

في طريق العودة إلى الدرعان، تقدم بن عيسى بدوره وأجابه بصلية أخرى.

رأينا في ذلك الكتاب السابق المشير كلوزل، قبل مغادرته وهران، كلف اللواء دارلانج بإقامة معسكر عند مصبّ الطافنا، ليسمح بذلك إقامة اتصالات مع تلمسان. طبقا لهذه الأوامر يوم 7 أفريل[1] غادر وهران هذا اللواء قبل أن تصبح قواته قليلة بعدما قلصّت إلى أدنى حد إثر رحيل الحادي عشر للخط، خرج على رأس 200 قناص إفريقي، و 150 عون عربي، و 1000 رجل من السابع عشر الخفيف، و 500 من الكتيبة الأولى الخفيفة لمشاة إفريقيا، و 800 من السابع والأربعين للخط، و 300 من السادس والستين، و 180 من الهندسة، وأربعة مدافع جبلية، وأربعة مدافع ميدان وستة عربات إدارية.

بات هذا الطابور في لوفيغي تلك الليلة. وفي اليوم التالي تقدم على أراضي بني عامر و قضى الليلة على ضفاف واد رسول.

وفي يوم 9، وبعد مسيرة يوم، أقام على واد غيمر. من هناك يؤدي خانق عميق إلى الهضبة التي يعلوها جبل تسالة، الذي يظنه العرب محمي من

(1) في تلك الأونة، كانت الأوامر التي تلقاها من عند المشير، في جزيرة رشغون يوم 14 فيفري، وأكدتها تزكية المشير للمشروع تنفيذ بناء معسكر الطافنا، الذي قدمه العقيد مدير التعزيزات يوم 14 أفريل. لهذا، اللوم الذي ألقته لجنة الميزانية في 1837 على اللواء دارلانج بأنه تحرّك بدون أوامر يبدو لي غير مبرر. (انظر في الجزء الثاني من هذا المجلد التقرير المنصوص عنه).

قبل جنّ طيب، يضع تحت حمايته أيضا أولئك الذين يحتمون به ويلجئون إليه. عزم اللواء أن يفتح طريقا يؤدي إلى هذا الجبل، وكلف في ليلة 9، الجنود بالشروع في ذلك. استأنف العمل يومي 10 و11 لكنه كثيرا ما انقطع بسبب الأمطار، أثناء هذين اليومين، أفرغت السيل المطمورة التي تملكها بني عامر، انضم إلى مصطفى بن اسماعيل ثلاثة دواوير من الزمالة، الذين كانوا في عقد عبد القادر منذ القطيعة.

حلت الحبوب المختلسة على أظهر البعير وأرسلت إلى وهران تحت حماية هذه الدواوير الثلاثة و15 فارسا من فرسان مصطفى.

استأنف الطابور سيره يوم 12 متوجها إلى الطافنا، وبات عند واد سيدي عبد الله بركام. وعبر الطابور يوم 13 واد المالح (ريو سالادو) وخيم على ضفاف واد سنان بعدما اجتاز سهل زيدور على طول حوالي 3 أميال. وفي يوم 14، غادرنا ذلك المكان ومررنا بالقرب من ينبوع قطارة، أين يقام سوق أولاد خالفة. ذلك هو اليوم الذي رأينا فيه تجمع عرب مسلحين، 200 فارس من أولاد عبد الله، الذين دخلوا في جدال مع رجال مصطفى وصّرحوا لهم أنهم لا يريدون الانضمام لا إلى الفرنسيين ولا إلى عبد القادر. وعند الزوال، تموقع الطابور عند واد غازر، وفي الأمسية جاء فرسان العدو يتلاعبون بخيولهم أمام موقعنا، وهاجموا جنودنا الذين ذهبوا للاستسقاء.

الجزء الأول

يوم 15 غادر الطابور واد غازر، وكان يحمي جنبه الأيسر فرسان مصطفى، و ظهر العدو في هذا الاتجاه. بعد مسيرة قصيرة، توقف الطابور عند جبل دار العطشان. منذ تلك الصبيحة لم يزل مصطفى يطلب المدفعية، و اشتبك مع العدو الذي كان عدده في تزايد مستمر.

كانت تلك مقدمة جيش عبد القادر المكونة من الفرسان. استطاع مصطفى أن يثنيها في أوّل الأمر، لكن لما رأى المشاة يتقدمون بكثرة، أرسل إلى اللواء دار لانج طالبا منه الإعانة. قدّم هذا الأخير بموقع قناصي إفريقيا لتغطية تراجع مصطفى، لكن مشاة عبد القادر الذين وصلوا إلى ميدان المعركة تحركوا جانبا وقطعوا على مصطفى طريق التراجع ووجد بذلك قناصوا إفريقيا أنفسهم في وضعية حرجة. حدثت هذه اللقطة في منحدر ينزل في دار العطشان. لما رأى اللواء دار لانج وضعية مصطفى، قدم وضعية كتيبة السابع عشر الخفيفة ومدفعين. هذا السند سمح للفرسان الفرنسيين بالخروج من وضعيتهم، غير أن مصطفى أتى بنفسه عند اللواء دارلانج ليطلب السّند ليسحق العدّو، ولم يكترث بتنفيذ الأمر بالتراجع. خلال غيابه تراجعت قواته حتى اقتربت من كتيبة السابع عشر الذي هوجمت أيضا بعنف.

لم يكن اللواء يريد معركة وإقحام الطابور فيها، لكنه رأى أنه لا مناص

من ذلك. تقدم اللواء مع قواته، تاركا الأمتعة تحت حراسة السادس والستين للخط وجنود الهندسة في الجبل. كانت العملية قصيرة لكنها كانت ملتهبة وقاتل مشاة عبد القادر، المكونين من القبايل المتواجدين في المنطقة، بكل شجاعة، ولم ينهزموا إلاّ عندما ضربوا بالمدفعية. تراجع عندئذ العدو جارّا موتاه، ومن جهتنا، مات لنا 10 جنود وأصيب 70 بجراح.

انتهت المعركة على الساعة الثانية عشر، لكن اتخذ اللواء فورا تدابيره لمواصلة السير نحو الطافنا، رغم كل محاولات مصطفى بن اسماعيل أن يجبره على تغيير رأيه، وقد برر مصطفى محاولاته هذه بقوله للواء أنه من الخطر التوغل في الجبال بعد معركة لم تحسم بعد، وأن القبايل سيهاجمون جنوده قبل وصولهم إلى الطافنا، وإن وصلوا سيطوقون من طرف الأهالي الذين يرعبهم انهزام ساحق. وأضاف أنه من المستحسن أن يعسكر الجيش في هذا المكان، مما سيرغم القبايل على مهاجمتهم، لكنهم سيهزمون لأن وضعية الجيش تلك تسمح بذلك، مما سيؤدي إلى فتح بلادهم، لكن لم يتبع اللواء هذا المنطق، بل أيقن أن إبطاء حركة الجيش ستعطي للقبايل جرأة أكبر. فاستأنف طريقه الذي لم تعتريه أي مشاكل سوى بعض مصاعب الطريق. في أحد التوقفات الذي لم يدم

إلاّ حوالي ساعتين، جاءت فرق من جيش عبد القادر لتبادل القصف لكن بدون إصرار. وصل الطابور ليلا على ضفاف الطافنا، على بعد ميلين من مصبّه. وفي يوم 16، وصل اللواء دارلانج إلى مصب الطافنا، قبالة صخرة رشغون أين أقمنا منذ خمسة أشهر حامية صغيرة، أقامت قواته على الضفة اليمنى، بينما شيدّ موقع محصن على الضفة اليسرى.

كانت حينئذ حامية رشغون تحت قيادة القائد فرانكونين، من الكتيبة الأولى ونجح في ذلك بمساعدة يهودي من وهران الذي عمل جاهدا في إقناع بوحاميدي في هجر عبد القادر.

التقى فرانكونين وبوحاميدي على الضفة، تكلموا في شأن السلام ولكن بدا سوء التفاهم بينهما، لأن السيد فرانكونين، طبقا للتعليمات التي تلقاها، لم يفاوض إلاّ للتفريق بين الوهاصة والأمير، بينما ظن بوحاميدي أن التفاوض على السلام كان مع عبد القادر وكان مكلفا بتبليغه ذلك، وربما تظاهر بذلك، لكن في لقاءات أخرى، توضح كل شيء: أوضح السيد فرانكونين لبوحاميدي ما كان هذا الأخير يجهله، وردّ عليه هذا القايد أنه لا يريد هجر عبد القادر وقد أبلغه مساعي السّلام هذه، وأنّ الأمير يريد السّلام، لكنه يريد أن يفاوض مع ملك الفرنسيين، لا مع الألوية الذين يتغيرون مرارا، وبالتالي لا يوجد أي

شيء مستقر بذلك. حينئذ انقطعت المفاوضات.

هذه هي أحوال الطافنا حين وصول اللواء دارلانج إليها. أما في تلمسان، لم يهاجم القائد كافينياك إلاّ مرة واحدة من طرف العرب ولكن استطاع أن يصدهم دون عناء. منذ أن أصبح معزولا، لم يرسل إلاّ رسالتين للواء، والمراقبة النشيطة التي فرضها عبد القادر لم تسهّل الأمور التي ازدادت صعوبة. كانت تعليمات اللواء فتح الاتصالات عن طريق الطافنا رشغون، لكن ليتحقق ذلك كان من اللازم التمركز بقوة في مكان النزول، كما أمر بذلك اللواء. وكان سبب أكثر إلزامية للتحصن في هذا المكان، وهو ما تنبأ به مصطفى بن اسماعيل: كان القبايل كلهم مسلحين، و ما زاد من غضبهم الإفساد الذي قام به جنودنا ومصطفى بنفسه على ضفاف الطافنا. أحرقت دار بوحاميدي التي كانت تجاور المعسكر. بدأت أعمال التحصين يوم 17، اليوم الذي تلى وصول اللواء دارلانج يوم 20، وصل عقيد الهندسة لومرسيي إلى الطافنا ومعه حصنين وأخشاب للبنايات المختلفة، فانتعشت وتيرة الأشغال عندئذ.

لكن عبد القادر كان يجمع جنده، وكل يوم كانت طلائعه تهاجم اللذين يمونوننا بالعلف، لكن لم تظهر بعد قواته. في أمسية يوم 24، قرر

اللواء استطلاع قوات العدو، ويتأكد أنه لم يحاصر في معسكره كما راوده الشك في ذلك.

خرج بالمشاة، تاركا الحراس والعمال، وتموقع في مرتفعات الضفة اليسرى للطافنا، أين التحق به الفرسان عند طلوع الشمس، ثم سار كل الفريق الاستطلاعي في اتجاه المرابط وقرية سيدي يعقوب، غرب طريق تلمسان، ظهر بعض العرب في الأفق وفرقوا بقصف مدفعي، انتشر السبايس النظاميون على بعد ميلين داخل الأراضي، مخالفين في ذلك أوامر اللواء، الذي توقف مع المشاة، لكنهم سرعان ما عادوا وعلى أثرهم بعض مئات من القبايل، الذين كان البعض منهم قد ظهر على جوانب الطابور.

بدأ الطابور حركة تراجعية نحو المعسكر، لأن طلائع العدو التي ظهرت كانت توحي أن عددا كبيرا من الجنود سيلتحق بها عن قريب. وبالفعل ظهر جيش العدو من كل خانق واستولى على كل التلال. هذا لم يخف جنودنا الذين كان عددهم لا يتجاوز 1800، بل بالعكس، أظهروا حماسة للقتال شجعت اللواء أن يخوض المعركة وكاد يفعل لولا أن رأى عدد جنود العدو في تزايد مستمر،، مما أجبره على التراجع في شكل طابورين، مع قناصين على الجوانب وفي المؤخرة.

ثم انقض العدو حينئذ على قناصينا بعنف وشدّة لم نرها إلا في

معركة المقطع. في العديد من المرات، أجبر جنودنا لاستخدام الحراب، مهاجمين العدو، رغم الأوامر التي أعطيت لهم بالاكتفاء بالدفاع، مما ادى إلى كشف الجوانب و إبطاء السّير حوصرت إحدى الفضائل من طرف القبايل، لكن هجوما قويا من الفرسان تحت قيادة النقيب برنار، فكت الحصار.

عند وصولهم إلى ميدان منخفض محاصر من كل المرتفعات، تعرض الفرنسيون إلى نيران كثيفة، طبيعة ذلك الميدان لم تتح أي فرصة للمدفعية التي كانت تنقصها أيضا الذخيرة، خاصة مدفعية الجبال. هزم القناصون ووصل العدو إلى الطابورين.

لم تحدث معركة أكثر شراسة في إفريقيا من تلك. وصل القبايل حتى مدافعنا، وبذل جنودنا جهدا عظيما لردّهم، جرح اللواء و العميد موسيون، رئيس أركانه والقائد لاغوندي، مساعده. لم تنجو مؤخرة الجيش إلا بأعجوبة. وصلت قواتنا أخيرا إلى حصن الطافنا على الساعة الواحدة. لوكان السير أطول، هلكوا جميعا.

في هذه المعركة المؤسفة، فقدنا 300 رجل، في حين كان اللواء يقاتل الجيش الرئيسي الذي يبلغ تعداده من 7000 إلى 8000 رجل، اقترب طابور كثيف من المركز الذي كان لا يزال مفتوحا ولم يكن فيه إلا 600 رجل تقريبا. ولو تم الهجوم على المعسكر لأخذه. فقد عبد القادر العديد

من الرجال يوم 25، لكنه فاز بالمعركة. كان اللواء الفرنسي محاصر في معسكره، ولم يستطع الاتصال بتلمسان ولا العودة إلى وهران برّا. أقام الأمير مركز قيادته العام في ندرومة، بلدة صغيرة بالقرب من الطافنا.

تموقعت فرقة من جيشه على طريق تلمسان، عند ملتقى الطافنا ويسر، وتموقعت أخرى على طريق وهران. كانت طلائعه تأتي كل يوم لتطلق النّار على المواقع الفرنسية المتقدمة وتضايق المعلفين. أصبح من المستحيل الخروج من المعسكر أين كانت تتقدم الأشغال بوتيرة مرتفعة لأن التحصينات أصبحت ضرورية وحيوية، كان من المقرر بناء تحصينين فقط في معسكر الطافنا، ولكن استطعنا أن نجعل من هذا الموقع حصنا حقيقيا كلف ما يقارب 800 ألف فرنك. لم تسمح حالة البحر المضطربة بالاتصال برشغون فاكتفى الجنود طوال أيام عديدة بحصة غذائية صغيرة من الأرز ولحم الخيل التي قتلت في المعركة. لم يظهر الجنود أي احتجاج ولا حتى همسة، بل تصرفوا بكل شجاعة واستسلموا للأمر الراهن، رغم كل ما كان يؤدي إلى الإحباط، مثلما يحدث في مثل هذه الظروف الصعبة، أين نرى اختلاف بين القادة.

استغل عبد القادر هذه الظروف بكل مهارة لزيادة نفوذه بين القبائل. أرسل إلى سهل الشلف فرقة عسكرية صغيرة استطاعت رغم قلة جنودها أن تدخل كل هذه المنطقة في عقد الأمير، وأجبر المجاهر كل من إبراهيم

باي والمزاري، المقيمين في مازاغران، على الذهاب إلى مستغانم. بالتالي أجهضت كل الجهود الجبارة التي قام بها بيريغو. عاد الغرابة لاجتياح ضواحي وهران وهاجموا القوافل التي كانت تربط بين وهران ومعسكر لوفبغي، واستطاعوا في إحدى هجماتهم الدخول والتسلل وراء الخط المحصن.

بلغ حماس العرب أوجّه لعبد القادر الذي ظهر بفوز جديد بعد نكستين، فأخذت القبائل تدخل في عقده الواحدة تلو الأخرى حتى البعيدة منها، مثل قبيلة أولاد سيدي الشرك، التي كان قائدها تربطه علاقة حميمية بعبد القادر و أراد أن يعطي المثل في المبايعة.

لكن لم ينخدع الأمير بهذه العودة إليه لكل هذه القبائل وكان على دراية على أن هذا النصر قد ينقلب ضده إذا تدهور في التقدم إلى الأمام. لهذا لم يهاجم المعسكر واكتفى بمضايقته وحصاره، وكتب في نفس الوقت للواء دارلانج للتفاوض مع فرنسا، لكن لم يتلق إجابة على رسائله.

كان الحصار شديدا حتى أن العشب نفد ولم يبق ما تأكله الخيل، ولزم إرسال العلف من وهران. أراد مصطفى أن يهرب ليلا رفقة فرسانه، الذين كان وجودهم لا يفيد في شيء، لكن مشروعه لم ينجح بسبب معرفة عبد القادر به بعدما أخبر من هارب وأحكم الحصار أكثر.

الجزء الأول

كان من اللازم إرسال بعض الخيول إلى وهران بحرا للحفاظ على الموارد، ذهب أيضا اللواء دارلانج إلى وهران رفقة فرقة من السادس والستين، بينما بعثت إلى الطافنا فرقة من الثالث والستين من طرف اللواء راباتل، بعد اتخاذه بعض تدابير الدفاع، عاد اللواء دارلانج إلى الطافنا، موقع الخطر والذي كان هو المعين لذلك.

في الوقت الذي بدأ فيه حظنا يذبل في منطقة وهران حيث كانت قوة حقيقية هناك، وهذا ينطبق أكثر على منطقة التيطري التي لم يكن لنا فيها سوى بايا واحدا، وهو في الحقيقة من ضرب الخيال. هذا الشيخ العجوز كانت له همة رغم ذلك، لأنه فعل ما ينتظره المرء من رجل مخلص، حتى في كونه في وضعية لا يحسد عليها، أولا أن الأهالي نبذوه لأنه تركي، ونحن تركناه بدون وسائل للعمل. لكنه قضى شهرا في وضعية مريحة في المديّة. كان سقوطه النهائي نتيجة ظرف يدل بشكل قاطع على كره العرب للنظام التركي. ذلك الذي تركناه وحده ودون مال كتب إلى الجزائر طالبا المال، وأجيب أنه لا يوجد أي مال يمكن إعطاؤه إياه، وإن أراد المال ما كان عليه إلاّ أن يفعل كما فعل البايات الذين سبقوه في المنصب. لكن سقطت الرسالة بين أيدي الحاج الصغير، باي مليانة، الذي استنسخها وبعثها إلى القبائل كبرهان قاطع على

نية الفرنسيين لإعادة النظام التركي في الحكم. على الفور شاركت قبائل صوماته، وموزاية و بني مناد وملياطة و بني زوق زوق و جندل وريغا وأوسرا وقبائل أخرى في تشكيل قوة عسكرية كبيرة تحت لواء باي مليانة الذي سار نحو المديّة بصحبة محمد بن عيسى البركاني[1] على رأس هذه القوات. لم يكن لدى باينا سوى الكولوغلي و جزء من قبيلة حسن بن علي وبعض الدواوير والحبيد، أي القليل جدّا من الرّجال. الحضر (عرب المدينة) كانوا ضده. لكن رغم قلة عدد جنده، خرج لملاقاة العدو ونجح في دفع جزء من قوات العدو، إلاّ أنه لما لم يرد أن يبتعد كثيرا عن المدية، فعاد أدراجه وخسر أثناء التراجع الكثير من الرجال.

جرح البركاني أثناء هذه المعركة. ولم يثق محمد بن حسين في حضر المدينة عند عودته إليها، وأوكل كلّ المهام للكولوغلي، غيران هذا التدبير لم ينقذه، لان الحضر استولوا على أحد أبواب المدينة وفتحوه، سامحين بذلك للحاج الصغير بالدخول إلى المديّة، ابن أسر الباي العجوز وأرسله فورا لعبد القادر، بينما نزع السلاح من عند الكولوغلي وقهروا. هكذا سقطت المديّة من جديد في يد عبد القادر.

(1) عينه عبد القادر بايا للمدية.

بن عودة المختاري، أقوى شيخ في جنوب منطقة التيطري، لم يرض بهذا الأمر كما لم يكن راضيا حينما عين محمد بن حسين. منذ أن اعترف الكثير من قبائل الجنوب بسلطة عبد القادر، خاف على استقلاله ولم يعجبه عودة سلطة الأمير إلى المدية. كتب إلى اللواء راباتل لتجديد عرض الخدمة والتعاون التي عرضها سابقا على اللواء فوارول، وحاول أن يضايق البركاني.

أثناء غياب الحاكم العام الذي طال عدّة أشهر، كانت قضايا منطقة الجزائر في سوء الأحوال، بفعل الاتجاه الخاطئ الذي أعطي لها. هجمات الحجوطيين لم تتوقف وكانت دائما لصالحهم.

في الأيام الأخيرة من أفريل، اختطفوا أوروبيين وإمرأة بين الدويرة وبوفاريك وبعثوا واحدا من هؤلاء الأوربيين إلى عبد القادر، أمّا الآخر، فكان مجروحا وبقي تحت حراسة أحد الحجوطيين الذي كان شقيقه أسيرا عند الفرنسيين، وتم تبادلهما بعد بعض الوقت، أمّا المرأة فقتلها حجوطي آخر، الذي أنهى بهمجية خلافا حولها.

عندما علم باختطاف الأشخاص الثلاثة، قام اللواء راباتل باعتقال بعض عرب الجزائر الذين حام حولهم الشك في انتمائهم إلى الحاج الصغير، ظنت الشرطة أن اعتقالهم سيمكنها من الوصول إلى إطلاق سراح الأوربيين، لكنها أغضبت خارج أسوار المدينة، وأنّ

هذا سيؤدي إلى طغيان كبير. وأرسل أعيانهم شكوى بهذا الصدد إلى باريس. ما كانت الإجابة إلا أمرا باعتقالهم، صادرا عن المشير كلوزل. كان عدد هؤلاء السجناء الجدد ستة وتم إرسالهم إلى قصبة عنابة، من بينهم إبراهيم بن مصطفى باشا، رجل غير مؤذ ومنعدم الكفاءة تماما، وأحمد بودربة رجل ماكر ذو سوابق سيئة ، وحسان بن حمدان الذي ألّف كتابا تحت عنوان المرآة، أين يهاجم بشدة المشير كلوزل. حجزت عندهم وثائق قيل أنها تعرضهم للشبهة لكنها لم تأت بأي دليل، لأن المقاطع التي كان من المفروض أن تدينهم كانت مشفرة. الرسائل التي كتبها الأب حمدان، الذي كان في باريس، لم تعط أيّ برهان حول ما كان يتهم به الموقوفون من التعامل مع العدو، فالدليل الوحيد الذي أتت به هذه الرسائل هو أن كاتبها والمرسلة إليهم كانوا لا يحبّون المشير وليسوا من أنصاره. بعد حبس لبضعة أشهر، أطلق سراح أربعة سجناء بعد قرار من الحاكم، بينما نفي من الجزائر بودربة وحسان بن حمدان.

مضايقة عرب الجزائر لم تثن من عزيمة الحجوطيين الذين وصلوا هجماتهم، واشتبكوا في العديد من المرات في ضواحي بوفاريك ومراد، موقع متقدم على طريق البليدة. يوم 10 جوان، هاجموا معمّري دالي إبراهيم، وقتلوا منهم وأسروا آخرين ونهبوا الماشية.

في يوم 16 من نفس الشهر، اختلسوا ليلا قطيعا لإدارة الدويرة، ثم بعد أيام قليلة من ذلك، دخلوا حتى بوزريعة، وقتل عسكريون بين برج الإمبراطور و دالي إبراهيم. سرق قطيع في لابوانت بسكاد. ولم تصل هجمات العرب إلى القرب من الجزائر مثل هذا إلاّ في الأيام الأولى من الاحتلال

في بداية شهر جوان، أقيم موقع مؤقت عند المرابط سيدي عبد المومن، في السهل، بالقرب من المعالمة، ومكث فيه الزواف لحماية عملية الحصاد في ذلك المكان.

لما انتشر خبر وضعية قواتنا في الطافنا، لم ير الوزراء والنواب، وكذا أنصار وخصوم الاحتلال إلاّ أن تنقذهم من تلك الورطة بكل شرف. لهذا الصدد، أرسلت بحرا ثلاثة أفواج جديدة، الثالث والعشرين، الرابع والعشرين والثاني والستين للخط، ونقلوا إلى الطافنا. عين اللواء بيجو لقيادة هذه الحملة الجديدة.

نزل في الطافنا يوم 6 جوان مع جنوده، وقد وصلوا على متن ثلاثة سفن: نستور ومدينة مرسيليا وسيبيون، وعين اللواء ليتانغ حاكما لوهران عوض اللواء دارلانج.

قضى اللواء بيجو ستة أيام في الطافنا، زوّد أثناءها الحصن بكل المعدّات والذخيرة اللازمتين، لكنه بدا مترددا في الكيفية التي سيبدأ

بها الحملة. وأخيرا قرر أن يأخذ جنوده إلى وهران وينطلق من هناك إلى تلمسان، وترك في الحصن كتيبة إفريقيا الأولى وبعض الفصائل وكل قيادته لرئيس كتيبة الهندسة بيرو. يوم 12 في منتصف الليل، غادر اللواء الطافنا في طابور واحد. في الصباح، فيما وراء المضيق الجبلي لسيدي بوحاميدي، هوجمت الأمتعة، التي كانت منكشفة، من طرف 300 إلى 400 من فرسان عبد القادر، لكنها استرجعت من طرف فصيلة من القناصين والكتيبة السادسة والستين اللتان أبعدتا المهاجمين، رغم فقدان بعض الأمتعة على الساعة العاشرة، حدث اشتباك عند عبور جدول، ولكن هجوم من مصطفى ونيران الرماة أوقفت العدو على جنبه الأيمن تكتل 1000و1200 فارس، فسار إليهم اللواء بيجو بطابور على اليمين، تاركا في الاتجاه الأول الثاني والستين والأمتعة، لم يصمد العدّو، هوجم الثاني والستون في مؤخرته من طرف رماة وارتبك شيئا ما بسبب عزله وترك بعض الرجال المتأخرين. وصل الجنود في المساء إلى واد غازر بعد مسيرة دامت ثمانية عشر ساعة. كانوا مرهقين لأنهم من الجدد الذين لم يتأقلموا في إفريقيا بعد. يوم 13، غادر الجيش واد غازر وبات في واد سنان، وفي يوم 14 بات في عين عامرية، ويوم 15 في مسرغين ويوم 16 في وهران.

يوم 19 ذهب اللواء بيجو إلى تلمسان أين وصل يوم 24. حدث في ذلك

اليوم اشتباك صغير بين الفرسان في سهل سفيزف، قتل فيه بن عمر، أحد آغات عبد القادر. عسكر الجيش خارج المدينة أين أرسل كتيبة واحدة. وجد اللواء بيجو حامية المشوار في حالة مرضية، لأنها لم يُشن عليها أي هجوم حقيقي. رعى قطعان الأمير الكبيرة كل العشب في المنطقة، لكن هذا لم يؤثر على مخزون الحامية، رغم نقص اللحم في بعض الأحيان. غير أن العرب كانوا يأتون إلى المشوار أحيانا ليبيعوا الماشية، عندما يستطيعون التسلل من الرقابة التي وكل عبد القادر كل من بني ورنيد و أولاد ريعة بفرضها على الحامية، لما لا يراقبها بنفسه. تمكن الضباط و الجنود من خياطة ملابس لهم بقماش البلد و أحرزوا على شيء من الرفاهية بفضل ما استطاعوا أن يصنعوه. كان للقائد كافينياك الأثر الكبير في رفع معنويات الفرنسيين المتواجدين بين أهالي معادين بما كان يتمتع به من ثقة. غادر الكثير من العرب المدينة، لكن بقي فيها أيضا العديد من الكولوغلي و اليهود. يوجد، فيها سوى احتياجات الحامية، دكاكين الزيت التي تلقى اليهودي لاصري الإذن بامتلاكها، في شهر فبراير الذي مضى، لكن لم يستطع أخذها، فأرجعها اللواء بيجو للسكان.

خرج اللواء بيجو من تلمسان يوم 26، متجها إلى الطافنا، بعدما عوض 200 مجروح ب200 رجل من الحامية و بات على بعد ميلين فقط من المدينة. في اليوم الموالي، يوم 27، بدأ السير على الساعة السابعة، بعدما

لحق به الفرسان و المعاونون العرب و كذا قافلة البعير التي مكثت في الليلة التي مضت في تلمسان. عسكر الجيش في مكان يدعى سبعة شيوخ، بعدما تجنبوا الممر الجبلي للطافنا الذي تركه على اليسار. يوجد هذا المكان في الجبال، لكن يمكن الوصول إليه عبر طرق سهلة نسبيا. يوم 28، نزلنا من الجبل، من سفحه الشمالي، ووصلنا إلى مخرج الممر الجبلي الذي تجنبناه عند المجيء و الذي أوقف المشير كلوزل في جانفي الذي مضى. شرع اللواء بيجو في استطلاعه رفقة الفرسان و كتيبتين. هو طريق وعر، لكنه أقصر بميلين على الأقل من ذلك الذي يمر على سبعة شيوخ. بعد هذا الاستطلاع، عسكر الجيش في مكان يدعى سابكا، و في اليوم الموالي، يوم 29، استأنف سيره نحو معسكر الطافنا أين وصل على الساعة التاسعة صباحا.

أقام اللواء بيجو في المُعسكر حتى يوم 4 جويلية، أين غادره على رأس موكب كبير من المئونة و الذخيرة، في اتجاه حامية المشوار الذي كان تزويده بالمؤن هو الهدف الرئيسي للحملة. تكون هذه القافلة من حوالي 350 بعيرا، كانت تتبع الجيش منذ الانطلاق من وهران.

بات الجيش يوم 4 جويلية في سابكا، و في يوم 5 اجتاز الجبل مرورا على سبعة شيوخ، تاركا على اليمين الممر الجبلي للطافنا وعسكر على ضفاف يسر، غير بعيد من ملتقى هذا الواد بواد زفيزف. في الليل، النيران

المتشرة بينت تواجد العدو، و بدا جليا أن عبد القادر قد تخلى عن تحفظ و يريد القتال. بالفعل، في يوم 6 في الصباح الباكر، عندما نزل الجيش إلى سهل زفيزف في شكل ثلاثة طوابير، تعرضت مؤخرته للهجوم من طرف فرسان الأمير، الذي كان يعسكر عند مدخل الممر الجبلي الذي تجنبه اللواء بيجو. صمد العرب المعاونون للصدمة، وكان مصطفى حازما و شجاعا رغم إصابته في اليد و فقدانه لخمسة عشر رجل في المعركة. في هذه الأثناء، اجتازت طوابيرنا السهل و انتشرت على هضبة الضفة اليسرى، أما الموكب فاتجه يسارا و دخل طريق تلمسان. لم يلبث المشاة الأفارقة بقيادة الأمير شخصيا أن يظهروا في الاتجاه الذي أخذه الجزء الرئيسي من الجيش، بينما شدد فرسانه الضغط على المؤخرة. كان اللواء بيجو مهاجما في المقدمة و المؤخرة، لكن انفصم العدو إلى قسمين عندما حاول أن يحتويه، فاستغل اللواء هذا الخطأ الفادح بكل براعة. وضعت الفرقة 62 و كتيبة إفريقيا في الوراء، وواجه باقي الجيش عبد القادر في خطين يشكلان زاوية منفرجة. بعد اتخاذ هذه التدابير، هاجم اللواء بالقناصين مشاة إفريقيا المدعمين ببعض الفرسان الذين شُتتوا بسهولة، لكن المشاة صمدوا خاصة بعد تردد الفرسان الفرنسيين، الذين هاجموا ثانية بقوة فهزموا العرب و حشروهم في قمع شكلته التواءات واد يسر. خلف الإفريقيون 200 قتيل وأسر منهم 130، بينما فر الآخرون إلى المسايل و الجبال. حُسمت أيضا المعركة في

المؤخرة، و صدت الفرقة 62 و كتيبة إفريقيا العرب إلى ما وراء السهل، وأكملت المدفعية هذه المهمة.

لم تكلفنا هذه المعركة سوى 75 رجلا، بين قتيل و جريح. خسائر العدو كانت ضخمة. جمع جنودنا أكثر من 600 بندقية، كما سقطت ستة رايات بين يدي المنتصر. أما عبد القادر الذي قاتل بشجاعته المعهودة فقد قتل فرسه تحته ووجد صعوبة في الفرار مع بقية جنده في اتجاه ندرومة.

انتهى القتال على الساعة الثامنة، واتجه الموكب، تحت حماية الفرقة 24 للخط و فصيلة تلمسان، نحو هذه المدينة. وتوجه باقي الجيش إلى ضفاف الطافنا أين اجتمع في منتصف النهار. وعلى الساعة الثالثة توجه الفرسان إلى تلمسان أين وصلوا في نفس اليوم، بينما وصل المشاة و اللواء في اليوم الموالي.

استراح الجنود في تلمسان يوم 8، و في يوم 9 خرجوا إلى هضبة بني ورنيد الذين لم ينتظروهم، فأخذ الجنود الكثير من حبوب هذه القبيلة لتموين تلمسان أين دخلوا يوم 10 بعدما قضوا الليلة قرب ينابيع لوريط[1] الخلابة.

---

(1) تشكل هذه الينابيع شلالا خلابا، الذي يتحول بدوره إلى واد يدعى لوريط في الجبال و سفيزف في سهل تلمسان. قبل ما يلتقي بواد يسر، يصبح اسمه واد سكاك. اشتق من هذا الاسم سيخاك الذي يطلق في التقارير الرسمية على معركة 6 جويلية.

يوم 12 جويلية غادر اللواء بيجو تلمسان مع جيشه الصغير عائدا إلى وهران، بعدما أنجز مهمته : موّن المشوار وهزم عبد القادر. بقي ربما شيء ما نفعله، ولا ربما كان ممكنا استغلال هذا الانتصار لجلب القبائل نحو الباي الوهمي الذي عينه المشير كلوزل في تلمسان. لتحقيق هذا كان من الواجب البقاء وقتا أطول في المدينة و المفاوضة جديا، لكن إما أن السيد بيجو لم يُرِد تجاوز إطار مهمته التي كانت عسكرية بحتة، و إما أيقن أنه لن يصل إلى أي نتيجة بعد ما بدأ هذا الأمر على أسس فاسدة و لم يُرد أن يغير ذلك، أو كما أثبتته أقواله كان لا يرى أي مستقبل لإفريقيا، فغادر تلمسان دون أن يضم أي قبيلة إلى المعسكر الفرنسي.

لم تتلق كتيبة المشوار، التي أعطت المثل في الإذعان و الوفاء، أي تقدير من الوزير، الذي لم يتقبل أيا من الاقتراحات التي قدمها المشير كلوزل في شأنها. إلا أن اللواء بيجو وعد النقيب كافينياك أن يطلب له رتبة قائد كتيبة، لكن هذا الأخير كان لا يبالي بهذه الأمور فأجابه أنه لا يريد شيئا لنفسه إن لم يُشرَك الآخرون في المكافأة.

عند مغادرته تلمسان، سار اللواء بيجو في اتجاه معسكر حتى بلغ مقرات، في السيق العلوي، أين وصل يوم 16. لم يلتق سوى بعض الرماة في اليوم الثالث، الذين تبادلوا إطلاق النار مع المؤخرة. ألحق كل الأضرار الممكنة بالبلاد، فحرق المحاصيل و قطعها في طريقه. يوم

17، بات الجيش في طليلات، و دخل إلى وهران في قسمين، قسم يوم 18، و الآخر يوم 19. أبحر اللواء بيجو يوم 30 إلى الجزائر ومن هناك إلى فرنسا أين قُلّد رتبة فريق. فيما يخص اللواء ليتانغ الذي ترقى إلى رتبة لواء قائد، فبقي وحده في منطقة وهران.

معركة 6 جويلية هي أقسى ضربة تلقاها عبد القادر. تزعزع نفوذه بين القبائل و نفد ماله، وما أنقذه من هذه الوضعية إلا المعونة التي تلقاها من المغرب، لكن لم تتخل عنه قدراته العقلية و نشاطه أبدا. جلب إلى ندرومة كل الفارين من تلمسان، وحتى الكولوغلي، الذين سامحهم واحدا تلو الآخر و الذين قصمهم الجوع تحت الراية الفرنسية، انضموا إليه. بدأت صناعة الأسلحة و الذخيرة و حتى خياطة الملابس للجنود في هذه المدينة القريبة من البحر و التي كانت بالتالي عرضة لهجمات الفرنسيين كما هو حال معسكر التي كان يدخلها هؤلاء بسهولة، قرر الأمير إعادة بناء المدينة الأثرية الرومانية تاقدمت و أقام فيها مقر حكومته. هو الآن، في الوقت الذي أكتب فيه، في طور إنجاز هذا المشروع، لكنه لم يستطع جلب الكثير من الناس إلى تاقدمت.

قبل أن نتكلم في الأحداث التي واكبت رجوع المشير إلى الجزائر، لابد أن نلتفت لبعض الوقت نحو بجاية. هذا الموقع الذي لا صلة له مع المواقع الأخرى والمعزول في وسط سكان يعزلون أنفسهم عن

السكان المسلمين في باقي الوصاية، لا يقدم إلا بعض الحلقات، لكنها حلقات شيقة.

منذ إقامة حصن كلوزل، لم يحدث أي شيء يذكر في بجاية، حتى يوم 28 مارس. في ذلك اليوم، هاجم المزاية الحصن الفرنسي لكنهم تكبدوا خسائر فادحة، غير أن هذا لم يمنعهم من المحاولة ثانية يومي 15 و 21 أفريل، دون جدوى. غادر بجاية حاكمها العام، السيد ديلاروشات، تاركا الندم في الأنفس، ليتقلد منصب قائد فرقة في فرنسا، و خلفه في بجاية مؤقتا السيد سلومون دي موزيس، رئيس كتيبة و قائد الكتيبة الثالثة الخفيفة لمشاة إفريقيا.

هاجم القبايل مرة أخرى المواقع المتقدمة يومي 5 و 6 جوان، أين دار تبادل كثيف لإطلاق النار، خاصة على الموقع المحصن دورياك الذي أمطر بوابل من الرصاص.

لقد تخلينا منذ وقت طويل عن فكرة تهدئة الوضع في بجاية. توفي وليد أورابح من داء الرئة، و خلفه شقيقه امزيان كشيخ أولاد عبد الجبار و في نواياه للهيمنة على القبايل. في يوم من الأيام، أراد نجل وليد أورابح ليتعرف على الفرنسيين، فذهب إلى سوق بجاية ليتاجر بثيران له. غضب القبايل من هذا الأمر واتهموا أمزيان بأنه هو الذي نصحه بذلك و فرضوا عليه غرامة كبيرة، و هددوه بالحرب إن لم يدفعها.

أجابهم أمزيان أن ابن أخيه تصرف بدون إذنه، وأن من نصحه هو شخص يدعى عبد الرحمان، مرابط سيدي ميمون. و ليبرهن لهم أنه غاضب من هذا التصرف أيضا و أنه لا علاقة له به، دمر أملاك عبد الرحمان و سلبه قطعانه. لم ترض هذه الحملة القبائل الذين أصروا في اعتبار امزيان عميلا للفرنسيين، لكن، من جهته، كان عازما على أن يطلعهم على الحقيقة، وذلك بارتكاب جريمة. في هذا الصدد، كتب إلى السيد سلومون دي موزيس طالبا منه لقاء. ورغم مرضه ذهب هذا الضابط للموعد الذي حدد في المعسكر المحصن الأسفل يوم 4 أوت مرفوقا بترجمانه طابوني والمسيّر العسكري فورنيي ومداني، قايد بجاية، والنقيب بلانجيني، قائد الفصيلة الحرّة لكتيبة إفريقيا الثانية، التي مكثت غير بعيد من مكان الموعد. السيد سلومون وأمزيان تبادلا التحية، لكن فرسان الشيخ أحاطوا بالفرنسيين شيئا فشيئا ، وتفطن السيد بلانجيني لهذا التحرك وأراد أن يحرك فصيلته، لكن فات الوقت لما سمع دوي طلقات نارية طرحت حاكم بجاية أرضا رفقة ترجمانه، كما أصيب مداني بجرح بليغ، كما قتل حصان السيد فورنيي. تجمع القبايل حول هذا الأخير وحاولوا صرعه بمقابض بنادقهم ولما وصلت فصيلة السيد بلانجيني، هرب القتلة، تاركين جثث قتلاهم في الميدان، وبدا القبايل مصدومين بهذا الفعل الشنيع وهذا الغدر ولم نرهم لمدة معينة.

وخلف السيد لابان، رئيس فرقة المدفعية، مؤقتا السيد دي موزيس.

ويوم 25 سبتمبر عاد القبايل لإطلاق النار على المواقع الأمامية وعادوا يوم 26، في ذلك اليوم، قام السيد لابان بخرجة وصدّهم وراء قرية دار النصر. سوء فهم لأمر حال دون محاصرتهم وقتل أو أسر عدد كبير منهم، لكن رغم ذلك أسقطنا منهم حوالي خمسين رجلا، وفي يوم 27، بعدما تقاتلوا بينهم بسبب انهزامات الأيام الماضية، ابتعدوا ولم يظهروا بعد ذلك. مضى وقت قصير بعد هذه الأحداث وتم تعيين السيد شامبورلرون حاكما عاما لبجاية

الكتاب 20

المشير كلوزل في باريس- مخطط جديد للغزو- عمليات عسكرية في الجزائر ووهران- عودة المشير كلوزل إلى الجزائر- مهمة اللواء دامرمون- انتفاضة القبائل في عنابة - تحضيرات حملة قسنطينة- حملة قسنطينة- إخفاق وتراجع- وتموين المشوار من طرف اللواء ليتانغ- توغل العرب في المتيجة.

لقد قلنا إن خشية رد فعل غرفة النواب فيما يخص قضية الجزائر هي التي دفعت الوزارة أن تستدعي المشير كلوزل إلى باريس ليدافع عن قضية تعتبر قضيته، نرى هنا أن الأدوار قد انقلبت، لأنه حتى ذلك الوقت كانت المستعمرة تخشى نوايا الحكومة أكثر من نوايا النواب، لكن الرأي العام أجبر الحكومة على تغيير رؤيتها.

في غرفة النواب، الوحيدة التي كان لها التأثير على مستقبلنا، صوتت

أغلبية ساحقة لصالح الجزائر. بدأ النقاش بصفة سيئة: لم ينقد خصوم الاحتلال سوى تجاوزات الإدارة، بينما برز مساندي الاحتلال هذه التجاوزات- بصفته خطيب، لم يتطرق المشير كلوزل لهذه المسألة، لكن تواجده وهيبته أضعف الانتقاد وساند الدفاع.

أطال السيد المشير كلوزل إقامته في باريس بعد رفع جلسات غرف النواب، لأنه بعد الدفاع عن الجزائر أمامها، كان عليه الدّفاع عن منصبه الذي كان مهددا رغم أنه لا يميل إلى لعب دور سياسي معين، إلا أنه يظهر مساندته للمعارضة المتشددة ونتج من ذلك تحفظات ألزمت الحكومة أن تسمع للانتقادات في شأنه.

وهكذا تم لفت النظر في باريس إلى وثائق بعثت من إفريقيا والتي لم تكن لينظر فيها لولا أنها كانت تخص المشير كلوزل الذي نصح بالتقاعد لكنه أبى. لما طلب من الوزير تبرير هذا الطلب بالتقاعد، تراجع واكتفى بمقايضة المشير في كل الأحوال: لم يقبل تعيين المحافظ الخاص للشرطة في إفريقيا الذي نصبه السيد المشير؛ أرسل السيد رثالبي دوما إلى كورسيكا، رغم رغبة المشير أن يبقى في منصب المدعي العام، وتم تعويضه بالسيد سيميري[1]؛ واقترح لمنصب المسير المدني السيد دي سيفري فأعطي السيد بريسون.

(1) كان هذا القاضي مريضا، فمات و لم يتمكن حتى من أن ينصب في منصبه.

قانون وزاري جديد عدل و عوض قانون 4 سبتمبر 4381 المتعلق بصلاحيات الموظفين الكبار وصلاحيات السيد بريسون كانت أكبر من تلك التي كان يمارسها السيد لوباسكي، الذي سبقه في المنصب.

ووضع تحت إدارته مدير المالية، و كانت عنده الصلاحية أن يراسل الوزارة مباشرة. تبين من هذه التدابير أن الوزارة وضعت رقيبا على المشير.

لم يكترث هذا الأخير بهذه المضايقات وذهب يجامل النزعة الوطنية و الرغبة في المجد التي تكمن في نفسية السيد تيار فكلمه حول الاحتلال الشامل مما أيقظ عند تيار أحلام المجد إن تمت هذه الإنجازات باسمه.

عندئذ أصبح هذا الأخير أكثر ليونة مع المشير لظنه أنه عنصر أساسي في تحقيق هذه الانتصارات العسكرية. لكن تيار كان في حاجة إلى مخطط واضح ولم يكتف بمشاريع غامضة، لذا طلب من المشير كلوزل أن يعطيه مخططا واضحا، رغم أن كلوزل يكره هذا العمل، لكنه كلف السيد درانسي بكتابة هذا المخطط و تقديمه للوزراء و مناقشته معهم.

ناقش السادة النواب هذا المخطط و طرحوا وجهات نظرهم وملاحظاتهم واعتراضاتهم، ووعدوا أن يناقشوه في مجلس الوزراء، لكن لم يتخذ أي قرار.

وعدت الوزارة فقط بأن تبعث إلى إفريقيا الكتائب الثالثة للفرق الموجودة آنفا هناك. لكن مر المشير مباشرة إلى العمل و أرسل أوامر إلى الجزائر بيده العمليات[1].

حسب مخطط السيد كلوزل (الذي يشبه في جانبه العسكري ذلك المخطط الذي اقترحناه في المجلد الثاني من الحوليات، في حالة احتلال شامل و متزامن). يجب احتلال كل المراكز السكانية و النقاط الإستراتيجية.

قرر السيد المشير احتلال منطقة التيطري في شهر سبتمبر و إقامة معسكر في الحال ليكون قاعدة انطلاق الحملة. في شهر أكتوبر قرر احتلال قسنطينة و منطقتها، ثم بعد ذلك منطقة وهران. و أخيرا، قبل نهاية 1836 ستخضع وصاية(مملكة) الجزائر السابقة بأسرها.

عندما تلقى القائد العام رابانل هذه التعليمات، بدأ العمل بها في منتصف شهر أوت. وغادر الماركيز دي بروسار بوفاريك ليشيد معسكر الشفة مع حوالي 2000 رجل و الذي تشكل نواته الفرقة 63 للخط. كان الظن أن نربط معسكر الشفة ببوفاريك بمعسكرات بينية. لهذا

(1) انظر في الجزء الثاني من هذا الكتاب، الرسالة المكتوبة في هذا الموضوع إلى اللواء ربانل وانظر كذلك مشروع الاحتلال المقدم للحكومة.

توقف أولا اللواء بروسار[1] عند المرابط سيدي خليفة، على بعد ميلين من بوفاريك، و بدأ تشييد معسكر صغير؛ ووصل إلى ذلك المكان يوم 17 أوت، و بدأ الجنود في العمل في اليوم الموالي. وفي يوم 21، هوجم جنودنا من طرف بعض المئات من العرب الذين فرقتهم طلقات المدافع بسهولة. انتهى العمل يوم 25 و مكث في المعسكر بعض الجنود، فواصل اللواء بروسار طريقه إلى الشفة. توقف أيضا في واد العلايق، الذي نسميه جدول العلايق، على بعد ميل من سيدي خليفة، و شرع في بناء بنية دفاعية كأساس لموقع محصن. يوم وصوله إلى ذلك المكان، أي يوم 25، دخلت مقدمة قواته في اشتباك طفيف مع العرب.

هذا النظام المتكون من مواقع محصنة صغيرة كان يتعارض مع مخطط الاحتلال الشامل الذي وضعه المشير. حسب هذا المخطط، كان علينا احتلال كل الوصاية ب 35000 رجل. لهذا كان من الواجب الاستفادة من جنود متحركين للتأثير على السكان و ليس جنودا خامدين على الأرض. هذا يعني أن نظام التحصينات الصغيرة، باستخدامه الكثير من الجنود، كان عائقا كبيرا لتحقيق الاحتلال الشامل. و أيضا، لنشر نظام التحصينات لكل الوصاية كان لابد من 200 ألف جندي. إذا من اليوم الأول، كان النظام الذي قد أمر به المشير قد تغيرت طبيعته.

(1) خلف هذا اللواء منذ وقت قصير اللواء رويل الذي خلف بنفسه اللواء تروبريان.

أثناء عملية اللواء بروسار في الشفة، كان اللواء ليتانغ يتابع هو أيضا عمليته في وهران. خرج يوم 16 أوت بأكبر عدد ممكن من جيشه المقسم إلى لوامين و بات في معسكر لوفيغي. في اليوم الموالي توجه نحو أولاد علي الذين ينتمون إلى قبيلة بني عامر الكبيرة.

كانت نيته أن يعسكر في طليلات، لكن الحرارة الشديدة حالت دون ذلك. ولم يستطع المشاة مواصلة السير، وانتحر الكثير منهم إثر إصابتهم بما يشبه الجنون، و هي حالة كثيرة الحدوث في إفريقيا. هاجم في ذلك اليوم جمع من الغرابة العرب المتعاونين و قتل منهم رجل.

وفي يوم 18، بات جيش الحملة بالقرب من ينابيع طليلات. وفي يوم 19، تقدم اللواء ليتانغ بكتيبة والفرسان داخل أراضي أولاد علي، تاركا كتيبته في موقعها. بعد أن طردنا بعض العرب وصلنا إلى مكان تنتشر فيه المطامر، دل عليه أسيران قبضنا عليهما أمس ذلك اليوم. أخذ أعواننا كمية كبيرة من الحبوب.

أراد حينئذ أولاد علي أن يفاوضوا، لكن اللواء ليتانغ قال لهم أنه لن يفاوض قبل تسليمه رهائن. قبل أولاد علي هذا الشرط، و سلموه في يوم 20، 13 رهينة. أعطاهم اللواء بذلك عهد السلام و عاد مع جنوده إلى وهران.

وصل المشير كلوزل إلى الجزائر يوم 28 أوت، بعد غياب طال أكثر من أربعة أشهر. بعث حضوره روحا جديدة و نشاطا للعمليات العسكرية. وصل أخيرا اللواء بروسار إلى الشفة بعدما أقام حصونه المتوسطة، يوم 6 سبتمبر أين دخل في معركة صغيرة. قبل أيام قليلة من ذلك، وقعت فصيلة من ستة قناصين في كمين نظمه اثنا عشر حجوطيا في المعالمة. انقض العريف دورجي الذي كان يقودها على الحجوطيين ، و قتل واحدا منهم و هزم الآخرين. بعد بضعة أيام من ذلك، ثأر الحجوطيون لأنفسهم في كمين جديد أين قتلوا اثنين أو ثلاثة رجال.

يوم 8 سبتمبر، وصل السيد دو رانسي، مساعد المشير، من فرنسا آتيا بخبر حل الوزارة التي كان يرأسها السيد تيير. في باريس كانت الدهشة عظيمة عندما عندما علم المشير أن مشروعه قد صودق عليه، بينما كان في طور المناقشة في المجلس[1]، ووبخوه على الاحتلال المتسرع للشفة.

(1) أرسل المشير ميزون، الذي كان على وشك مغادرة الوزارة، في 30 أوت، الى الحاكم العام و المسير العسكري، أن الإجراءات التي اتخذت كانت في مجملها مطابقة للمحادثات و الإبلاغات الشفوية مع العديد من وزراء الملك، و لكنها لم يصادق عليها من طرف المجلس و لم تعطي الحكومة الموافقة الأخيرة فيها، لأنه سوى الموافقة أو الرفض لهذه العقوبة هي من صلاحيات الغرفة الجديدة. لهذا السبب يجب أن لا نشرع في أي شيء و أن لا نجازف و أن نبقى في حدود الاحتلال الحالية الذي يسمح به عدد الجيش المتواجد هناك و في حدود الاعتمادات التشريعية والنفقات المنصوص عليها والمعتمدة. صرح الوزير، بالطريقة الأكثر

بالطبع، تصرف السيد المشير كلوزل بدون أمر واضح، لكن يمكن أن نقول أنه تلقى من السيد تيير ضمانات للشروع في الحملة. مهما يكن، اضطر المشير ليرضخ للأمر الواقع و أعطى الأمر بإخلاء الشفة، بعدما يئس من الحصول على إمدادات من الرجال.

إلا أنه قبل التراجع، تقرر الدخول في بلاد الحجوطيين يوم 11 سبتمبر، لكن السبايس المعاونين، الذين كانوا مهيئين لهذه الحملة، لم يصلوا إلا يوم 12.

هذه الحملة عبارة عن الدخول من الضفة اليسرى لواد جر بطابور انطلاقا من معسكر الشفة. عند عبوره للوادي ووصوله للتلال التي تحد البحر يتجه الطابور نحو القليعة، ثم يلتقي عند الخروج منها بطابور صغير انطلق من معسكر المعالمة.

يتشكل الطابور الأول من السبايس النظاميين و المعاونين، من أربعة فصائل من الزواف و فصيلتين للتأديب، يقوده العميد ماري، قائد السبايس النظاميين و آغا العرب. أما الطابور الثاني، تحت قيادة العميد لاموريسير، يتشكل من أكثر من 200 رجل بين فرسان و مشاة.

في صباح يوم 12، تحرك السيد ماري، بمساندة من بعيد من كتيبة الفرقة 63 للخط، فرقتين و مدفعي جبل تحت قيادة اللواء بروسار.

إيجابية، رفضه مسؤولية الأعمال التي تتعدى هذه الحدود. (تقرير لجنة الميزانية لغرفة النواب في 1837).

عبر واد جر و دخل في غابة خرايسية أين يقطن العديد من الحجوطيين، و غنم منهم، لكن اصطدم بعدو كثيف، مما أرغمه أن يطلب مساعدة اللواء بروسار الذي أرسل له عندئذ ما توفر لديه من الثالث و الستين للخط و مدفعين جبليين. لم يبق مع اللواء بروسار سوى مئة فارس، و عاد بعد ذلك إلى الشفة ، ظانا أن التعزيزات التي بعثها لماري ستمكنه من الالتحاق بالعميد لاموريسير، لكنه وصل إلى الشفة وعلى أثره المئات من الحجوطيين.

من جهته، واجه العميد ماري صعوبات اضطرته إلى العودة بجنوده إلى الضفة اليمنى من واد جر، ملاحقا من طرف الحجوطيين الذين اشتبك معهم في الغابة، و لما عبر الوادي، وجد نفسه أمام الحجوطيين الذين لاحقوا اللواء بروسار و الذين عادوا أدراجهم بعدما رأوه دخل حصن الشفة. وقع اشتباك شديد في ذلك المكان، و قتل للسيد ماري 9 رجال و جرح له 11.

أثناء هذه الأحداث، كان العميد لاموريسير ينتظر أمام القليعة طابور السيد ماري الذي لم يصل لأنه أخذ اتجاها آخر، فقرر لاموريسير العودة إلى المعالمة، بعدما انتظر طويلا. حدث له نفس الشيء قبل ذلك بيوم، لأنه، كما قلنا آنفا، كان من المقرر أن يتم هذا التحرك يوم 11. أثناء

هذين اليومين، تلقى لاموريسيير و جنوده ترحيبا حارا من طرف سكان القليعة.

وفي يوم 14 سبتمبر، غادر اللواء بروسار ضفاف الشفة ووصل أمام البليدة وأقام خارج المدينة. وفي يوم 15، شرع في عملية استطلاع في جبل بني صالح الذين قابلوه بنيران بنادقهم. لما علم المشير بهذا، أمر اللواء أن يمكث بعض الوقت في البليدة لكي لا يظهر تراجعه أمام العرب.

يوم 16، اكتمن القبائل في حدائق المدينة وأمطروا معسكر الفرنسيين بالرصاص، ثم جاء دور الحجوطيين ليتبادلوا إطلاق النار مع جنودنا. حدث نفس الشيء يوم 17، أين اشتبكت فرقتان ضئيلتان من السبايس النظاميين مع الحجوطيين، لكنهما ذهبتا بعيدا، فأمرتا بالرجوع، ثم وصل فريق من القناصين تحت قيادة الملازم دري لإغاثة السبايس، فهزم الحجوطيين.

هذا الهجوم المنظم والقوي كان الحدث الوحيد في ذلك اليوم. لما غير القبايل اتجاه الجداول التي تهبط من الجبال، لم يبق الماء في الموقع الذي احتله الفرنسيون، فقرر اللواء بروسار التوجه نحو الرويسو دي سنو (واد العلايق).

في أثناء حدوث هذه التحركات العسكرية، وصل خبر تكوين

الوزارة التي تشكلت يوم 6 سبتمبر. لما كان أعضاء هذه الحكومة من التيار المعادي للمشير كلوزل، ظن هذا الأخير أنه سيستدعى قريبا. لهذا السبب أخذ زمام المبادرة، فبعث بالسيد درانسي إلى باريس وكلفه بطلب تعزيزات فورية من 10000 رجل لحملة قسنطينة وكذا الوسائل لتطبيق مخطط الاحتلال الشامل.

وعلى ما يبدو، كان درانسي مكلفا أيضا بإبلاغ الحكومة أنه في حالة رفض طلبات المشير فإن هذا الأخير سيستقيل من منصبه. والتقى هذا الضابط بالوزراء وأحاطهم بإنذار المشير، دون أن يحصل على أي شيء منهم.

ولما أصر على إبلاغهم بأن المشير لن يتراجع عن قراره عين الفريق كونت دامرمون لتعويضه وتلقى الأمر بالذهاب فورا إلى إفريقيا. ولكن لتفادي جرح مشاعر المشير، علق تعيين دامرمون بقرار كلوزل للاعتزال. ظنت الوزارة أنها محظوظة، بما أنها ستتخلص من كلوزل دون أن تصدم الرأي العام الذي كان يسانده، لذلك فإن اعتزاله بإرادته المحضة كان يلائمها.

لكن رغم الإنذار الذي أبلغه السيد درانسي، لم يقل المشير كلمته الأخيرة.

الجزء الأول

تركنا اللواء بروسار عند واد العلايق. رغم ما تقرر من إخلاء البناء المحصن في هذا المكان، إلا أن التخمينات الجديدة للمشير كلوزل أصرت عليه أن يبقه. لم يكن ذلك الموقع ذا أهمية لأننا لم نحتل الشفة. يوم 20 سبتمبر وصل إلى الجزائر العقيد في مصلحة الهندسة لومرسي وفي جلسة مع المشير كلوزال أقنعه أن يصدر أوامر للجيش بالعودة إلى ضفاف هذا الواد لبناء الحصن المقرر بناؤه.

هذا الحصن كان سيهجر فور الانتهاء من بنائه لأننا نعلم بالتجربة أن العرب لن يدمروه، ويبقى الأمل أن يستعمل لاحقا. عاد اللواء بروسار، بعد هذا الأمر إلى ضفاف الشفة أين أقام يوم 22، وبدأ جنوده في بناء الحصن. لما انتهت الأشغال يوم 15 أكتوبر، عاد اللواء بروسار إلى بوفاريك. وذهب بعض الوقت من بعد ذلك إلى أولاد يعيش ليشيّد موقعا محصنا، إلى الأمام من موقع مراد وقرب قرواو، عند سفح الجبل. تم التضييق على العمال من طرف القبايل الذين غيروا مجرى المياه كما فعل بني صالح في البليدة الشهر الفارط. وفي يوم 24، أصبحت هجمات هؤلاء القبايل أكثر جدية، أرسل اللواء بروسار في الجبال قواته التي فرقتهم وأحرقت بعض مساكنهم. في يوم 25، سار نفس اللواء مع الجنود المتواجدين في الموقع المحصن لواد العلايق وذهب في خرجة

استطلاعية إلى الحصن المهجور في الشفة. بعد ذلك عاد إلى بوفاريك.

أعلن في جدول أعمال نهاية العمليات التي قام بها منذ شهرين. كانت هذه السلسلة من العمليات غير مجدية لأنها لم تأت بثمارها، فما بقي إلا حصنين صغيرين، في سيدي خليفة وأولاد يعيش، بدون أي تأثير على محيطيهما، لأنهما لم يمنعا الحجوطيين من السطو على المزارع وحرقها وسرقة قطعانها، في المجال الموجود بين الحصنين.

في الوقت الذي ذهب فيه اللواء بروسار للمرة الثانية إلى الشفة، وصلت إلى الجزائر الكتائب الثالثة للحادي عشر للخط والثاني الخفيف، بينما كان الثالث والستين في طريقه إلى الجزائر. هذه التعزيزات التي لم يبق أمل في وصولها أيقظت آمال المشير وندم عندئذ على المهمة التي أوكلها إلى السيد درانسي. أوضح مقال في لمونيتور ألجيريان هذا الاضطراب في نفسية المشير. في الأيام الأولى من أكتوبر، بدأ الكلام على حملة قسنطينة التي بدا أنها قد صمم القيام بها من طرف المشير بما لديه من قوات فقط. كان عليه أن يستدعي جنودا من وهران والجزائر ليجمع 10000 رجل في عنابة. كان في تلك الأونة بعيدا عن التفكير في الإنذار الذي أرسله ولا عن الطريقة التي استقبل بها في باريس.

لذلك لما وصل اللواء دامرمون إلى الجزائر وأفصح عن السبب الذي

جاء به، أعلمه المشير أنه لم يقدم أبدا استقالته ولم يجبر الوزارة على قبول شروطه وبما أنه لم يعط وسائل العمل التي طلبها، فلن يعمل بها. باختصار، أنكر المشير ما قاله مساعده[1]. بعد أيام قليلة أعلن في جدول أعمال أن اللواء دامرمون سيكون حاكما لمنطقة وهران. وتلقى بالفعل اللواء هذه الوجهة الاحتياطية في حالة ما إذا لم يرد المشير مغادرة منصبه لكنه لم يذهب إلى وهران، بعدما قضى بعض الأيام في الجزائر ودرس التغيّرات التي حدثت منذ ستة سنوات في بلاد ترك فيها ذكريات لطيفة منذ 1830، عاد إلى فرنسا.

لم يستطع المشير كلوزل أن يتوارى من نفسه ويقول أن تصرفه هذا لم يضر سمعته سياسيا. صرح أصحابه في فرنسا في الصحف أنه سيعود بالتأكيد، لأنه رجل ذو حزم ولا يمكنه المكوث والتشبث بمنصبه إذا لم يعط الوسائل التي طلبها لتحقيق مخططه[2]، لهذا ولتفادي إغضاب الرأي العام، شرع في التحضير لحملة قسنطينة والسرعة فيها، وأعلنها فعلا ثم أبحر إلى بون يوم 28 أكتوبر. أخذ من الجزائر لهذه الحملة الثالث والستين للخط وكتيبة من الثاني الخفيف، قوات من الهندسة والمدفعية. ومن وهران التحق بالحملة الثاني والستين والكتيبة الأولى للمشاة الخفيفة لإفريقيا ومن بجاية الفصيلة

(1) لا نستطيع هذا الدفاع عن النوايا الحسنة للمشير إلاّ إذا أخذنا في الاعتبار ذكاء مساعده الذي يعتبر رجلا يحب التفكير والتريث.

(2) توجد ثلاثة أشياء لا غير يستحسن التردد فيها إذا كان المراد التمتع باحترام الطبقة السياسية حتى في بلاد غارقة في الرشوة. وهذه الأشياء هي: حياتك، مالك ومنصبك.

الحزة للسيد بلانجيني. وضعت هذه الفصيلة والكتيبة الأولى لافريقيا تحت قيادة العميد دوفيفيي، كان للسابع عشر الخفيف، الذي عين في عنابة منذ زمن طويل، فرق في وهران والجزائر فبعثت لعنابة. و أخيرا بقي في هذه المدينة التاسع و الخمسين للخط الذي تلقى الأمر بالعودة إلى فرنسا.

لما وصلت الأوامر المتعلقة بقوات وهران، التي استدعيت للانضمام إلى حملة قسنطينة، إلى اللواء ليتانغ، كان هذا الأخير قد خرج في غزوة. خرج من وهران يوم 4 أكتوبر على رأس كل قواته الموجودة والتي تعادل 7 آلاف إلى 8 آلاف رجل، وذهب إلى الهبرة، ووصل يوم 6 إلى المعسكر الذي بناه اللواء بيريغو. وتموقع السابع والأربعين للخط والعرب المعاونين على الضفة اليمنى، وبقي أغلب الجيش على الضفة اليسرى ووضع جسر مكون من العربات بين الضفتين. أثناء الليل، صعد مستوى الواد بعده طول المطر، فنزع الجسر، مؤديا بذلك إلى انقطاع الاتصال بين الضفتين. لذلك أرسل إلى مستغانم للإتيان بجسر من حوامل يوجد في هذه المدينة، لكن في اليوم الموالي نزل مستوى الماء وأعيدت الاتصالات. غادر اللواء ليتنغ الهبرة يوم 9، بعدما لحق به الباي إبراهيم بفرقته الضئيلة. ذهب الجيش للمبيت في مزرة ذلك اليوم. وقع تبادل لإطلاق النار في المؤخرة: كانت تلك المرة الأولى التي التقينا فيها العدو. وقضى اللواء ليتنغ يوم 10 في مزرة وأمر ببناء حائط من

حجر للمرابطين الموجودين في ذلك المكان، ما شكل حصن يستطيع إيواء كتيبة. انطلاقا من مزرة توجه الجيش نحو ماضر وهو اسم أحد نواحي المجاهر. ذهب العدو في هذا الاتجاه وكان تعداده حوالي 2000 أو3000 رجل لكنه تراجع أمام الطابور الفرنسي الذي دخلت مقدمته في اشتباك مع مؤخرة العرب. قضى اللواء يوم 12 في ماضر دون أن يبحث عن الاشتباك مع عبد القادر الذي كان يقابله. كان هذا الأخير يناور ليكون دائما بين الفرنسيين وقبائل الشلف التي كان يشك فيها لأكثر من سبب. كان يظن أن اللواء ليتنغ كان يقصد شلف كما فعل اللواء بيريغو من قبل، إلا أن ليتنغ عاد إلى مزرة يوم 13. في تراجعه أحرق سهل أولاد سيدي عبد الله الخلاب وطمر الآبار. قضى في مزرة يومي 14 و15 وعاد إلى ماضر يوم 16. كان عبد القادر يتجول مع جنوده في القرب وكان يناور دائما بنفس الطريقة. ترك اللواء ماضر من جديد وعاد إلى مزرة. يوم 18 بات تحت أسوار مستغانم وتلقى أوامر المشير بشأن القوات التي سيرسلها إلى عنابة. استئناف السير في اليوم الموالي ووصل إلى وهران يوم 21. هذه الحملة التي دامت أكثر من خمسة عشر يوما لم تأت بأي شيء، حتى تساءلنا إذا كان لها سبب.

في الأيام الأولى من أكتوبر، وصل اللواء تريزل إلى بون أين تقلد

منصب الحاكم. عاد العقيد دوفيرجي إلى الجزائر أين أصبح قائد أركان الجيش. بدأت تظهر نتائج إدارة الباي جوزاف بأحداث لا يمكن التستر عليها. كنا نسجل كل يوم ارتداد قبيلة، حتى في يوم ذهاب العقيد دوفيرجي، هاجمت القبائل الصغيرة الكائنة في جبل أدروك بثلاث مئة رجل قرية الكرميش التي كانت موالية لنا والتي لا تبعد إلا بخمسة أميال عن عنابة والتي قتل فيها الحربي، قاطع الطريق، منذ بضعة أشهر. يوم 8 أكتوبر، هاجم عرب قبيلة العيشاوة عمال قناة الماء في عنابة واختطفوا اثنان منهم. فأرسل عليهم فريق من الفرسان الذي عاد بخسائر. فصيلة من 200 من المشاة صدت العرب نحو الجبل. في اليوم الموالي قام بن عيسى، ملازم باي أحمد، بعملية استطلاعية على رأس 2000 فارس ووصل حتى معسكر الدرعان، ليعطي إشارة الانتفاضة. خرج جوزاف من المعسكر رفقة الحامية، فوجد نفسه محاطا بالعدو، ولم ينج إلا بوصول فرقة من الفريق الثالث لقناصي إفريقيا بقيادة القائد ماريون. التقى هذا الضابط بالعدو في طريقه من عنابة إلى الدرعان، دون أن يعلم ما كان يجري في الدرعان. فانقض على العرب الذين فرّوا، ظنا منهم أنه يشكل، رغم قلة عدده، طليعة طابور كبير. وخسر العرب حوالي عشرين رجلا. وفي تلك الأثناء، كان الرزقي

يجوب السهل في ثوب المنتصر رفقة الحنانشة. كان الحساوي قد تخلى عن جوزاف وأوى إلى تونس. وفي يوم 22، بعث أولاد ذياب وقبائل القالة الأخرى بتصريح إلى عنابة حول تجاوزات جوزاف. في الشكل كان حكيما ومعتدلا وغير معاد للسلطة الفرنسية التي احتكمت إليها القبائل. واحتوى هذا التصريح على أحداث جدّ خطيرة، ولكن لم يكترث بما فيها. عندئذ كان الارتداد عاما.

جاء العديد من الآلاف من العرب، يوم 24 أكتوبر لإطلاق النار أمام معسكر الدرعان وعادوا يوم 25.

في ذلك اليوم، كان اللواء تريزل داخل المعسكر ومعه تعزيزات حاولوا أن يجتذبوه نحو الجبال أين كان يعتقد تواجد احمد باي، لكن لم يغادر اللواء موقعه، فابتعد العرب.

كان الارتداد عاما وشاملا، ولم يكن ممكنا إنكاره، هذا اعترف به جوزاف أمام المشير، لكنه أرجع سببه إلى التأخير الذي طرأ على حملة قسنطينة.

لكن حدث هذا الارتداد الشامل لكل القبائل في الأونة التي أكدت فيها حملة قسنطينة.

هذا الاعتراف لم يكن ليسقط الثقة التي كانت بين جوزاف والمشير،

وتخيل هذا الأخير هذا الشرح متيقنا أنه كلما تقدم نحو قسنطينة كلما عادت الأهالي إليه.

بعدوهم الأشخاص، جاء وهم المعدات: صرح جوزاف ويالأحرى تلقى وعدا [1]، بالحصول على 1500 بغل يستخدمون كوسيلة نقل أثناء الحملة. اتكل المشير، والوزير والإدارة على هذه البغال، لكن في آخر لحظة لم يستطع جوزاف ضمّ سوى 475 بغلا. هكذا أصبحت حملة قسنطينة [2] تخيف قبل أن تبدأ.

---

(1) نضع هذا التحفظ لأننا علمنا من مصدر موثوق أن جوزاف نفسه أصبح مرعوبا من السرعة التي أصبحنا نأخذ المواثيق و متأكدين من الكلام الذي قاله في هذا الموضوع في الملاحظات الأخيرة، في اللحظات الأخيرة، لم يتكلم سوى عن 400 أو 500 بغل.

(2) كانت حملة قسنطينة نتيجة لقبول الوزير تعيين جوزاف، رغم أن القبول كان ضروريا، هذه حقيقة، لكن قبل. (انظر الملاحظة ص 89). جاء القبول في البريد السريع الوزاري ليوم 27 سبتمبر. يقول هذا البريد السريع: "وددت حكومة الملك ألا يشرع في حملة قسنطينة في هذه الأونة. لكن بما أنه قد تم الإعلان عليها فقد أنذت بها حكومة الملك.. هذه الحملة سيشرع فيها بالوسائل (العدة والمعدات) التي في حوزتكم الآن".

لقد استنسخ هذا الكلام الذي قاله المشير موزون، الذي كان وقتها وزيرا للحرب، في رسالة اللواء بيرنار، الذي حل مكانه، بتاريخ 3 نوفمبر. في هذه الرسالة السريعة الأخيرة، أكد السيد برنار أن حكومة الملك لم تأمر بالحملة بل سمحت بها فقط هذا لا يؤكد إلا شيئا واحدا: أراد السيد كلوزل أن يلزم الحكومة باتخاذ القرار، ولم يرد السيد برنار إلاّ أن يلقي كل المسؤولية الأخلاقية لهذه الحملة على كلوزل. إذا كان هذا التصرف يسمى حكما، فالأولى حرق كل معاجم اللغة الفرنسية.

بعد وصوله في أوائل نوفمبر إلى عنابة، استقبل المشير بالأمراض التي تفشت في جيشه. ودخل حوالي 2000 من رجاله إلى المستشفيات، لأن ذلك كان فصل الحمى في تلك المنطقة من الوصاية، وهو أيضا فصل الأمطار التي ترهب الجيوش في إفريقيا، وخبرة خمسة سنوات أثبتت ذلك.

كانت الإدارة العسكرية تشكو نقص وسائل المواصلات. وكان لديها اثنا عشر عربة ولكنها لم تستطع أن تقرن سوى عشرة، لأن دواب العربتين استعملا لأغراض خاصة. من 475 بغلا التي وجدتها عوضا عن 1500 التي وعدت بها، اضطرت أن تخصص 90 للمدفعية التي كانت مزودة أقل منها، لكننا كنا على وشك أن نبدأ حربا هجومية، وهذه الوضعية كانت تضر الجيوش في الحروب الدفاعية أين تطالب بالمقاومة مهما كان الثمن ضد عدو يأخذ بزمام المبادرة. قدم السيد ملسيون دارك، المسير العسكري للجيش، الملاحظات والتأنيبات التي تلزمه بها وضعيته ومنصبه، لكنه لم يكترث بها المشير رغم صحتها، لأنه كان متيقنا أن نفوذ جوزاف سيفتح له كل البلاد، وهذه المسيرة نحو قسنطينة لن تكون إلا جولة سياسية وليس عملية عسكرية.
لو لم يتوهم هذا، لأخذ المشير كلوزل كل التدابير لإنجاح هذه العملية

التي أصبحت عنده قضية شخصية[1].
كان الجيش الذي دخل في الحملة مكونا من أربعة ألوية صغيرة واحتياط، وكان يبلغ تعداده 7000 رجل موزعين كما يلي:

الفرقة الأولى أو فرقة المقدمة.

الفريق تحيم ديريني.

السبايس النظاميين والمعاونين،

كتيبة مشاه جوزاف ومدفعيته المتكونة من 4 مدافع للجبال الخفيفة،

الكتيبة الأولى لإفريقيا،

الفصيلة الحرة للفرقة الثانية،

فصيلتان من نقابي الهندسة،

مدفعي جبل (مدفع ثمانية ومدفع خفيف).

الفرقة الثانية - العقيد كورين.

السابع عشر خفيف،

كتيبة من الثاني خفيفة،

مدفعيتين للجبال.

---

(1) كان المشير كلوزل يتكل كثيرا على جوزاف إلى درجة أنه كاد أن يتركه في قسنطينة، برفقة كتيبة فرنسية، 1000 تركي وأربعة فصائل من السبايس فقط. صادق الوزير على هذه التدابير يوم 30 أكتوبر. بالإضافة إلى إعطاء منحة 50 ألف فرنك للباي.

الفرقة الثالثة – العقيد ليفاسك.

الثاني والستون للخط،

مدفعي جبل.

فرقة الاحتياط– العقيد بوتي دوتريف.

التاسع والخمسون للخط،

مدفعيتين للجبال.

الفرقة الثالثة – العقيد هيكال.

الثالث و الستون للخط،

مدفعيتين للريف.

لأن احتياط المدفعية متكون من 4 مدافع للميدان، وأيضا أربعة أنابيب لصواريخ محرقه، كانت المدافع الجبلية مزودة بثمانين طلقة، أما مدافع الثمانية فزودت بنصف الذخيرة والمدفعين الخفيفين للأربعة والعشرين كان لديها 3 صناديق. في المجموع، كان للمدفعية ألفا و أربع مئة و ستين ضربة لإطلاقها. كان يوجد في عنابة مدافع اثنا عشر و قد كان بالإمكان أن تستعمل في حملة قسنطينة، لكن المشير رفض استعمالها.

جمعت الفرق الثانية و الثالثة و الرابعة تحت القيادة العليا للواء تريزل، مما

يعني أنه ما كان هناك إلا لواءان، أو كتلتان متباينتان تحت قيادة اللواءين دي ريني و تريزل، بالإضافة إلى احتياط صغير.

رغم الثقة الكبيرة التي كان يضعها في الباي الذي فرضه على البلاد و خشية من تأثير ذكريات تلمسان على عمليته، أعلن المشير لسكان قسنطينة أنه سيتم احترام ممتلكاتهم، و لن يطلب منهم أي شيء و لن يفرض عليهم أي شيء. وفي نفس الوقت، أصدر أوامر يمنع لكل شخص ينتمي إلى الجيش وأذن له أن يتبعه أن يقوم بأي عمل تجاري أو تجارة السقط طيلة تواجده في قسنطينة. هكذا تزود الجيش بالمؤن لمدة خمسة عشر يوما، منها سبعة في كيس كل جندي.

اللواء الذي قاده دي ريني والمدعم من طرف السابع عشر الخفيف ذهب إلى قالمة أين وصل يوم 10 . وفي يوم 13، بدأ باقي الجيش سيره. من عنابة إلى معسكر الدرعان أين ترك جنود قليلون، وعسكر المشير في بوعرفة. وفي ذلك اليوم عينت نقطة الالتقاء خارج عنابة التي تنطلق منها سائر مكونات الجيش مع الموكب لكن عندما وصل المشير إلى ذلك المكان أمر القوات الموجودة بالسير ثم اتبعها بكل قوة تصل إلى ذلك المكان. بقي الموكب تحت حماية التاسع و الخمسين وحده. بات المشير في الدرعان رفقة المرافقين له. وأثناء الليل كان الطقس رديئا ولم يستطيع الموكب التحرك إلا على الساعة التاسعة من صباح اليوم الموالي. وفي يوم 14 تسببت الرعود في تخويف الثيران التي لم تسكن طوال الليل وأخذت في الجري في كل الاتجاهات ففقد منها الكثير بحيث أصبحت موارد الجيش في أدنى مستوى.

وفي يوم 14 لم يستطيع المشير استئناف السير إلا على الزوال بعدما هطل المطر طوال الليل وتضخم الجدول الذي عسكر بالقرب منه ثم ذهب يعسكر في موالفة بعدما تحسن الطقس في اليوم الموالي أي يوم 15 على ضفاف السيبوس غير بعيد عن قالمة الموجودة على ضفته اليمنى. وفي يوم 16 التحق به الموكب الذي كان وراءه منذ الانطلاق. التجمع الكلي للجيش لم يحدث إلا يوم 17 عندما وصلت العربات والإدارة.

تقدم أثار قالمة بعض المعلومات ذات أهمية لعلماء الآثار. كان هناك مبنى مستطيل في حالة مرضية رغم الثغرات، لكن هذا المبنى البارز والذي يرى من كل مكان لا يدافع عنه بسهولة وكان بعيدا عن منابع الماء إلا أن المشير قرر أن يترك فيه المرضى بكونه مكان مغلق نوعا ما. ترك فيه أيضا حوالي 200 ألف خرطوشة لم تستطيع المدفعية أن تحملها ابعد من ذلك لأن العرب سائقي البغال هربوا في الليل ببغالهم. وفي يوم 18 استأنف الجيش السير متجها نحو منبع السيبوس حتى مجاز اعمر. وفي ذلك اليوم التقى اللواء دي ريني بالمشير.

رغم جدول أعمال يشير إليهما، نسيت الذخيرة و نسي المرضى دون حراسة في قالمة. لكن تفطن لهذا السيد ملسيون دارك و أخبر بذلك، فأرجع 150 رجلا من التاسع و الخمسين إلى ذلك المكان. بعد بضعة

أيام، وصلت الكتيبة الثالثة للفرقة 62 للخط إلى عنابة و توجهت مباشرة إلى قالمة.

مجاز اعمر، أين وصل الجيش يوم 16 في الصباح الباكر، هو المكان الذي يعبر فيه طريق قسنطينة واد السيبوس. في هذا الواد تضاريس حادة الانحدار والعلو، لذلك اشتغلت مصلحة الهندسة طويلا لوضع منحدرات اصطناعية للعبور.

يوم 17، عبر كل الجيش واد السيبوس ليعسكر قرب آثار عنونة في متصف مرتفع جبل الصدى المشهور، الذي يوجد في قمته الممر الجبلي المدعو رأس العقبة. كل هذه المنطقة مغطاة بالآثار الرومانية.

وفي يوم 18، تجاوز الجيش رأس العقبة و عسكر على بعد ميل منه. بذل جنود مصلحة الهندسة جهودا جبارة لتهيئة الطريق لعبور العربات. ومن رأس العقبة حتى قسنطينة لا توجد غابات، الشيء الذي أثر سلبا على قواتنا التي حرمت من وسيلة للطهي وللتدفئة خاصة في المرتفعات.

لم يلتق الجيش بالعدو طيلة 6 أيام من السير، بل أحيانا كان بعض العرب يبيعوه العشب للخيل وبعض المواد الغذائية، ورأينا البعض الأخر في الحقول منهمكين في الأعمال الزراعية، لكن لم يأت أحد منهم لينضم تحت راية جوزاف الذي كان يجول من مؤخرة الجيش إلى

مقدمته تحت وقع موسيقى مرعبة. الأشياخ والفرسان الذين أعلن أنهم سينضمون إلى الجيش والذين تم الاتكال، أتوا ولكن بصفتهم أعداء. وفي يوم 19، حدث اشتباك في المؤخرة، ضيع فيه النقيب دي بريبوا خيوله ولم ينقذ إلا رسوماته وهو رئيس مصلحة قياس الأراضي (الطبوغرافيا) والمكلف بتدوين ورسم الطريق المستكشف. بات الجيش تلك الليلة في رأس واد زناتي، بالقرب من منبع الواد الذي يحمل نفس الاسم. يمر من ذلك المكان خط قسم المياه التي تأتي من السلسلة الجبلية الكبيرة الموجودة بين عنابة و قسنطينة.

وفي يوم 20، رأينا فريقا ضخما من العرب مبعثرين في الاتجاه الذي يتبعه الجيش، فقمنا ببعض التحركات لنهاجمهم لكنهم رفضوا القتال وتراجعوا بعد طلقات نارية.

وحدث أيضا تبادل لإطلاق النار في المؤخرة. أصبح الطقس جد رديئا مما أدى إلى إفساد الطرق وعطل سير الجيش الذي وصل جد متأخرا إلى مكان يدعى صومة أين أقمنا المعسكر. ويوجد في ذلك المكان بناية رومانية أثرية سماها علماء الآثار الذين يضمهم الجيش بتمثال قسطنطين، لم يستطع الموكب الذهاب حتى صومة وبقي في الوراء. كان الليل باردا وكان من المستحيل إشعال النار. في صباح اليوم الموالي بقيت عدة جثث في مكان المعسكر. و في يوم 21، عندما

التحق الموكب، عبر الجيش بصعوبة كبيرة واد أكميمين الذي ضخمته الأمطار. فورما عبر المشير إلى الضفة الأخرى التي توجد على بعد ميلين من قسنطينة فقط، عجل الوتيرة ولحق بمقدمة الجيش رفقة قيادة الأركان، ثم ذهب صحبة فرقة صغيرة نحو هضبة المنصورة، قبالة المدينة. كان متحمسا للوصول، لأنه رغم كل الحسابات الخاطئة كان يظن أن الأبواب ستفتح له، حتى أنه نشر ليلة ذلك اليوم جدول أعمال[1] يعلن فيه عن الاستيلاء. لكن سكان قسنطينة كانوا بعيدين عما كان يظنه منهم. وكانت المدينة تحت حماية حامية جيدة يقودها بن عيسى، ملازم أحمد باي، ومتكونة من أتراك وقبايل. أما الباي فكان يجوب البادية مع العرب.

خلال انتظار المشير أمام قسنطينة للوفد المزمع أن يعطيه مفاتيح المدينة دوّت طلقات نارية أخرجته من وهمه وأعادته إلى أرض الواقع.

الآن ترك الحاكم المتهور والمخدوع المكان للواء المطاع، البارع والحازم. سيجد القارئ العسكري أخطاء عديدة فيما صنع أمام قسنطينة، لكن هذه الأخطاء ما هي إلا نتيجة حتمية لخطأ سابق، لم يكن عسكريا.

شيدت قسنطينة على هضبة تحيط بها مسايل من ثلاثة جهات، وهذه المسايل عميقة جدا ومنحدراتها حادة وأحيانا عمودية، ويجري في

(1) بدأ هذا الأمر بهذه الكلمات: "سيدخل اليوم الجيش إلى قسنطينة التي كانت هدف هذه العمليات". طبع في عنابة قبل انطلاق الجيش.

أعماقه واد الرمال. هذه الهضبة مائلة تجاه هضبة المنصورة، بحيث تجلى للمشاهد من المنصورة أن قسنطينة لوحة موضوعة على حامل. هذان المكانين، موصولين بحبس من حجر الذي يوجد سطحه تحت مستوى الهضبة بكثير. ما وراء واد الرمال بالنسبة للمنصورة توجد هضبة كودية آتي التي لا يفصلها عن المدينة أي حاجز طبيعي، لكن يوجد هناك سور في حالة جيدة. على الجبهات الأخرى، لا تحتوي الأسوار على تسطيحات وتستند المنازل إليها، لكن أيضا في هذا المكان يشكل انحدار المسيل دفاعا طبيعيا. لدى قسنطينة أربعة أبواب: باب القنطرة، وهو باب الجسر، ويوجد من جهة المنصورة، أما الثلاثة الأخرى فهي: الباب الجديد، باب الواد وباب الجابية وتقابل كودية آتي أين يوجد تجمع سكاني وفي أسفله اصطبلات الباي المسماة الباردو.

النقطة الحقيقية للهجوم طبعا هي كودية آتي أين أرسل لواء دي رني فور وصول الجيش إلى المنصورة، وانضمت إليه الكتيبة الثانية الخفيفة. الفرقة التي كانت في المقدمة صدت في الأول من طرف العرب، لكن هؤلاء سرعان ما تراجعوا وراء أسوار المدينة لما هوجموا. من طرف باقي الكتيبة.

أقام باقي الجيش في المنصورة. لم يستطع المركب الوصول إلى مكان المعسكر، فقد اضطر للتوقف على بعد ميل في مكان مخيف وموحل

حتى أن الجنود سموه معسكر الوحل. في اليوم الموالي 22، بذلت جهود جبارة لإخراج الموكب من الوحل، دون جدوى.

لم يتم سوى بعشرة العربات، مما أدى إلى صعوبة أكبر لحراستها. بدأ العرب إطلاق النار، وتم التخلي عن الموكب نهائيا، أي عربات الإدارة، لأن البغال كانت قد وصلت إلى المنصورة. قبل أن تهجر العربات، قام الجنود بنهبها، والكثير منهم، من خوف الجوع، شربوا الخمر، ولما كانت بطونهم فارغة أصبحوا سكارى إلى درجة أنهم سقطوا تحت ضربات اليطقان. أخذت رؤوسهم إلى قسنطينة، مما زاد من شجاعة السكان. عربات اللواء وجزء من عربات المدفعية لم تصل إلى المنصورة إلا على منتصف الليل.

كما رأينا أن كودية آتي هو المكان الوحيد من أين كان ممكنا الهجوم على المدينة، لكن حالة الميدان السيئة والعبور الصعب لواد الرمال أرجعا نقل مدفعية 8 مستحيلة. اكتفى عندئذ اللواء دي رني بمدفعية خفيفة، لا تفيد ضد الأسوار. لو كان المشير يتوقع المقاومة، لانطلق من كودية آتي، الذي هو المكان الأفضل على أي حال.

وفي يوم 22، قصف المشير بالمدفعية باب القنطرة على حافة المسيل على بعد 400م. بعدما نفدت المؤونة والذخيرة، فكر المشير أكثر في هجوم

خاطف عوض هجوم عادي. بعدما ألحق أضرارا بباب القنطرة بالمدفعية، ظن أنه يمكنه المرور ليلا بقوة، فأمر العقيد لوميرسي بتهيئة الطريق وكلف فرقة النخبة التاسع والخمسين والثالث والستين بالهجوم الخاطف.

في منتصف الليل، بعث العقيد لومرسيي النقيب هاكت مع بعض الرجال الذين اختارهم لمعاينة المكان. لكن المكاره التي رافقت هذه الحملة من بدايتها جعلت المطر يتوقف في اللحظة التي كان لا بد أن يهطل فيها، وظهر نور القمر ليفضح مهمة الاستطلاع، إلا أن الرجال المكلفين بتلك المهمة أنجزوها رغم وابل الرصاص الذي تهاطل عليهم، فوصلوا إلى الباب الذي وجدوه منزوعا من مفصلاته، وكان مائلا ومتكئا على ركيزة قبة وتاركا مدخلا ضيقا بينه وبين السور. لما دخلوا من تلك الفتحة رأوا بابا أخرا في حالة جيدة والذي كان واجبا عليهم أن يفتحوه بالمتفجرات، كانت هذه العملية تستلزم بعض التحضير، لهذا أجلت إلى الليلة اللاحقة.

وفي يوم 23، واصلت المدفعية في قصف المدينة، كما هوجمت القوات المتواجدة في كودية آتي من طرف أحمد باي، ولكنها صدت العدو، قام الفرسان بهجوم قوي. حتى عرب الخارج جاءوا لتبادل

إطلاق النار، فواجههم التاسع والخمسين للخط الذي صدهم.

عند الليل، ذهبت قوات الهندسة عند نهاية الجسر، وأرسل اللواء تريزل قوات التاسع والخمسين والثالث والستين وكذا الفرقة الحرة للنقيب بلانجيني لمساندتهم. كان من المقرر تفجير الباب الأول بأكياس من البارود وأكياس من التراب، ثم التوغل في القمع المكشوف وتسلق السور، بينما تقوم جماعة أخرى بتفجير الباب الثاني. ففشلت هذه العملية تماما.

وصل نقاب الهندسة بكثرة على الجسر، فكشفهم الضجيج وأيضا ضوء القمر المشئوم في تلك الليلة، مما عرضهم إلى نيران كثيفة، فحلت فيهم الفوضى. قتل الرجال الذين كانوا يحملون السلالم[1]. لم تُعرف أكياس البارود من أكياس التراب بعد اختلاطها ببعضها. في هذه اللحظة الصعبة التي ميزتها الفوضى، أمر خاطئ أو غير مفهوم أدى إلى تقدم الفرقة الحرة فزاد الازدحام والفوضى أكثر.

كان من المستحيل ترك كل هؤلاء الناس على هذا الجسر الضيق والذي كان تحت وابل رصاص العدو الذي أسقط الكثير من الجنود. جُرح اللواء تريزل، فخلفه في القيادة العقيد هكت، من الثالث والستين. أمر العقيد لومرسيي النقاب بالتراجع، وأرسل إلى المشير

(1) صنعت ثلاثة سلالم في ذلك اليوم، لأن التي جُلبت من عنابة رُميت في الطريق لتخفيف حمل العربات.

يخبره بفشل العملية. تلقى المشير خبرا معاكسا قبل لحظات من ذلك. كان أحد المشاركين في الهجوم في وضعية غير مناسبة لرؤية ما حدث بشكل جيد، فظن أن الهجوم نجح وأخبر المشير أن القوات دخلت قسنطينة. عندئذ أعطي الأمر للإدارة والحظيرة بمغادرة معسكرها والتوجه نحو الجسر. كان ذلك الوهم هو الأخير وكان وجيزا، لأنه ما إن ظهر حتى اختفى من جديد.

للتشويش على العدو، أمر المشير بهجوم من جهة كودية آتي، لكن هذا الهجوم لقي نفس مصير سابقه. تعلق الأمر بتفجير باب آخر، وهو باب الواد الذي يُدعى أيضا باب الريح. ذهب إلى هذا المكان العميد دو فيفي على رأس كتيبة إفريقيا، ومدفعين خفيفين وفرقة من الهندسة، لكن تكرر ما حدث على الجسر مع الازدحام والفوضى.

لما قتل ضابط الصف الذي كان يحمل كيس البارود، ضاع هذا الأخير، وعندئذ حاول الجنود كسر الباب بالمدفع الخفيف والفأس. لكن الخسائر البشرية كانت كبيرة فأمر السيد دو فيفي بالتراجع. جرح النقيب غاند في هذه الهجمة جرحا بليغا.

كان هذا الضابط يتمتع بمعرفة واسعة ومتخصصة وذو طبيعة لطيفة، فتحسر الجنود عند فقدانه. فقدنا أيضا الرائد ريشبانس، ابن

اللواء الجمهوري المشهور. كان ذلك الشبل من ذاك الأسد وأظهر شجاعة خارقة[1].

لما فشل الهجومان ونفدت المئونة وذخيرة المدفعية، اضطر المشير إلى الانسحاب وأمر بذلك فورا. تلقت فرقة دي ريني أولا الأمر بالعودة إلى المنصورة، أين وصل اللواء من قبل على رأس قناصي إفريقيا.

قام السابع عشر الخفيف وكتيبة إفريقيا وكتيبة الثاني الخفيف بتحرك منظم تحت نيران العدو، لكن بقي بعض الجنود المتأخرين في هضبة كودية آتي، فعاد الرائد شانغارنيي لاستعادتهم وإنقاذهم من موت محقق. هكذا بدأ يوما مجيدا بالنسبة إليه.

في تلك الأثناء، صف العقيد دو فيفي جنوده على حافة السيل ليغطي بكل ذكاء وبراعة تراجع باقي الجيش.

كان الجيش قد شرع في التراجع لما وصلت مؤخرة لواء دي ريني إلى المنصورة. وفقا لأوامر المشير، كان من المنتظر أن يغطي التراجع

---

(1) قال السيد المشير كلوزل في تصريحاته، صفحة 42، أن العقيد دو فيفي قد نقل التيار الأولى لقسنطينة ووصل إلى أوائل التيار فيها، على رأس بضعة مئات رجال ومدفعيين جبال، لكنه تراجع بعدما لم يتلق أي مساندة والحل، لمزيد من التفاصيل، إلى تقرير دو فيفي الذي لم يقل شيئا في هذا الأمر. إذا كان رجل مثل العقيد دوفيفي، قد استطاع فعلا عبور محصنة قسنطينة، لكانت هذه المدينة لنا الآن، لكنه لم يعبر. ارتكب المشير كلوزل هنا خطأ من الأخطاء الغريبة، لكننا سنرجع الخطأ إلى مطبعته، كما سبق أن قلنا.

من طرف الثالث والستون والتاسع والخمسون للخط، لكن للحظة عمت الفوضى في كل مكان. تلقى السابع عشر الخفيف وكتيبة إفريقيا الأمر بالذهاب إلى المقدمة وتجاوز هاتين الفرقتين اللتان زادتا في السرعة بعدما وصل إلى جوانبيهما و مؤخرتهما العرب الذين خرجوا من المدينة والذين أتوا من خارجها، مطلقين صرخات شنيعة. تُركت صناديق من الذخيرة، وعتاد الهندسة، ومدفعين خفيفين تابعين لجوزاف، وبكل بشاعة عربات مسطحة مليئة بالجرحى. كما تُرك العديد من الجرحى والمرضى داخل الكهوف أين وُضعوا من قبل.

في تلك اللحظة التي كان فيها الجيش متراجعا تحت وطأة عدو ذو بأس شديد، مكنت همة ومهارة ضابط من الحد من هذا السوء.

وصل هذا الضابط وهو الرائد شانغارنيي إلى المنصورة لما بدأ الثالث والستون والتاسع والخمسون تراجعهم ،ووجد نفسه في آخر المؤخرة مع فرقته التي لا تتعدى 300 رجل. هزم خط رُماته وهوجم بالسيف، فأوقف فرقته الصغيرة ونظمها في شكل مربع، وقال لرجاله : هيا يا رجال! إنهم ستة آلاف وأنتم ثلاثمئة ! ترون

بأعينكم أن القوات متعادلة.

كان هؤلاء الجنود لا يقلون شجاعة عن قائدهم، فانتظروا العدو على مدى رمية مسدس في شكل صفين وأمطروه بوابل من الرصاص فأسقطوا منه العديد. تخلى حينئذ العدو عن الهجوم واكتفى بإطلاق النار من بعيد طوال النهار، بعدما أرغمته على ذلك كتيبة شانغارنيي وكذلك الثالث والستون للخط وبعض فرق القناصين.

حتى وإن استتب النظام في الطابور، إلا أن النفوس مُلئت رعبا من هذا التراجع الذي نفدت فيه المئونة والذخيرة وتُرك فيه الجرحى. حتى الذين كانوا يظنون أنفسهم أنهم أقوياء تزعزعوا، إلا المشير كلوزل، الذي بقي صامدا وشامخا رغم الظروف الصعبة.

تحسن الطقس الذي كان متقلبا منذ يومين، هذا ما أنقذ الجيش، وإلا لهلك في الأوحال. تضرر الجيش كثيرا أمام قسنطينة. مات العديد من الرجال من الجوع والبرد، والكثير منهم جمدت أطرافهم. في كل لحظة، كان يُترك الذين لا يستطيعون مواكبة السير، فيستلقون ويُغطوا رؤوسهم في انتظار الضربة القاضية التي ستنهي من عذابهم.

وفي يوم 24، عسكر الجيش في صومة أين وجد مطمورات من

الحبوب، التي أكلت نيئة، وإلا مشوية عندما كان ممكنا إشعال النار، كما وُجدت بعض الثيران.

بات الجيش يوم 25 عند واد طلاقة، أحد روافد واد زناتي لما كان المشير يرى موقعا يستطيع العدو استغلاله كان يتموقع فيه. في ذلك اليوم استعمل أحمد باي ضدنا المدفعية الخفيفة، لكن من بعيد، وانتهى إطلاق النار على الساعة الرابعة. وجد المشير نفسه منقطعا عن المؤخرة التي كانت تفصلها عن المقدمة مسافة كبيرة.

لما رأى اللواء دي رينيي، قائد المؤخرة، بعض العرب على الجوانب والذين كانوا في طريقهم إلى مخيماتهم، خشي أن يهاجموه وفي هذه الوضعية الصعبة، أرسل إلى المشير يستعجله، ثم لما نفد صبره في انتظاره، ذهب إلى لقائه، قائلا كلمات غير لائقة.

لما عاد المشير إلى المؤخرة اتضح له أن خشية اللواء غير مبررة فغضب لذلك، واشتد غضبه لما أتاه التقرير حول الكلمات غير اللائقة التي قالها اللواء. في اللحظات الأولى من الغضب، انتزع منه المشير القيادة وأصدر أمرا بذلك، لكن ترجيات اللواء واعتذاراته غيرت رأيه، ولم يطلع على هذا الأمر إلا قادة الفرق. والذي خلفه بعد أيام كان أقل شدة على هذا اللواء[1].

(1) برّأ مجلس الحرب تصرف اللواء دي رينيي وعفا عنه.

وفي يوم 26، جاء العرب بأعداد كبيرة. انسحب الجيش بأمان لكنه ترك عددا قليلا من الرجال، وعسكر أمام المرابط سيدي طمطم في واد زناتي.

وفي يوم 27، هاجم العرب القوات عند خروجها من المخيم. أرادوا أن يستولوا على عربة كانت عالقة في الوحل. هاجمهم قناصو إفريقيا وأبعدوهم. لم يظهر أحمد باي وجنوده منذ الليلة. قضى الجيش ليلة في مجاز أعمر بالقرب من السيبوس. حاول بعض القبايل الهجوم عند ممر رأس العقبة، لكن قوات جوزاف كانت كافية لتفريقهم.

وفي يوم 28، بات الجيش في قالمة بعدما تبادل إطلاق النار مع القبايل. هوجم مرتين من طرف قبايل فرقة رئيس الكتيبة فيليبي من الثاني والستين الذي كان يقود في ذلك المكان. دافع كما ينبغي وصد العدو، وتركه المشير هناك مع كتيبته و 150 مريضا. مات هؤلاء بعد بضعة أيام. كانت نية المشير تقديم هذا الموقع كغزوة مهمة تنسي هزيمة قسنطينة. لهذا الغرض، تم الإعلان في الجريدة الرسمية أن قالمة هي موقع محصن مثل قسنطينة تماما. بدا الوزير مصدقا لذلك، وظن الناس في فرنسا أن قالمة هي مدينة.

بات الجيش في موالفة يوم 29 وفي الدرعان يوم 30. دخل الجيش يوم أول ديسمبر إلى عنابة، ولم يسجل سوى 500 رجل ما بين قتيل وجريح.

لكن عددا مماثلا مات بعد أيام في المستشفيات، لذا يمكن أن نقول أنه مات 2000 رجل.

في يوم 4 نوفمبر، ذهب المشير بحرا إلى الجزائر و أعيدت إلى هذه المدينة القوات التي سحبت منها. فالتاسع و الخمسون رجع إلى فرنسا، وجزء من الثاني و الستين ذهب بحرا إلى الجزائر، ثم من الجزائر أرسل إلى وهران أين تلقى أمرا بالعودة إلى عنابة، ثم إلى الجزائر و أخيرا إلى وهران، مما أدى إلى وفاة العديد من الجنود الذين كانوا مرضى أثناء هذه السفريات. أيام قليلة بعد ذهاب المشير، أقام العقيد دو فيفي في قالمة مع كتيبة إفريقيا، كتيبة من السابع عشر و بعض السبايس. وكان تموين هذا الموقع جد صعبا.

الدوق نمور و الدوق مورتمار و الدوق كارامان شاركوا في حملة قسنطينة كهواة و كذا بالنسبة للسيد بود عضو في غرفة النواب. أظهر الدوق كارامان البالغ من العمر سبعين سنة إخلاصا وعطفا كبيرين، فقد شوهد في العديد من المرات يجر فرسه المحمل بالمرضى أو الجرحى.

أثناء تواجد المشير أمام قسنطينة، سار اللواء ليتانغ نحو تلمسان لتموين حامية المشوار. فذهب من وهران يوم 23 نوفمبر بطابور مكون من 4000 رجل و قافلة من المؤن. وجد الحامية الفرنسية في حالة غير سيئة لكن عدد الكولوغلي تقلص بشكل ملحوظ. أقام اللواء ليتانغ في تلمسان يوم 29.

وقتل في ذلك اليوم أحد ضباط الهندسة الذي ذهب لزيارة آثار المنصورة. عاد اللواء إلى وهران يوم 30 و أشاع الخبر انه متوجها إلى الطافنا مما خدع العرب الذين لم يهاجموه في مسيرته إلى وهران. لكن في يوم 2 ديسمبر اشتبكت مقدمته مع العرب في البريجة و ريو سالادو. ولم يكن العدو في كثرة و كان تحت قيادة بن تونة. أثناء ذلك كان عبد القادر في مدينته الجديدة يتا قدمت بعيدا عن مكان المعركة. في يوم 4 ديسمبر عاد اللواء ليتانغ و طابوره إلى وهران.

في مقاطعة الجزائر، أراد الحاج الصغير استغلال ضعف عدد قواتنا بعدما ذهب البعض منها للمشاركة في حملة قسنطينة لخلق البلبلة. وفي يوم 8 نوفمبر أرسل ابن أخيه ليجوب المتيجة رفقة الحجوطيين الذين كان لديهم مدفعين سيئين. هاجم هذا الفريق حصن أولاد يعيش. بعد قصف مدفعي لم يأت بأي شيء، أمر مدفعيته و المشاة القليلين الذين كانوا معه أن يعودوا ثم أخذ يجرب هو وفرسانه أراضي العرب الذين كانوا معنا. غير بعيد من قرواو التقى بنحو مئة من السبايس النظاميين الذين أرسلهم اللواء بروسار في استكشاف إلى بوفاريك فهاجمهم وداهمهم حتى حصن مراد و قتل منهم 17 رجلا ثلاثة منهم ضباط. قام أحد الفارين من السبايس بقتل أحد هؤلاء الضباط و كتب اسمه على الجثة بخنجره الذي طعن به هذا الضابط للتعبير عن حقده و كرهه لقادته السابقين.

وفي يوم 9 نوفمبر ذهب اللواء رياتل من الجزائر على رأس الحادي عشر للخط و كل ما كان في إمكانه أن يجمعه. ذهب ليبيت في الدويرة و مون في اليوم الموالي كل الحصون الموجودة قرب بوفاريك. وقام ابن أخ الحاج الصغير في نفس اليوم بإحراق العديد من المزارع المتواجدة بين هذه المواقع المحصنة بات اللواء في المعسكر الصغير في سيدي خليفة . وفي يوم 11، خرج للبحث عن العدو متوجها نحو الشفة ثم نحو البليدة. تبادل الحجوطيون إطلاق النار مع المؤخرة ثم حاول اللواء أن يلاحقهم بإرسال قناصي إفريقيا لكنهم لم يتمكنوا منهم. واصل المشير السير حتى وصل قرب البليدة أين أراح جنوده. لم يأت حاكم هذه المدينة لاستقبال اللواء حسب الأعراف، فقام هذا الأخير بقصفها ثم واصل طريقه نحو بوفاريك. لاحقه سكان البليدة و القبائل بإطلاق النار عليه على مسيرة نصف ميل تقريبا. وفي يوم 21 دخل اللواء إلى بوفاريك.

بعد بضعة أيام قام سيدي يحيى الحبشي نسيب الحاج الصغير بغزوة جديدة في السهل و تقدم حتى حدود قبيلة الخشنة و احرق ممتلكات بعض حلفائنا و اقنع البعض الآخر بالانضمام إلى العدو. قام اللواء بروسار بتحريك القوات لكنه لم يمنع التخريب.

هجمات العرب المتتابعة و عدم قدرتنا على صدها و التنبؤ بها دفعت إلى تبني قرار في شهر نوفمبر اقترحه من قبل القائد غران (الذي قتل فيما

بعد في قسنطينة) مفاده التغطية بخطوط دفاعية متواصلة و مائية الأراضي المحتلة. لكن تم تعديل هذا المشروع. كان السيد غران قد اقترح أن يقوم الدفاع على طول واد مازفران وجدول بوفاريك الذي كان من المقرر توسيعه. إلا أن التوسيع حتى مازفران لم يتم، واكتفى الأمر بخط يربط بين واد أغار وبين سلسلة من المسايل و الجداول الصغيرة التي وعرت ضفافها و هدمت معابرها. بدأ هذا الخط من السهل والتحق بواد بوفاريك. حتى وإن لم يشكل هذا الخط الدفاعي حاجزا منيعا، إلا أنه ضايق تحركات الحجوطيين أثناء هجماتهم.

الكتاب 21

الإدارة الاستعمارية – إنشاء الراسوطا. إنشاء الرغاية – امتيازات مختلفة – بوفاريك – مزرعة نموذجية – مؤسسة الأوقاف – تحليل مختلف الوثائق الإدارية – السيد بريسون، حاكم مدني – الأشغال العمومية – ميناء الجزائر – حركة السكان الأوربيين – التعليم العام – الإزالة المؤسفة للمستشفى العسكري

عندما تم تعيين المشير كلوزل كحاكم عام للممتلكات الفرنسية في شمال أفريقيا، كان اسمه وحده يكفي لإقناع الرأي العام بالاستعمار. لكن التهور والعوائق لم تؤد إلى أي شيء جيد. وبمجرد أن توقفت الكوليرا، ازداد عدد السكان الأوربيين بسرعة، فظهرت بعض رؤوس الأموال. وقد جُعلت علامات الازدهار هي الازدهار نفسه. كنا مقتنعين أن الخير على وشك أن يحدث من تلقاء نفسه، لذلك لم نتخذ أي إجراء لتحقيق ذلك.

حافظ السيد كلوزيل على المراسلات مع لجان تشكلت في بعض أجزاء فرنسا وألمانيا، لإرسال المستعمرين إلى الجزائر.

وأظهرت هذه المراسلات، من جهة، ثقة كبيرة في المواهب الإدارية للسيد كلوزل، و من جهة أخرى، يمكن لهذه الثقة أن تعني خفة تسخر من كل العقبات، لأنها لا ترى أن هناك عقبات، أو عمق التفكير الذي يستهين بالخوف، لأنه يمكن التغلب عليه. كان هدف السيد كلوزيل هو جذب، بأي ثمن، العديد من الرجال إلى إفريقيا، لأنه كان مقتنعا بأنه سوف يجد طريقة لاستخدامهم. كان تفكيره يتلخص فيما يلي: سيأتي 2000 رجل في الشهر، سيتوفى منهم 1000 من البؤس أو المرض، ويبقى 1000 كربح صافي. وهذا قد يكون صحيحا في أمريكا، البلد الذي يعود إليه المشير في أفكاره الاستعمارية، لأن المهاجرين الذين وصلوا من أوروبا إلى أمريكا لا يمكنهم العودة إلى ديارهم. قلنا في مكان آخر أن 2000 ميل تفصل بينهم وبين أوطانهم. ولكن الجزائر هي بوابة أوروبا. إذا لم يحس المرء بالراحة فيها يمكنه العودة و إقناع مواطنيه بعدم المجيء. وهذا هو السبب في أنه ما ينطبق على أمريكا لا ينطبق حتما على الجزائر، ناهيك عن الأخلاق أو الاحترام للبشرية.

جاذبية الملكية الخاصة، وربما جمعيات العمال، التي تشتغل في أملاك عامة، ستحث الناس على المجيء إلى إفريقيا، لن نؤكد هذا بما فيه الكفاية. ولكي يصبح العمال ملاكا للأراضي، يجب إيقاف نهب الأراضي من قبل

المضاربين. بطريقة أو بأخرى، يجب على المضاربين البيع بسعر منخفض أو بسعر الشراء. وفي الأيام الأولى من إدارته، أراد السيد كلوزيل إنشاء ضريبة عالية جدا على الأراضي الأوروبية غير المزروعة، التي من شأنها الإجبار على البيع، لكن هذا الإجراء، الذي كان سيخصه أيضا مثل الكثير من الآخرين، لم يتم حتى إحرازه. ما توقعناه قد تحقق[1]: عندما أتى العمال، رفع المضاربون الأسعار، فعاد العمال محبطين[2].

مخاطر الاستيلاء على الأراضي، وكنا أول من قدمها، يعترف بها الآن الجميع. وتلتزم الإدارة الآن بتصحيحها[3].

---

(1) في المجلدين الأولين من حوليات الجزائر.

(2) واقتبس السيد إميل دي شان الذي انجذب إلى الجزائر من قبل الحاكم العام نفسه. وجاء مع بعض المزارعين من فرانش كونتي. بعد إنفاق مواردهم كلها وقضاء عدة أشهر في إجراءات لا جدوى منها، آل هؤلاء التعساء إلى البؤس وعادوا إلى فرنسا.

(3) هذه هي عبارات الإدارة:

" وجدنا في عنابة:

قطعتين من 1000 هكتار فما فوق،
تتشكل من 2280 هكتار، فإنه .... 2280 هكتار.
ثلاث قطع أكثر من 500 هكتار، تتشكل من
2400 هكتار، فإنه .... 2400 هكتار.
تسعة قطع من 100 إلى 500 هكتار، تتشكل من
2458 هكتار، فإنه .... 2458 هكتار.
مجموع .... **7138 هكتار.**

تحدثنا في الجزء الثاني من حوليات جزائرية عن مزارع تقع في مقاطعة الجزائر.

كانت تقدم موارد قيمة للمستوطنات الاستعمارية المصممة لهدف ديمقراطي وللحقيقة والعدالة والمستقبل. لم يكن لدى الحكومة أي انزعاج. كانت الأرض لها، و كان في إمكانها توزيعها على العمال الحقيقيين، ولكن يبدو أنه في ذلك الوقت لم تكن لها نفس الأفكار كاليوم عن فوائد الملكية الصغيرة.

يزرع منها حوالي 207 هكتار فقط على العكس من ذلك، 12 أوربي أصحاب أملاك صغيرة، وهم يملكون فقط 84 هكتار، يزرعون 25 هكتارا. تقسيم الأراضي في جوار الجزائر أثر أيضا على النتائج : نرى القليل من ملاك الأراضي الكبيرة. العقارات الصغيرة و المتوسطة الحجم هي التي تهيمن. تغرس فيها الكروم، وأشجار الزيتون المطعمة، كما تنتج الكثير من الحبوب.

أما في غابة فترى الاستيلاء على الأراضي الذي يهدد بالانتشار مع تقدم جيوشنا، لكن الإدارة أوقفت تقدم الشر.

المضاربة العنيفة على الأرض التي لا ينميها أصحابها الحاليون، في انتظار ربح عند البيع، والمزارعون الحقيقيون لا يمكنهم الحصول على هذه الأراضي إلا بشروط مثبطة، هو سبب العلة التي نأمل إيجاد حل لها في وقت قريب. (الجدول يبين حالة المؤسسات الفرنسية في الجزائر، الذي قدم إلى مجلس النواب من طرف وزير الحرب، 1838، ص. 282.)

"تحدثنا عن مخاطر المضاربة، نفس الأشياء في نفس العبارات تقريبا، في العام 1836. (حوليات جزائرية، المجلد 1 صفحة 190.)

في الأيام الأخيرة من إدارة الكونت درلون أمضى أمرا[1] وافق عليه وزير الحرب، في 29 يوليو 1835، منح بموجبه الأمير مير، لاجئ بولندي، خمس مزارع دفعة واحدة حيث تشكل الراسوطا الحوش المركزي. هذه المزارع الخمس هي حوش الراسوطا، وحوش مراد، وحوش المريجة، حوش باي الشرق وحوش بن زرقة.

الجزء الكبير من هذه الأرض، وتبلغ مساحتها أكثر من ثلاثة آلاف هكتار، سبق أن منح من قبل اللواء فوارول للعريب، يسمح لهم بموجب ذلك الإقامة في تلك الأراضي و استغلالها. تم الاتفاق على عدم الفرض عليهم أي رسوم لمدة ثلاث سنوات.

تحدثنا عن هذا في المجلد الثاني من حوليات جزائرية. كان واحدا من أكثر الأعمال البارزة لإدارة اللواء فوارول، و صادق عليه الوزير. ومع ذلك تم نسيان حقوق العريب عندما منح الامتياز للأمير مير في عام 1835، وذلك لأن العمل مهمل في الجزائر.

سمح الأمير مير للعديد من العريب بالإقامة على أرضه كخماسين. قدم لهم أكثر مما تقتضيه الأعراف. فرأينا أوروبيا يسير مزرعة أغلبيتها من العرب. تم استعادة الراسوطا، تشغيل رأس المال، من قبل الأمير مير، الذي وضع الصليب على الجزء العلوي من المبنى الرئيسي. احترم

---

(1) انظر مرسوم الامتياز في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

العرب علامة العقيدة الغربية عنهم، و لاحظ جميع المسافرين الذين ذهبوا لزيارة الأمير مير، على شرفة منزله، مسلمين جالسين سلميا تحت الصليب. كان الأوروبيون يعيشون في وئام تام مع العرب، وكان أطفال الجنسين على حد سواء يلعبون معا، وكانت النساء يتبادلن الزيارات، وكان الرجال يصبحون أصحابا. كان هناك التحام. وكان ذلك راجعا إلى عقلية السيد مير التصالحية. لكن خلف أفكاره الخيرية، كانت نزعة أرستقراطية إقطاعية نجدها عند كل النبلاء البولنديين، حتى بعد المصائب التي ألمت بهم. أراد إنشاء إمارة، و أن يكون له خدم يعامل معاملة جيدة، بدلا من زملاء العمل. كان يريد تغطية أرضه بالخماسين، بدلا من المضي قدما على مدى نسبية موارده.

واضطر السيد مير، الذي لم تكن لديه الأموال، للاشتراك مع رأسماليين. وشاركه هؤلاء بطبيعة الحال في هذه الإدارة، ولكن السيد مير كان رجلا يحب أن يدير وحده شؤونه. أخيرا، بعد مضي سنة من وجودها، فشلت المؤسسة. على الرغم من هذا الفشل، السيد مير في نظرنا هو رجل قدم خدمة كبيرة للمستعمرة، عن طريق الإثبات بالتجربة أن الأوروبيين والعرب يمكنهم التقارب بالعمل من أجل هدف مشترك.

وفقا لبعض الترتيبات التي وضعها الأمير مير منذ فشل مؤسسته،

امتياز الراسوطا ينتمي الآن إلى شركة، لكن هذه الأخيرة ليس لها وجود قانوني ما لم تحصل على موافقة الحكومة. وعلاوة على ذلك، يحق للدولة سحب الامتياز لأن الوكيل لم يف بجميع الشروط التي تم فرضها. هذه قضية خطيرة لجلب انتباه مسيري الجزائر، سواء في إفريقيا وباريس. للأسف، أحرجت الحكومة نفسها لأن الحكومة المحلية اتخذت الرهن العقاري لأكثر من 100.000 فرنك على الراسوطا، على الرغم من أحكام المادة 10 من الامتياز، التي توضح أن هذا التنازل لا ينقل ولا يشغله الرهن العقاري، كليا أو جزئيا، عدا ما تأذن به الحكومة. في هذه اللحظة، باستثناء حديقة، ليست هناك فلاحة أوروبية في الراسوطا. تم تأجير الأرض للعرب. وكانت نتيجة هذه العملية، واحدة من الأسوأ في أفريقيا، إذ دفع السكان الأصليون إيجار أراضي الدولة لبعض الأفراد الخواص. أضف إلى هذا أن المروج الجيدة للحاميز كانت في الامتياز، كما اشترت الدولة التبن بثمن مرتفع، بينما كان يمكنها أن تدفع أجرة اليد العاملة فقط، كما في عام 1833. هذه النتائج لن تفيد الاستعمار وهي مكلفة للخزينة، لأن هذا التنازل لا يتطلب سوى رسم سنوي قدره 50 سنتا للهكتار الواحد، ولن يؤخذ هذا الرسم حتى بعد 10 سنوات من دخول الامتياز حيز التمتع.

أقام الأمير مير في الراسوطا في نوفمبر 1835. وبعد ذلك بأشهر أقام السيد ميرسي وهو معمر بحوش الرغاية عل بعد ثلاثة فراسخ من الراسوطا. واكتسب مع شريكه السيد سوسين ملكية المزرعة عن أسرة عمر باشا. لكن طعنت في ذلك الإدارة. وطلب السيد مرسي الامتياز، دون التخلي عن حقوقه كمالك.

منح الامتياز، والمزرعة لا تزال ملكا للدولة، بانتظار قرار المحكمة بشأن النزاع. تم التوقيع عل مرسوم من قبل الكونت درلون في 3 جوان 1835، ووافق عليه وزير الحرب في 3 جويلية التالي، ولكن لم يحصل مرسي عل أرض الرغاية إلا تحت إدارة السيد المشير كلوزل. لإقناع المستوطن للإقامة في هذا المكان البعيد، وعد المشير أن يرسل إلى هذه المزرعة مفرزة من المشاة للدفاع عنها ضد العرب. لكن لم يف بهذا الوعد.

لو كان الأمر غير ذلك، ستبذل كل القوات المتاحة لحماية للمستوطنين الذين يرغبون في الإقامة وراء خطوطنا العسكرية. كان الأجدر أن لا يعد بذلك، وحظر تلك المرافق التي تحرج الإدارة، و التي كانت أكثر إضرارا للزراعة و للاستعمار الحقيقي.

قضت محكمة الجزائر النزاع بين السيدين لومرسي و سوسين وبين

الدولة لصالح الأولين.

لما لم تستأنف الدولة هذا الحكم، أصبحت الملكية لهذين السيدين منذ ذلك الحين نجحوا في إنشاء شركة لاستغلال الرغاية، ولكن عل الرغم من نشاط السيد مرسي، المعاملات التجارية الرديئة أجبرتها عل تصفيتها في هذه الأونة.

أوربي آخر، السيد موستاي، أقام في مزرعة أثناء إدارة السيد المشير كلوزل خارج الخطوط، في وطن بني موسى، حوش بني شوقف، في مزرعة اشتراها ماركيز دالبرتس. وقد قتل هذا المستوطن كما قتل من سبقه.

سر نجاح الزراعة في أفريقيا هو المزارعون المحترفون الحقيقيون، الذين يستغلون أراضي يملكونها، نحن بحاجة لمزارعين بالمعنى، وليس أولئك الذين يرتدون القفازات والملابس الأنيقة. مالك الأرض قد ينجح، أو عل الأقل لا يفشل، وذلك باستخدام الأساليب العربية، حتى لو كانت تنتج القليل، فهي غير مكلفة للغاية.

هكذا أسس السيد دي تونات مؤسسة في حوش خضرة عند سفح الجبل في وطن الخشنة. يعيش وحده في وسط العرب ويتكلم لغتهم، كسب ثقتهم. ولكن لتوفير المنتجات في الجزائر يجب العرض عل

نطاق واسع للزراعة الأوروبية، ونحن لا نستطيع القيام بذلك إلا مع المزارعين المالكين.

تواصل نظام الامتياز في القطع الكبيرة الذي بدأه الكونت درلون أثناء إدارة السيد المشير كلوزل. هكذا تم التنازل على حوش ميموش، حوش فصلي، حوش بوعقاب و حوش سوقالي. كان هناك مشروع للتنازل على حوش بن خليل، لكن انسحب المستفيد.

تجار آخرون لم يفوا بأي من الشروط المفروضة عليهم وخُلعوا بدورهم من قبل الإدارات التي تلت إدارة المشير كلوزل. وقع الوزير على قانون يخول الإدارة بتقديم وعود التنازل.

يتم تبادل هذه الوعود مقابل سند ملكية نهائي بعد إكمال المتطلبات من كافة المتعاملين[1]. قسم المشير كلوزل حوش شاوش و حوش بوعقاب و منح التنازلات.

توجد بوفاريك على أراضي هذين الحوشين، وموقع مشروع مدينة حاولنا أن نسميها مدينة كلوزل. وبما أنه كان هناك دائما الكثير من تجار

(1) وزعت السلطة، بدون اي حاجز و بسرعة، تنازلات عديدة، دون تمييز او بعد النظر، بما انها كانت غير راضية بمنح الأراضي الحاضرة، إذا منحت الأراضي التي ظنت انها موجودة بدون رقابة. فبهذا المنظور، تنازلت يوم 13 مايو 1835 على 300 هكتار من الأراضي العمومية للسيد لوكري في الدويرة، مادامت متوفرة. لم يجد السيد لوكري شيئا. ما يكسب في الدويرة، هذه المنطقة و القرية كلهم له، و اشتراه بنفسه على الأفراد.

النيل، سماها جنودنا مدينة الملهى. ومع ذلك بوفاريك تستطيع أن تصبح بلدة ذات أهمية. للأسف هذا المكان غير صحي كما كنا نعتقد من القليل من المرضى خلال السنة الأولى من الاحتلال في معسكر درلون[1].

تم تقسيم الامتيازات في بوفاريك إلى 162 قطعة من ثلث هكتار حول المدينة، و 173 قطعة من 4 هكتارات خارج المدينة. يدفع الوكلاء رسوم طفيفة. يضطرون لبناء المنازل وفقا للتصميمات. كما أنها ملزمة بالزراعة وغرس الأشجار على الكثير في ثلاث سنوات.

في بوفاريك هناك مئة منزل ويبلغ عدد سكانها الأوربين أقل من 500 نسمة. في 27 سبتمبر 1836، تم التوقيع على مرسوم بشأن تنازلات بوفاريك ونشر، ولكن العديد من الوكلاء كانوا يستغلون أراضيهم عدة أشهر قبل ذلك الوقت.

من بين الأسباب لهذا النظام هناك: لسنوات عدة لم تتم زراعة هذه الأراضي (حوش شاوش و حوش بوعقاب). ومع ذلك، لا أستطيع أن أفوت هذا التأكيد: لأن الأراضي أصبحت غير مزروعة منذ إقامتنا هناك فقط، و كانت قبل مجيئنا مزروعة بشكل جيد، باستثناء جهة نبت فيها نباتات الدفل فقمنا بتدميرها. عندما نستقر في مكان ما،

(1) انظر الكتاب الثاني، ص 237.

نبدأ عادة بالتدمير، أو نتركه للهلاك[1]، ومن ثمة عندما نريد إصلاح بعض الضرر، نقدم تجاربنا كإبداعات جديدة.

هي حقائق من الصعب جدا الاعتراف بها، وأنا أعلم، ولكن ربما بتكرار هذا ستفهم الإدارة أنه من الأفضل الحفاظ على ما هو موجود فعلا، عوض استعمال الشعوذة الاستعمارية، وأنا لا أخلطها مع الاستعمار الحقيقي.

تحدثنا في الجزء الأول من حوليات جزائرية عن المزرعة النموذجية، التي أجر لها المشير كلوزل خلال إدارته الأولى 1000 هكتار من الأراضي على ضفاف واد الحراش.

هذه الشركة لم تعد موجودة في عام 1836، وقد تعقبت المحاكم هذه الأراضي التي كانت قد صنفت كممتلكات خاصة.

وأظهرت وقائع هذه القضية أن قرار تأسيس هذه المزرعة النموذجية، بتاريخ 30 أكتوبر 1830، وضح أنه يجب أن تؤخذ 1000 هكتار المستأجرة من قبل الدولة للشركة على ضفتي واد الحراش بداية من مصبه، وتشمل ميزون كاريي، ولكن لا تشمل حوش حسن باشا، الذي أعطي لها رغم ذلك.

(1) هذا لا يتعلق بقسنطينة.

لقد عانت مصلحة أملاك الدولة من نقص الوثائق، لكن من خلال العمل والبحث، وصلت إلى نتائج مرضية في عام1836. عدة أسئلة بقيت بدون جواب تم سلط الضوء عليها و تم إكتشاف عدة سرقات و بمؤهلات عرفت هويتها. تعرف الدولة أخيرا ما لديها في مقاطعة الجزائر، وثمة قسم خاص للإشراف الإداري للمرافق العامة ويسمى إدارة الحبوس[1].

وأدى السيد برناديت المسؤولية عن هذا الفرع الإداري، واستطاع تنظيم الفوضى التي نشأت عن الغزو. اكتشف السيد مانغاي، قائد الهندسة العسكرية، تشكيل الملكية في أفريقيا، ويعرف القليل من الأوروبيين ذلك[2].

نقدم للقارئ الآن، تحليل الأعمال الإدارية الرئيسية، منذ رحيل الكومت درلون حتى نهاية إدارة المشير كلوزل.

أوكل الرهن العقاري، الذي عهد به إلى كتبة المحاكم بموجب المرسوم الصادر في 8 مايو 1832، للإدارة، بأمر من الكومت درلون المؤرخ في 22 جويلية 1835.

(1) الحبوس هي أملاك تعود لمؤسسة و من جهة، كل الذي ينتمي إليها.

(2) طبع هذا العمل في الجزائر مرة أولى، و قد نشر في المجلد الثاني من هذا الكتاب.

تم نشر هذا المرسوم أثناء حكم المشير كلوزل في أعمال الحكومة.

أثناء إقامة المشير كلوزل في وهران بين حملتي معسكر وتلمسان، وقع مراسيم تعيين بعض وظائف القضاء للمسلمين والعبريين. في الواقع، تم التوقيع في مكتبه في وهران.

في 7 ديسمبر 1835، أنشأ مرسوم ملكي اتفاقية القرض بالفائدة في الممتلكات الفرنسية في شمال أفريقيا.

الفائدة القانونية، إذا لم يكن هناك اتفاق، كان من المقرر أن تكون عشرة في المائة، سواء في المسائل المدنية أو التجارية. في الواقع، فإن القوانين كلها عاجزة في مواجهة الربا.

في 19 مارس، تم إصدار أمر يقضي بعدم صلاحية الوثائق عل الأراضي التي تحتلها القوات الفرنسية إلا إذا كانت مصادقة طبق الأصل من قبل قاضي المكان، ومصدقة من باي المنطقة التي تم فيها تحرير الوثيقة.

يجب أن تحمل هذه الوثائق أيضا تأييد رئيس الإدارة المدنية أو قائد القوات الفرنسية في عاصمة البايلك.

هذا الأمر ينطوي عل الأشياء التي لم تكن موجودة حقا. نحن نتكلم هنا فقط للذاكرة.

يوم 22 مارس، دعا إلى الخدمة في الحرس الوطني جميع الأوروبيين الذين تتراوح أعمارهم بين 20 و50 عاما، و المقيمين في أفريقيا. وفي 24 من الشهر نفسه، كان جمع الحرس الوطني للمجتمعات الريفية في كتيبة.

في 21 مارس، وبناء عل تقرير النائب العام، تقرر أنه كل ثلاثة أشهر، واحد من أعضاء المحكمة العليا سيكون نائب رئيس المحكمة المدنية، و لا بد له من النظر في القضايا التي لا تخضع للاستئناف.

وبصرف النظر عن أحكام هذا النظام، كان هناك تراكم كبير في القضايا المطروحة وخاصة في قضايا المسلمين، فتم إنشاء غرفة مؤقتة لهذا النوع من الأعمال يوم 28 مارس.

في اليوم نفسه، 28 مارس، قرر الحاكم العام خلق منصب مفوض عام للشرطة، وهو وزير للشرطة مصغر. لم تصادق هذه الحكومة عل هذا المنصب الذي لم يدم سوى أشهر قليلة.

وشهدت آخر شهر أفريل نهاية إدارة السيد لباسكيي. لم يكن هذا

الموظف متفقا مع السيد المشير في مسألة التنازلات التجارية. فعاد إلى فرنسا، وشغل السيد فالي دي شفينيي منصب القائم بالأعمال المدني.

في 20 جوان، تم اتخاذ قرار يسمح بالملاحة الساحلية مجانا في ظل ظروف وضمانات معينة. الأجانب أيضا لهم إذن بقيادة السفن الفرنسية. كما يسمح لسفن أجنبية الملاحة الساحلية. وقد خفف هذا القانون النظام السابق الذي وضع في 11 نوفمبر 1835[1] والذي قيد الملاحة الساحلية.

يمكننا القول إن الملاحة الساحلية كان مسموحا بها لجميع السفن، لكن تريد السلطة فقط الاحتفاظ بالحق في تقييدها، إذا رأت ذلك ضروريا.

وظلت الملاحة الساحلية مجانية للجميع بغض النظر عن قوارب العرب، على الرغم من ترتيب 11 نوفمبر، الذي يعترف فقط بذلك لملاك القوارب المقيمين في الموانئ التي تحتلها قواتنا.

الإستخدام هنا هو أكثر حكمة من نص المرسوم؛ بأي سلطة ستنظم

(1) لقد أعطينا تحليل هذا القانون في الجزء الثاني من المجلد الثاني من حوليات الجزائر.

أمور المستعمرة إذا كنا نعتاد أن نعتبر القوانين باطلة قبل إلغائها ؟

في 13 سبتمبر، بأمر من الحاكم العام، أصبحت القوانين 2 و 5 المؤرخة في جويلية 1836 قابلة للتنفيذ في الممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا. وخفض هذان القانونان الأسعار، ورفعا الحظر وسهلا التخليص الجمركي.

في 6 أكتوبر 1836 عدل المرسوم الملكي لـ10 أغسطس 1834 بشأن تنظيم القضاء. وقد أرفق قاض بديل لمحكمة الجزائر، وأصبح للمحكمة العليا قاضيين مناوب بدلا من ثلاثة قضاة. كما أصبح قضاة وهران وعنابة يحكمون في جميع الجرائم بالسجن بعد الأمر المؤرخ في 6 أكتوبر.

بقرار مؤرخ في أكتوبر 28، بصيغته المعدلة، تشكل الحرس الوطني على أساس جديد وتحت اسم الميليشيا الأفريقية.

تتألف هذه الميليشيا من جميع الأوروبيين الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و 60 سنة، الذين يقيمون في الجزائر. بأمر خاص من الحاكم العام يستطيع إدماج المواطنين الأصليين من نفس الفئة العمرية. في هذه الحالة، تكون فرقهم منفصلة ويتم تعيين قادتهم من قبل الحاكم.

ويعين الحاكم أيضا ضباط وموظفي الميليشيات، و جميع قادة السرايا، ويعين الضباط وضباط الصف للانتخابات. ويوجد إطاران، واحد للخدمة المنتظمة لميليشيا أقل من خمسين عاما، و الآخر لاحتياطي من هم فوق هذا العمر.

قد تكون هناك حاجة للميليشيا خارج المدينة. ومدة الخدمة قد تكون عشرين يوما. العقوبات على خرق الخدمة يمكن فرضها من قبل مجالس تأديبية و تصل إلى عشرة أيام في السجن. في حالة رفض الخدمة، قد تصل العقوبة إلى عشرين يوما في السجن، ولكن يتم فرضها من طرف الشرطة.

علق مرسوم آخر في 28 أكتوبر، جميع تحويلات الملكية بين الأحياء في محافظة قسنطينة. أمضى هذا المرسوم السيد بريسون، الذي عين متصرفا مدنيا خلفا للسيد ليپاسكيي، لمنع الاستيلاء على الأراضي في هذه المقاطعة، التي كنا على وشك احتلالها.

السيد بريسون، لدى وصوله إلى إفريقيا، بدأ بدراسة موارد البلد واحتياجاتها. رأى قبل كل شيء، أنه يجب على الإدارة أن تكون صادقة، والكذب هو وسيلة استعمار يرثى لها. لذلك سرعان ما نشر إشعار عرف فيه بحقيقة الوضع، وحذر الجمهور أن أراضي الدولة محدودة جدا في المناطق المحتلة من قبل قواتنا، وبالتالي، وصول المستوطنين الجدد لم

يكن مرغوبا فيه. كان السيد بريسون قد فهم جيدا سلبيات الاستيلاء على الأراضي، و ساهم بقوة لتنوير الحكومة في هذه النقطة المهمة، ونحن مدينون لهذا المسئول بالتزام الوزارة بوقف التجاوزات لأنها تسبب ضررا بالغا للتنمية الاستعمارية.

لم يفتتح أي طريق رئيسي تحت إدارة كلوزيل. وصل طريق البليدة إلى أولاد منديل من قبل اللواء فوارول، وإلى ثلاثة أرباع الميل من بوفاريك من قبل الكومت إرلون لكن وصل الطريق أخيرا إلى بوفاريك، كما فتحت طرق قليلة بين القرى.

في الجزائر العاصمة، كثرت المباني في الشوارع الرئيسية الثلاث،انطلاقا من ساحة الحكومة، في اتجاه الأبواب الثلاثة الرئيسية. إدارة الطرق والجسور لم تبق مكتوفة الأيدي. نجح السيد بواريل، رئيس هذا القسم، وبعد اختبارات شاقة، في 1835 و 1836، أن يبعد تماما خطر اجتياح المياه الذي كان يهدد ميناء الجزائر بأكمله بالدمار. بعد ذلك، شرع في تمديد الرصيف، وهو عمل عظيم يعطي أهمية بحرية للجزائر.

وقنوات المياه الصالحة للشرب في الجزائر كانت في حالة سيئة للغاية منذ بداية الاحتلال،و تم تصليحها جزئيا بداية من 1836. بشكل عام، وتلقى نظام الينابيع برمته تحسينات كبيرة.بدأنا أيضا في نفس العام أعمال التجفيف في بوفاريك.

في 1835، كان عدد السكان المدنيين الأوروبيين 11221 نسمة، وفي 13 ديسمبر 1836 بلغ عددهم 14561 نسمة، من بينهم سوى 5485 فرنسيا.

وقد كان توزيع السكان على النحو التالي:

	الفرنسيين	الأجانب	المجموع
الجزائر	3625	5469	9094
وهران	959	2109	3068
عنابة	723	1244	1967
بجاية	157	200	357
مستغانم	21	54	75
المجموع	5485	9076	14561

هذه الإحصائية تؤدي بنا إلى الكلام عن التعليم العام الذي حصل على بعض التقدم في عام 1836. في 31 ديسمبر من ذلك العام، كان 81 طالبا في إكمالية الجزائر. تأسست مدرسة فرنسية للعرب و كانت تضم تقريبا خمسين طالبا. هذه المؤسسة تستحق التشجيع.

مؤسسة أخرى أكثر أهمية من ذلك بكثير ومفيدة جدا، تم توقيفها في ظل إدارة كلوزيل، وأعني بذلك المستشفى التعليمي، الذي أسسه المسير العسكري بوندوران، والذي تكلمنا عنه في المجلد الأول من حوليات جزائرية. هذا المستشفى التعليمي، كان يزخر بمعظم الأطباء والجراحين

الماهرين لجيش إفريقيا الذين لم تدفع لهم أجورهم، رغم أنه كان مدرسة ممتازة لمجموعة من الأمراض التي لم تكن لدينا فرصة دراستها في أوروبا. ثلاثون طبيبا إضافيا تلقوا بذلك تعليما نظريا و تطبيقيا لم يكن ممكنا الحصول عليه في أماكن أخرى بسبب المنافسة والظروف المواتية التي كانت متوفرة. كان هؤلاء الأطباء الإضافيون مفيدين أيضا في مناسبات عديدة، لخدمة الجيش. وجد جميع ضباط الصحة الشباب لحامية الجزائر في المستشفى التعليمي كل ما يمكن أن يحسن دراستهم. سياسيا، كانت هذه المؤسسة مفيدة أيضا. نحن نعرف أن العرب لديهم الثقة في الطب، وهو، من بين كل العلوم، العلم الذي سيكون الأسهل لحثهم على تعلمه. وبالتالي، وبعيدا عن تدمير المستشفى التعليمي، كان يجب أن نبذل الجهد في جعله مثل كلية الطب أبو زعبل، التي أسسها مواطننا كلوت باي في مصر والتي أصبحت وسيلة للحضارة.

تحت إدارة الكونت درلون، تأسس مستشفى للسكان الأصليين في بوفاريك تحت إشراف الدكتور بوزان، لكنه لم يتلق الدعم الكافي وتم هجره. ولكن السكان الأصليين كانوا يستقبلون في المستشفى المدني بمدينة الجزائر. وحتى عندما ينتمون إلى السبايس غير النظاميين، فقد كانوا يستقبلون في المستشفيات العسكرية.

بدأنا أخيرا في عام 1836 في تعويض أصحاب الممتلكات المصادرة تحت ذريعة المنفعة العامة. كانت اللجنة المكلفة بدراسة ملفات ذوي الحقوق تحت رئاسة السيد بود، وهو عضو في مجلس النواب، لتقديم العمل الذي لم يأت بأي نتيجة حتى الآن. مصلحة الضرائب، البطيئة جدا للقيام بعمل صارم، تأخذ في كثير من الأحيان أرباحا ببيع أراضي الدولة.

تم بيع موقع في ساحة الحكومة في الجزائر ب 15500 فرنك للماركيز دي لا تور دو دبين، الذي بنى أجمل منزل في المدينة.

الكتاب 22

اللواء بروسار في وهران – تموين تلمسان من طرف عبد القادر – تعيين الفريق الكونت دامرمون حاكما عاما – وصوله إلى الجزائر – مهمة اللواء بيجو في وهران – تحركات عبد القادر في مقاطعة التيطري وتحركات دامرمون في مقاطعة الجزائر – انتفاضة قبائل الشرق – حملات ضد قبيلة يسر و معارك في بودواو – بعد تهدئته للوضع في الشرق، دامرمون يتجه نحو الغرب – أحداث مقاطعة وهران – مفاوضات مع عبد القادر و معاهدة الطافنا – إخلاء معسكر الطافنا و تلمسان.

عاد المشير كلوزيل لتوه إلى الجزائر بعد رحلته إلى قسنطينة، للتعامل مع قضية مقاطعة وهران، حيث علمنا أن الوضع غير مرضي. كان للجندي منذ فترة طويلة أقل من نصف حصة اللحوم يوميا بعدما اختطف الغرابة حظيرة الإدارة. كانت حاميات تلمسان الطافنا دائما

محمية بشكل وثيق ولكنها محاطة بالأعداء. أخيرا، الدواير والزمالة لم يعد من الممكن لهم إطعام خيولهم، كانوا يفتقرون إلى الحبوب لأنفسهم وأسرهم. خصص لهم حصص من الخبز والأعلاف، وبدون هذه المساعدة لأجبروا على التخلي عنا.

كانت الأمور هكذا عندما تقلد الفريق بروسار، في 13 يناير، قيادة محافظة وهران، بدل اللواء ليتانع، الذي عاد إلى فرنسا. لكنه لا يكفي إرسال لواء جديد إلى وهران، بل كان لابد من دعم القوات. وكانت إدارة الجيش منهكة. لهذا استقبلت بشغف الإخوة دوراند، الذين وعدوها للخروج من هذا الحرج.

هذين اليهوديين الذكيين قد تصوروا فكرة جريئة من إشراك القبائل الموالية لعبد القادر في تموين الحاميات لدينا. ولكنه لا يكفي اتفاق مع الإدارة العسكرية، بل كان من الواجب الحصول على إذن الحاكم العام. قدمت له فكرة المضاربة التجارية كوسيلة للوصول مع عبد القادر إلى السلام، الذي كان يفكر فيه المشير، كما رأينا في الكتاب 23.

الاتفاق بين الإدارة ودوراند لم يكن كالصفقات العادية : وعدت الإدارة تلقي بأسعار متفق عليها ومفيدة جدا لليهوديين دوراند الإمدادات، لكن لم يعد هؤلاء بشيء. بالأحرى قالوا في الواقع:

"نحن متأكدون من النجاح.، ولكن البدء، نريد استثمارات مؤمنة دون خسارة المشروع في حالة عدم إنجاز العمل من طرف المقاول. إذا أرسلنا الثيران، سوف تضطرون إلى أخذها وإذا لم نرسل، لا مؤاخذة".

في هذه الصفقة لم يخاطر الإخوة دوراند إلا بعدم الربح. غير أن القيادة في وهران أبرمت صفقات أخرى مع تجار آخرين بنفس الشروط دونما استشارة الإدارة المركزية في الجزائر التي بقيت بعيدة عن التدبير.

وكانت القضية التي تمت مناقشتها هنا، بدأت بالأخ دوراند الأصغر، واستمر الكهل في مناقشتها. هذا هو الذي سنتكلم عنه.

كانت رؤية التجار اليهود صحيحة : عبد القادر، الذي كان يحتاج عدة بضائع لا تقدمها إلا الأسواق الأوروبية، سمح لهم بشراء الماشية على أرضه و إرسالها إلى وهران، على شرط أن توفر له السلع التي يحتاجها. هذه أول عملية وكانت نجاحا كبيرا.

وصل بضع مئات الثيران إلى وهران، وأرسل الكبريت والحديد والصلب إلى الأمير. سيارات المدفعية شاركت في إيصال هذه الأمور إلى نقطة التسليم لعملاء عبد القادر.

ولكن حامية تلمسان بدأت تشعر بالحاجة إلى إمدادات جديدة. ولو حاول اللواء بروسار تموينها بالطريقة القديمة لاحتاج إلى القيام بحملة عسكرية، الشيء الذي لم يكن في مقدوره. ثم كانت القوات نفسها التي يحتاجها لحملة تحتاج للكثير من وسائل النقل.

هذه الاعتبارات المختلفة أجبرت اللواء بروسار على القبول من جديد خدمات دوراند، لتزويد المشوار من قبل الأمير نفسه. أقنعه بذلك بقوله له أن فرنسا ستعيد له سجناءه الذين تحتجزهم منذ قضية سيكاك.

لم يكن الأمير يعلق أهمية مادية كبيرة لاستلام السجناء، ولكن كان يرى كواجب ديني الإفراج عن المسلمين من قبضة المسيحيين. قام بالصفقة عضو الإدارة العسكرية لوهران وحده مع دوراند، و لم يتعلق الأمر بمسألة السجناء.

اتفق مع دوراند حول الثمن، وطبيعة وكمية المواد الغذائية، وكان له الاتفاق مع الأمير حول وسائل التنفيذ. كان يقود بنفسه إلى تلمسان القافلة التي نظمها عبد القادر، الذي وفر القمح والشعير والثيران. في ذهنه، كانت هذه الصفقة بمثابة فدية الأسرى، لأن

دوراند قدم القضية بهذا النمط. وبالتالي لم يتحدث اليهودي معه بأي شكل من الأشكال عن المال الذي تقاضاه لهذا الغرض، والذي تصرف فيه في نزوته، دون أن يأخذ الأمير و لا ستنيها.[1]. تزويد تلمسان بالوقود تم في بداية شهر أفريل. قسم القائد كافينياك الثلث لصالح أشد الناس فقرا في المدينة واستعمل الباقي لتموين المدينة مدة شهرين.

احتل اللواء بروسار، بعض الوقت بعد وصوله وهران، مسرغين بشكل دائم. كما أنشأ كتيبة بالقرب من بحيرة صغيرة على الجانب الأيسر من طريق مخيم لوفيغيي. هذه التدابير استعادت الأمن في محيط وهران، وكانت مفيدة بشكل خاص للدواير والزمالة.

هذه الأحداث وقعت لما كان اللواء راباتل يشغل منصب الحاكم المؤقت في الجزائر. وكان المشير كلوزيل غادر المدينة في جانفي، على أمل أن يعود قريبا، لكنه استبدل، في 12 فيفري بالفريق دامرمون. وصل الحاكم العام الجديد إلى الجزائر في 3 افريل. جميع أسلافه بدؤوا عهدتهم بواسطة إعلان، يشبه برنامج، متهور في كثير من الأحيان، و الذي نفته الأحداث فيما بعد.

---

(1) لم نتمكن من التعمق بشأن هذه المسألة. وهي واحدة من الأسباب التي أدت إلى تهام اللواء بروسار، و لم يحاكم هذا الأخير نهائيا.

وأعرب بعد وصوله عن اعتقاده أن من واجبه أن يدير المستعمرة بطريقة أبوية و سلمية و يصلح الفشل أمام قسنطينة. كان من محبي الوسائل الهادئة و السلمية، وقال انه يأمل تطبيقها عند وصوله، ولكن مع الجو المفعم بالحرب، اضطر لتأجيلها.

بينما تقلد الحكم الفريق دامرمون، جاء اللواء بيجو إلى وهران بسلطة غير واضحة، مستقلة عن اللواء الحاكم. كانت مهمة بيجو أن يقاتل الأمير حتى الموت، أو صنع السلام معه نهائيا. مثل الفريق دامرمون، اعتقد انه من واجبه أن يبدأ بإعلان.

هذا وكان البيان، الذي لم يكن موجها سوى للعرب، يهدف إلى تخويفهم بالتهديدات بحرب إبادة لكنه سرعان ما بدأ السيد بيجو المفاوضات مع عبد القادر، من خلال دوراند، الذي كان سمح له بالفعل المشير كلوزيل، كما رأينا أعلاه، على العمل في اتجاه السلام. وكان عبد القادر ليس بعيدا عن السلام. ولكن، من ناحية أخرى، كان يعرف أن قوات السيد بيجو لا يمكنها في جميع الحالات أن تدخل الميدان إلا في أول ماي، فقرر استخدام شهر أفريل في زيارة قبائل شرق محافظة وهران والتيطري. هذه العملية ميزة مزدوجة:

اولا جمع الضرائب في هذه المنطقة، التي ستحسن ميزانيته المثقلة ، ثم وجوده سيوطد سلطته، والتي في حالة عدم وجود السلام، فإنه سيثير ضدنا القبائل المجاورة من وسط البلاد، ويخلق ما يكفي من الاضطراب لإحراج الحاكم ويجعل من المستحيل محاولة التقاطع مع اللواء بيجو في الشلف، عملية طبيعية، لدرجة أن العرب والفرنسيين كانوا يعتقدون أن الحكومة ستشرع في ذلك.

وصل عبد القادر إلى العطاف، على ضفاف الشلف، في الأيام الأولى من شهر أفريل. أرسل من هناك إلى مدينة شرشال وبني مناصر لدفع الجزية. خضعت شرشال وأرسل لها قائدا من أتباعه، بينما بني مناصر عرضوا عليه الصداقة، ورفضوا دفع أي نوع من المساهمة. لم يرغب عبد القادر في شن حرب صغيرة، واكتفى بشبه الخضوع هذا. وبعد بضعة أيام، اتبع واد الشلف نحو منبعه، حتى مليانة أين توجد قبائل أفضل استعدادا لدفع العشور، و الذي كانت تظنه واجبا دينيا. ثم نزل نحو مليانة، حيث لم يمكث طويلا. ثم ذهب ظاهريا نحو معسكر لكنه عند واد الفضة غير فجأة اتجاهه و توجه نحو المدية، حيث دخل في 22 أفريل. فور وصوله الى هذه المدينة، قبض على 80

كولوغلي الأكثر نفوذا، وكان من بينهم وليد بومزراق[1] و أرسلهم كافة سجناء إلى مليانة. ثم بدأ بقبائل شرق مقاطعة الجزائر، والتي حتى الآن لا تكاد تعرف اسمه، و حمسهم لحمل السلاح ضدنا، سيدي السعدي، الذي دخل في جميع الانتفاضات في وقت سابق، كان العنصر الأكثر نشاطا في هذا البلد.

وصول عبد القادر الى المدية وضع في حالة هيجان حتى القبائل القريبة منا. كلها تقريبا وجهت له مبعوثين سرا. أرسلت مدينة البليدة أيضا، ولكن بصراحة ودون غموض. أخيرا، القرى العربية، تحت تهديد مدافع بوفاريك، خوفا من هجمات الحجوطيين، التي لم نستطع أن نحميهم منها، أرسلت بالهدايا لباي مليانة لشراء حمايته. وكان هذا الوضع ينذر بالخطر، وكان يمكن أن يؤدي إلى تمرد جميع قبائل متيجة. وبالتالي، فإن الفريق دامرمون شعر بضرورة عدم السماح بتفاقم الأمر، اتخذ خطوات لاحتلال البليدة، من أجل تدميره من خلال هذه العملية، الأثر المنتج على العرب اقتراب عبد القادر، ومنع انتفاضة عامة، بفصل قبائل الشرق عن قبائل الغرب. في 28 أبريل، جمع الحاكم العام في بوفاريك تقريبا كل ما لديه من

(1) ابن باي بومزراق. أطاح به في عام 1830 المشير كلوزيل.

القوات المتاحة، و أرسل طابورا صغيرا لمراقبة خوانق واد العكرا والخميزة يمكن للعدو أن ينفذ منها إلى السهل، نحو الشرق. ثم ذهب شخصيا للتعرف، مع بعض القوات، على مشارف البليدة. أتى لاستقباله كل من الحاكم، والقاضي و أعيان المدينة، ولكن بني صالح الحجوطيين أطلقوا بضع الطلقات على قواتنا، وحتى على أحد الضباط الذي ذهب بعد إذن الحاكم العام ليتفاوض معهم. بعد استكشاف المكان، عاد اللواء دامرمون إلى بوفاريك. انسحب بنو صالح والحجوطيون، ظنّا منهم أن قواتنا أتت للتنزهة، ولكن في اليوم التالي، قبل الفجر، خرج الحاكم العام مرة أخرى. وقسم قواته إلى ثلاثة طوابير : الأول بقيادة اللواء برو، تلقى أوامر بالذهاب إلى جبال بني صالح، للالتفاف حول البليدة على اليمين؛ الطابور 2 بقيادة اللواء نيغريي، نفذ حركة مماثلة على اليسار، والثالث تحت قيادة العقيد شاونبورغ، وكانت مهمته السير نحو البليدة مباشرة من السهل. كان الحاكم العام مع الطابور الثالث. هذه الحركات المختلفة تم تنفيذها بدقة. قبل التاسعة صباحا كانت البليدة محاطة من قبل قواتنا التي سيطرت على المرتفعات، مانعة بذلك سكان الجبال أن

يهاجموها. ومع ذلك، أطلقت بضع طلقات على الطابور الأيمن.

وظهر أن كل شيء انتهى. دخل الفريق دامرمون إلى المدينة وتفقدها مع ضاحيتها. تقع البليدة عند مدخل أخدود عميق، أين ينبع الواد الكبير، نهر غزير يمتد إلى الشفة، على بعد فرسخين. من جانب السهل، فهي محاطة بمجال سميك من الحدائق وبساتين البرتقال والليمون، وجميع أنواع الأشجار المثمرة. الواد الكبير يغذي ينابيع المدينة، بواسطة السد الذي يجمع المياه. يقع هذا السد على نصف فرسخ جنوب البليدة في الأخدود الذي ذكرناه للتو، مما يمكن سكان الجبل تحويل المياه عندما يريدون ذلك. أعجزت هذه الوضعية العديد من رؤساء المصالح الذين طلبوا المزيد من العمل و النفقات من الحاكم العام، لكن هذا الأخير لم يكن ذلك بوسعه. من ناحية أخرى، تدمير الجزء الأكبر من الحدائق والبساتين قدم له على انه ضروري للدفاع. كان ذلك الدمار يخالف مبادئه، التي أعلن عنها مؤخرا. ثم رأى إقامة معسكر غرب المدينة في الموقع الذي شيد فيه معسكر سنة 1838 في ظروف أقل صعوبة. كانت هذه العملية، التي ستعزل المحجوطين عن البليدة و تحاصر بني صالح، نفس المزايا

كاحتلال المدينة دون المساوئ. لكن لم تكن الإدارة العسكرية واثقة من قدراتها على تموين هذا المعسكر الجديد. وأخيرا، وبعد بعض التردد، وبعدما مل الحاكم العام من العقبات التي وجدها في الرجال و الأحداث في كل خطوة، تخلى عن مشروعه، وجلب القوات إلى بوفاريك. من هناك، ذهب لزيارة القليعة وعاد إلى مدينة الجزائر، في 2 مايو، بعد إعطاء أمر بإقامة مفرزة من الفرسان في مراد، حيث لم يكن هناك إلا تحصين واحد بين بوفاريك و البليدة.

ومع ذلك، رأى الأمير الوقت يقترب ليكون اللواء بيجو قادرا على القيام بحملة. فغادر المدية و اتجه نحو محافظة وهران، بعد أن قام بتعيين باي المدية في شخص أخيه الحاج مصطفى محل البركاني. وتزامنت عملية تعيين هذا الباي الجديد[1] مع حركة الفريق دامرمون نحو البليدة. فاعتراه الخوف لحظة، وكان على استعداد حتى للتخلي عن الموقع، عندما علم تراجع قواتنا.

بعد استعادته الشجاعة، اتبع فقط تعليمات أخيه، و خلق لنا أعداء جددا. رأينا أن عبد القادر فيما يتعلق بقبائل شرق الجزائر انه حثهم على حمل السلاح ضد الفرنسيين. استمرت هذه العلاقات من خلال

(1) لم يعط الأمير سوى تسمية الخليفة (ملازم)، للقادة السامين الذين عينهم في كل مكان، لكن تسمية الباي سادت عند العرب الذين كانوا يسمونهم هكذا.

الحاج مصطفى، وتسببت في اندلاع الحرب في هذه المنطقة التي لم تجند أحدا لقتالنا منذ زمن طويل. يوم 9 ماي، هاجم عدد كبير من رجال قبيلتي عمراوة و يسر المزرعة الفرنسية في الرغاية، و خلفوا قتيلين و غنموا عددا كبيرا من الماشية. كما نهبت أيضا مزرعة عربية. كان قائد الخشنة في تلك اللحظة في الجزائر. فذهب خليفته مع فرسان وتهان على أثر اللصوص، ولم يستطع الوصول إليهم. لما أبلغ بهذا الحدث، أمر الحاكم العام بإرسال طابور تحت قيادة العقيد شاونبورغ، من فوج من قناصي أفريقيا. استقر هذا الفوج في إقليم الرغاية، في انتظار التصرف بشكل إيجابي لمعرفة إلى أي قبيلة ينتمي العرب الذين هاجموا المزرعة.

مسافة قصيرة شرق خط الطول الذي يمر على الرغاية، تمتد من الشمال إلى الجنوب سلسلة من الجبال الصغيرة تفصل المتيجة عن حوض يسر. هذه الجبال شديدة الانحدار ولديها ممران : الأول عبارة عن منحدر وعر و يدعى "اشرب واهرب"، و هو منبع في مكان منعزل يخشى المسافر على نفسه من اللصوص و الحيوانات المفترسة. ولذلك، فمن الخطورة أن تتوقف هناك. الممر الثاني، على

بعد ثلاثة فراسخ من الأول، هو ممر ضيق ممتد (الثنية)، وهو سهل نسبيا. هذا البلد تسكنه من الشمال إلى الجنوب الجبيل، بو خرنفار و بني عائشة. لم يشارك سكان هذه الجبال مباشرة في هجوم الرغاية، غير أنهم سمحوا للعدو بالمرور. اتصل بهم العقيد شاونبورغ ، وعلمنا منهم الجناة الحقيقيين لمعاقبتهم. كنا نعرف أيضا أنه تشكل تجمع كبير لقوات معادية ما وراء الجبال الصغيرة التي تحدثنا عنها، عند واد مرجيا بين يسر وهذه الجبال. عزم الحاكم على تفريقها، و أرسل العقيد شاونبورغ إلى ثنية بني عائشة: تلقى اللواء بيريغو، رئيس اركان الفريق دامرمون، أمر بالذهاب بحرا من الجزائر، مع ألف من المشاة ومدفعي جبل، و يهبط على ساحل يسر لقطع تراجع تجمع واد مرجيا. عندما تلقى الأمركان العقيد شاونبورغ معسكرا على الضفة اليسرى من واد بودواو، على بعد ميل ونصف من الرغاية. إنطلق من هذه النقطة، في ليلة 17 إلى 18 ماي، على رأس طابور متكون من كتيبتين خفيفتين، و كتيبة خط الثامن و أربعين، 200 قناصي أفريقيا أو السبايس العاديين، مدفعي جبل، وعلى100 صبائحيين مساعدين. عرقله المطر وسوء حالة الطرق، فلم يستطع الوصول إلا على الساعة الثامنة إلى الممر الضيق. مائة من القبايل على الأكثرحاولوا الدفاع عن هذا الممر، الذي عبر بسهولة. عند

الخروج من المخنق، توقف السيد شاونبورغ على رأس الطابور للتجمع قبل النزول الى السهل. خلال هذا التوقف ظهر بن زعمون مع العرب والقبايل الذين تجمعوا في واد مرجيا. أراد أن يغلق علينا المدخل إلى سهل يسر ولكنه عجز عن ذلك. مسيرة الطابور الفرنسي كانت كافية لتفريق العدو، دون مناورة وتقريبا دون قتال. لكن حدث اشتباك حاد لفرزتين من الثاني الخفيف، وقد اصيب فيها السيد إسوار، ملازم من الفرقة، بجروح قاتلة.

بعد هزيمة بن زعمون، دخل العقيد شاونبورغ إلى السهل، دافعا امامه السكان الخائفين وقطعانهم. توجه نحو مصب واد يسر ليتم التقاءه مع اللواء بيريغو. للأسف حالة البحر، التي كانت مضطربة جدا في ليلة 17 إلى 18، أجبرت الفريق دامرمون على التخلي عن النزول، لذلك لم يغادر اللواء بيريغو ميناء الجزائر. السيد شاونبورغ سعى عبثا طوال اليوم 18. في المساء كان البحر هادئا، واقتناعا منه بأن لم يكن هناك هبوط، عسكر شاونبورغ بالقرب من واد مرجيا، وهذه إحدى الحملات المربحة والبهيجة التي حصلت في وصاية الجزائر.

في اليوم التالي الـ19، اضطر العقيد شاونبورغ، التي لم يكن عنده خبز سوى ليوم واحد، لأنه كان ينتظر الخبز الذي كان سيجلبه اللواء

بيريغو، للانسحاب إلى بودواو. أخذ طريق اشرب واهرب، و هو الطريق الأقصر من المكان الذي كان فيه. بدأت هذه الحركة إلى الوراء لما قدم عدد كبير من العرب ولقبايل على اليسار و الجزء الخلفي من الطابور. تم التراجع في حالة جيدة، من تلة لأخرى، من اخدود لآخر، مع توقفات متكررة، وكان العقيد شاونبورغ يستأنف الهجوم في كل توقف، وكان يكبد خسائر كبيرة للعدو.

لما وصل الطابور إلى البحر، أمام الخنادق العميقة التي لابد من عبورها للوصول إلى نافورة اشرب واهرب، وصل فرسان عمراوة. هاجم هؤلاء وقد تم صدهم نحو الشاطئ، مع تكبيدهم خسارة. في هذه الأثناء، قاتل القبايل الذين اصطفوا على المرتفعات، ببسالة على الجانب الأيسر للطابور. زوجاتهم، اللواتي كن على أعلى التلال، كن يشجعن المقاتلين بصرخاتهم. لما صد في جميع الأماكن، انسحب العدو تدريجيا، وتوقف إطلاق النار عندما وصلت قواتنا إلى اشرب واهرب. منح شاونبورغ جنوده عند واد بومرداس، بعد اشرب واهرب، قسطا من الراحة التي اشتدت الحاجة إليها بعد قطع مسافة طويلة وخوض معركة استمرت من الساعة الثامنة صباحا حتى الساعة الثانية مساء، ثم واصل طريقه إلى بودواو، حيث وجد قافلة كبيرة محملة بالطعام و

الذخيرة التي وصلت لتوها، تحت حراسة ألف رجل، بقيادة العميد بورلون، من ال 63 للخط.

بعدما اندلعت الحرب في الشرق، ولما لم تلق عملية العقيد شاونبورغ النجاح المتوقع لتمهيد الهبوط، قرر الحاكم احتلال بودواو بشكل دائم ولكن، في نفس الوقت، تحرك غربا لتعزيز اللواء بيجو، لذلك لم يستطع ترك إلا القليل من القوات في هذه النقطة. تم استدعاء على التوالي العقيد شاونبورغ والمقدم بورلون. في 24 ماي، لم يبق في بودواو أكثر من 900 من المشاة، 45 فارسا ومدفعي جبل، تحت قيادة قائد الكتيبة دلاتوري من الثاني الخفيف. كانت هذه الفرقة الصغيرة على وشك خوض واحدة من أمجد المعارك في إفريقيا. يوم 25، كانت منهمكة في تشييد معقل، الذي أمر ببناءه الحاكم، عندما تعرضت لهجوم في الصباح من قبل أكثر من 5000 من المشاة و بضع مئات من الفرسان. موقعها الذي كانت تشغله على الضفة اليسرى من النهر يهيمن على الوادي. في حوالي الساعة السادسة، ظهر العدو على مرتفعات الضفة اليمنى. سارع القائد دلاتوري في اتخاذ التدابير اللازمة. العربات الأربعة عشرة التي وصلت أمس لتزويد الموقع كانت متوقفة في شكل مربع في ساحة خلفية للمعقل حيث توجد مفرزتين وقطع المدفعية وسيارات الإسعاف. احتلت مفرزتان أخرتان القرية العربية لبودواو

الواقعة على اليسار وقليلا تحت المعقل. تموقع الفرسان على اليمين، وراء سلسلة طويلة من القاذفين، تدعمها مفرزتين، تربط مختلف نقاط الموقع.

بدأت المعركة في الساعة السابعة وكان العدو باطشا. استولى العدو لى بعض الآثار المتواجدة أمام قرية بودواو ، واستقر هناك. ناور جزء من فرسانه في وقت واحد للإلتفاف حول موقع قواتنا، و تقطع عليهم طريق الجزائر لكنها هوجمت من طرف قوتنا التي لم تكن مؤلفة إلا من 45 فرس و تراجعت نحو المشاة. هذا الهجوم الناجح اعاد الخطوط من جانبنا لما لم تفهم رنة و كادت أن تعيدنا إلى ما كنا فيه: المفرزات التى كانت تحمي القرية فهمت هذه الرنة على إنها إشارة على التراجع فأخلت الموقع فتبعتها مفرزات اليمين بحيث استرجع العدو فى لحظة تفوقه عى قوتنا. لما رأى الضباط الخطر سبقوا الجنود صارخين بالقتال بالخناجر. هذا السلاح الذى تستعمله الأيادي الفرنسية بالتوفيق هزم العدو الذى كان شجاعا فانتظر الصدمة حينئذ استعيدت القرية و المواقع الأخرى، لكن موقع الآثار صمد بعض الوقت و لم يسترجع إلا بالمدفعية. كان العدو يتهاوى في كل المواقع و عزم على التراجع عند وصل مفرزة من الـ 48 للخط. تراجع فوضويا آخذا معه جرحه وبعض موتاه. لكنه ترك حوالي مئة جثة على أرض المعركة.

هكذا كانت معركة بودواو ، واحدة من أروع مآثر حروبنا في أفريقيا،
و التي تستحق كل تقدير للذي قادها. حملت جميع قبائل الشرق
السلاح في خطط وهجومهم على بودواو، وكان قد أبلغ، يوم 24 في
المساء، شيخ عمال المحافظ بطريقة دقيقة، لدرجة أن قوات الجزائر و
المعسكرات المجاورة تلقت ليلا أوامر للاستعداد لمسيرة تحت قيادة
اللواء بيريغو.

بدأوا التحرك بالفعل، ووصلوا إلى بودواو بعد المعركة: في اليوم
التالي، بدأ الهجوم. الطابور الأول، بقيادة العقيد شاونبورغ، اتجه نحو
اشرب واعرب، و جعل اليوم الأول لتهيئة الطريق لمرور للسيارات.
وجرت هذه العملية بدون قلق. يوم 27، غادر اللواء بيريغو بودواو،
مع الطابور الثاني، إلى ثنية بني عائشة، وعبر بدون صعوبة. وانحدر
بعد ذلك إلى سهل يسر و اقام في حوش صغارا، حيث انضم إليه
العقيد شاونبورغ.

حتى ذلك الحين، لم يظهر العدو، ولكن في اليوم التالي، بعدما
وصل اللواء بيريغو إلى جبل ضروهه، ظهر حوالي 4000 من العرب
والقبائل لمعارضة مسيرته. هاجمهم عبر عدة نقاط دفعة واحدة، بقوة،
ففض جمعهم تماما في أقل من ساعة. أدى الفرسان مهمتهم بشجاعة.
هذه المعركة، التي كانت مميتة للعدو، لم تكلفنا إلا القليل من الوفيات،

بينهم القائد جيرمان، من الفوج الأول لقناصي إفريقيا. بعد ذلك، قام
اللواء بيريغو بعملية تمشيط خوانق جبل ضروهه، حيث غنم الماشية.
ذهب بعد ذلك عند حوش ناكريل، غير بعيد عن البحر. في تلك
الليلة، جاء عدة مرابطين من يسر لتوسل الرأفة منه للمهزومين. هنا
وقال لهم ان هذه المرة سيوافق، ولكن إذا كان أحد من قبيلة يسر يريد
سلام مستدام، لا بد أن يرسل مندوبين عند الحاكم ليطلبها. في اليوم
الموالي، استأنف الجنود مسيرتهم و عسكروا بعدما جاوزوا اشرب
واعرب، حيث عادت كل القوات على ثكناتها، باستثناء مفرزة تركت
في الرغاية. الثاني الخفيف، جزء من ال48 و63 للخط، سريين من
السباهيين و أربعة من القناصين شاركوا في هذه الحملة.

خلال الأحداث التي سردناها، تقدمت باخرة وبارجة قبالة دلس،
التي شاركت في التمرد. سارعت المدينة في تطبيق كل ما طلب منها.
كما أخذ الحاكم والقاضي وعدة أعيان كرهائن إلى الجزائر.

خمدت فرص الحرب من قبائل الشرق، لذا وجه الحاكم كل اهتمامه
غربا. جعل مركز الفرسان الذي أنشئ في مراد خرجات الحجوطيين
أكثر صعوبة، ولكن بقيت عندهم الجرأة في شن هجومات. في ليلة
10 ماي، غزت إحدى عصاباتهم الشراقة، القرية العربية، أمام دالي
إبراهيم، واختطفت شابة في عرسها و قتلت زوجها ونهبت بعض

الماشية. وكان هذا المشروع الجريء بقيادة محب القناة. و قد قام الحجوطيين لهذا الغرض بقطع خط الدفاع بالقرب من التحصينات واد الهاجر، الذين لم يسمعوا شيئا. طابور متنقل، بقيادة القائد موميت، مساعد الحاكم، تم تشكيله لمراقبة وادي مازافران وتغطية الساحل.

ولكن حاول الحجوطيين الإلتفاف حول خطوطنا من الجنوب، كما هو الحال في نوفمبرالماضي. في 24 ماي، تقدموا في حوالي 300 امام تحصينات واد يعيش، لكن نيرانهم نبهت القائد بوسكارين، قائد مراد، وسار على الفور ضدهم.

بدأ اللواء نيغريي، الذي كان في بوفاريك، في التحرك أيضا مع بعض القوات. علم العدو أنه اكتشف، بدأ في التراجع. لما هاجمهم القائد بوسكارين قرب البليدة فرقهم بعدما قتل منهم عدد قليل من الرجال.

في 2 جوان، هاجم الحجوطيون عمال أوروبيين أمام بوفاريك، قتلوا منهم ستة واقتادوا الآخرين كسجناء. كان اللواء نيغريي قد سمع أن العدو يستعد لشن هجوم. وقد حذرالأوروبيين في بوفاريك من قبل على عدم ترك عمالهم أن يخرجوا في ذلك اليوم، ولكنهم لم يلتزموا بهذا التحذير. في اليوم التالي، 3 يونيو، تعرضت عدة اماكن من أراضينا

هجوم في وقت واحد. فرقة استطلاعية من الفرسان بقيادة قائد السرب درلون خاضت معركة حادة أمام بوفاريك. اضطر اللواء نيغريي لنشر قواته للدفاع عن خط واسع جدا، لم يمكنه الشروع في أي هجوم؛ ومع ذلك، كان لابد عليه أن يهاجم. في هذه الظروف، حول الحاكم، بعد انتهاءه، بقوة وسرعة ملحوظة، من قضية الشرق، مقر قيادته إلى بوفاريك، وجمع كل القوات المتاحة لديه. أخذ تدابير للتوجه نحو المدية أو وادي الشلف، حسب الظروف و الأخبار التي يتلقاها من اللواء بيجو. وسائل النقل الإدارية لم تكن كافية، وعوض هذا النقص عن طريق تجنيد البهائم.

يوم 6 جوان، الحاج الصغير، التي تموقع في العفرون، أرسل من جانب بوفاريك سرية استطلاعية، هزمت من قبل قواتنا بين مراد واد يعيش. في يوم 7، سارالحاكم مع الجزء الأكبر من قواته نحو الشفة، إلى المعسكر الذي بناه اللواء بروسار، السنة الماضية.

كان عازما، قبل التوجه إلى الغرب، ان يطهر غابة خرايسية من العصابات التي تنتشر فيها و التي تهاجم الساحل، وقال انه لا يود أن يتركهم وراءه. في هذا الغرض كان قد أمر طابورا انطلق من المحالة للدخول في هذه الغابة من طريق القليعة، في حين يأتي هو من الجانب

المقابل. انطلق لهذا الغرض من الشفة ليلة 7 إلى 8، ووصل في الصباح إلى شواطئ المستنقع بالقرب من قبر الرومية. بعد استراحة قصيرة، تحول الجنود نحو اليمين ودخلوا إلى الغابة، حيث كانت بعض الاشتباكات الجزئية مع الحجوطيين.

في منتصف النهار، التحم طابور المحالمة مع القوة الرئيسية. في نفس الوقت تقريبا، فرسان باي مليانة، الذي ظل في العفرون، اتوا برسائل مستعجلة إلى الحاكم من اللواء بيجو، الذي أبرم معاهدة سلام مع عبد القادر، يوم 30 ماي، على الطافنا. وكان نفس الفرسان يحملون رسالة من باي مليانة للحاكم يقول فيها أنه بمقتضى المعاهدة فإنه يسحب قواته اذا كان الحاكم على استعداد للقيام بالمثل.

قبل الفريق دامرمون هذا الترتيب، معتبرا إياه هدنة إلى أن تبت الحكومة في ذلك. نتيجة لذلك، عاد إلى معسكر الشفة، حيث امضى ليلته، وفي اليوم التالي أخذت القوات طريق عودتها إلى ثكناتها.

نحن بحاجة إلى التوقف هنا لنقدم روايتنا، ومرة أخرى، للإعلان عن الأحداث والمفاوضات التي أدت إلى معاهدة الطافنا.

رأينا أن اللواء بيجو، بعد أيام من نشر برنامجه المهدد، بدأ التفاوض مع الأمير بوساطة دوراند. أراد عبد القادر السلام، ولكن، طبعا،

أراده ببعض الفوائد. كان دوراند لا يتعجل لذلك لكي تكون له الهيمنة على الأعمال التجارية، لأنه طالما كانت الأزمة دون حل، يمكنه أن يمارس احتكارا للتجارة. ولكن عبد القادر قرر فجأة التوجه مباشرة إلى الحاكم العام[1] في الوقت الذي لم يكن يتوقعه مفاوض اللواء بيجو. ومن المحتمل انه كان يأمل في ذلك أن يزيد من سوء الفهم والتنافس التى نشأ بين اللواءين. على أي حال، كتب

---

(1) كان يعتقد السيد بيجو أن توجه الأمير سببه الجزائر، وأنه استخدم في ذلك بعض السجناء الذين اعيدوا إلى عبد القادر، في مقابل اولئك كان قد أعادهم للواء رابائل منذ بعض الوقت*. كان يعتقد أيضا انه نفس السبب الذي ادى بالأمير بالسير نحو المدية، ولكن كان من السهل عليه أن يعترف بخطئه، لأن عبد القادر لم يرى السجناء حتى عودته من المدية. كان في مينا حينئذ. دوراند هو الذي أقنع، لبعض الوقت، اللواء بيجو أنه إن كانت المفاوضات لا تسير بشكل أسرع، ذلك بسبب أنها كانت معرقلة بسبب المفاوضات المضادة مع الجزائر. دوراند، على الرغم من رغبته في التماطل، راى من اللازم، على اية حال، أن تنتهي هذه المفاوضات وإلا فقد أهميته، فوجد الطريقة التي يختتم بها دون خسارة بالنسبة له. لهذا الغرض، أخفى عن الأمير التسهيلات السلمية للحكومة، وطلب منه مبلغ كبير لرشوة اللواءات الفرنسية. فليس من المستحيل أن يكون الأمير قد وجد هذه الدبلوماسية مكلفة للغاية، وأن هذا الاعتبار كان من بين الأسباب التي دفعته للإتصال بالفريق دامرمون . في حين طلب دوراند مقابل من المال من عبد القادر، طلب نفس الشيء من اللواء بيجو لرشوة مستشاري الأمير. ذلك، أعتقد، هو أصل هذه الهدايا الدبلوماسية، الذي تحدث عنها في محاكمة بربينيان، ولكن، وباختصار، لم تهدى.

* من بين السجناء الذين أعيدوا إلى رابائل كان السيد دفرانس، ضابط شاب للبحرية، الذي نشر كتاب مثير للاهتمام حول احتجازه.

الى الفريق دامرمون بعبارات، رغم أنها لا تحتوي على مقترحات مباشرة، تعبر في مجملها عن طلب حقيقي للسلام. أجاب الحاكم بطريقة، على الرغم من أنها غامضة، تفتح الباب أمام المفاوضات. كتب في الوقت نفسه الى وزير الحرب ليخبره بخطوة الأمير، و يقترح القواعد، حسب قوله، التي من الممكن اتباعها في المفاوضات. كانت هذه القواعد تحد عبد القادر في الشلف.

في حين بداية العلاقات بين الحاكم العام والأمير، علم بها اللواء بيجو، وقال كلاما اعتذر منه بشدة في وقت لاحق. اتهم السيد دامرمون أنه قدم مقترحات للأمير تمس بالمفاوضات التي كان قد بدأها بنفسه. لامه خاصة أنه أكبر بعبد القادر، و بين له رغبته القوية في السلام. وقد ادعى السيد بيجو أيضا أنه الوحيد الذي له الحق أن يفاوض. ظهرت عندئذ عواقب و مساوئ تقاسم السلطة، التي آتت بأكلها المر مع إدارة اللواءين ديميشال و فوارول، لكي لا تقع الإدارة في نفس الخطأ. ولكن في هذا الأمر، لم يستفد من دروس الماضي. ونضيف كلاما حتى على الأخطاء القديمة :تعيين حاكمين في الجزائر خطأ، خصوصا أنه لم توضح واجباتهم.

السيد دامرمون فهم أن اللواء بيجو يمكن يكون مستقلا في تسيير العمليات العسكرية، ولكن ليس في تدابير مستقبل البلاد، كمعاهدة

السلام[1]. كان السيد بيجويعتقد أنه مستقل حتى في هذا. النتيجة ظهرت بين اللواءين مراسلات ساخنة جدا في البداية، ولكن خفت، نظرا لحسن نواياهم في هذا الصراع، حيث كانا يعرفان أن الصراع أتى من التعليمات المتناقضة.

قرر السيد دامرمون التخلي عن المفاوضات[2] لصالح اللواء بيجو، وكتب قائلا لعبد القادر، الذي راسله مرة ثانية، أن يتعامل مع بيجو، مع الإحتفاظ بحق الطعن، بمقتضى الرسالة الوزارية ل26 أبريل. اعترف اللواء بيجو بهذا الحق للحظة، كما سنرى لاحقا. وفي الوقت

---

(1) في رسالة من وزير الحرب للفريق دامرمون، في 26 أبريل، توجد هذه الجملة: "وأذكر اللواء بيجو أنه في أثناء هذه المفاوضات، لن يفعل أي شيء دون إخباركم، أو إبرام شيء دون إذن منكم. من جانبكم، احرصوا على عدم البت نهائيا دون موافقة حكومة الملك، عليكم بإخباري بجميع المقترحات التي تصلك". وفقا للسيد بيجو، لعقد وزير لغة أخرى لانه قد كتب الى الفريق دامرمون 25 أيار: "لا يوجد (في هذه التعليمات) أي شيء يفيد بأن تتركوا السلام، وأنه، على حد تعبير رسالتكم المؤرخة في 14 ماي، ماعلي إلا تحضير المعاهدة. اذا كانت الحكومة تقول لكم خلاف ذلك، إذا كان لديكم صلاحيات خفية علي، سوء الفهم، هذا والمساوئ التي وقعت، ليست من خطئكم أو خطئي. هي راجعة للحكومة، التي لم تنشأ بطريقة واضحة و نهائية في ما يخص توزيع الصلاحيات ... أين الأخطاء تنسب على من ارتكبهم".

(2) وفي برقية في 16 ماي، أعلن وزير الحرب أن الأمور يجب أن تكون كذلك لكن حسمت الأمور قبل وصول هذه البرقية إلى الجزائر.

نفسه، وصل بن حراش مبعوث الأمير إلى وهران، حيث مكث لمدة يوم واحد. عاد مع دوران واليجرو، مساعد اللواء بيجو. كتب دوراند بعد يومين أن كل شيء على ما يرام، ولكن في 14 ماي، عاد السيد اليجرو وأعلن أن كل شيء قد نقض.

لم يترك عبد القادر لفرنسا سوى منطقة الساحل في الجزائر، وفي محافظة وهران البلاد بين بريديا وماكتا. وفقا لذلك، يوم 15، خرج اللواء بيجو مع قواته. كانت نيته تزويد تلمسان بالوقود أولا، ثم إخلاء معسكر الطافنا، الذي أخلي من حيث المبدأ، ومن ثم التوجه نحو الشلف. وكان مقررا أيضا أن تخلى تلمسان على إثر هذه الحملة، مهما كانت نتائجها[1].

قوات الحملة المؤلفة من 9000 رجل كانت على النحو التالي :

الفرقة الأولى – اللواء ليدات.

الفوج الأول للخط[2]،

كتيبة مشاة إفريقيا الثالثة الخفيفة.

(1) في 31 جوان، كتب اللواء بيجو للفريق دامرمون: "يرجى ملاحظة أننا لا نتنازل عن شيء (لعبد القادر) سوى ما كان تحت سيطرته الآن، إلا تلمسان التي أمرت أن أخليها قبل بداية الحملة"

(2) وصل هذا الفوج إلى وهران في الأيام الأولى من مارس. وصلت كتيبة إفريقيا الثالثة بعد وقت قصير.

الفرقة الثانية – اللواء روليير.

ال23 للخط،

ال24 للخط.

الفرقة الثالثة – العقيد كومب.

ال47 للخط،

ال62 للخط.

القرسان.

الفوج الثاني لقناصي إفريقيا،

السبايس العاديين،

الدوير والزمالة.

كانت المدفعية مؤلفة من 329 رجل و معدات ل 12 مدفع جبلي.

كان الرجال الهندسة 54 فقط، منهم 4 ضباط.

وسيلة نقل المؤونة متكونة من 550 بغلا للإدارة[1]، وعلى 300 من الإبل التي قدمها العرب المساعدون. في 15 ماي، وصل اللوائين الثاني والثالث إلى بريديا حيث تموقعت. يوم 16، ذهب بيجو هناك شخصيا مع بقية القوات. يوم 17، غادرت القوات بريديا في ثلاثة طوابير، وتركت بعد الواد المالح. يوم 18، عسكر بعد المرور على واد سنان، ويوم 19 في

(1) أرسلت البغال من فرنسا

واد يسر. تم تبادل بضع طلقات في هذين اليومين مع مجموعات من العرب. يوم 20، وصلنا إلى تلمسان التي تم تزويدها بالمؤن. أمضى الجيش فيها يوم 21، ثم سار على الطافنا، حيث وصل يوم 23.

في حين كانت تجري هذه الحركات، سعى اليهودي دوراند لاستئناف المفاوضات، ولكنها لم تسر بالسرعة التي كان يرغب فيها بيجو. انخفضت وسائل النقل بشدة : 25 بغلا لقوا حتفهم في الطريق، و أجبرنا على ترك 67 في تلمسان، من الذين لم يستطيعوا السير.

معظم أولئك الذين وصلوا إلى الطافنا أصيبوا بجروح فظيعة نتيجة لسوء صناعة السروج التي اعتمدت مؤخرا من قبل وزير الحرب. هذه السروج ذات الحلق الثلاثي تحول وزن الحمولة تحت نقطة انحناء ضلوع البغال، مما يؤدي إلى موتها على الفور أو وضعا خارج الخدمة، في الوقت الذي كان فيه اللواء بيجو يتكل عليها كوسيلة نقل.

بقيت لديه الجمال، التي لم تتلق تجارب مخططي الإدارة. ولكن رغم توفرها بما فيه الكفاية فهي لا تليق إلا لرحلة قصيرة، وليس لحملة طويلة. لذلك أصيب اللواء بيجو، الذي كان يأمل في تمديد الحملة لعدة أشهر، بخيبة أمل. من ناحية أخرى، صرح عبد القادر

لدوراند أنه سيتعامل مع اللواء بيجو فيما يخص محافظة وهران، ولكنه سيتوجه ثانية إلى الحاكم العام فيما يخص الجزائر. كان ينوي إنهاء الأمر بسرعة، و شك في حسن نية دوراند، فقرر إرسال مفاوض جديد. اختار حادي بن سيدي صقال، و أرسله إلى معسكر الأمير، يوم 24. في اليوم التالي، عاد المبعوث بمقترحات نستطيع استخدامها كأساس لمعاهدة. ولكن عبد القادر لم يرد في حال من الأحوال التخلي عن مقاطعة التيطري. لم يكترث بذلك اللواء بيجو لأنه لم يكن مهتم بهذه المقاطعة. ومع ذلك، كان قد تلقى في اليوم نفسه رسالة من الحكومة تقيد عبد القادر في الشلف. أحرج اللواء بيجو للحظة.

ولكن بالنظر إلى عدم جدية الوزارة في الشؤون الأفريقية و نيتها الغامضة، قرر بيجو أن يتجاهل هذه الرسالة[1]. نتيجة لذلك، صاغ معاهدة مماثلة لتلك التي سوف تقرأها في وقت لاحق، ولكن تنص، بالإضافة إلى ذلك، على جزية سنوية يدفعها عبد القادر. كلف بن صقال بتقديم هذا المشروع إلى الأمير.

كان اللواء ينوي في الأول إخبار الحاكم لكسب موافقته . حتى أنه كتب يقول أنه إذا كان لا يوافق، وبالتالي لن يرسلها إلى الحكومة، فليسارع لإبلاغه، سيبدأ القتال على الفور حينئذ. لكنه غير رأيه في

(1) من وجهة نظره، كان اللواء بيجو محقا، لأنه حينما كان على ضفاف الطافنا وقرر عدم التوقف عند رغبات الوزير، كان هذا الأخير يكتب له أنه مستعد للتخلي عن التيطري ومدينة شرشال.

نفس اليوم، وأرسل مشروعه مباشرة إلى فرنسا، على متن باخرة أرسلها لهذا الغرض.

ومع ذلك، عاد بن صقال إلى المعسكر برد الأمير، الذي قبل المشروع إلا الجزية. كان اللواء بيجو حرجا، لأن الجزية قد نص عليها في المشروع التي تم إرساله إلى الحكومة للمصادقة، ويبدو مستحيلا أن يغير فيه شيء، لما سيداول عليه مجلس الوزراء. ولكن السيد بيجو رجل قرار. ونتيجة لذلك، أقصى الجزية، كما كان قد تخل عن التيطري، واتفق الطرفان المتعاقدان على ذلك، فتم توقيع المعاهدة يوم 30 ماي، وهنا نصها :

معاهدة الطافنا.

بين الفريق بيجو قائد القوات الفرنسية في محافظة وهران، والأمير عبد القادر تم الاتفاق على هذه المعاهدة.

المادة 1.

يعترف الأمير عبد القادر بسيادة فرنسا في أفريقيا.

المادة 2.

تحتفظ فرنسا،

في محافظة وهران، مستغانم ومازاغران و أراضيهم؛ وهران، أرزيو؛ زيادة عن منطقة هذه هي حدودها، إلى الشرق بنهر ماكتا والمستنقعات

التي تخرج منها؛ إلى الجنوب بخط من المستنقعات، المذكورة أعلاه، يمر على الطرف الجنوبي من بحيرة السبخة حتى واد مالح (ريو سالادو)، في اتجاه سيدي سعيد، ومن هذا النهر إلى البحر، بحيث تكون جميع الأراضي داخل هذا المحيط فرنسية.

في محافظة الجزائر:

الجزائر، منطقة الساحل، المتيجة، يحدها من الشرق إلى واد قدارة وبعده، من الجنوب بأول قمة لأول سلسلة الأطلس الصغيرة حتى الشفة، بما فيه البليدة وأراضيها؛ من الغرب الشفة حتى التفاف مازافران، ومن هناك بخط مستقيم حتى البحر، وتحتوي على القليعة وأراضيها ؛ جميع الأراضي داخل هذا المحيط تراب فرنسي.

المادة. 3.

يدير الأمير محافظة وهران، التيطري، وجزء من الجزائر التي لم يتم تضمينها في غرب الحد المبين في المادة 2. لا يحق له الدخول في أي جزء آخر من الوصاية.

المادة. 4.

لايملك الأمير أي سلطة على المسلمين الذين يريدون أن يعيشوا في الإقليم الموجود تحت إدارة فرنسا ؛ هؤلاء أحرار للعيش في إقليم إدارة الأمير، الذي، كما يحق لأولئك الذين يعيشون في إقليم إدارة الأمير أن

يقيموا في الإقليم المحدد تحت إدارة فرنسا.

المادة. 5.

العرب الذين يعيشون على الأراضي الفرنسية يمارسون دينهم بحرية ويستطيعون بناء المساجد، واتباع ضوابطهم الدينية، تحت سلطة زعمائهم الروحيين.

المادة. 6.

سوف تعطي أمير الجيش الفرنسي ثلاثين ألف فانيغ[1] وهران من القمح . ثلاثين ألف فانيغ هران من الشعير. خمسة آلاف ثور. تسليم هذه السلع سيكون في وهران من قبل طرف آخر. الأول من 1 إلى 15 سبتمبر 1837، الآخرين، في شهرين ثم في شهرين.

المادة. 7.

يشتري الأمير الكبريت من فرنسا، وكذا البارود و الأسلحة التي يحتاج إليها.

المادة. 8.

والكولوغلي الذين يريدون البقاء في تلمسان أو في مكان آخر سيمتلكون بكل حرية ممتلكاتهم ويعاملون كالحضر.
أولئك الذين يرغبون الذهاب إلى الأراضي الفرنسية، يمكنهم بيع أو تأجير ممتلكاتهم بحرية.

(1) مقياس اسباني يعادل 60 لتر.

المادة. 9.

يتنازل فرنسا للأمير: رشغون[1]، تلمسان، المشوار والمدافع التي كانت سابقا في القلعة. يجب على الأمير النقل إلى وهران الذخائر ومدافع حامية تلمسان.

المادة. 10.

تكون التجارة حرة بين العرب والفرنسيين الذين يكونون أحرارا في الإقامة في هذه الأراضي أو تلك.

المادة. 11.

سيحترم الفرنسيون العرب، كما سيحترم العرب الفرنسيين. المزارع والممتلكات التي امتلكها الفرنسيون أو يكتسبونها في الأراضي العربية سيتم ضمانها لهم. يتعهد الأمير بدفع ثمن الأضرار التي من شأن العرب أن يلحقوها بهذه الممتلكات.

المادة. 12.

سيتم إرجاع المجرمين كل إلى منطقته.

المادة. 13.

يتعهد الأمير ألا يتنازل عن أي نقطة من الساحل إلى أي قوة خارجية دون موافقة فرنسا.

(1) ليس الجزيرة، ولكن الموقع الذي كنا نحتله في الطافنا والذي تسميه العرب أيضا رشغون.

المادة. 14.

لاتتم التجارة في الوصاية إلا في الموانئ التي تحتلها فرنسا.

المادة. 15.

يكون لفرنسا وكلاء عند الأمير في المدن الموجودة تحت إدارته، كوسطاء للفرنسيين المقيمين هناك في المنازعات التجارية أو غيرها مع العرب.

يكون الأمير نفس الصلاحية في المدن والموانئ الفرنسية[1].

قرأ اللواء بيجو هذه المعاهدة أمام رؤساء الفرق لجيشه الصغير الذي أبدوا موافقتهم. يوم 1 جوان، كان للواء لقاء مع عبد القادر، الذي اجتذبه مع قلة قليلة من ضباطه، إلى وسط قواته، حيث ظهر في عيون

(1) الخلاف بيننا وبين عبد القادر في تنفيذ هذه المعاهدة يكمن في المادة 2. الأمير يقول إننا ببساطة محدودون عند واد قدارة، وهذه الكلمة "بعده"، التي وضعت بعد اسم هذا النهر لا قيمة لها تماما. نحن نقول، على العكس من ذلك، لهذه الكلمة أهمية كبيرة جدا، وأننا لا نريد أن نحد أنفسنا في اتجاه الشرق. المادة 3 تؤكد مطالبنا. هنا ترجمة وفية لمقل في النص العربي: "الأمير يحكم في محافظات وهران، المدية، وجزء من محافظة الجزائر الذي لم يدخل ضمن الحدود الغربية، حدود ناقشتاها في المادة الثانية. فإنه لا يمكنه أن يحكم إلا في الأماكن التي تم ذكرها أعلاه.

الناس أن أمير العرب ينتظر تكريما له.

ولكن الموقف الشخصي للواء سرعان ما أعاد الوضع على قدم المساواة[1]. مباشرة بعد وصوله الى الطافنا وبينما كان يتفاوض مع الأمير، أمر اللواء بيجو بالعمل على هدم المعسكر، وعلى أية حال، كان ينبغي التخلي عنه. بعد إبرام السلام، أمر بعدم تدمير بعض الأكواخ الموجودة، ظنا منه أنه سيتم تشكيل قرية من طرف السكان الأصليين، لكن لم يكن ذلك.

يوم 3 يونيو، أرسل اللواء المعاهدة مع أحد مساعديه إلى باريس. في اليوم 4 من الشهر نفسه، غادرمعسكر الطافنا الذي تم اخلاءه تماما. نحن ومع ذلك، كنا لا نزال نحتل رشغون. بقيت كتيبة من ال47 في المشوار، والذي كان لا ينبغي تسليمه للأمير إلا بعد المصادقة على معاهدة السلام. عادت الحامية السابقة، بقيادة القائد كافينياك، إلى وهران، حيث وصلت مع بضع مئات من الكولوغلي الذين لم يرغبوا في البقاء تحت سيطرة الأمير. يوم 9، عاد جيش الحملة بقيادة بيجو إلى وهران.

الآن توضع معاهدة الطافنا تحت المحك، واللواء بيجو نفسه ندم أكثر من مرة على توقيعها. تكفي قراءة ومعرفة القليل من الشؤون الإفريقية لتقتنع أنه إذا كان هذا كل ما كانت الحكومة تريده، لا طائل

(1) انظر تفاصيل هذه المقابلة في الجزء الثاني.

تماما للنفقات الكبيرة لوضع لواء بكامله في حالة حرب، وتحويل السيد بيجو من مهنه التشريعية والزراعية. لأنه لا شك أن دون ترك وهران، ودون الكثير من البهاء، كان يمكن للواء بروسار أن يفعل الشيء نفسه.

أرسل الفريق دامرمون للحكومة بعض الملاحظات على معاهدة الطافنا التي تثبت صحتها الأحداث اليومية[1]. لكن لما وصلت إلى باريس، كان كل شيء قد انتهى.

كان الرأي العام في الأول ضد ما أنجزه اللواء بيجو، فأرعب قليلا الوزراء ونفى السيد مولي، رئيس الحكومة، أن يكون قد تم التصديق على المعاهدة، وقال أنه سيتم إدخال تعديلات عليها. في 15 جوان أعاد هذا التأكيد على منبر غرفة النواب، وفي اليوم نفسه برقية مرسلة إلى الحاكم العام أعلنت أن المعاهدة قد أمضيت من قبل الملك[2].

بموجب هذه المصادقة، التي سلمت لبيجو من طرف أحد مساعدي وزير الحرب، أخلت الكتيبة 47 مشوار تلمسان يوم 12 جويلية

(1) راجع التعليقات في الجزء الثاني من هذا الكتاب، تحت نفس العدد كالأجزاء الأخرى المتعلقة بمعاهدة الطافنا.

2) هذه البرقية التي نشرت العديد من المرات في الراصد الجزائري كشفت جريمة السيد مولي، أو على الأقل استخفافه. بعد فترة وجيزة، سأل في هذا الصدد في مجلس الشيوخ، فأجاب أن البرقية ربما قد لم تفهم جيدا. ها هي البرقية، وللقارئ الحكم على ما إذا كانت هناك طريقتان لفهمها.

عوضت هذه الكتيبة كتيبة القائد كافينياك، التي دمجت مع الزواف.

أعطت معاهدة الطافنا للأمير جزء مقاطعة الجزائر التي توجد غرب الشفة، وبقيت لنا السيطرة في شرق المحافظة، وفقا للتفسير الذي قدمه السيد بيجو لأطروحته، التي وللأسف شروطها غامضة وملتبسة، وخاصة في اللغة العربية، ولم يفهمها عبد القادر بنفس الطريقة التي فهمناها نحن. أجبرت حملة اللواء بيريغو إلى يسر سكان هذه المنطقة لتقديم وعود تماطلت للوفاء بها. كما كان من المهم إنهاء هذه الحالة لمعرفة حقوقنا في هذا الجزء من البلاد، أوجب الحاكم على يسر لإرسال نواب وفي نفس الوقت سارت القوات نحو بودواو. كان هذا العرض أن اعترفت يسر بالسلطة الفرنسية و دفعت الجزية. مدينة

برقية إلى باريس في 15 يونيو 1837، 5 والنصف مساءا.

من وزير الحرب إلى السيد اللواء دامرمون، الحاكم العام.

وافق الملك اليوم على المعاهدة التي أبرمها اللواء بيجو مع عبد القادر، السيد دولارو سيذهب اليوم إلى وهران لإبلاغ اللواء بيجو بهذه المصادقة، ثم سينتقل إلى الجزائر العاصمة.

سأرسل لك نسخة من هذه المعاهدة عن طريق البريد.

نسخة،

ش. لوماستر.

دلس دفعت أيضا. هذه المبالغ اقتسمها الأوروبيون و العرب، اللذين كان لحقت بهم خسائر بسبب غزو القبائل الشرقية. أعيدت رهائن دلس. تعهد بني عائشة ويسر بالدفاع عن ممرات اشرب واهرب و الثنية في المستقبل، في حال نشوب حرب أخرى. وضع بني عائشة تحت قيادة القائد كراشنا كما كان الحال تحت الحكم التركي. أما يسر فلها قائد خاص بها. ولذلك، بدا السلام معززا على جميع الأصعدة. وأعرب الجميع عن ارتياحه لهذا الوضع، سواء على أراضينا أو أراضي عبد القادر. كانت الناس قد تعبت من الحروب، و فرحوا بحسن النية المتبادلة، شيء طبيعي بعد كفاح طويل. لكن سرعان ما بدأت القول أن السلام لن يدوم طويلا، و أن الفرنسيين سيبدؤون إخلاء السهول والتمركز في الجزائر.

هذه الضوضاء رمت الإضطراب في العقول، وعاد بعض الحجوطيين اللذين قبلوا السلام على مضض إلى عمليات قطع الطرق، على الرغم من باي مليانة الذي وضعوا تحت إدارته. كان هذا الأخير منشغلا ببعض الأفكار السرية منذ بعض الوقت.

كتب إلى الحاكم، في الأيام الأولى من جويلية، وطلب منه أن يرسل له رجل آمن ليخبره عن أشياء مهمة بالنسبة له و نحن. وضع السيد

دامرمون لطلبه، ولكن عندما وصل إلى مليانة، وجد مبعوث الحاكم الباي يحتضر. جاءه مرض مفاجئ ومات بعد ثلاثة أيام. سره، إذا كان عنده، توفي معه. كان هناك حديث عن التسميم، ولكن بدون شواهد. عوضه ابن أخيه، سيدي محمد بن علال.

في 23 جويلية، ذهب الحاكم إلى عنابة، لينهي، إما عن طريق المفاوضات أو بالقوة، القضية الكبيرة التي هي قسنطينة.

الكتاب 23

حالة الأعمال في مقاطعة عنابة - وصول اللواء دامرمون - مفاوضات مع أحمد باي - تهيئات الحروب - محاولة تدخل من طرف تركيا - معسكر مجاز أعمر - حملة قسنطينة - موت اللواء دامرمون - الإستيلاء على قسنطينة و احتلالها.

ذكرنا في الكتاب 22 أن المشير كلوزيل، بعد حملته المشؤومة في قسنطينة، قرر الإحتلال الدائم لقالمة. وقلنا أيضا أن الأمر أوكل في هذه النقطة للعقيد دوفيفي، الذي تصرف بالمهارة والتفاني اللذين يعترف بهما له الجميع. الدفاع المادي عن الموقع كان هو الأهم، لا شك في ذلك، لكن هذا الاحتلال العقيم لبعض الأطلال لن يحول دون أن يأتي باي قسنطينة للحضور وخلق المتاعب تحت جدران عنابة. كان من الضروري الحد، على الأقل في سلسلة رأس العقبة، من نفوذه وعدوانيته، بكسب السكان في جميع أنحاء قالمة. وكان هذا الهدف الذي اقترحه العقيد دوفيفي،

ووصل إلى ذلك جزئيا. لن ندخل في التفاصيل عن كيفية المصالحة ذلك يتطلب تطورات قد تكون لا مصلحة لها للقراء، ومن ناحية أخرى، لن نستكملها بما يكفي لجعلها مفيدة لأولئك الذين يريدون التعامل بجدية مع هذا النوع من القضايا.

نقتصر على القول أن السيد دوفيفيي كان قادرا على يكسب ثقة العرب. لهذا السبب، رغم تعطل وصول الأموال من عنابة إلى قالمة، تمكن دوفيفيي من دفع ثمن المواد الضرورية للمعسكر بسندات يمضيها، و عممت بين القبائل وأصبحت أمرا مألوفا.

في 22 مارس، جاء اللواء طربزيل لزيارة قالمة مع فرق عديدة من الفرسان. في اليوم التالي خرج في استكشاف الضفة اليمنى من السيبوس بين هذا الموقع وواد الصرف، والذي يصب فيه عند مجاز عمر. كان الغرض من هذه الجولة أن يجمع بنفسه البيانات الطبوغرافية من أجل حملة قسنطينة الجديدة.

عاد إلى عنابة من الضفة اليسرى للسيبوس ، دون المرور عبر قالمة.النفوذ المعنوي لدوفيفيي لم يكن ممكنا إلا بحماية القبائل بشجاعة من أحمد باي و العرب الموالين له. لذلك لم يتوانى دوفيفيي في الخروج لمساندة هذه القبائل رغم قلة قواته، و لكنه كان دائما محظوظا

في معاركه نظرا للتدابير الجيدة التي كان يتخذها و لشجاعة جنوده. وقعت أول معركة في 24 ماي، ضد قبائل واد زناتي، التي سارت بقيادة بعض القادة العسكريين الذين أرسلوا من قسنطينة. بعد بضعة أيام، سار العقيد ضد قبيلة الحشاش، فغنم منهم قدر لا بأس به من الماشية. أعاد لقبيلة الحشاش النصف بعدما أعلنت خضوعها، بينما سلم الباقي للقبائل التي سارت معنا.

يوم 16 جويلية، خاض السيد دوفيفيي معركة شرسة ضد قوات كبيرة، واستطاع الصمود على الرغم من انه لم يكن لديه سوى 600 من المشاة 120 فارسا.

بينما كان العقيد دوفيفيي في قالمة، تم إنشاء موقعين بين هذا الموقع والدرعان، واحد في نشميا، و الآخر أقل أهمية في حمام باردة. في ماي، غيرت الحكومة رأيها في شأن يوسف ولم تعد تريد أن تعينه بايا على قسنطينة. أصبح السيد النقيب ميربك قائدا للصبائحيين. هكذا كانت الأمور في بونه، عندما وصل الحاكم العام في 26 جويلية.

عندما استدعت الحكومة المشيركلوزيل من الجزائر، عاد الى نظام الاحتلال المقيد الذي تخلى [1] عنه لمدة.

---

(1) "الهدف الذي تريده الحكومة هو ليس بالسيطرة المطلقة، ولا حتى الغزو الفوري والاحتلال الفعلي الكامل للوصاية القديمة. لأن الحرب الشرسة و المكلفة

بالفعل في ذلك الوقت، كان يعتقد ان فرنسا لا مصلحة لها في تدمير قوة أحمد باي، وبدلا من ذلك ينبغي أن تستخدمه لخلق منافس لعبد القادر[1].

منذ معاهدة الطافنا، أصبح هذا الاعتبار أكثر قوة، لأنه كان واضحا أن تدمير سلطة أحمد باي لا تفيد سوى عبد القادر الذي سيجمع إرثه السياسي من تواجده في التيطري.

التي يجب خوضها. للوصول إلى هذا الهدف ستكلف فرنسا تضحيات ضخمة، اقل بكثير من الفوائد التي يمكن أن تجنيها من النجاح. والغرض الرئيسي في ممتلكاتها في شمال أفريقيا يجب أن يكون التواجد البحري، الأمن وبسط التجارة، زيادة نفوذها في البحر الأبيض المتوسط وبين السكان المسلمين الذين يعيشون على الساحل. الحرب عقبة أمام هذه النتائج. الحكومة لا تقبلها إلا كضرورة، وتأمل في إنهائها بسرعة. أجبرت على ذلك، لأنه من المستحيل المرور فجأة من نظام إلى آخر، ولأنه من غير المعقول إظهار السلمية دون أن إظهار القوة. في النظام الذي أسس أثناء حضوركم من قبل المجلس، أهم نقطة بالنسبة لفرنسا هي حيازة الساحل. النقاط الرئيسية للإحتلال هي الجزائر، عنابة و وهران. لكن، كما تعلمون،لا يقتصر هذا الإحتلال فقط على المدن وضواحيها...(تتحدث عن المنطقة التي يجب أن تكون محتلة في المحافظات الثلاث.)

ينبغي أن يترك باقي الأراضي لقادة من السكان الأصليين، الذين يتم اختيارهم من بين الرجال الذين لديهم نفوذ فعلا، و من المستحسن أن يكونوا بكثرة لكي لا يكون لأحدهم سلطان على الآخرين." (رسالة من وزير الحرب إلى الفريق دامرمون، 22 ماي 1837).

(1) تم استخراج هذه التعبيرات حرفيا من الرسالة المذكورة أعلاه.

في الواقع، لما أطيح بأحمد، من، من غير عبد القادر، توالي قبائل البايلك الشرقي ؟ كان من الواضح أن هذا القائد الذي اغتنم الفوضى التي عقبت سقوط الحكومة التركية ليبسط نفوذه إلى قبائل وهران وبايلك التيطري ليغريهم بسلطانه، و لا نستطيع أن نغلب هذا النفوذ إلا باحتلال البلاد كلها، ما لم تكن نريده في ذلك الحين، وما أردناه إلا بفتور منذ ذلك[1]. هذه الحقيقة أدت اللواء دامرمون أن يكون على استعداد تام لمساندة نوايا الوزارة التي، و إلى آخر لحظة، أرادت التعامل مع أحمد[2]. و كان من الأحسن الدخول في معاملات معه،

---

(1) كانت هذه التقديرات صحيحة، لأن، وعلى الرغم من احتلالنا قسنطينة الآن، و تمكننا من التوغل قليلا في المحافظة، فقد اغتصب عبد القادر من ذلك الكثير، ويطمع في الباقي.

(2) وفي 21 جولية، كتب وزير الحرب للواء دامرمون : "لن يغيب عن بالك، أن إعادة السلام هو الهدف الرئيسي للحكومة، التي تعتبر الحرب هنا كوسيلة للحصول السلام بأفضل الشروط، مما يعني أنه سيتم اللجوء إلى الحرب في أقصى الحالات."

تكررت نفس التوصيات في جميع المراسلات التي تبعت، وعلى وجه الخصوص في تلك التي ارسلت يوم 9 أوت و 6 سبتمبر. أخيرا، السيد مولي، رئيس المجلس، كتب في 3 سبتمبر:

"لا أستطيع أن أوصيك ما يكفي لتحذيرك ضد حماس بعض الضباط رسالتي تلخص في بضع الكلمات: حتى آخر لحظة، السلام أولى من الحرب، السلام ضمن الشروط الموافق عليها، دون إضافة ، أو أخذ قسنطينة بأي ثمن".

مع الأخذ بعين الإعتبار فشل في السنة السابقة، و من هذا المنطلق كان الحاكم العام مستعدا للعمل. ونتيجة لذلك، في وقت ما في شهر ماي، أرسل إلى تونس القائد فولتس، أحد مساعديه، للتواصل من هناك، عن طريق غير مباشر، مع باي قسنطينة.

هذا القائد، وعلى الرغم من درجة عالية من المهارة في الدبلوماسية في الشرق، لم يعط أي خبر. وفي الوقت نفسه، أعلن السيد بوشناق، الذي سبق أن تكلمنا عنه في الأعداد السابقة، للحاكم، أن أحمد باي يدعوه للذهاب إلى قسنطينة، ويرغب في استخدامه كوسيط بينه وبين الحكومة الفرنسية.

وافق السيد دامرمون، لكنه بين على أي أساس ستكون موافقته على التعامل مع أحمد. حسب هذه القواعد، تحتفظ فرنسا بالإدارة المباشرة لقسم كبير من الإقليم، وطالب الاعتراف بالتبعية المطلقة من أحمد، تبعية تتجلى في جزية سنوية، و إعلاء، في الاحتفالات الرئيسية، العلم الفرنسي فوق علم الباي. كما يطلب تسديد تكاليف الحرب.

عند ذهاب بوشناق، وصل السيد فولتس رفقة بن باجو إلى الجزائر، يهودي آخر أرسله أحمد باي إلى تونس. بدا أحمد يريد السلام حقا.

في تلك اللحظة ذهب الحاكم إلى بون، حيث تبعه السيد فولتس وبن باجو. بعد فترة وجيزة، وصل هناك السيد بوشناق مع رسالة من أحمد، و بدأت المفاوضات بانتظام، ما لم يمنع الفريق دامرمون في الاستعدادات للحرب إلى أقصى حد. وسحبت قوات من الجزائر ووهران، ونقلت إلى بون حيث وضعت معدات كبيرة للمدفعية، و وسائل مهمة لنقل الإدارة. أي لم تدخر ولا وسيلة لضمان نجاح الحرب، التي أرادت الحكومة تجنبها بشرف، ولكن كانت مصممة على خوضها بشراسة. سلوك الحكومة كان من الحكمة والمنطق في هذه القضية، على الأقل فيما يتعلق بالموقف الذي كانت مرغمة على اتخاذه بموجب معاهدة الطافنا.

بعد وقت قصير من وصوله إلى عنابة، توجه الفريق دامرمون إلى مجاز اعمر أين قرر أن تكون قاعدته في حالة الحملة. وصل هناك في 9 أوت، مع ال47 وال32 للخط.

شرعت هذه القوات على الفور في بناء معسكر تحت إشراف الهندسة، على الضفة اليسرى لواد السيبوس ورأس جسر على الضفة اليمنى، أين يصب فيه واد صرف في اتجاه المنبع. انتقد هذا المعسكر، كما انتقد معسكر الدويرة، لعدم تناسب حجمه مع الهدف الذي

أنشأ من أجله. ومع ذلك، النتوءات الكبيرة لشرفات القلعة عطلت العمل، بحيث، عندما وصلت قواتنا إلى قسنطينة، لم تقض في داخله و لا ليلة.

خلال فترة بقاء الفريق دامرمون في مجاز اعمر لم تهدأ الإتصالات بينه وبين أحمد. بدا لنا أكثر من مرة أنهما كانا على وشك الوصول إلى اتفاق.

فهم أحمد مخاطر موقفه، فيرغب في السلام. في حالات أخرى، أعرب عن أمله أن الباب العالي سيرسل له الإغاثة من تونس، أو حتى يمكن لقسنطينة أن تقاوم وحدها مثل العام الماضي، و عندئذ يكون له سلوك متكبر وكان كثيرا ما يقول أيضا انه لا يفهم لماذا يريد الحاكم فرض شروط عليه أقل مواتاة من تلك التي أتيحت لعبد القادر. أخيرا، نواياه للسلام كانت معرقلة من طرف بن عيسى و آخرين من الذين يريدون الحرب، و لم يكن لديهم نفس الأسباب للخوف من نتائجها.

تسويف أحمد أطالت المفاوضات إلى نهاية أوت. الفريق دامرمون، بعد أن قدم بعض التنازلات في الجزية ورفع العلم الفرنسي، أرسل مهلة إلى قسنطينة التي أجاب عليها الباي بقطع المفاوضات. لذلك

لم يبق سوى الحرب، واستدعي السيد بوشناق[1]. وقد طلب اللواء دامرمون موافقة الحكومة في نفس الوقت للسير بلا تأخير نحو قسنطينة، لأنه كان منصوصا عليه رسميا في برقية مؤرخة في 9 أوت التي مفادها: "تهيئة كل وسائل الحرب، تنظيمها تماما، و أن تكون على استعداد للسير، وألا يقوم بأي شيء بعده، دون إعلام حكومة الملك بالحالة المدققة للوضع وتلقي أوامرها".

---

(1) وهنا الرسالة التي كتبها اللواء دامرمون لأحمد باي في هذه المناسبة:

معسكر مجاز أعمر، في 19 أغسطس 1837،

الحاكم العام لأحمد باي:

الرسالة التي أبلغتني إياها عن طريق موشي بوشناق، خادمك المتواضع، تحتوي على اقتراحات غير عادية، التي لن أجيب عليها. لقد أدهشتني، كما أعبر عن دهشتي لما فيها من رفض لمعاهدة سلام كنت ترغب فيها من قبل. إذا وقعت مصائب الحرب على البلد الذي تديره، و تؤدي إلى خراب قسنطينة، رفضا منك لسلام مشرف ومساندة ستندم عليها لاحقا، فإن كل المسؤولية تقع على عاتقك، لأن هذه الحرب لن تقدر عليها. من المفيد تذكيرك أن حسين باشا، لما رضخ لنصائح غير مجدية، فضل الحرب التي أطاحت به، على حساب سلام مشرف و شروط أملتها فرنسا عليه لا توجد فيها أي إهانة أو خجل.

تواجد بوشناق عندكم لا جدوى له، لذا أمره أن يغادر مقاطعة عنابة.

على الرغم من الشكل الرسمي للبرقية، إلا أنه كان واضحا عدم الرضا في باريس من أن الحاكم لم يأخذ المبادرة. هذا لا يعني إلا شيئا واحدا؛ في 1837، كما في 1836، أرادت الحكومة، في حالة الخسارة، التستر بذريعة العمل دون أوامر.

كانت لتوقعات أحمد في شأن الباب و تونس أسس من الصحة. كانت القسطنطينية تنوي بعث مدد للباي أحمد عن طريق تونس، لكن باي تونس كان يعارض هذه العملية، لذا قرر الباب أن يبعث بفرقة للإطاحة بباي تونس بمساعدة بعض المتآمرين في الداخل. لكن اكتشفت المؤامرة و قُتل المتآمرون، ثم أجبر اللواء لالاند الفرقة التركية على العودة من حيث جاءت.

لما علمت باريس أن المفاوضات لا تؤدي إلي أي شيء، وأن اللواء دامرمون، بعدما عرف ما حدث العام الماضي، لن يغامر أكثر بمسؤولياته، أخذ الوزراء مسؤوليتهم، فعقدوا مجلسا، واتخذوا فيه قرار الحرب، وأن يترأس الحملة دوق أورليان. حرص هذا الأمير على هذه المهمة، التي كان قادرا على القيام بها على أتم وجه، و بالتالي تشريف سمعته العسكرية.

لكن اعتبارات عائلية حرمته من عذا الشرف و من هذه المهمة التي كان سيؤديها بجدارة القائد المحنك. عادت قيادة الحملة عندئذ للحاكم العام الذي كان من المقرر أن يكون المساعد العام للأمير لو اختير كقائد عام. أوكلت لدوق نمور قيادة لواء، بينما عين الفريق فالي كقائد عام للمدفعية، و هو أكبر متقن لهذا السلاح، كما أعطيت قيادة مصلحة الهندسة للفريق رو ديفلوري، أحد مشاهير سيينا.

لما كانت ترتب هذه الأمور في باريس، كان الفريق دامرمون يتخذ كل الإجرآت و الترتيبات لتجري الحملة على أحسن ما يكون. يوم 13 سبتمبر، قام باستكشاف عميق على طول ضفاف واد زناتي، حيث تمكن من تفريق بعض العرب الذين قطعوا له الطريق.

بعد بضعة أيام، اتجه نحو عنابة لتفقد وضعية المستشفيات و المخازن، وأيضا لاستقبال دوق نمور و كذا الألوية فالي و ديفلوري. أثناء مجلس انعقد عند الأمير، أثيرت قضية توقيت إجراء العملية، واقترح اجراءها في الربيع.

حادث مؤسف بعث الوهن في الضمائر؛ ال12 للخط، الذي أرسل من فرنسا للمشراكة في هذه الحملة، كان مصابا بداء الكوليرا.

إضطرنا لعزله، مما حرم الجيش من ثلاثة كتائب.

لكن الفريق دامرمون برهن أنه باستطاعة الجيش الإستغناء عن هؤلاء، و أقنع الباقين [1].

أثناء تواجد دامرمون في عنابة، هوجم اللواء روليير، طوال ثلاثة أيام متتالية، 21، 22 و23 سبتمبر، من طرف 7000 إلى 8000 من الفرسان و المشاة، تحت قيادة أحمد باي بنفسه.

ضرب العدو بشراسة، خاصة مرتفع على يمين و مقدمة المعسكر، على الضفة اليمنى للسيبوس. اللواء روليير، الذي تفطن لأهمية هذا الموقع، كلف العميد لاموريسيير بالدفاع عنه.

فقد العدو خلال الثلاثة أيام هذه عدد كبير من الجنود و خسر كل الهجمات، مما يشرف اللواء روليير و قواته. تتكون هذه القوات من ال23 و ال47 للخط، كتيبة من الثاني الخفيف، الكتيبة الثالثة الخفيفة لمشاة إفريقيا، كتيبة قناصي إفريقيا، الزواف و السبايس.

---

(1) حتى اخر لحظة من حياة الفريق دامرمون، ساد التفاهم بينه و بين اللواء فالي. في تلك الفترة، كتب الفريق دامرمون إلى شخص من المقربين إليه قائلا: "كان لدي أن أقاتل أفكار غير عادية، و أن أتغلب على مصاعب كثيرة، و هموم مختلفة... اللواء فالي، ذو العقلية المستقيمة، لا يتعنت في الدفاع عن رأيه. الأن، لدينا رأي واحد، و من الصعب علي أن أعارضه. لذلك، سأستفيد بأقصى وسعي من نصائحه و خبرته."

في أواخر سبتمبر، جمعت كل الوسائل العسكرية و القوات في مجاز اعمر. قرر الإنطلاق ليوم 1 اكتوبر، لكن في آخر لحظة أعلم رئيس الأركان الفريق أن عدد الخيول أقل من الذي قيل له، لذلك لا يمكن حمل كل الأمتعة. لما كانت هذه المصلحة حساسة، كان من الواجب إصلاح الخلل. من أجل هذا، تلقت المدفعية و الهندسة الأمر بالتخلص من كل ما هو كمالي وأخذ ما لا يمكن للإدارة أخذه معها. أجبرنا على ترك كمية كبيرة من الذخيرة الحربية و قسما كبيرا من وسائل الهندسة. تقرر أن المدفعية ستترك أقل من المعدات من الهندسة، و أن هذه الأخيرة لن تلعب إلا دورا ثانويا في عملية الحصار.

قوات الحملة، التي يبلغ عدادها 10000 رجل، تم تقسيمها إلى أربعة فرق، على النحو التالي:

الفرقة الأولى- دوق نمور.

كتيبة الزواف،

كتيبة من الثاني الخفيف،

فيلق من قناصي إفريقيا،

كتيبتين من ال17 الخفيف،

سريتين من السبايس،

مدفعين جبليين و مدفعي ميدان.

الفرقة الثانية – اللواء تريزل.

سبايس غير نظاميين،
كتيبة تركية،
قذافين إفريقيا،
سرب حر،
كتيبة لل11 للخط،
ال23 للخط،
مدفعين جبليين و مدفعي ميدان.

الفرقة الثالثة – اللواء روليير.

الكتيبة الثالثة لإفريقيا،
كتيبة من الفيلق الأجنبي،
سربين من السبايس النظاميين و إثنين من الفيلق الأول لقناصي إفريقيا،
أربعة مدافع جبلية.

الفرقة الرابعة – العقيد كومب.

ال47 للخط،
كتيبة من ال26 للخط،
مدفعين جبليين و مدفعي ميدان.

تتألف المعدات من:
4 مدافع 24،
4 مدافع 16،
2 راجمات 8،
4 راجمات 6،
3 قذافات 8،

كليا هناك 17 مدفع، بذخيرة تتكون من 200 طلقة لكل مدفع، 1000كغ من البارود، 200 بندقية حرب، 50 بندقية تقليدية، 500،000 خرطوشة مشاة و عدة جسور و عابرات للماشين على أقدامهم: الكل يكون طاقم من 126 سيارة مؤلفة من 50 سيارة ذوي مقاعد و 76 ريفية.

مدفعية الميدان و المدفعية الجبلية، الموزعة على الألوية، كانت مؤلفة من:

4 مدافع 8
2 راجمات 24
10 راجمات 12 جبلية
16 مدفع في المجموع

كانت المدفعية الجبلية مزودة ب 180 طلقة، و مدفعية الميدان ب120 طلقة، و الراجمات ب 10 طلقات نارية لكل منها.

المدفعية، تحت قيادة اللواء فالي الذي كان يساعده اللواء كارامان، كانت مكونة من 46 ضابط، 1154 ضابط صف و جندي، و كذا من 1227 حصانا أو بغلا.

الهندسة مكونة من 10 فرق و يقودها اللواء روو دي فلوري و نائبه اللواء لامي.

كانت الإدارة العسكرية تحت إشراف المحاسب الأول دارنو. كانت مكونة من 5 فرق للدواليب، 97 عربة، 589 حصان الجر و 438 بغل. كانت تحمل 429 قنطارا متريا من البسكويت، 109 قنطارا من الأرز، 50 قنطارا من الملح، 31 قنطارا من السكر و القهوة، سبعة هكتولتر من النبيذ و 536 قنطارا من الشعير.

عربات المدفعية و الهندسة كانت تحمل أيضا 366 قنطار من الشعير. قطيع كبير أمن اللحم في الغذاء. انطلاقا من مجاز اعمر، كان الجيش يتوفر على 18 يوم من المؤن، بحساب ما كان يحمله الجنود.

في أول أكتوبر، على السابعة و النصف صباحا، غادر اللواء الأول و الثاني مجاز أعمر، رفقة الفرقة الأولى لحظيرة المدفعية، المكونة من معدات المقر. عسكر اللواء الأول في مرتفعات راس العقبة، بينما استقر الثاني، بمعدات المقر، في عنونة. هطل المطر في هذا اليوم الأول من السير، مما جعل الحزن يخيم على الجيش. كان الكل يتذكر الماضي في نفس الظروف، فكان يخشى المستقبل. لكن تحسن الطقس بعد ذلك، فعادت الفرحة و البهجة إلى الوجوه. كانت الطرق وحلة من المطر الغزير الذي تهاطل، فوجدت العربات مشقة كبيرة في صعود جبل سادة.

في اليوم الثاني، نفس القوات التي كانت تسير معها القيادة العامة وصلت إلى المرابط سيدي طمطم أين قضت الليلة. كان العمل لازما في نقاط متعددة لتهيئة الطريق لمرور العربات. في نفس اليوم، عسكر اللواءين الأخيرين و الموكب الذي كان ضخما في راس العقبة، في نفس المكان الذي عسكر فيه اللواء الأول في أمس ذلك اليوم. التزم بهذا الترتيب في السير حتى الوصول إلى قسنطينة : أي أن اللواءين

الأوليان كانا دائما في المقدمة، مع الفرقة الأولى لحظيرة المدفعية، بينما كا الأخريان في المؤخرة مع الموكب.

في يوم 3 أكتوبر، عسكر الطابور الأول عند واد مريس، بينما عسكر الثاني في رأس زناتي. ابتعد العرب الذين عبرنا أراضيهم، محرقين العلف بعدما أمرهم أحمد بذلك. لكن استطاعت قواتنا إخماد بعض هذه النيران و استرجاع العلف للخيول، لأن العرب لم يضرموا النار إلا في وقت متأخر و هم مرغمين على ذلك.

يوم 5 أكتوبر، خرج الطابور الأول لجمع العلف ولم يتحرك للسير إلا على الساعة العاشرة، وذهب ليبيت عند واد بومرزوق. هذا الواد هو نفسه واد مريس وواد زناتي. عادة العرب في تسمية مختلف أجزاء الواد بأسماء مختلفة أربك عملية جمع المعلومات الطبوغرافية منهم.

كان الجيش يتبع منذ يومين مجرى هذا الواد الذي يجري في سهل غير عميق لكنه جد مرتفع على سطح البحر. قبل الوصول إلى المكان الذي عسكر فيه الطابور الأول، ينحصر هذا السهل في منحدر سهل للدفاع عنه، لكن لم يظهر العدو هناك. في ذلك اليوم، أجبرنا على عبور الواد خمس مرات، مما أرغمنا على إنجاز بعض الأشغال.

في المساء، ذهبنا نجمع العلف في القرى المهجورة. عسكر الطابور الأول غير بعيد من الثاني. في اليوم الموالي، 5 أكتوبر، اشتبك الطابور

الأول مع بعض العرب الذين هزمتهم زمرة من قناصي إفريقيا و كبدتهم خسائر بشرية. التحقت هذه الزمرة بالطابور واجتمع كل الجيش في منتصف النهار عند مرتفعات صومة، بعدما حدث اشتباك صغير على الجانب الأيمن من الجيش.

رأينا من ذلك المكان معسكر أحمد ومدينة قسنطينة، الهدف الذي أتى من أجله، مما زاد من همة الجنود. بعد استراحة دامت ساعتين، واصل الجيش سيره، وبعدما عبر مرة أخرى واد بومرزوق، ذهب الطابور الأول ليعسكر في مكان مشؤوم، سماه الجنود في السنة التي خلت معسكر الوحل.

كان الطقس جميلا منذ يوم 2، و كانت الأرض جافة. عسكر الطابور الثاني في الجهة المقابلة للوادي، و تم تبادل لإطلاق النار مع بعض العرب الذي كانوا يبدون هيجانا مماثلا للحيوانات المفترسة حينما يقترب الصياد من أوكارها.

في الليل، تلبدت السماء بالغيوم ثم هطلت أمطار غزيرة على الساعة الثالثة صباحا. أمر الحاكم العام كل القوات بالتحرك باكرا، قبل أن تصبح الطرق غير صالحة. ذهب الحاكم العام إلى المقدمة ليرى قسنطينة و يتفقد جوارها. كانت قسنطينة تبدو مستعدة للصمود. ألوية حمراء كانت تتأرجح في الريح تحت زغاريد النساء وهتافات

الرجال المدافعين عن الأسوار. هكذا رحب بالفريق دامرمون و بالأمير الشاب الذي كان بجنبه.

لم يتأخر دوي المدافع في المشاركة في هذا المزيج الصوتي، وأخذت القذائف تتهاطل على الجماعات التي كانت في قمة المنحدر الذي يفصل قسنطينة عن المنصورة. من ثلاث مئة إلى أربع مئة رجل خرجوا من الحصن من باب القنطرة تسللوا إلى المنحدر الذي يفصل بين هذه الهضبة و أعالي سيدي مسيد.

حاولوا منع انتشار قواتنا على الهضبة، لكنهم تقهقروا عائدين فوضويا بعدما هزموا من طرف الثاني الخفيف و الزواف. كما في 1836، كان بن عيسى يدافع عن الحصن، بينما كان أحمد خارجها مع فرسانه.

بعد هذا الاستطلاع الإجمالي، كلف الحاكم العام اللواءين فالي و فلوري باستطلاع أكثر دقة للنقاط التي سيقع الهجوم عليها. تم الوصول بعد ذلك إلى أن أفضل هجوم لن يكون إلا من جهة كودية أتي، كما برهن على ذلك في 1836. اتخذ القرار بإقامة فرقة مكلفة بالشرخ في هذا المكان، على أن تقام ثلاثة فرق أخرى في المنصورة لضرب فرق حماية المدينة بشكل معاكس و الموجودة في الجبهة و في القصبة و لإطفاء النار. كنا نطمح أن هذه سرايا المدفعية الثلاثة،

عندما تقصف المدينة بشدة، ستسرع استسلامها. أثناء ذلك، وصل الطابور الثاني إلى سيدي مبروك، خلف المنصورة. تخلى الطابور عن القافلة، وتلقى الأمر باحتلال كودية آتي.

وصل هناك الفريق الثالث بعد عبوره واد الرمال، تحت ملتقاه بواد بومرزوق؛ والتحق الرابع بعد عبوره الوادين على التوالي في أعلى الملتقى. في أعلى الهضبة التي تطل على هذين الوادين، كان الفرسان العرب يرابضون و يراقبون، و قيل أن بينهم أحمد باي.

استقر اللواء روليير، القائد العام للواءين، في كودية آتي دون أن يطلق ولا طلقة واحدة. حصنت قواته خلف جدران من الحجارة الجافة التي أمرهم أن يبنوها. حتى اللواء فلوري التحق بالجنود؛ لكن قتل مساعده، النقيب رابين، عند عبوره لواد الرمال، في انفجار قذيفة مدفع أطلقت من خلف أسوار المدينة. أقيمت القيادة العامة في سيدي مبروك، و أقام هناك الموكب وحظيرة المدفعية.

توقف المطر في الصبيحة، عند انطلاق الجيش، لكنه بدأ يهطل على الساعة الثانية، ثم تحسن في الأمسية فاستطعنا تنصيب سرايا المدفعية في المنصورة. تم تعيين نقيب قيادة الأركان ديسال، نسيب اللواء فالي، كقائد الخنادق، كما عين ملازمي قيادة الأركان ليتيليي و ميمونت كمساعدين له. استقرت سرية المدفعية المسماة مجموعة الملك على

يسار المنصورة، في الجهة المعاكسة، على صخرة بارزة، تحت هضبة كبيرة، على بعد 300 م من حصن المدينة، وزودت بمدفع 34، و مدفعي 16 و راجمتين 6 بوصات.

استقرت سرية المدفعية المسماة مجموعة أورليان على مرتفع المنصورة، وزودت بمدفعي 16 و راجمتين 8 بوصات.

استقرت سرية مدفعية المسماة مجموعة مورتيي على المرتفع أيضا وزودت بثلاثة راجمات 8 بوصات.

لم نستطع بداية تنصيب سرية مدفعية الشرح في نفس الوقت مع الأخريات. احتلال كودية آتي لم يتقدم كثيرا لنستطيع ذلك

في الليل، تقدمت أشغال المنصورة بشكل جيد، بفضل الهمة و التنافس بين المدفعيين و المشاة.

في صباح يوم 7، قدم الحاكم العام رفقة اللواء فالي ودوق نيمور، الذي عين كقائد عام لقوات المقر، لمعاينتهم.

أنهيت الأشغال في خزائن مجموعات أورليان و مورتيي، بينما لم تنته الأشغال في خزينة فرقة الملك.

خزنة هذه السرية لم ترتفع فوق واقية الركبة، لأنها موجودة على الصخرة، مما أجبرنا أن نأتي بالتراب بواسطة القفاف. و بما أنها أيضا موجودة تحت الهضبة، شكلنا منحدرا للوصول إلى الهدف.

في يوم 7، حاول المحاصرون أن يخرجوا خرجتين. الأولى من باب القنطرة و ركزت جهودها عن يمين المنصورة، لكن استطاع الثاني الخفيف و الزواف التصدي لهذا الهجوم، كاليوم السابق. أما الخرجة الثانية، و هي أكثر جدية، حدثت من الأبواب المقابلة لكودية آتي، وصدها الفيلق الثاني، و الفرقة الخارجية و ال26 الخفيف. فقدت فرقة من هذا الأخير قائدها، القائد بيرو. الرقيب الأول دوز و رقيب المحاسبة بيسون أظهروا شجاعة نادرة، مما أدى إلى الإشارة إليهم في تقرير اللواء الأول.

جاء عرب الخارج أيضا ليهاجموا كودية آتي، و تصدى لهم ال47 للخط و قناصي إفريقيا الذين هزموهم. بعض قناصتنا الذين لاحقوا بعيدا العدو بكل شجاعة قتلوا.

شيد جسرين على واد الرمال وعلى واد بومرزوق، خلف و أمام آثار قناة ماء رومانية. ذهب اللواء فالي لاستكشاف الطريق الذي ستسلكه مدافع سرية مدفعية الشرخ، المسماة سرية مدفعية نيمور. تقدم حتى مكان هذه السرية و عين مساعدا لكل قذاف، ثم أمر ببناء جدار واقي على المرتفع الذي يعلو ملتقى الواديين من أجل تأمين المواصلات بين كودية آتي والمنصورة وحمايتها من هجمات عرب الخارج.بدأت كل هذه الأشغال في الليلة التالية. ثلاث فرق من نقابي

الهندسة و 750 جنديا من المشاة كلفوا بهذه الأشغال، لكن هطول مطر غزير ضايقهم واستحال عليهم مواصلة الأشغال فتوقفوا لبعض الوقت. كانت هذه الاستحالة راجعة إلى أن التراب المبتل من جراء المطر كان يعيق عملية تحضير المنحدرات، و فيما يخص سرايا المدفعية الموجودة على الحجر، لم يتمكن الجنود من ملء أكياس التراب الذي كانوا يأتون به من بعيد، و لم يتبق منه شيئا كثيرا عند وصوله.

في المنصورة، كانت سريتا المدفعية مستعدتين و زودتا بالذخيرة في الأمسية، أما سرية الملك، فاستحال وصول المدافع إليها لعدم توفر المنحدر، و بالتالي سقطت في الهاوية من أين استحال انتشالها.

ليلة 7 إلى 8 كانت مضطربة بالأحداث الصعبة. تضرر الجنود الذين أجهدهم العمل و الذين لم يجدوا مكانا جافا للراحة. في يوم 8، بنيت بسرعة سرية مدفعية على الرأس الجنوبي للهضبة، لتحل مكان سرية الملك إلى حال انتشال المدافع. سميت بسرية دامرمون و زودت ب 3 مدافع من عيار 24 و قذافين من عيار6. كنا على مقدرة أن نبدأ القصف في تلك الأمسية، لكن الضباب حال دون ذلك، لاستحالة الرؤية و التصويب، فأرجئ القصف إلى صبيحة اليوم الموالي.

كانت الليلة رديئة و تهاطل المطر دون توقف. كان الجنود يتألمون من هذا الوضع، و كان لابد لمدفعيتنا أن ترد على مدفعية المدينة لرفع

معنوياتهم. لهذا كانت بداية إطلاق النار تُنتظر بفارغ الصبر. بدأ القصف يوم 9 على الساعة 7 صباحا. عند الضربة الأولى ارتفعت هتافات و صرخات من جميع الأماكن التي تحتلها قواتنا، منبئة بسقوط قسنطينة القريب. لكن سرايا مدفعية المنصورة لم تأت بما كنا ننتظره منها: فقد أطفأت نار القصبة بسرعة؛ مدفعية القنطرة عطلت بسرعة؛ دفاعات كودية آتي تضررت، والصواريخ و القنابل لم تشعل النار في أي مكان. كانت المدينة صامدة أمام هذه الزوبعة النارية ولم تكن على استعداد لفتح الأبواب[1].

أثناء هجوم المنصورة، لم يتوقف قذافي 6، الموجودان في كودية آتي تحت قيادة القائد دارماندي، عن قصف المدينة. شاركت أيضا سرية الملك في القصف، لكن لم يكن النصر كاملا. المدافع التي سقطت أعيد انتشالها من طرف الزواف، فرقة تستحق كل التقدير لأنها مستعدة في كل وقت و في كل مكان.

تخلى الحاكم العام عن إطالة الحصار أطول من ذلك، لأنه كان قد يستهلك كل ذخيرتنا، فقرر تركيز الهجوم على جبهة كودية آتي.

تساقط الأمطار حطمت الطرقات، فأصبحت إمكانية نقل

(1) قال النقيب دلاتور ديبان في المقال الحي و الجذاب الذي نشره في مجلة "العالمين"، قال بدقة رائعة في التعبير في ما يخص الترجي الذي أسسناه عموما على نتائج قصف قسنطينة، ذلك هو خطأ فهمنا لطبيعة العرب، فهم قادرين ليس على فعل كل شيء، لكن تحمل كل شيء.

المدفعية الكبيرة شبه مستحيلة في هذه النقطة، ففكر في هجوم هذه المنطقة بواسطة الهندسة بواسطة التنقيب و الألغام. لكن الهندسة، كما قلنا سابقا، لم تستطيع المجيء بكل وسائلها، و منطقيا لم تستطع القيام بهذه المهمة. فحتما كلفت بها المدفعية، فبرغم كل الصعوبات، كانت لحسن الحظ فعالة نظرا لتنظيمها.

في الليل، نقل إلى كودية آتي مدفعين 24 من سرية دامرمون و اثنين من عيار 16 من سرية أورليان مع 8 عربات للتموين. هذه العملية الصعبة جراء الأمطار أوكلت إلى العقيد تورنمين، قائد أركان المدفعية. وصلت هذه المدافع إلى مكانها بمشقة، بعد أن اضطر إلى استعمال حتى 40 حصان لجر البعض منها، و هذا تحت نيران المدينة.

في يوم 10، بني جسر من الحوامل على واد الرمال، تحت ملتقى النهرين و عوض الجسور الخفيفة التي جرفتها المياه. على الساعة الثالثة، أعطي الأمر بأن ينقل إلى كودية آتي في الليلة الموالية مدفع 24 الثالث لسرية دامرمون وقذافي 8 لسرية أورليان، و كذا مدفعين خفيفين والصواريخ الحارقة. في هذه الأونة، استؤنف بناء السرايا التي كانت مستعدة صباح يوم 11، و بقيت سرية الملك وحدها مسلحة بالمنصورة.

هاهي ترتيبات الهجوم على كودية آتي: سرية مدفعية نيمور، تحت

قيادة النقيب كافور، زودت ب 3 مدافع 24 و قذافتين عيار 6. السرية الموجودة على يسارها وضعت تحت قيادة الملازم بومون و زودت بقذافتين عيار 6، و سميت السرية 6. وضعت سرية أخرى مزودة بمدفعي 16 و قذافتين عيار 8 خلف سرية نيمور، على بعد 800 م من المدينة المحصنة. أوكلت قيادتها للنقيب لكورتواء، و تحمل رقم 8. سرية مورتيي، التي تحمل رقم 7، والتي يقودها النقيب كوطو، وضعت بعيدا قليلا.

رغم الأمطار، تقدمت الأشغال في كودية آتي بشكل ملحوظ، في ليلة 9 إلى 10. في النهار، تغلبت الشمس على الغيوم و أضاءت الساحة. فهم العدو أهمية هذه الأشغال فأراد إيقافها. لهذا خرجت عدة فرق من المدينة واتجهت نحو الثنايا، غير بعيد من مواقعنا.

تفطن اللواء دامرمون، الذي كان ينظر إليهم من المنصورة، إلى أنهم كانوا يحظرون هجوما شاملا. فاتجه بسرعة إلى كودية آتي، و قبل أن يبدؤوا هجومهم، أرسل عليهم بعض الفرق من الفرقة الأجنبية وكذا من الفيلق الثالث لإفريقيا. هذه الفرق، و بالرغم من أنها ذات حنكة، أبدت نوعا من التردد، لأنها هوجمت من طرف عدو أكثر عددا و تحت نار كثيفة. سارع نحوهم اللواء دامرمون رفقة دوق نيمور و قيادة أركانه،

وهزم العدو في كل مكان. استُهدِف الحاكم العام من كل مكان، بما أنه كان يعرف بقبعته المزينة بريش أبيض، و نجا بأعجوبة؛ لكن أصيب أحد مساعديه، النقيب ماك ماوون، بجراح.

بعد الزوال، اختير موقع جديد، على بعد 120 م من المدينة المحصنة، لتنصيب سرية مدفعية الشرخ، خشية أن تكون سرية نيمور، المتواجدة على بعد 400 م، بعيدة جدا ولا يكون لها التأثير المرجو منها. كما تقرر إنشاء ساحة للسلاح ترتبط بهذه السرية لحماية حراس الخنادق وتستعمل كنقطة تجمع قوات الهجوم.

في ليلة 10 إلى 11، تقدمت الأشغال بسرعة كبيرة. كانت أشغال ساحة السلاح على وشك الانتهاء، بربطها مع المنحدر الذي يؤدي إلى الباردو. سهلت الأشغال بفضل ثنايا الأرضية التي تتيح لقواتنا التحرك. استهدف العدو رأس فرقة التنقيب للهندسة تحت نار كثيفة. و حاول العدو الخروج، لكنه صد من طرف ال 47 للخط ولاذ بالهرب، ولم يطلق ولا طلقة واحدة.

في صبيحة يوم 11، توجه الحاكم العام، و اللواء فالي و دوق نيمور إلى سرية مدفعية الشرخ. على الساعة 9، بدأت هذه السرية رفقة السرايا رقم 6 و 8 بإطلاق النار. لم يبدأ القذافون إطلاق النار إلا على الساعة

الثانية زوالا. أطلقنا النار أولا لتخطي المراقبة المفروضة من الحصن. لم يدم ذلك طويلا، و هجمنا لتهدم الجدار أين توجد السرية الكبرى. كان الجدار سميكا جدا و قاوم بعض الشيء. على الساعة الثانية و النصف، صوب القائد ماليشار قذاف سرية النقيب لكورتوا على هدف عينه اللواء فالي بنفسه، فتهاوى جزء من الجدار تحت هتافات الفرحة. منذ تلك اللحظة، كنا نستطيع أن نقول أن قسنطينة أصبحت لنا، و ما كان سوى سوء الحظ لو ضاعت منا فريسة سهلة كهذه، لأن السبيل كان مفتوحا أمام حربات جنودنا.

على الساعة السابعة مساء، بدأت أشغال سرية الشرخ الجديدة التي أشرنا إليها تحت قيادة القائد دارماندي. مدافع النقيب كافور نقلت إليها و عوضت، في سرية نيمور، بمدافع السرايا الموجودة في الوراء.

في يوم 11، ساندت مدفعية كودية آتي مدفعية السرية الملكية. حاول المحاصرون أن يخرجوا لكنهم صُدوا من طرف اللواء تريزل.

تواصلت الأشغال في ليلة 11 إلى 12، رغم الأمطار. في حدود الساعة الثانية صباحا، بدأ تسليح سرية الشرخ الجديدة. لكن إطلاق نار كثيف من الحصن أجبر على إيقاف العمل. بعدما تباطأ إطلاق النار، استأنف العمل من جديد. لكن الحاكم العام، الذي لم يغره كبرياء الانتصار، و

الذي كان يفكر في كيفية حقن الدماء و منع المحاصرين من إلقاء أنفسهم إلى الهلاك، قرر، قبل أن يهجم بطوابيره، أن يبين للمحاصرين وضعيتهم السيئة وأن يأمرهم بالاستسلام؛ فبعث إليهم بنداء حمله إليهم جندي من الفيلق التركي. تقدم هذا المفاوض إلى الأسوار، و بين بالحركات للمحاصرين طبيعة المهمة التي كلف بها. حينئذ أرسل له هؤلاء حبل تسلق به الأسوار و دخل إلى المدينة. عاد في صبيحة يوم الغد دون أي إجابة مكتوبة، ولكن بهذه الإجابة الشفهية : "يوجد في قسنطينة الكثير من الذخيرة للبنادق والمدفعية. إذا كان الفرنسيون يفتقدونها، فسنرسل لهم بعضها. نحن لا نعرف كلمة شرخ ولا كلمة استسلام. سندافع بضراوة عن مدينتنا و بيوتنا. لن يصبح الفرنسيون سادة المدينة إلا بعد ذبح آخر المدافعين عنها."

لما سمع الحاكم العام هذه الإجابة، قال : "هم رجال همة، ولن يزيد ذلك في نصرنا إلا مجدا." طلب حصانا واتجه على التو إلى كودية آتي رفقة حاشيته. كانت الشمس ساطعة و تلاشت بذلك كل المخاوف من طقس رديء. الشرخ الذي أُحدث في اليوم السابق سيُحفر و يُهيأ في ساعات قليلة بقذائف السرية الجديدة.كانت نشوة النصر تبدو على الوجوه و تبرز في كل المحادثات.

حتى المرضى و الجرحى كان يبدو عليهم الارتياح. نزل الفريق دامرمون من حصانه، و على وجهه ملامح السعادة بالنصر القريب لجيشه الشجاع و تقدم راجلا نحو سرية نيمور. توقف في الطريق المؤدي إليها، في مكان جد مكشوف، وأخذ يلاحظ في الشرخ.

ذهب إليه اللواء روليير ليحذره من الخطر الذي يحيط به. فأجابه ببرودته العادية : لا أبالي. كانت كلمته الأخيرة؛ لأنه في نفس اللحظة، أرسلت قذيفة من الحصن فأردته ميتا، و كان مثل توران الذي كفن في مجده. انحنى إليه اللواء بيريغو، فأصيب برصاصة تحت جبينه و جُرح بخطورة، و هوى على جثمان ذلك الذي كان قائده و صديقه.

هرول اللواء فالي، الذي كان في سرية الشرخ، إلى المكان بعدما سمع الخبر السيء، الذي حرم الجيش من قائده العام. أخلى المكان من المتفرجين و أرسل الجثمان إلى المؤخرة، ملفوفا في معطف.

انتشر بسرعة خبر وفاة الحاكم العام بين الجنود. كان نجاح الحملة مضمونا حينئذ بشكل كبير لكي يؤثر بشكل سلبي على الأوضاع، بل ولّد إحساس الحسرة و إرادة الانتقام.

أصبح اللواء فالي قائدا عاما، و بدأت سرية الشرخ في إطلاق النار، و أعانتها في ذلك كل الأخريات. في الليلة التي مضت، حاول المحاصرون

سد الشرخ الذي غطوا أعلاه بأكياس من الصوف والبرادع و حتى حطام الركائز، لكن هذه الحواجز تم إقصاؤها بسرعة. و في تلك الليلة تقرر أن يكون الهجوم في صبيحة الغد. في نفس الوقت، جاء مفاوض برسالة من أحد، في حين كان لازال مبعوث اللواء دامرمون في المدينة. اقترح الباي وقف المعارك واستئناف المفاوضات.

لكن اللواء أجابه أنه من المستحيل أن يكون ذلك نظرا للتطورات على أرضية الميدان، ووعده في حالة ما أمر بفتح أبواب المدينة للفرنسيين أن يحترم البلاغ النهائي للفريق دامرمون. لم يأت هذا الاقتراح بأي نتيجة.

في تلك الليلة، أخذت السرايا بقصف المدينة دون انتظام، لمنع المحاصرين من سد الشرخ. يوم 13، على الساعة الثالثة و النصف صباحا، قام نسيب الهندسة بوتو و نقيب الزواف قاردرنس باستطلاع الشرخ و قالوا أنه مفتوح نهائيا. منذ ذلك الحين، لم ننشغل سوى بالهجوم. القوات التي أعدت لذلك قسمت على ثلاثة طوابير.

الأول، تحت قيادة العميد لاموريسيير، مكون من 40 نقيبا للهندسة و300 زواف و فصيلتين من النخبة من الثاني الخفيف.

الطابور الثاني، تحت قيادة العقيد كومب، يتشكل من الفصيلة الحرة للفيلق الثاني لإفريقيا، 80 من نقباء الهندسة، 100 رجل من الفيلق

الثالث لإفريقيا، 100 من الفرقة الأجنبية و 300 من ال47 للخط.
الطابور الثالث، بقيادة العقيد كوربن، متكون من فيلقين مشكلين من مفرزتين من الألوية الأربعة.

في انتظار إشارة الهجوم، تمركز الطابوران الأول و الثاني في ساحة السلاح و في المنحدر الذي بجنبه، بينما كان الثالث وراء الباردو.

على الساعة السابعة، أمر اللواء القائد بالهجوم. توغل في الحال اللواء لاموريسيير مع طابوره في الشرخ، واستولى عليه وسط تبادل كثيف لإطلاق النار. النقيب قاردرنس، الذي أصيب بجراح بليغة، ثبت العلم ذو ثلاثة ألوان وسط الهتافات.

لكن اصطدم الطابور بحواجز متجددة حينما أراد التوغل داخل المدينة. بدأت عند ذلك المعركة الدموية أمام الديار و المتارس و التي دامت ساعات عديدة.

لن نسرد سوى الأحداث الرئيسية، و نرجع لتتبع التفاصيل إلى ما كتبه النقيب لاتوردوبين(1).

كلما زاد توغل الطابور الأول داخل المدينة، كان اللواء القائد، المتواجد في سرية الشرخ رفقة دوق نيمور، يدفع بقوات جديدة مأخوذة من الطابورين الآخرين. أقحمت هذه القوات على شكل

(1) انظر الجزء الثاني من هذا الكتاب.

مفرزات سريتين، وهي طريقة ذكية جنبت الازدحام والفوضى، اللذان كان لهما عواقب وخيمة في السنة التي مضت عند الهجوم على باب القنطرة.

الكثير من الشجعان، من بينهم العديد من الضباط، جرحوا بخطورة. انهيار جدار سحق بعضهم، من بينهم القائد سيفيني من الثاني الخفيف. تضرر المهاجمون خاصة من انفجار عنيف، ظنناه لغم وضعه المحاصرون، لكن تبين فيما بعد أنه انفجار مخزن للبارود بعدما اشتعلت فيه النار. من بين الضحايا، يوجد العقيد لاموريسيير. هذا الضابط الشجاع و المغوار أصيب بحروق بالغة. خفنا على حياته و بصره، لكنه استطاع الحفاظ على كليهما. كان العقيد كومب الذي تبعه في الشرخ أقل حظا، حيث أصيب بجرحين بالغين عندما استطاع أن يفتح الطريق أمام قواتنا المنتصرة. بقيت لديه القوة للتأكد من الانتصار و تبليغ ذلك لدوق نيمور، الذي عين، كما ذكرناه، كقائد عام لقوات المقر. فعل ذلك بهدوء تام، و ختم قائلا : "أولئك الذين لم يصابوا بجراح خطيرة سيتمتعون بهذا النصر الجميل." عندئذ علمنا أن رصاصة اخترقت صدره، و توفي بعد غد. الذين شاهدوا كومب في تلك اللحظة تكلموا كثيرا عن موقفه الباسل وموته بشجاعة.

لما تجاوزت الطوابير الشرخ و أحكمت السيطرة على قسنطينة، دخلها اللواء روليير، الذي عين حاكما لها. كان القتال متواصلا، لكن سرعان ما أتى رجل إلى اللواء مسلما له رسالة من سلطات المدينة التي أقرت استسلامها الكامل و توسلت للمنتصر بالرحمة عليها و على الأهالي. أمر اللواء حينئذ بوقف إطلاق النار الفوري و توجه نحو القصبة التي استولى عليها.

أثناء الهجوم، فر جزء من السكان المرعوبين من جهة المدينة التي كانت في منجى من ضرباتنا، لكن الكثير من هؤلاء الأشقياء هلكوا في هروبهم الخطير و تحطموا على الصخور الوعرة التي توجد أسفل المنحدرات العميقة التي لم يكونوا في استطاعتهم بلوغها سوى باستخدام الحبال التي تقطعت من جراء أثقالهم.

لما بلغ جنودنا إلى حافة المنحدرات، انتابهم الروع من هذا المشهد الرهيب واعتراهم العطف على هؤلاء الضحايا من الرجال والنساء والأطفال المتحطمين والمشوهين المتراكمين بعضهم على بعض، وفيهم من كان يتخبط في سكرات الموت. استطاع بن عيسى الفرار، بينما جرح قايد الدار في الليلة التي مضت وهلك أثناء الهجوم.

لما استتب الأمن في المدينة، رفع العلم ذو الثلاثة ألوان على أهم مباني المدينة، ثم جاء دوق نيمور للاستيلاء على قصر الباي.

بعد أن أتم اللواء فالي بشجاعة الجزء العسكري من المهمة التي منع الموت الفريق دامرمون من إتمامها، تكلف بمهمة أقل مفخرة لكنه كثير المنفعة لما كانت تحتاجه إدارة البلاد. لم يرد الخوض فيما يخبؤه المستقبل ولا استباق الحكم بما سيفعل بهذا الاحتلال وفق ما تقتضيه المصالح العليا لفرنسا، لذلك تفادى اتخاذ أي قرار سيندم عليه لاحقا. لهذا السبب، اكتفى بتنظيم البلاد على ما يستلزمه الوضع الراهن.

عين بذلك أحد الموظفين المحليين بصفة قايد، كوسيط بين السكان والسلطة الفرنسية، وترك دونه الجهاز الإداري القديم. أوكل هذه المهام لشاب يدعى حمودة، ابن شيخ البلاد، من عائلة عريقة و محترمة، حتى ان أحد لم يستطع أن يفرض عليها سلطته و كان يشك فيها. امتدت سلطته في المدينة وما جاورها.

السكان الذين بقوا في قسنطينة وأولئك الذين غادروها و لم يلبثوا حتى عادوا إليها تمت معاملتهم برفق و عدل. لكنهم اضطروا لدفع ثمن التموين الذي قدمه الجيش، و كان الثمن معقولا.

كان ذلك أقل ما يمكن فرضه على مدينة أخذت عنوة، ولم يجرؤ أحد أن يشتكي. لابد أن نشير إلى أنه كان النظام الإداري أكثر إحكاما عند أخذ قسنطينة منه لما أخذنا الجزائر في 1830، التي دخلناها بعد

استسلام سلطاتها. سمح هذا النطاق باستعمال كل الموارد و الحفاظ على الوثائق الإدارية والتعريف الدقيق بالبلاد. باختصار، السلسلة التقليدية لم تكسر.

خلال الخمسة عشر يوما التي مضت على احتلال قسنطينة، عدة قبائل استسلمت لفرنسا. فرحات بن سعيد جاء في 27 أكتوبر، بحاشية كبيرة وقد أستقبل بامتياز كبير. أحمد، برفقته إلا بضعة مائة من الفرسان، قد فر الى جبال الأوراس، و تأثيره بدا محطما كليا. لسوء الحظ، تأثير عبد القادر بدأ ينتشر في ضواحي قسنطينة. لكن هذا المشكل لسنا جاهزين لمواجهته في هذا الوقت، لأن العناصر ليست متطورة بما فيه الكفاية لكي تكتسب وجهة نظر ملحوظة.

بضعة أيام بعد احتلال قسنطينة، وصل ال 12 للخط إلى عنابة، أين داء الكوليرا أرغمه على البقاء في مكانه، و لهذا السبب لم يشارك في الحملة. في 20 أكتوبر، غادرت المدفعية و قافلة من المرضى قسنطينة بحماية مجموعة متكونة من 1500 رجل، و لحقوا إلى عنابة في مدة 7 أيام. أخيرا، في 29 أكتوبر، ترك اللواء الحاكم لقسنطينة حامية من 2500 رجل[1]، و قد أوكل القيادة للواء برنيل، فذهب مع باقي القافلة، و لحق الى عنابة، أين تقلد منصب حاكم عام لمكاسب فرنسا في شرق إفريقيا.

(1) فقد زاد عددها 5000 بعد مرور الوقت.

فبهذا تمت الحملة الثانية لقسنطينة. فاعتقدنا أننا فعلنا شيئا جيدا لمصلحة جيش إفريقيا. نضع أمام أعين القارىء، في المفكرة أدناه، جزء من تقرير اللواء الحاكم، حيث مذكور أسماء الرجال الشجعان الذي ظهر له أنهم يستحقون كل الشرف و التكريم و بطريقة استثنائية ان يذكرون[1].

(1) مقتطف من تقرير اللواء الحاكم فالي.

أتمنى لن أذكر، سيدي الوزير، أسماء كل الضباط، ضباط الصف و الجنود الذين وفوا بواجباتهم، و لكنني أحث بقوة أن أعلمكم الذين تميزوا بطريقة استثنائية.

أذكر في البداية س.أ.ر صاحب السمو دوق دو نومور، السيد الفريق بارون دو فلوري، و السادة المشيرين الميدان تريزيل و روليارس.

القائد، أذكره بطريقة استثنائية، السادة النقيب دو سال، الرائد، و الملازمين ميمونت لاتوليي، مساعدين الرائد، هؤلاء الضباط وفوا بحماس كبير وظائفهم الصعبة التي أجبروا عليها. لقد شاركوا ليلا و نهارا في العمل و في العمليات الأكثر صعوبة و خطورة.

الجيش لاحظ استعداد و حنكة السيد الطبيب بودون في تسيير سلك الاستشفاء الصعب، و الحنكة التي تميز بها الضباط في أركان الجيش التابع لصاحب السمو دوق دو نومور وجلالة النقيب دو هوسارد ناي دو لا موسكووا.

في المدفعية: السادة، العقيد دو تورنومين، حكام السرب ماليشارد، دارمندي، النقيب كورتوا، النقيب كافور، النقيب لوبوف، النقيب مونستر، الملازمين بورنادون و بومون، المشيرين كابريتان و هيمان و قائد اللواء سيجو، هم أيضا اكتسبوا الحنكة و الشجاعة.

تم نقل رفات الجنرال دامريمون الى فرنسا وكرّم بحداد عام وهو يرتاح الآن في سرداب كنيسة الأنفاليد des invalides. الجنرال بيريغو تم نقله الى عنابة ليتوجه إلى فرنسا وتوفي عند العبور الى هناك

اذكر ايضا، سيدي الوزير، في الهندسة، السادة قائدو السرايا فيبو و فيلنوف، النقباء: نيل، بوتول، هاكت(الذي تم قتله)، لوبلان، بوتيي (جرح حتى الموت) الملازمين الأولين وولف وبورال فيغيي.

في الفيلق الملكي لهيئة الأركان: السيد لانو عقيد الصف الثالث للقناصة، النقباء : ريشبانس ضابط مساعد للجنرال روبيار، دوبالو من الصف الثالث للقناصة ، والملازم عالفالا من الصفاحي النظاميين.

واخيرا من المشاة:

العقيد كومب من الصف 47 ،المقدم دولامورسيار من الزواف ، رؤساء الكتائب: مونتريال من الصف 47؛ النقباء: لوفايون و دو غارديون من الزواف؛ هورو من الكتيبة الثالثة لإفريقيا؛ سانت اماندج من الفيلق الأجنبي ؛ كاتروبار تابوني و بلان دولوار من الصف 74؛ ميران، راندر من الفيلق الأجنبي؛ دورو، ماريلاز من الصف السابع عشر الخفيف؛ غينيار من السرية الحرة، دوبيلي من كتيبة محاربي إفريقيا؛ الملازمين الأولين: ديسميزون، مساعد الجنرال روبيار ، جوردان، ادم من فيلق إفريقيا؛ دوفريس من الصف 47؛ نيكولاس من الصف 23؛ ضباط الصف ليجيو، دوبوف من الكتيبة الثالثة لإفريقيا ؛ جوستو ودوز من الفيلق الأجنبي؛ ماريغي وفالسون من الصف47. من رماة القنابل والمشاة الخفيفة: ديسرتال (عريف)، كولمان، وربلين من الصف 47؛ بيريسو جوردات من الصف17 الخفيف؛ كورتوا رقيب من الزواف وكاتروم (عريف). قائد كتيبة دوسيريتي من الصف الثاني الخفيف الذي قتل في الفجوة،النقيب دوليريتز؛ وضباط الصف دوبراي و بونيو من نفس الفيلق.

ودفن في سردينيا . كما أن الجيش قد فقد الجنرال كارامان المتوفى بقسنطينة جراء الكوليرا الذي وصل الى هناك و لكنه لم يكن مدمرا كثيرا. هذا الجنرال كان ابن المحترم فيبار الذي تميز في الحملة الأولى بتفانيه لمساعدة الجرحى.

الكتاب 24

الأوضاع بمحافظة الجزائر ومحافظة وهران أثناء حملة قسنطينة - إجراءات الإدارة المدنية اللواء دامرمون - قرار يخص القبايل - تحديد النطاق القضائي لمحاكم الجزائر العاصمة - مرسوم يخص المعاملات العقارية - وضعية الزراعة والتجارة.

خلال تواجد اللواء دامرمون شرق ممتلكاتنا الإفريقية ، كانت القيادة بالجزائر العاصمة لبضعة أيام بيد الجنرال برو و باقي الوقت تحت إشراف الجنرال نيغريي.وقد انخفض عدد القوات بتلك الناحية حتى أنه في فصل الصيف وهو فصل الأمراض كان من الصعب تجميع 1500 رجل في حملة إن كان من الواجب حمل السلاح مجددا.عبد القادر و أعضاء حكومته لم يكونوا ملتزمين بشكل كامل ببنود المعاهدة و بدا أنهم لم يكونوا يستوعبونها بنفس الطريقة مثلنا. الحاج مصطفى، شقيق الأمير وباي المدية، قام قام بعدة إجراءات سلطوية بالبليدة وحتى انه فرض مساهمات الحجوطيون و خاصة مهاجري بني خليل و بني موسى الذين كانوا في ديارهم ، عاودوا

ارتكاب أعمال لصوصية على أراضينا. فرفعت شكوى إلى باي مليانة الذي رد بازدراء بأنه لو أردنا ضمان الهدوء على أراضينا لن نجد أفضل من إعطاء سلطة الشرطة لمن يسودها والبقاء داخل أسوار العاصمة. هذا الباي نفسه كان يعيق في كل الأحوال التجارة التي كانت تريد القبائل إقامتها معنا مباشرة.و سمح لنفسه يوما بإرسال فرسان داخل أراضينا من اجل إرجاع ثيران كان عرب يقودونها إلى سوق بوفاريك . كان القصد من هذا الانتهاك الصارخ للمعاهدة هو بيع 2000 ثور مشتراة من طرف دار دوراند من عبد القادر في أسواقنا والتي وصلت خلال شهر سبتمبر.

لقد تم إبلاغ الأمير باستنكار أعمال نهب الحجوطيين و أطماع باي المدية والذي رد عليها بإبهام أنه سينظر في الأمر عند تواجده بإقليم التيطري أين يفكر بالذهاب هناك قريبا. ورغم ذلك فقد أزاح أخاه ووضع محله محمد البركاني الذي كان بايا للمدية قبله.الحاج مصطفى كان يتصرف بسوء تجاه عرب البيلك التابع له وترك أفراد قواته دون انضباط عانى منه سكان المدية كثيرا. و كان السبب الوحيد وراء تنحيته أما الشكاوي التي تقدمنا بها لم يكن لها علاقة بذلك لأن خلفه واصل طموحه بالبليدة وعلاوة على ذلك قام الأمير بتعيين قادة بكل من الخشنة وبني موسى ؛ أما بعض القبائل في الشرق التي لا تزال مرتبكة بسيدي سعادي فإنها كانت تفكر للعودة إلى حمل السلاح و قد تم إعلام السلطات بما كان يحدث في تلك الناحية من قبل قايد يسر.

المحافظ العام ترك تعليمات للعمل على انشاء سلطة مستقلة عن فرنسا أو على الأقل عن المير الذي ليس له أي نفوذ بالمنطقة حسب قراءتنا لبنود المعاهدة. وكان الجنرال بوجو والجنرال دامريمون يرون الأمور بنفس الطريقة.

خلال هذه الفترة ، كان يتواجد فريقين لدى العمراوة ، وهي القبيلة الأكثر سلطة ونشاطا شرق اقليم الجزائر. أحدهما الذي يرتبط به بن زمون من فليسة، و كان يقوده عمر محي الدين والجزء الثاني كان على رأسه سعيد وليد اوقاسي. هذين القسمين كانا يتنازعان على الحكم وحسب نظرة أولية يمكننا رؤية نزاعات شخصية ولكن في الباطن يوجد أكثر من ذلك : لقد كان الصراع التاريخي بين القبايل والعرب يتولد من جديد في هذه الزاوية الصغيرة من بلاد البربر ، في وقت كان فيه العرب مدعومين بالظروف وتفوق عبد القادر يصوغون جنسيتهم. عمر محي الدين كان يمثل بأصله ونحالفه عرق القبايل و غريمه كان يؤيد قضية العرب وبالتالي فإن الأول كان طبيعيا أن يتقرب من كل ما يمكن أن يعيق عبد القادر ، و هذا ما يدفعه نحونا . الجنرال دامريمون كان ينوي تسليمه القيادة العامة لقبائل شرق اقليم الجزائر . و بدأت مفاوضات في هذا الاتجاه. ولكن القايد وليد أوقاسي وبمساعدة شيخ آخر ذا نفوذ يدعى وليد منصور ، هاجم عمر محي الدين في شهر سبتمبر. تم صده ولكن للأسف أصيب عمر محي الدين بجروح بالغة

أجبرته على عدم متابعة ما كان يقدمه و لا على توجيه الأمور بنفسه. تم قمع
سعيد وليد أوقاسي الى جبال الدرو أين قام بن زمون باعتراض سبيله و لكن
سرعان ما استعاد قوته و قام بهزم بن زمون بعد الخمول القسري الذي أظهره
عمر محي الدين وضمور قوى أتباعه، وبن زمون لم ينقذ نفسه سوى بجهود
شخصية. و بعد بضعة أيام ، أصبح حاكما على كل الناحية ؛ وكنا ننتظر أن
يهاجم الأراضي التابعة لنا مما لن يكون سوى ازعاجا كبيرا لنا في وقت كانت
فيه قواتنا قليلة بشكل معتبر بالجزائر العاصمة ، و لكنه حدث عكس ذلك.
فقد اندفع وراء نصائح شيخ يسر الذي كان عميل سري للسلطة الفرنسية و
فكر بعد تفوقه على منافسه أنه يمكنه إغواءه بإغراء الموقف المستقل و سمح
لأفكاره بالوصول إلى أنه حين يستفيد من دعمنا سيمكنه أن يصبح على قدم
المساواة مع عبد القادر. هذه الحالة الذهنية و الرعاية التي تحظى بها أبعدت
للحظة الخطر الذي كان يخشى منه و حفزت على الاحتلال العسكري لمزرعة
الرغاية أين توفيت سرية كاملة تقريبا من الحمى في غضون فصل الصيف.

وأثناء هذه الأحداث، أبعدت بعض التحركات في هذا المنحى عن
أراضينا القياد المعينين من طرف الأمير دون الاكترات بالمعاهدة أو قد
عمت شائعات لدى قبائلنا ، ولم تكن بلا أساس ، بأن عمليات نهب منظمة
من طرف الحجوطيين ضد عرب أراضينا لإجبارهم على الهجرة يبعض
الإجراءات الصارمة ، ايقاف و اعدام البعض من هؤلاء القطاع للطرق

أعادت القليل من الأمان إلى السكان المفزوعين. من بين المجرمين الذين
دفعوا بأرواحهم ثمنا لأعمالهم، أحد الفارين من جيشنا و هو نفسه من كتب
اسمه على جثة أحد ضابطيه السابقين في معركة 8 نوفمبر السابق. بدا كل
شيء قد عاد الى طبيعته حينها وردت رسالة من الأمير الذي كان قد انطلق
من الغرب باتجاه اقليم التيطري لتولد مخاوف أكثر خطورة من تلك التي
شهدناها منذ مغادرة المحافظ. مدينة البليدة كانت مكان التلاقي الاعتيادي
لكل اللصوص الذين كانوا يجتاحون أراضينا. كانوا يستقبلون و يبيعون
علانية غنائم عمليات نهبهم. و عندما قدمنا شكاوي للسكان عن وضعية
المور اجابوا أنه يستحيل عليهم ايقاف ذلك نظرا لضعفهم و عدم تنظيمهم.
والسلطة الفرنسية التي تعبت من هذه الاجابات الواهية سمحت أخيرا أن
ينظم سكان البليدة أنفسهم في ميليشيات حضرية و انشاء مراكز أمنية و منع
المشتبه فيهم من الدخول الى المدينة. و بمجرد تلقي سكان المدينة للإبلاغ
حتى أرسلوا وفدا للأمير للاحتجاج عن الاجراء و بعد وقت قصير تلقينا
بالعاصمة رسالة تهديد من عبد القادر تدفع بالسلطة الفرنسية الى التوقف
عن التعامل مع الناس الذين من الواضح أنهم لا يرغبون بالتعامل مع
المسيحيين. هذه الرسالة كانت تقريبا اعلانا للحرب و لكن لحسن الحظ لم
يتم حدوث ذلك، و أقول و أكرر لحسن الحظ لأنه لم نكن بالعاصمة في حال
يسمح بمواجهة استئناف عام لأعمال عدائية و التي بالإضافة إلى ذلك قد

كان من الممكن أن يكون لها نتائج على حملة قسنطينة. و من المحتمل أن عبد القادر الذي كان من مصلحته عدم اعاقة عملياتنا ضد أحمد باي ، قد فهم وحده أنه قد ذهب بعيدا. و مهما كان الأمر فقد أعطى أياما قليلة بعد ذلك تفسيرات ودية و أظهر وكلاؤه فهما أحسن لمعاهدة السلام لم يظهروه حتى الآن. كما أن قايد الحجوطيين عاقب بعضا من اتباعه بسبب أعمال نهب و سلب حيث انه منذ تلك الفترة وحتى الاستحواذ على قسنطينة لم توجه السلطة أية احتجاجات للسلطات العربية. و لكنه وبمجرد انهزام أحمد، بدأت الأمور تعود الى انحدارها المعهود . و التغيير كان محسوسا لدرجة أنه من الصعب رؤية أنه لم يكن محسوبا. نحو منتصف نوفمبر ، تم اغتيال أحد الضباط من فيلق الزواف و هو من السكان المحليين من طرف فرسان حجوط، و هاجر كل سكان قرية مجاورة بعد وقت قصير من الجريمة مخافة أن هذه الأحداث تزامنت مع وصول الجنرال فالي إلى الجزائر و الذي تمت ترقيته لرتبة ماريشال فرنسا.

و بوهران كما في العاصمة ، بعد مرور أولى لحظات التهذيب، وضع عبد القادر في علاقته مع الفرنسيين سوء نية بدا انها تكشف عن باعث خفي مؤسف . و قد اشتكى الجنرال بوجو في كثير من الأحيان من ذلك . فقد كان الأمير جد متطلب في كل ما كان لصالحه ، ولكنه لا يتعجل أبدا في تنفيذ الشروط القليلة التي كانت على عاتقه . لم يكن يوفر كل الثيران المتوجبة

عليه أما بالنسبة للحبوب فقد أعذر نفسه عن ارسالها و الجنرال بوجو كان قد غادر وهران قبل تنفيذ هذا البند المتعلق بهذا الجزء من المساهمات .

كان السيد الجنرال بوجو قد وصل الى إفريقيا مع أفكار غير مساندة لمشروع الاستيطان. و بما أنه يتم التعلق دائما بالبلد الذي تمارس فيه سلطتنا فإنه قد اعترف أخيرا بأن الجزائر صفقة جيدة لنا و لكن مع الاعتراف أن فرنسا كان محكوما عليها[1] المحافظة عليها، و لا يتوجب عليها تجاهل أي شيء للاستفادة منها لأقصى حد و على أفضل وجه. و لتحقيق هذا الهدف، اقترح انشاء مستعمرات عسكرية منظمة بشكل يحول جزءا من التضحيات المتوجبة للحفاظ على غزونا الى المنفعة المباشرة للاستعمار. الأفكار التي قدمها السيد بوجو في هذا السياق تظهر لنا في الإجمال عادلة و سهلة التطبيق .

لن يأخذ اندفاعا قويا و كاملا حسب ما ستمده الحكومة من تحفيز، و بذلك فإن نظاما جيدا من المستوطنات العسكرية هو الطريقة الأكثر اقتصادا و الأكثر أمانا للوصول إلى ذلك . وقد حاول الجنرال بوجوب إقامة نموذج لنظامه بمسرغين و هي تجربة غير كاملة و هذا صحيح لأنه لم يكن مرخصا له التطبيق الكلي لنظرياته .مسرغين تم ترميمها و تحصينها وتم وضع السبايس النظاميين الذين تم توزيع أراضي عليهم . ان هذا بداية، و هو مبدأ يمكن تطويره لاحقا. و لكنه بالمتيجة خصوصا حيث

(1) انه تعبيره الشخصي حرفيا، انظر مذكراته حول استقرارنا بإقليم وهران صفحة 40.

يمكن لنظام المستوطنات العسكرية أن يكون مفيدا تطبيقه على كل امتدادها.

المكانة التي تحصلنا عليها من خلال معاهدة التافنة لم تكن تشمل تواجد باي بمستغانم فتم تنحية ابراهيم الذي عاد الى العاصمة مع منحة تقاعد مناسبة و تم ترك حاكم بسيط هناك تابع لأوامر السلطة الفرنسية.

الجنرال بوجو غادر افريقيا تقريبا بحلول نهاية السنة و ترك قيادة الاقليم للجنرال أوفري الذي حل محل الجنرال بروسار . و كل منا يعرف أسباب فقد الثقة بالجنرال بروسار و محظور علينا التطرق للقضية لأنها حولت الى القضاء.

قبل مغادرة الجنرال بوجو ، ارسل الأمير الى وهران بصفة وكيل أو قنصل الحاج بن حبيب و أرسلنا بدورنا الى معسكر الرائد مينوفيل من الصف 47 ، هذا الضابط السامي الذي توفي بعد وقت قصير تم تعويضه بالنقيب دوماس .

حكم الجنرال دامريمون كان جد قصير و لكنه جد حافل بالانشغالات العسكرية حتى يتمكن من توفير الوقت اللازم لمواضيع أخرى. و مع ذلك فإن الكثير من الاجراءات الادارية المهمة قد اشارت لمروره بالقضايا. و سنقوم بذكرها تبعا لتسلسلها التاريخي:

في الخامس عشر من أفريل ، تم إلغاء مهام آغا العرب و مسائل العرب تم ضمها لدى المحافظ العام و كونت مديرية باسم مديرية مسائل العرب.

في 5 جوان ، ظهر مرسوم جد مهم يخص القبايل. نعلم أن كما هائلا من هذا الجنس يأتون كل سنة للبحث عن عمل بالعاصمة ويتم استخدامهم أساسا في أعمال الحقول والحدائق. وهم أناس جادون في عملهم، متزنون ويعملون بدقة على التفاصيل. وإذا ما تم التلاعب بجشعهم عن طريق إغراء مكسب معتبر والذي لا يفصلهم عنه ارتكاب سهل لجريمة فإنهم يصبحون قادرين على كل شيء. و هذا واقع سلم به الأتراك الذين لم يكونوا يتركونهم أبدا ينامون داخل منازلهم الريفية . بل كانوا يبنون لهم غرفا في الخارج . الأوروبيون الأقل حيطة كانوا في معظم الأحيان ضحايا لثقتهم الزائدة . وسنقوم بذكر مثال فظيع حقا: في سنة 1836 ، أحد الأوربيين من ضواحي العاصمة ، كان يملك بساتين رائعة وكان يشغّل بها قبايليين و قد ترك يوما دون حذر ظهور مبلغ معتبر لديه وعند حلول الليل قام أولئك البؤساء بسرقة المبلغ وذبح كل من تواجد هناك حتى الأطفال المساكين باستثناء امرأة. تفاصيل هذه الحادثة المأساوية جد فظيعة ولم يتم إيقاف المذنبين. و يزعم أنهم تجاوزوا حدود أراضينا الضيقة عند اكتشاف الجريمة.

و الانطباع الذي تركته الجريمة في الأذهان كان وراء إصدار مرسوم 4 جوان . فالضرر كان يأتي من تمكن القبايل المجيء للعمل بالعاصمة دون أن يتم التعرف عليهم ولا مراقبتهم من طرف أعوان متخصصين يتقنون

لغنهم و لا شيء كان أسهل من ذلك للتهرب من الشرطة التي بإمكانهم إخفاء تواجدهم عليها. فمن المفهوم أن رجالا يعتبر لديهم كيس ألف فرنك ثروة لا تضاهى بثمن ، ونجهل عنهم غالبا اسمهم الحقيقي وبلدهم، وكما أنه ليس عليهم سوى تجاوز بعض الأميال للتملص من كل متابعة ، فكيف لا يستسلمون بسهولة لكل الإغراءات التي كانت غريزتهم تنتسب لها أكثر من صدهم عنها. ونتيجة لذلك فإن مرسوم 4 جوان جاء ليضعهم تحت المراقبة لأمين من عشيرتهم مستقر ومالك بالجزائر العاصمة . وقد منع عليهم العمل أو حتى الإقامة على أراضينا دون التقييد في سجل لدى هذا الأمين أو دون الحصول على دفتر وبطاقة تحمل رقم التسجيل. السجل يكون الإثبات على قبول القبايل في النقابة ، ويتأكد الأمين قبل القيام من ذلك من حقيقة التصريحات التي قدمها المرشح حول اسمه ، قبيلته وسوابقه .وكل قبايلي يغير مديره وجب عليه إعلام الأمين بوجهته الجديدة و المدير الذي سيتركه وجب عليه تسجيل أسباب التوقيف عن العمل على السجل. و يمنع على كل الأشخاص توظيف قبايل غير حاملين لدفتر وبطاقة وإلا سيكون عرضة لغرامة 15 إلى 50 فرنك ومن يوم إلى شهر سجنا. و كل قبايلي يتم توقيفه دون دفتر أو بطاقة يواجه عقوبة غرامة 5 فرنك يدلي بها الأمين دون المساس بالحقوق المحفوظة للنائب العام بإحالة الجاني على الشرطة الإصلاحية بتهمة التشرد. كل قبايلي يغادر أراضينا دون التصريح بذلك لدى الأمين ودون الحصول على رخصة المغادرة

عرضة لغرامة ب15 فرنك و ثلاثة أيام سجن إذا ما أوقف أو عاد لاحقا إلى العاصمة دون المساس بالعقوبات التي من الممكن أن يتكبدها لأسباب أخرى.

مرسوم الرابع جوان الصادر عن اقتراح قدمه السيد برونسون ،المشرف المدني، كان من أكثر الإجراءات عقلانية و فعالية التي لم نسمع أي شيء عن تلك الجرائم المرتكبة في المنازل الريفية التي كانت غالبا ما تروع السكان الأوروبيين.

في الثامن من جويلية ، و طبقا للمادة 4 من التعليمة الملكية للـ10 من أوت 1834، صدر مرسوم يحدد النطاق القضائي لمحاكم العاصمة الجزائر للجنح والجنايات. هذا النطاق يشمل الفحص،منطقة الساحل بأكملها التي تضم يمينا واد آجار ، الأراضي الممنوحة براسوطة و أراضي بوفاريك. الجرائم و الجنح المرتكبة خارج هذه الحدود من طرف مواطن محلي بحق أوربي ، من طرف مواطن محلي بحق مواطن آخر وإذا كان الفعل يمس السيادة الفرنسية أو أمن الجيش، و أخيرا من طرف أوربي بحق أحد السكان المحليين ،ستبقى من اختصاص مجالس الحرب تطبيقا للتعليمة المذكورة سابقا .

وبمرسوم آخر صادر في 10 جويلية ، تم المنع المؤقت لكل إحالة للمباني غرب الخط المشار إليه بواد آجار إلى حصن واد عيش ، كما تم حظر الأوروبيين من الإقامة بهذه الأراضي دون موافقة صريحة من المحافظ. الهدف من هذا الإجراء هو تجنب أي نوع من المضاربة في المباني على منطقة غير معروفة حتى

الآن والتي وجب احتلالها قريبا ولم يتم ممارسة أي نوع من الأعمال هناك.

لقد ذكرنا في الكتاب 15 من هذه الحوليات أن مرسوم 27 جانفي قد نظم ممارسة وسلوك مهنة المحاماة ،أو كما يقال مدافع لدى المحاكم ، كما أننا قمنا بالتعريف بأهم الأحكام . تلك الأحكام التي لم تطبق جيدا مع ذلك تم تعديلها بمرسوم 13 جويلية. تم تخفيض سندات الكفالة من 8.000 إلى 4.000 فرنك بالجزائر و من 3.000 إلى 2.000 فرنك بعنابة ووهران. أما كفالة المحضرين القضائيين فقد تم تخفيضها إلى 2.000 فرنك بالجزائر وال 1.200 بعنابة ووهران.

خلال سنة 1837، بدأت الشريحة الأوروبية بالتزايد قليلا ولكن الغالبية استمرت في كونها من الأجانب. و فيما يلي ما كان عليه عدد السكان و تركيبتهم بداية سنة 1838:

	الفرنسيين	الأجانب	المجموع
الجزائر	4262	5562	9824
وهران	1183	2622	3805
عنابة	8661	459	2262
بجاية	165	250	415
مستغانم	28	76	104
المجموع	6572	10198	16770

وبمقارنة هذه الوضعية بتلك المذكورة بالكتاب 21 لسنة 1836 نلاحظ أن الارتفاع حدث سنة 1837 بـ2209 فردا منهم 1107 فرنسي و 1102 أجنبي.

و قد تم إحصاء نهاية 1837، ما يقارب 7000 هكتار من الأراضي المزروعة في الجزء المنظم من الأراضي على شكل بلديات تحت إدارة الكونت ديرلون. السكان الأوربيون كان 2207 فردا وعدد السكان المحليين 4428. العديد من المسالك الجانبية المفتوحة في الفحص والساحل المسهلة للاتصالات أعطى تطورا مميزا إلى حد ما للقطاع الزراعي في هذه للمنطقة حيث تتواجد البلديات التي تم ذكرها. فقد كان التطور هناك مؤكدا. يتواجد العديد من مزارع التوت و بساتين الزيتون . و يجب أن نذكر بشكل خاص مزارع التوت للسيد أورتيس بالقرب من القبة، منشأة السيد فرويتي ببني مسوس والسيد كارون بسيدي خالف والسيد مازيريس بدالي إبراهيم. هؤلاء المستوطنون الحقيقيون والشرفاء ساهموا كثيرا في ازدهار البلد واستفادوا من مثابرتهم و أعمالهم المستنيرة مزايا حقيقية ومتينة. و يجب ضم أسمائهم إلى قائمة الأوائل الذين دخلوا في طريق الاستيطان الفعلي و الذين تم ذكرهم في الأجزاء السابقة.

بالمتيجة، لم تكن الأمور تعطي وجها مشرقا مثل ضواحي العاصمة. فالزراعة العربية في تدهور تام منذ بعض الوقت نتيجة هجرة السكان المحليين وعمليات شراء الأوربيين للأراضي وهو ما لم يكن كافيا لتعويضها بالزراعة الأوربية.ورغم ذلك فإن بعض المنشآت تشكلت ببني موسى منها منشأة غيلام بحوش كاتب و السيد دومنتاغو بحوش عيسو. استقر هذان

المستوطنان بأنفسهما في ملكياتهم و سيرا بأنفسهما الأراضي المستغلة وعند الحاجة يقومان بجر المحراث بيديهما . وهذه هي الطريقة الوحيدة للنجاح. وباختصار، المنتجات الزراعية انخفضت بصورة مخيفة بالمتيجة إلى درجة أنه سنة 1838 توجب تقديم تسبيقات على شكل حبوب لبعض العرب الباقين هناك. وفي هذا التدهور أحصي كذلك الماشية. وأقولها باقتناع عميق ،رغم كل الجهود الفردية والمستحقة للثناء فإن الزراعة قد خسرت بالمتيجة، إذا ما تخلت الحكومة نفسها عن إقامة مستوطنات. و ما يحزنني هو أنه أتيحت لي فرصة ما يحصل الآن : بلد جرد من العرب و لم يتم تعبئته بأوروبيين بشكل تفتقر فيه لسواعد من أجل إخصابه . إدارة الوطن الأم تظن أنه يمكن الاستنتاج أن الزراعة في طريق التقدم في إقليم الجزائر مما تمكنت الإدارة العسكرية من شرائه نهاية 1837 وهو 3000 قنطار من القمح بينما كانت مشتريات السنوات السابقة تقريبا منعدمة.وإذا ما كانت الإدارة تعتبر إقليم الجزائر هو الأراضي التي نحتلها فإنها مخطئة بخصوص ذلك القمح والاستقراء الناتج من ذلك لأنه جاء من القبائل التي تقع خارج حدودنا. فالإدارة العسكرية لم تجن سوى التبن من أراضينا ولا يزال المنتج الوحيد الأكثر ربحا لمعظم المستوطنين.

و لقد قلنا في الكتاب 21 أن الماريشال كلوزيل سمح من خلال مرسوم 20 جوان 1836 للسفن الأجنبية بالملاحة في المياه الجزائرية . و هذا الإجراء

تم تأكيده بتعليمة 23 فبراير 1837 و هذا يعني أياما قليلة بعد تعيين الجنرال داموبون في الثاني عشر من نفس الشهر. هذه التعليمة تسمح بالإضافة لتلك لنفس السفن بالقيام بعمليات النقل بين فرنسا والجزائر وبهذا تغير لفائدة المستعمرة أحد الإجراءات الأساسية لتعليمة 11نوفمبر1835 التي تحفظ حصريا هذه العملية للسفن الفرنسية . الترتيبات الأخرى لتعليمة 11 نوفمبر تبقى سارية المفعول[1].

و لقد قدمنا في الجزء الثاني من الحوليات الجزائرية جدول الواردات والصادرات التجارية للجزائر منذ 1832 وحتى 1835 . قيمة الصادرات

---

(1) و كالتالي كيف كانت تعرب الإدارة عن نظام الجمارك في إفريقيا :

إن نظام الجمارك وضع بهدف تشجيع المصالح التجارية الفرنسية والسكان الجدد للجزائر في نفس الوقت ،و يمكن تلخيصها كما يلي:

فيما يخص الاستيراد.

لا يوجد أي حظر؛

إعفاء مطلق، 1° لجميع السلع الفرنسية، 2° لتلك السلع الأجنبية التي لا تنتج فرنسا منتجات مماثلة أو تلك الضرورية لحياة الحيوانات و الأعمال الزراعية والبناء. السلع الأخرى تدفع إذا لم تكن محظورة في فرنسا ن ربع أو خمس الحقوق المحددة في فرنسا وعندما يتم منعها تدفع 15 بالمائة من القيمة.

فيما يخص الصادرات.

إعفاء عن السلع باتجاه البلد الأم ودفع رسوم حسب التسعيرة الفرنسية على الرسوم الموجهة للخارج.

قد ارتفعت في سنة 1835 إلى 2.503.544 فرنك و الواردات إلى 12.164.064 فرنك دون إدراج 4.614.733 فرنك من أجل استهلاك الجيش. و منذ تلك الفترة، الوثائق المقدمة من طرف إدارة الجمارك بالجزائر كانت تتم صياغتها بشكل يقدم بصفة مجملة نتائج كبيرة كان ينبغي بحكم طبيعتها تفصيلها. و هكذا كان فيما يخص الواردات التي تقوم بها الإدارة لصالح الجيش و كذا وسائل النقل من ميناء إلى آخر في المنطقة فقد تم إدراجها في نفس الرقم مع الواردات الحقيقية التجارية وبالتالي يكون من الصعب التقييم الفعلي لها. و فيما عدا ذلك إليكم تلك المعطيات:

السنة	الواردات	الصادرات
1836	22.402.768 فرنك	3.435.821 فرنك
1837	33.055.246 فرنك	2.946.691 فرنك

يوجد هناك تفاوت كبير بين قيمة الواردات والصادرات، فطبيعي أن يتم البحث عن سبب الوضعية التي آلت إليها الأمور، بعيدا عن النتائج المحتملة للنشاط التجاري بالمقارنة مع تجارة البلدان التي لها علاقات

فيما يخص الملاحة:

إعفاء السفن الفرنسية و رسوم بـ2 فرنك للبرميل على السفن الأجنبية (تقرير لوضعية المستعمرات الفرنسية بالجزائر مقدما للغرفة سنة 1838، صفحة 328).

تجارية مع الجزائر. الإدارة في تقييمها للوضعية سنة 1838 و انطلاقا من تلك المعطيات الإيجابية المتعلقة بواردات الجيش بأنه سنة 1835 كانت تتجاوز قليلا 4 ملايين و نصف قد قامت بالتقدير تقريبا ويبدو معقولا بعشرة ملايين سنويا للواردات لسنة 1836 و 1837 في حين كان يتواجد قوات لا متناهية بإفريقيا في السنوات السابقة. و لكن ذلك لم يكن كافيا بعد، لأن الجيش يستهلك ما يفوق المخصصات المحددة له من الدولة ، و ما يشكل الرقم 10.000.000 هي فقط تلك المخصصات المرسلة من فرنسا أومن الخارج . السلع المشتراة فرديا من طرف الضباط و الجنود تبقى مشمولة ضمن الواردات التجارية.

ومع ذلك لا تثبت شيئا للتجارة الثابتة للجزائر لأنه نفس الجنود ونفس الضباط إذا ما تم نقلهم إلى أي نقطة من الكرة الأرضية حتى لو كان على الصخرة الأكثر عقما فإنهم سيقومون بالاستهلاك نفسه. وللحصول على تقييم صحيح للواردات المطبقة حصريا في البلد وجب إذن اقتطاع الأرقام المقدمة من طرف الإدارة في جدول تقييمها الذي مع ذلك يعتبر عملا جيدا و جميلا ، استهلاك الجيش الذي أسميه بالفاخر لعدم وجود مصطلح آخر . و مع ذلك بأخذ تعداد 50000 رجل لكامل سنة 1837 و هو نفسه تقريبا في أول جانفي 1838، و إنه لكثير

بالتأكيد التقييم الدائم بـ10.000.000 لذلك الاستهلاك، لأنه بذلك يعادل 200 فرنك لكل فرد. ومع هذا فلندع هذا الرقم جانبا. سينتج أن الواردات الضرورية فعليا للتجارة الجزائرية كانت سنة1837 تقدر بـ 13.055.246 فرنك، مما يمثل دوما فارقا بـ 10.108.555 فرنك لصالح الواردات على الصادرات.

هذا الفارق لم يجد له السيد ديسجوبر تفسيرا في كتابه الثاني حول الجزائر سوى بربطه كاملا بالجيش و حسب هذه الفرضية لم يكن 10 بل 30.000.000 هذا الفارق حسب قولي يعتمد على أن تتكون الصادرات المحلية من جزأين: واحد يظهر في دفاتر الجمارك و يمر إلى الخارج و بالتالي نعلم رقمه ، و الجزء الآخر يتوقف في مستعمراتنا الإفريقية و يتم استهلاكه. وإذا ما تمكنت الوثائق المقدمة من طرف الإدارة إعطاء تقييم لذلك فإننا سنرى أن الفارق بين الواردات و الصادرات ليس في الحقيقة معتبرا كما يبدو عليه من النظرة الأولى.

في سنة 1837 و كما في السنوات السابقة، السكان الأوربيون الذين لم يتمكنوا حتى من إنتاج ما يكفي لاحتياجاتهم لم يوفروا شيئا للتصدير، لأنه لا يمكن أن يعتبر تصديرا صافيا ما أعيد تصديره من سلع أوربية. و تعترف الإدارة في جدول تقييمها للوضعية بهذا التمييز الذي يخفض

يضع مئات الآلاف فرنك الرقم الذي تقدمه للصادرات. وفيما عدا ذلك، هاهو جدول الصادرات الصافية للبلاد سنة 1837:

المواشي	9.942 فرنك
الخيول والبغال	11.450 فرنك
العلق	22.350 فرنك
الجلود الخامة	668.563 فرنك
الصوف	31.844 فرنك
الشمع	103.222 فرنك
عظام و قرون المواشي	18.125 فرنك
ريش النعام	13.305 فرنك
الزيت	132.324 فرنك
الحبوب	10.079 فرنك
أوراق التبغ	5.988 فرنك
دودة القرمز	20.960 فرنك
فواكه	3.462 فرنك
مرجان	1.163.513 فرنك
الفخار الخشن	387 فرنك
الكحل	36 فرنك
المجموع	**2.215.550 فرنك**

لا نعطي الجدول المفصل للواردات، لأنه لا يمكننا تصفيته من العناصر المتعلقة باستهلاك الإدارة العسكرية. الرقم 33.055.246 فرنك يشمل 15.443.535 فرنك من السلع الفرنسية، 17.611.711 من السلع

الأجنبية. و نرى أنه رغم الامتيازات الممنوحة للتجارة الفرنسية من خلال تعليمة 11 نوفمبر 1835 فانه لا تزال التجارة الأجنبية تهيمن عليها. و رغم ذلك يوجد تحسن مقارنة بالسنوات الماضية . فأقمشتنا القطنية خاصة في طريق الازدهار.

حركات الموانئ بالجزائر لسنوات 1835،1836،1837 تمثل النتائج التالية:

السنوات	السفن الفرنسية	السفن الجزائرية	السفن الأجنبية	المجموع
1835	341	495	1.254	2.090
1836	728	834	1.047	2.609
1837	1.129	1.032	1.204	3.365

حوليات جزائرية

الجزء الثاني

1.

رسالة إلى السيد ديسجوبار حول مسألة الجزائر العاصمة.

الجزائر في :28 مارس 1837.

سيدي،

لقد قرأت الكتاب الذي شرفتني بإرسال نسخة منه إلي، مع ايلاء الاهتمام الواجب كرجل ذي موهبة و ضمير كتب حول قضية ذات أهمية كقضية الجزائر. وتريدون فعلا طلب الملاحظات التي ألهمتني إياها هذه القراءة المهمة. أوجهها لكم بثقة و أظن أنكم بالتأكيد لا تجدون مانعا أن أنشرها علانية. نحن متفقون حول نقاط عديدة: و تلك التي نختلف حولها ستبدو لكم ربما بمظهر آخر إذا ما كنتم في عين المكان لمدة أطول لرؤية

جيدة وكاملة وأظن أنه حينها ستعدل البعض من أفكاركم و ستكون أقرب للتوافق فيما بيننا.

تُدينون، بشكل عام، نظام المستوطنات. ولا يمكنني سوى أن أكون من رأيكم إذا ما كنتم تقصدون من ذلك هذا النظام الخاطئ و اللا ذكي الذي يتمثل في إنشاء، وبتكاليف باهظة، لمصالح وهمية و خيالية . بالتأكيد، إذا ما كنا نتوقع أن نجد بالجزائر مزرعة لاستغلالها، ومصدر ضرائب للحصول على المال للخزينة فإننا نسيء التقدير بغرابة وجميع المواطنين المستنيرين يجب أن يعملوا على تحطيم هذا الوهم الخطير. وإن كان يتمثل في زرع بذرة أمة جديدة بإفريقيا الذي يكتسب باستمرار قوى جديدة و يبحث عن عيش حياته الخاصة فإن المسألة تغير من شكلها و تمثل لنا مشروعا اجتماعيا مجيدا ومنتجا. و إلى هذا المنحى سأوجه ،سيدي، نقاشنا. و لكنه ضروري أولا من التعرف على المسرح الذي سنتحرك فوقه.

هذا المسرح، سيدي، قمتم بدراسته بعناية. و لكنه لا يمكنني إخفاء أنكم في بعض الأحيان قد تم تضليلكم بمعلومات غير كاملة أو غير صحيحة. و قد تمت الإشادة دون داع و أنا أعلم ، بخصوبة التربة بالمنطقة و لكنني أعتقد أنه من جانبكم تقللون من أهميتها كثيرا. إن جمال ضواحي الجزائر أمر لا نقاش فيه ولا أحد بإمكانه إنكاره . أما فيما يخص سهل المتيجة ، فانتم تحكمون عليها من خلال تقرير لجنة إفريقيا. ورغم أنه ،سيدي ،اثنان أو ثلاثة من أعضاء هذه اللجنة لم يزوروا ولم يشاهدوا إلا جزءا بسيطا و

الأكثر تنكرا للجميل. وإضافة لذلك هل يحتوي تقريرهم على تلك الفقرة الغريبة التي تذكرونها: " لا يوجد أي مأوى بالمتيجة . و الجزء الصغير الذي يستغل كان مثل ريف روما: العمال ينزلون من الجبال و التلال المجاورة ليعهدوا إلى الأرض بالبذور ثم يأتون بعدها لجني المحصول دون الاستسلام للنوم على تلك الأرض المهلكة" هذه الكلمات في تناقض تام مع الواقع، وتجعل الجميع يضحك هنا. و يجب قراءتها لتصديق أنه تم كتابتها. و إذا ما جئتم لزيارة مقاطعتنا، سيدي، فانه سيصعب عليكم مسامحة أصحاب تلك الشهادات التي أعترف مع ذلك أنه من الطبيعي أن يكون لديك فيها بعض الثقة. جزء المتيجة الذي نتحرك فيه يضم ثلاثة أوطان: بني خليل ، خشنة وبني موسى. هذا الأخير الأضعف من ضمن الثلاثة يحوي مع ذلك على 101 حوش أو مزرعة. وأؤكد لكم أن السكان بعد قيامهم بالزراعة لا يسارعون للهروب إلى الجبال كما تذكره اللجنة ،بل يعودون إلى أكواخهم و يستسلمون إلى نوم لا شيء فيه مهلك. فقد حدث غالبا وأن نمت جنبا إلى جنب معهم ولم أصب عند استفاقتي بأي حمى ولا التهاب ولا حتى نزلة برد. وانه لمن المؤسف حقا أن تتحدث اللجنة بثقة كبيرة عن شيء لم تره.

ومقاطعة الجزائر غير خالية من الأشجار كما تعتقدون: الثروة الغابية رغم أنها أقل اعتبارا مقارنة بفرنسا إلا أنها تضاهي ثروتنا بالمقاطعات الجنوبية وأعلى بكثير من جنوب اسبانيا.

تقتبسون مقطعا من رواية البعثة إلى معسكر من طرف السيد باربوجار، سكرتير السيد الماريشال كلوزيل، وهو مقطع يشير فيه الراوي إلى نقص المياه والخشب كعائق كامن غالبا للتخييم بإفريقيا. السيد باربوجار لم يقم حينها سوى بجولة إلى معسكر عندما كتب تلك الأسطر. بينما ها هي كيف كانت مخيماتنا في تلك البعثة: الأول في مخيم الكرمة في السهل القاحل لوهران، ينقصه الحطب فعليا و لكنه يوفر بعض الينابيع، الثاني بتليلات وضع عند مدخل غابة مولاي إسماعيل حيث من المؤكد لا ينقص الخشب، الثالث على ضفاف السيق و تمت إقامته داخل غابة، الرابع على ضفاف الهبرة وكان كذلك داخل غابة تمتد بعيدا على ضفتي ذلك النهر؛ الخامس بأولاد سيدي ابراهيم يقل فيه الحطب ولم أر أحسن منه تدفئة، السادس بسيدي محمد وعين كبيرة حيث شغلت الفرق مواقع مختلفة متباعدة عن بعضها البعض، لم تكن كلها جيدة للجميع و لكنها لم تكن تحتاج لا للماء ولا للحطب بتاتا. الموقف السابع كان بمعسكر. و في طريق العودة تبعنا نفس الطريقة حتى أولاد سيدي ابراهيم . ومن تلك النقطة ذهبنا للنوم بميصرا، بلد دسم وخصب حيث وجدنا وفرة في كل شيء. و من هناك اتجهت قوات الجيش إلى مستغانم، و خلال الثلاثة أيام من المسير نحو وهران من مستغانم كنا باستمرار وسط غابات شجيرات كثيفة. و لا يمكنني بعد كل ذلك تفسير الانشغال الغريب للسيد باربوجار[1].

لا أنكر أنه فيما تبقى العديد من أجزاء المقاطعة قاحلة جدا أو منعدمة

---

(1) لقد أثبت السيد باربوجار في رسالة أدرجها لجريدة المونيتور الجزائري منذ نشر كتاب السيد ديسجوبار، أنه تكلم في ملفه عن مخيمات جولة معسكر كما قمت

الأشجار . فقد قمت بالسير يومين أبعد من سلسلة جبال إقليم وهران دون أن أرى شجرة . و نفس النقص الفادح للغطاء النباتي يتواجد بين راس العقبة و قسنطينة و لكن ألا تملك فرنسا بدورها شامبانيا الرديئة؟

في إقليم الجزائر، كل منحدرات الأطلس مغطاة كليا بأنواع مختلفة من الأشجار الغابية. و يتواجد على ضفاف المزفران غابة جميلة جدا و ذات استغلال سهل. غابة كاريزا Karesa في موطن حجوط جميلة جدا أيضا. كما توجد أخريات على ضفاف اللاراتش، الحميز و قورصو. فلا يجب استخلاص أننا نتحصل على الكثير من الحطب بحرا لإحراقه و أن هذا العنصر ينقص في المنطقة. فقبل 1833 ، ألم يكن بعض الأشخاص مقتنعون أنه ينقصنا التبن؟ هذا التفكير الخاطئ زال منذ أن بدأنا باستغلال مروجنا. و نفس الشيء للحطب ، فهو لا ينقص بل نحن لا نعرف استغلاله. و ما عدا ذلك ، فيجب الإشارة إلى أن جزءا كبيرا من الأخشاب المفرغة بالموانئ لدينا و قيدت في سجلات الجمارك فإنها تأتي من سواحل الوصاية و ليست جميعها تأتينا من الخارج كما يبدو أنكم تفكرون فيه.

و تفترضون، سيدي، بان تربة الوصاية مهتلكة و أنه لا يجنى من الحبوب سوى أربعة إلى خمسة من الواحد. و هذا خطأ آخر أوقعتكم فيه تقارير لجنة إفريقيا . فتربة الوصاية لا تنحط إلى هذا العقم المخزي: فالعرب يتحصلون منذ الماضي على ثمانية إلى أربعة عشر للواحد ، حسب

أنا بفعله تماما و لكن السيد ديسجوبار قد استنبط من جملة منعزلة استنتاجات جد موثقة.

القاطعات . و الآن إذا ما أخذنا بعين الاعتبار طريقتهم المختصرة للعمل و التكاليف القليلة لها فإننا سنقتنع بأنها تضاهي 16 إلى 28 بفرنسا.

و انتم تعترفون أن تربة الوصاية مناسبة تماما لمزارع الكروم ، الزيتون، و التوت: و حول هذا نحن على اتفاق كامل.

أما بالنسبة للسلع الاستيطانية ، فإنني أتفق معكم على أنه من السخف التكلم عنها بقدر ما فعلنا. و مع ذلك، ليس هناك شك في أن القطن يمكن أن يزدهر في الوصاية.

و بذلك إذن أظن أنه يبقى مثبتا أن تربة إقليم الجزائر ليست جد خصبة كما أراد أشخاص متحيزون قوله، و لا قليلة العطاء كما تظنون حسب شهادات لجنة إفريقيا التي أكرر أنها لم تقم بدراستها و بالكاد قامت برؤيته. و من أكبر العوائق لازدهارها هو النقص التام للملاحة الداخلية و هذا لا يوجد أي حل إذا لم يكن مع ذلك طريق السكة الحديدية للسيد جنتي دوبيسي، و لكننا لم نصل بعد إلى ذلك. و بالنسبة للباقي، سهولة الملاحة على ساحل تقريبا بخط مستقيم و دون رأس يخرج في البحر بشكل متقدم فهذا يعتبر ترياقا لا يجب تجاهله.

و لنمر الآن للعوائق التي يمكن أن تنتج من نزعات السكان الأصليين. فشهادات اللجنة للسيد بيروني و السيد الجنرال بروسار، تدفع بكم للاعتقاد أنه لا توجد أية إمكانية للتقارب بيننا و بين العرب . فالسيد

بروسار يقول بهذا الخصوص أن العرب سيكونون أعداء إذا لم يكونوا خاضعين أو حلفاء . الاقتراح لا جدال فيه و لكنكم تعترفون بأنها جد عامة حتى أنها لا تثبت شيئا . و مع ذلك تستنتجون بان العرب لن يعملوا أبدا معنا . و هذا سأعارض من خلال وقائع يمكن لكل من في البلد أن يدلي بشهادته عليها: لم ينقص للأوروبيين عمال عرب أو عمال قبايل عندما أرادوا استخدامهم ، قسم الهندسة العسكرية تحصل على أكثر مما يحتاج لأعمال التجفيف بالحراش و المزرعة النموذجية و ببوفاريك ؛ أمير دو مير كان له أكثر من 200 عامل براسوطة ؛ السيد مارسي يستخدم عددا كبيرا ببرغاية؛ السيد توناك الذي استقر لوحده في سفوح الأطلس بقدارة لا يوجد معه سوى عرب. و لن أذكر أكثر من هذه الأمثلة فهناك أمور جد واضحة بالنسبة للذين يعيشون في الجوار حتى أننا نحس بالإحراج لإثباتهم. فما ردكم على الذي ينكر وجود أشجار تفاح بالنورموندي؟

و بالتالي سيدي ، يمكننا إيجاد عمال في إفريقيا من بين السكان المحليين، و التربة يمكن أن تكون إنتاجية في أيدي مدير أوربي دون أن يكون هذا الأخير مضطرا إلى جلب عماله الأوربي مثلما افترضتم في الصفحة 153.

و لكنكم ستسألونني، ما هي المزايا التي سيجدها هذا المدير في القيام باستغلال زراعي بالجزائر ؟ السعر المنخفض للأراضي تعوض صعوبات و ندرة المنافذ، صفحة 143 . و أجبتم على ذلك بأنفسكم صفحة 133.

عندما لاحظتم أن أكثر من 5.000.000 فرنك من المواد النشوية قد تم استيرادها سنة 1835. فإذا كان البلد قد أنتج هذه الكتلة من المواد فقد تم إذن استهلاكها فيه.

وأخيرا هذا هو مسرحنا المعروف. أتكلم دون حيطة، دون حماس، بهدوء ووعي وحقيقة، و أتكلم فقط عن ما رأيت و أعتقد أنني رأيت جيدا. التربة خصبة و السوق مضمونة، والسواعد لا تنقص لمن يعرف كيف يستخدمها. وأعني بذلك استخدامها أولا حسب أساليب العرب. وهناك حقيقة تمكنتم من ملاحظتها ببراعتكم كمهندس زراعي عن بعد 500 ميل في الصفحة 154. ملاحظتكم بالحكمة و العقل في هذا الموضوع واحدة من تلك التي أعطتني صورة عالية عن حكمكم، و لا أخشى أن أشير ودون حيطة خطابية بان الأخطاء تنبع عن المعلومات الغير الصحيحة.

لقد قلت بان المسرح معروف و لكنني قد ذهبت بعيدا في ذلك، بل لم يصبح كذلك كليا. فنحن لم نتكلم عن التجارة و لا على المعطيات البحرية ولا عن الأشخاص المعتبرين على النطاق السياسي. ففيما يخص التجارة، فمن الطبيعي أن لا يكون في الوقت الحالي سوى انتقال للمصالح كما ذكرتم ذلك جيدا وليس إنشاء مصالح جديدة. و لكن الامتداد الذي يمكن أن تأخذه الزراعة في المنطقة وعلاقات جيدة مع العرب، سيوفرون بالضرورة في وقت معين عناصر فعلية للازدهار، فأنا أعترف بصراحة أنكم حطمتم

جزءا من الأوهام التي بنيتها حول السودان. كان يبدو لي من الممكن جلبه نحو الجزائر. و لكنه من الواضح كما تقولون أنه إذا ما أخذت هذه التجارة امتدادا ووجهة ذكية فانه سيكون عبر السنغال. فأنا مجبر إذن على الاعتراف بان الوصاية بالفعل طريق مقطوع ولا يمكن توفير سوى منتجاته للتجارة.

ولا أستطيع أن أكون من رأيكم حول إنشاء مخازن بالجزائر العاصمة. تقولون بصدق أن هذا الإجراء لن يجعل منها سوقا كبيرة بين فرنسا وبلاد الشام. أليس لهذا السبب تم الاستحواذ عليها؟ كان هذا ببساطة للتخفيف عن التجارة بترك أموال مخصصة لرسوم الجمارك حين إيداع البضائع دون حرمانها من الحق في إعادة التصدير. وهو تطبيق مبتذل لأفكار من أسس هذه المستودعات. و فيما عدا ذلك فان الجزائر العاصمة لا يمكنها أن تكون ولا أن تزعم كونها مخزنا بين بلاد الشام و فرنسا فانه يمكنها ووجب عليها أن تصبح كذلك بين فرنسا والبلاد البربرية و ربما بين بلاد الشام وأمريكا. تخزينها الفعلي سيكون بالإضافة إلى ذلك أكثر ايجابية للسلع المحظور دخولها لفرنسا، والخاضعة لنظام جد مزعج لنظام مرسيليا. هذه السلع التي ليست ممنوعة بالجزائر أو الخاضعة فقط لرسوم أعلى، تتواجد في نفس المجموعة بالنسبة لنظام التخزين و أخيرا أليس من الواضح أن كل مخازن حقيقية تريد إلى ما لا نهاية التجارة فقط بقوة الأشياء. فما سيكون جبل طارق دون مستودعه؟

الجزء الثاني

إن مرفأ و ميناء الجزائر العاصمة ليسا سيئين كما حُبِذَ قوله. سفن الدولة التي تحملت أوقاتا عصيبة يمكنها أن تشهد على ذلك. و تعلمون جودة العديد من المرافئ الأخرى وخاصة الجزء الذي يمكن استخدامه من سطورة. وبالتالي فالساحل بالوصاية ليس سيء التقسيم في تلك النقطة و لنتجه الآن للعلاقات مع السكان الأصليين.

رغم آراء اللجنة والسادة بيروني و بروسار الذي يبدو أن مقاسمتكم لأرائهما عندما يتعلق الأمر باستخدام السكان الأصليين في العمل الاستيطاني، و ليس من الواضح من كتابكم أنكم مقتنعون تماما أن الكراهية العميقة ستبعد العرب عنا إلى الأبد. و سأنحصر إذن في تذكيركم بما كتبت في هذا الموضوع في كتاب قد تكرمتم بإلقاء نظرة عليه. و سأذكركم بالمحادثات التي قمتم بها مؤخرا مع السيد دولامورسيار. فلقد عشنا ، أنا و هو ، مع العرب و نحن بعيدون عن النظر إليهم كأناس صعاب المراس. فأين و كيف قامت اللجنة بالالتقاء بهم؟ السيد دو بروسار أقام لمدة سنتين وليس ستة سنوات بإفريقيا لثلاث مرات مختلفة. هذا الجنرال والسيد بيروني حاربوا بإقدام العرب دون الاختلاط بهم بشكل آخر. ولذلك لا أخشى قول أنهم لا يمكنهم معرفتهم أكثر من أولئك الذين تعاملوا معهم في كثير من الأحيان. و بالتالي ، أتمنى أن يثبت الجنرال داميمون قريبا بطريقة قاطعة أنه يمكننا الاتفاق مع العرب ، عندما نقبل معاملتهم بطريقة أخرى غير ضربات العصا. أما فيما يخص

القبايل فأني أتخلى عنهم لكم: فعلاوة على ذلك فهم غير مزعجين و لا يطلبون سوى البقاء في جبالهم . فلذلك يتوجب تركهم.

و الآن ما الذي ينقصنا لبدء العمل؟ تربة خصبة، سواعد لاستغلالها، سوق مضمونة للمنتجات، موانئ و مرافئ للتجارة ، فما الذي نحتاج إليه أكثر ؟ معرفة استعمال كل ذلك، و لم نعرف ذلك بعد. بداية ما الذي نريده، و ما الذي وجب أن نريده؟ هل مستعمرة مثل كندا ، سانت دومينغ، السنغال؟ أجيب معكم بالنفي. ما يلزمنا هو مستعمرة تلعب دور بذرة دولة جديدة ستصبح في المستقبل القريب مكتفية ذاتيا ومع ذلك ستجمعها روابط لا انفصام فيها بفرنسا. وستسألونني: ما الذي ستربحه فرنسا من ذلك؟ و ستذكرون حكم آدم سميث صفحة 162 . و أود أن أشير إلى أن هذا العالم الاقتصادي كان يكتب في فترة كانت ردات فعل مضادة للاستعمار بدأت بالانتشار في المدرسة. بمعنى في وقت نحن فيه دائما على استعداد لتجاوز الهدف ؛ لاحقا، انحصر ج.ب.ساي في حظر المستعمرات التابعة، و أشاد بمستعمرات من النوع الذي يشغلنا، و أثبت أنه لا شيء يرد الحياة لشعب قديم أكثر من ولادة شعب جديد .و يوصي بعبارات صريحة بمستعمرات في شمال إفريقيا. و فيما عدا ذلك، لنضع جانبا، من جهة و من أخرى، سلطة الاقتصاديين: و لنركز على المنطق. أليس أحدث دليل على أن الشعب الذي كلما اتسعت علاقاته التجارية كلما زادت الطلبات على صناعاته و بالتالي أيضا يتم تنشيط الإنتاج و العمل. و بذلك ، هل يمكن لشعب أن تكون له علاقات تجارية أكثر امتيازا وأكثر اتساعا وضمانا من علاقته

الطبيعية التي تربط بينه و بين الدولة التي أنشأته؟ و سوف تعترضون باسبانيا على سبيل المثال، التي تترك للدول الأخرى جميع الأرباح التي يمكنها جنيها من مستعمراتها الأمريكية . و قد قلنا ذلك منذ مدة طويلة انه في الواقع إن كان لاسبانيا بقرة فان الآخرين سيشربون حليبها. و لكن ذلك يثبت فقط أن اسبانيا لم تكن تعرف حلبها . اسبانيا لا تعرف إنتاج شيء فكان لابد على تلك المستعمرات أن تبحث في أي مكان آخر عن ما لم تجده لديها.

إفريقيا إن تم استغلالها جيدا فإنها ستوفر لفرنسا الحرير والزيت الذي ينقصها و التي من أجلهم هي تابعة للخارج . و أنت تهاجم ، سيدي عبارة تابع للخارج صفحة 172.فهي تبدو لكم دون معنى؛ لأنكم ، حسب قولكم ، عند شرائنا للمواد بالجزائر أو من أماكن أخرى لا ينبغي أن ندفع مقابل ذلك. و هذا صحيح جدا . و لكن بأخذهم من الجزائر هل نحن متأكدون أنه لن تحدث ندرة لها أبدا. و إن كانت الأسواق لن تكون عرضة لأهواء إدارية لقوى أجنبية . فبسحب مواد خام من الخارج ألن نكون عرضة لرؤية انغلاق الأسواق التي توفرها بين لحظة وأخرى؟ و الحرب مثلا ألن يمكنها حظرها تماما ؟ فما الذي ستصبح عليه الصناعات التي تعتمد على هذه المواد؟ هذا هو معنى تبعيتنا للخارج في واقع تجاري و العبارة تظهر لي صحيحة. فكثير من العقول النيرة، مع التقبل المبدئي للخصوم التجارية و الصناعية ، فقد صدمها عائق ترك بعض الصناعات

من الدرجة الأولى خاضعة لاحتمالات الحرب والسلام مما يستدعي وضع حماية لها من التعريفات الجمركية مخافة حدوث نفاذ في المصادر من التصادم الأول. وإلى جانب هذه المخاوف الصحيحة تماما و المبنية على أسس راسخة، والتي تدفعنا إلى البحث في إفريقيا عن ما توفره مقاطعاتنا الجنوبية بشكل ناقص، توجد مخاوف أخرى محلية و بائسة تماما وتعمل في الاتجاه المعاكس. فانتم تظهرون لنا على سبيل المثال أنه في مقاطعة الفار قد أبدى، من خلال جهاز مجلسه العام ، مخاوفه من المنافسة التي ستمثلها إفريقيا مما يضر بالمصالح الزراعية لهذا الجزء من فرنسا. أنا من الجنوب ، سيدي ، و يمكنني أن أؤكد لكم بان الأرباح المتحصل عليها من أشجار الزيتون خاضعة ، منذ نصف قرن ، لحظوظ الطقس و سيكون من المرغوب ربما لو نتخلى عن زراعتها. عائلتي ، مثل عائلات أخرى ، كانت ضحية لهذا النوع من الزراعة التي توفر محصولا جيدا بعد خمسة سنين . بالجزائر، و على العكس، لا توجد حظوظ مفزعة نخشاها. ولكن، و باستقلالية عن هذه الاعتبارات، وبتقبل بان أشجار الزيتون تعتبر مصدرا حقيقيا للثروة للمقاطعة فان هذا المصدر لن يتلاشى بسبب منافسة الجزائر. ونفس الشيء فيما يخص الحرير، فكلما أنتجنا أكثر كلما استهلكنا أكثر؛ وهي قاعدة لا تعطي استثناءا سوى لبعض المنتجات المصنعة الخاضعة لدلال الفرص والتي تدعى الموضة. فالصيحات، على سبيل المثال، تتوقف عن كونها كذلك منذ اللحظة التي ننتج فيها بصورة كبيرة.

دعونا إذن من انتقاد ارض الوصاية ،باتهامات متناقضة ، تارة لعدم إنتاجها

لشيء وتارة لإخفاء مستقبل مخيف للزراعة الفرنسية. ولنعترف بحسن نية و دون مبالغة بأنه يمكننا الاستفادة كثيرا من هذا النطاق و كذا من وجهة نظر سياسية.

و لقد قمتم بترتيب النقاط الايجابية لهذا النطاق الأخير في ثلاث مجموعات، التي يقدمها المساندون للجزائر، و هي: 1° طريقة لتحسين خبرات الجيش.2° سهولة التحرك لبلاد الشام و جنوب أوروبا .3° الرفع من القوة البحرية. وبعد تشكيكم في الميزتين الأخيرتين في الصفحة 203 وما يليها فقد عدتم إلى الاعتراف به افتراضيا في الفصل الأخير من كتابكم. فقد تكلمتم عن الأهمية الكبيرة التي تربط احتلال الجزائر بكل سياستنا في بلاد الشام، و تعترفون بفائدة بعض المرافئ، و يا إلهي! لا نطلب منك أكثر من ذلك. فهل فكر احد أبدا في وضع منارة على كل رأس صخرة؟ بالتكلم عن 200 ميل من السواحل و التي لم نزعم أبدا انه كان لابد من احتلالها كلها. فانتم متفقون معي في هذا الموضوع مع كل مساندي احتلال الجزائر ولم يكن له داعي مهاجمتهم في الفصل 9 بما انك كنت ستتفق معهم في استنتاجاتك.

و لكن الموضع الذي أصبحتم فيه من أكبر المدافعين عن الجزائر أكثر مما تظنونه بأنفسكم، هو الفقرة المميزة بإعجاب أين تتطرقون إلى مسألة المشرق في الصفحة 329 ولا أقاوم متعتي في إعادة نشره.

"إن نظامي السياسة الأوروبية، فيما يمس الإمبراطورية العثمانية لا يمكنهما

اعتبار الجزائر سوى فرع منبثق ، منذ سنوات طويلة، من الجذع القديم الذي ينتمي إليه. انهيار الداي حسين قد دعم هذا الانفصال. و هكذا ، فأما أن يتمكن النظام الروسي من السيادة على الأقدار المستقبلية للعالم؛ و أما أن النظام الذي يعارض هذا الاجتياح بتشكيل حاجز باتحاد الدول الأوروبية الكبيرة سيفوز به. والجزائر لن تظهر مجددا في القضية كجزء من السلطة العثمانية".

"فينبغي على فرنسا أن تكون على مستوى التطلعات أولا للدخول في نقاشات مثل هذه أو من الأحسن التخلي عنها. و المنحى الذي ستأخذه مسائلنا الإفريقية ستتحدد في تلك الفترة. فان أبعدنا عنا الجنسية العربية ستكون حليفة أعدائنا؛ و إذا ما تحصلنا، على العكس من ذلك، على تعاطفهم بأسلوب نبيل، كريم و مستنير، فإننا نكون قد ضمنا صديقا تكون مصلحته متعلقة بمصلحتنا".

أجل سيدي ، أنتم على صواب تماما، فسلوكنا بالجزائر يجب أن يكون له تأثير كبير على من تناسبنا أخذها في بلاد الشام. و كنت انشر هذه الحقيقة في إحدى جرائدنا في الوقت الذي تلقيت فيه كتابكم . و أنا فخور و سعيد بأنني اتفق معكم في هذه النقطة.

فلابد من الاتفاق على أن تواجدنا بالسواحل الشمالية لإفريقيا هو عامل قوة لنا في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط. و بالإضافة إلى ذلك ، توجد اعتبارات فكرية ، انتم بعيدون عن عدم الإحساس بها بما أنكم وضعتموها

فوق كل الاعتبارات الأخرى : المجد لفرنسا بنشرها للحضارة و بفعل شيء مشرف لنفسها. أذكر هنا كلماتكم في الصفحة 335. و لنقبل بسرعة هذه المهمة المجيدة . ففرنسا بأكملها تريد ذلك؛ وانتم كذلك. ولكن من يريد الوصول إلى شيء يحتاج إلى الوسائل. وبذلك فإن تلك الوسائل التي تقترحونها تبدو لي غير كافية لتحقيق الهدف.

فانتم ترغبون بان تكتفي فرنسا باحتلال اثنان أو ثلاث مواقع بحرية، و أن تضع بين يدي قائد من السكان المحليين، و بكلمة واحدة عبد القادر، رعاية حكم العرب التي ستتم إعادة تشكيل جنسيتهم. و هذا ما تدعونه النظام العربي. و تظنون انه يمكننا بذلك الاستفادة من المزايا الحقيقية التي ننتظرها من إفريقيا. فلنتفحص العواقب القاسية لهذه الوضعية والتي يدعو للأسف أنكم لم تقوموا بتحليلها كفاية ربما.

فقد قمتم بتلخيص النتائج فيما يلي بالنسبة لفرنسا من النظام العربي:

1° استمرار القضاء على القرصنة،

2° الحيازة الهادئة لنقطتين أو ثلاث من السواحل الإفريقية و التي ستكون حسب آراء عدد كبير من البحارة، مفيدة لأسطولنا في حالة حرب بحرية،

3° تخفيض النفقات إلى 4 ملايين،

4° تأمين المزايا التي ستكسبها التجارة من إفريقيا بشكل معقول،

5° أخيرا، و قبل كل شيء، المجد لفرنسا بنشرها للحضارة و قيامها بشيء مشرف بنفسها.

إن احتلال نقطتين أو ثلاث من السواحل تكفي بالفعل لضمان استمرار القضاء على القرصنة والمزايا البحرية التي تعترفون انه يمكننا الاستفادة منها في شمال إفريقيا. ولكن، كونوا متأكدين انه لا يمكن حصول النتائج الأخرى التي تضعون في أول صف لها الترويج للحضارة. فلابد من الاندماج مع الشعب البربري من أجل صقله. وللتمكن من التأثير عليه فكريا. وما تقترحونه هو انفصال تام. في واقع حضاري، فان شعبين لا يختلفان سوى أكثر أو أقل، يوجد قاعدة فكرية مشتركة و توافق في أساليب الحركة الفكرية التي تسمح للذي يتفوق بالتأثير على الثاني، دون اختراقه ماديا. الكتب والجرائد وصدى النقاشات السياسية والفنية والعلمية هم دعائم قوية وعاجلا أم آجلا لا تقهر. وبفضلهم نحن في الجانب الثقافي نعتبر على رأس القارة الأوروبية؛ و بفضلهم كسبنا تعاطف حشود من العالم المسيحي. و انتصارنا أيضا من هذا الجانب لما كان كذلك لولا انه لم تأخذنا الحرب خلال ربع قرن عند كل شعوب أوروبا، وسيثبت مستقبل ليس ببعيد ذلك.

فكيف سنأثر فكريا على السكان الأصليين في إفريقيا إذا لم نخترقهم ولم نشكل بينهم وبيننا هذه الأفكار المشتركة التي لا تتواجد إلا بشكل غير تام، وتلك النواقل الفكرية الغير متواجدة بتاتا؟ و لنفترض مع ذلك وبعيدا عنا، قوة عربية تمتد على كل البلد ، باستثناء النقطتين أو ثلاث

التي نحتلها: السكان الأصليون سيحومون حول هذه القوة الكبيرة بكل عاداتهم الاجتماعية و الإدارية ؛ لن يكون لنا أي تأثير فكري عليهم؛ و بالكاد سيدركون تواجدنا.سيأتون لمواقعنا الحزينة من أجل الشراء و البيع و لن تكون لهم أي مصلحة في دراسة و معرفة المنشآت الغير مؤثرة عليهم. وعندما يلاحظون ضعفنا وقلة عددنا ونحن منغلقون بين أسوارنا فلن يفعلوا بنا سوى ما حدث للأسبان بسبتة ، و من جهتنا لن نكون أحسن حظا من هؤلاء الاسبان.فالعرب لن يعرفوا قيمة الحضارة إن لم يروا انعكاساتها في الواقع . فكيف سيتركون أولادهم يدرسون باستخدام لغتنا و أن يتركوهم يستقون علومنا، بما أنهم تحت نظام ليس لنا عليه أي تأثير؟

و لكن إن أحسنت فهمكم ، يظهر اعتقادكم انه لابد من التحرك بواسطة القائد على تلك الحشود، بمعنى كسب القائد أولا إلى حضارتنا وتكليفه بعدها براية الإصلاحات. ولنفترض أن هذا ممكن مع عبد القادر، الذي يتمتع بذكاء خارق لا أحد مثلي يعطيه حقه، ولكن من يضمن لكم الذي سيخلفه؟ الأمير الحالي لديه مميزات شخصية قامت ظروف الحكم في كثير من الأحيان بتعديلها مثلما يقال في المشرق: و لكنه لن يعيش الدهر. فهل يمكننا أن نلحق الآمال التي يمكننا بناؤها معه بأحد آخر؟ فبإتباع هذا النظام، سنضطر للتخلي عن الترويج للحضارة عاجلا أو آجلا. وحتى مع الأمير الحالي الذي درسته عن كثب ، وأتجرأ على قول أنني أحببت شخصيته، الترويج لن يكون دوما على راحته.

ولا أريد هنا مناقشة تأكيدات الجنرال ديميشيل، رغم أنه أذن لي بذلك بإلحاح منذ اللحظة التي يمكنها سياقة عقل حكيم بتقبلها الى نظرية ليست بحكيمة. ولكني في هذا الموضوع بالقول أنني لم أقدم في حولياتي شيئا لم تكن بين يدي دلائل عنه، وحتى أنني وضعت تحفظات كبيرة حول ذلك. ومع ذلك، ورغم تلك التحفظات، أرى نفسي مجبرا على الاعلان من جديد أن المعاهدة، التي بين يدي عبد القادر، هي التي قدمت ترجمتها في الجزء الثاني من كتابي.

وعوض انحصارنا في مدينتين أو ثلاث، قمنا بتوسيع صعيد نشاطنا حول كل واحدة من مستعمراتنا، فإننا سنقوم بخلق مصالح مشتركة بيننا و بين عدد من القبائل.ومن هنا خلفية أفكار مشتركة وبذلك الحاجة وطريقة للتقارب الفكري. و لابد من الاتفاق على أن المساواة الأكثر كمالا ستعم بين العرقين؛ وبدون ذلك المصالح،وبعيدا عن التقارب، ستميل إلى أن تصبح متباينة على نحو متزايد، والدعاية للحضارة ستكون مستحيلة، بقدر ما هو في كل مكان، من السيد إلى العبد. وفي هذا الترتيب من الأفكار، من السهل أن نفهم انه من مصلحة العرب التعلم، وأنه حتى بدون العمل على ذلك مباشرة، فإن أفكارهم ستأخذ شيئا من أفكارنا. فبكونهم أعضاء اتحاد لا يوجد به أي فروقات مهينة أو مكلفة على عاتقهم، فإنهم سيرغبون، كونهم على قدم المساواة معنا في الحقوق، في أن يكونوا كذلك في المعرفة. سيقومون شيئا فشيئا بالتضحية لنا بأحكامهم المسبقة اذا ما رأوا أننا نقوم بالتضحية لهم بأحكامنا نحن.

والآن لنفترض أنه في الداخل، عوض النفوذ الوحيد لقائد واحد من السكان الأصليين كما تقترحون، يوجد ثلاث أو أربع أمراء مع من نعيش بسلام؛ الأول بمعسكر ، مثلا ، الثاني بالشلف، و الثالث بالمدية، والرابع بقسنطينة. فتكون بذلك السلطة العربية المستقلة لا أكثر تركيزا لتشكل تهديدا لنا ، و لا أكثر انقساما حتى تؤدي لتوليد الفوضى. لا أحد من أولئك الأمراء سيكون في وضعية تسمح له بجذب عربنا نحوه وهم من سيكونون راضين عن مصيرهم و سيتعلقون أكثر وبشدة بالأرضية. كل هؤلاء الأمراء الصغار سيلاحظون أسلوب حكمنا. و الرخاء المادي الذي يعتمد علينا في نشره في كل المقاطعات الفرنسية، ستلهم لهم الرغبة في تقليدنا، و الخشية من رؤية قبائلهم تتركهم للمجيء نحونا مما سيجبرهم على أن يكونوا عادلين. وحينها يمكن للحضارة بالانتشار في جميع الأنحاء، ليست حضارة خاطئة و مستعارة مثلما يوجد بتركيا و مصر و لكن حضارة حقيقية نابعة من احتياجات الشعوب و مساهمة الارادات . و آجلا ،اذا ما تم التحسيس، بعد قرن من الزمن ،بالحاجة الى مركزية كاملة ، فان ذلك سيتم تحت الرعاية الفرنسية : سترى النور أمة جديدة و كبيرة و بالتالي تكون المهمة المقدسة قد أنجزت.

تعتقدون سيدي، أنه اذا ما تم وضع الافريقيين في اتصال مباشر مع الأوربيين، فإن انحياز هؤلاء ضد السكان الأصليين ستجعل من الاندماج شيئا مستحيلا. و يشرفني، في هذا الموضوع، ذكركم لفقرة من كتابي أين أشير لنفس هاته

الأحكام المسبقة كعائق، للحقيقة، و ليس كعائق لا يمكن اجتيازه. و لو ذكرتم جملة اضافية فان قراءكم كانوا سيرون أنني أعترف كذلك بالتحيز العرقي ، الذي أشكو منه، الذي يتجذر أقل عند الفرنسيين مقارنة بالأوربيين الآخرين. هذا جد واقعي، حتى انه بكندا، العديد منهم جعلوا أنفسهم هورون ، ايروكوا ، أي في كلمة واحدة: تخلوا عن جنسيتهم ليصبحوا بربريين؛ و حتى بافريقيا، بجانب عدد هائل من الأمثلة عن الحماقات العرقية، نرى العديد كذلك من الأمثلة السخيفة في الاتجاه المعاكس.أظن أنه يتوجب علينا تجنب الافراط في النقيضين و توفير المساواة للعرب بالرفع من مستواهم الينا أكثر من الانحطاط اليهم. و عندما يقتنع السكان الأصليون تماما أن هذه المساواة ليست وهمية و أن جموع الناس معترفون بذلك، فإنهم سيتخذون موقفا من شأنه نزع التفكير القمعي في حد ذاته من الأفراد المستعصية. و بعدها ، فانه يتوقف على الادارة اعطاء الاتجاه المناسب للمستعمرات الخاصة التي تتشكل في افريقيا : انه لحق من حقوقها وواجب من واجباتها . وفي سابقة، الأراضي التي يبيعها العرب ويشتريها السماسرة سيتم وضعها للبيع من جديد لتعود الى العرب نتيجة لعدم تمكن المضاربين من الاستفادة مطولا من الايجارات. و يمكننا بالتالي اخضاع مشتري العقارات الريفية لشروط أكثر ترجيحا لجعلهم يساهمون في الصالح العام، و نرى في افريقيا استقرار رجال شرفاء و ذوي رؤية مستقيمة وعالية . ليس من المرغوب ولا الممكن أن تكون الهجرة الأوربية بقوة و دفعة واحدة؛

ولكنه في هذا الجانب تكون النوعية أكثر قيمة من الكمية فلنتحرك أولا مع وعلى العرب، ولا ننشغل كثيرا بالأوربيين، دون تثبيط عزيمة العائلات الشريفة، الكادحة و ذوي رؤوس أموال صغيرة التي تريد المجيء إلى إفريقيا. ولن نصد سوى المضاربين، الذين كذلك يصدون أنفسهم، لأنهم يقتربون أكثر أو أقل من الافلاس.

من المخططين اللذين اقترحتهما للاستيطان في الحوليات، الأول هو نظرية لامعة لم أقم إلا بتقديمها؛ و الثاني الذي لطالما اعتقدت أنه من المناسب التوقف هو الذي نحن بصدد التكلم عنه. انه غير مكلف، سهل التنفيذ، ولا يختلف عن مخططكم إلا في التطبيق لأن الهدف هو نفسه. هذا الاختلاف وان كان يقتصر على وجهة نظر الاقتصاد الضريبي، ما زال يبدو لي في صالح المشروع الذي يرمي لعدم الانغلاق على أنفسنا داخل جدران، حيث من الواضح أننا لا يمكن أن ننتج أي شيء. و أكرر أن الغاية تبرر الوسيلة، تعبير فظ ومبتذل ولكنه يحوي معنى كبيرا. تريدون سيدي أن تنشروا الحضارة: فلا بد أن لا تذهب للاختباء وراء الأسوار كما لو أنها تخجل بنفسها؛ و حتى لا يتمكن العرب من القول: "ما هذه الحضارة التي يتباهى بها المسيحيون كثيرا؟ فالضعف من جانبها والقوة من جانب ما يسمونه البربرية". فليس بفرنسا حيث سيقوم العرب بدراستنا ولكن بأفريقيا.

وسيكون جميلا لاستيفاء مهمتنا المجيدة، و التي حسب اعترافكم سيكون

لما وقع على موقفنا في بلاد الشام، أن يدافع عن استقرارنا بالجزائر رجل حازم و يملك ضميرا حيا. فكروا سيدي مليا، في أن لا تأخذكم كراهية الانتهاك بعيدا، هذه الكراهية الشرعية والقوية التي تعتبر من سمات النفوس الجدية والصادقة، وأن لا تجعلكم رغبة محاربة التجاوزات الاستيطانية، الخرقاء أكثر منها مذنبة، تكرون الحقائق التي ساهمت كموضوع لها. و لكن هذه الكلمات غير ضرورية لأننا قد كسبناك: فما تعترفون به من مزايا انسانية لاحتلال شمال افريقيا يعتبر عندي ضمانا أكيدا.

تقبلوا مني، الخ.

2.

رسالة حول العرب، موجهة الى رئيس تحرير المجلة الافريقية[1].

لقد سبق لي وأن تشرفت، سيدي، بإعلامكم بالاعتبارات الشخصية التي تمنعني من نشر تتمة الحوليات الجزائرية في مجموعتكم المهمة، رغم رغبتي في ذلك والعرض الذي تقدمت به لكم. و هذا لم يمنعكم من الاحتفاظ باسمي ضمن قائمة كتاب المجلة . أنا ممتن جدا لما أظهرتموه من لطف. و هو ما يدفعني الى عدم البقاء مطولا غريبا عن أعمالكم ويعطيني في نفس الوقت الأمل في رؤية الملاحظات التي أوجهها لكم اليوم ضمن رسالتين أو ثلاث من الجزائر العاصمة، حول ما أدرج في أعدادكم 4 و 5.

هذه الرسائل تحوي تعاليم ومبادئ ليست لكم، وملاحظاتكم سترعى تنبيه الجمهور لذلك. وبذلك يمكننا منذ الآن اعتبار المجلة الافريقية كساحة مفتوحة

(1) هذه المجلة توقفت عن الصدور منذ أشهر عديدة.

للآراء المتنوعة. فيما يخص رأي مراسلكم بالجزائر الذي يعبر فيها عن الكراهية الأكثر عمقا والاحتقار الذي لا يقهر واللذان يتوجب أن يفصلا للأبد العرق الأوربي عن العرق العربي، وهذه الكراهية يستنثرها لحسابه بصراحة والتي تعتقدون أنه يجب ان نكون ممتنين له . فليكن ذلك، و لكن الرأي المعاكس سيتمتع دون شك بنفس الامتياز وسيكون المجال حرا للدفاع كما كان عليه للهجوم.

ان مراسلكم من أكبر المعجبين بنظام القوة وفي هذا انا من رأيه تماما. القوة هي الشرط الأول للتواجد؛ و لكنه لا يجب أخذ الوحشية والتهور منها، القوة يمكنها أن تصاحب اللطف والعدالة والوحشية ربما، كانت دوما رفيقة الضعف. و هذا ما يلاحظ في الحياة الخاصة للأفراد كما يلاحظ في الحياة السياسية للحكومات. السيد الدوق دو روفيغو الذي يبدو في أعين مراسلكم، الحاكم المثالي، نادرا ما جاءته فرصة استخدام قوة فعلية. الحملة الفاشلة ليس التي تم القيام بها انتقاما لمجزرة ذهب ضحيتها ثلاثون من جنودنا وهو ما لا يعتبر بالتأكيد دليلا لاستخدام القوة. و حملة العوفية، من الذاكرة الفظيعة تم الحكم فيها. تبقى قضية بوفاريك. و التي متى أصبحت ضرورية ؟ بتمرد كان أساسه مجزرة العوفية. و لم تكن لها أي نتيجة من النتائج السياسية المنتظرة منها؟ اطرحوا هذا السؤال على الجلاد الذي لم توقف يده تصاريح المرور. أحد مراسليكم الأكثر اعتدالا من ذلك الذي أرد عليه في الأساس، يؤكد في العدد 4،

ان مجزرة العوفية التي هو بعيد عن المصادقة عليها، أعادت مع ذلك الهدوء الى البلاد. فما قولنا لأناس يبدون بنية حسنة و مع ذلك يقدمون البراهين المعاكسة لوقائع مثبتة؟ تذكيرهم بأن مجزرة العوفية سبق مجزرة جنود الحراش، و التمرد الكبير لبن زمون ووليد بو مزراق، سيكون دون فائدة. فلدينا هنا أوربيون يريدون ترتيب الوقائع حسب نمطهم حيث ان مجرد رؤية واحد من السكان المحليين تجعله يشتاط غضبا. وعند سماعهم، يمكننا الاعتقاد أن حسب رأيهم الحاكم سيكون له كل الفضل اذا ما اهداهم متعة رؤية إفريقيا مشنوقا غاليا. وقد سمعت رجل قانون يعبر في نفس السياق عن ذلك في ساحة عمومية. ان ذلك نوبات جنونية و تعطش واضح للتعذيب، و فيما تبقى فهي حقيقة داخل العقول اكثر من القلوب. و بكلمة واحدة هو بكل بساطة انحراف، سخافة و طريقة للتواجد والاستقرار. ولكن السخافة لمجرد السخف، فإنني أفضل سخافة محبي فعل الخير الذين يسخر منهم بكل سمو مراسلكم و يشرفني انه وضعني في صفوفهم.

فلم إذن كل هذه الصرامة مع العرب؟ مراسلكم يؤكد أنه يعيش وسطهم منذ ستة سنوات خارج حدودنا دون خوف لأنه لا يعاني هنا من أي إهانة. هذا بالتأكيد امر جيد. ولكنكم ستعترفون بان أجنبيا معزولا ودون دعم يعيش وسط رجال يمكنه البقاء باتباع أسلوب قاسي. فهم ليسوا كائنات متوحشة لدرجة انه لا يوجد سوى الفأس لقهرهم. لذلك لماذا يتوجب استخدام كل

هذه الكراهية المتوحشة، المليئة بالمرارة و السم لدرجة انه من المستحيل لقبل ان كراهية العرب يمكنها أن تتجاوز ذلك؟ آه، من ضعف العقل البشري! فمراسلكم أو بالأحرى مراسليكم لا يرون في العرب سوى كائنات مغطاة من الخارج ببرنس ومحشو من الداخل بكراهية والأحكام المسبقة العرقية، و يسخرون، بقليل من العقلانية ، من بعض أفرادنا الذين يلبسون البرنس للتقليد، ويملئون أنفسهم بالكراهية و الأحكام المسبقة التي يأخذونها لحسابهم. فآه يا ايها المسيح ، فقد صدقت أيها الرسول المقدس. فهذا ما ينطبق عليه القول المأثور للعارضة الخشبية و حزمة القش.

و انه لفي العدد الخامس على الخصوص اين يقوم مراسلكم بنشر فكاهته السوداء. فبعد أن أعطى للعربي صورة بشعة جسديا وفكريا، فانه لا يريد ان يكون لبعض النفوس الطيبة حتى مجرد فكرة سحبه من الصورة المدقعة التي يعطيها له من أجل إمكانية تقاربه معنا. فلم هذا الغياب التام للإحسان؟ فهذا غير جميل ولا حكيم ولا حذر؛ لان العرب لو أصبحوا فرنسيين قليلا فلن يكون هناك هذا العدد من الضحايا، و استخدم هنا تعبيرا لمراسلكم. الكثير من الأوربيين سيجدون التحول جد ايجابي للجميع لانهم لا يملكون في الأخير، مثل مراسلكم، موهبة الفرض على العرب بمجرد تأثير سلوكي.

وانكم ترون، سيدي، انني مثل مراسلكم في العدد الخامس، أريد أيضا أن أبدو ضاحكا رغم إقراري مرة أخرى معه أنه من الأفضل البكاء و الأنين.

اجل لنبكي و لنئن من رؤية رجال يدعون أنهم أصدقاء المستعمرة والحضارة، يمحون بأنفسهم وهم يزرعون الكراهية والانتقام؛ فلنبكي من رؤيتهم ينشرون الرعب في أوربا وإبعاد المهاجرين عن المدن الافريقية عن طريق خطب غير حذرة، و لنتأوه من الجهل والعمى عن الحقائق والأشياء التي يتكلمون عنها، و لنتأوه من رؤيتهم يفتحون المجال ، بكل رضاء، أمام الهجمات الموجهة دوريا ضد مستعمرتنا الناشئة. فما الذي يريدونه في النهاية؟ فليقولوه صراحة وعلانية، هل هو ابادة السكان الأصليين ؟ هنا لنتوقف عن البكاء و النحيب لأنه يلزمنا الكثير من الدموع اذا ما أخذنا الأمر بجدية. لنتذكر ما قلناه في ما سبق، ولا نعامل انحراف العقل بقسوة كبيرة. ومع ذلك، في وقت تحمل الظروف العديد من الأذهان، على ما يبدو، الى رد فعل معادي للعرب والذي يبدو لي، سيدي مدير التحرير، إنكم تركتم أنفسكم تنساقون وراءه و من الجيد ان لا تعاملوه كذلك باستخفاف.

لقد قلت، و لن أتوقف عن قوله، مع كل قوة قناعاتي، بأن العرب لا يساوون، في الباطن، لا أكثر و لا أقل من الأوربيين.

الكثير من العرب هم دون ذمة في المسائل الخاصة. و هذا يوجد كذلك لدى الأوربيين؛ وهو ما نراه غالبا لان الصفقات اكثر تواترا.

الكثير من الأوربيين تقدم بشكوى ضد عرب ولكن العديد من العرب أيضا كان لهم وكل يوم شكاوى من الأوربيين، و أؤكد لكم انني اعرف الكثير من ذلك.

العرب يحبون المال، هذا ما قاله مراسلكم. و لا أعلم ان الأوروبيين يمقتونه. العرب يتحصلون عليه في بعض الأحيان عن طريق السرقة وهذا يحدث كذلك عند الأوربيين. لقد أنشأ أوربيون عصابة من المجرمين، السنة الماضية، برأس ماتيفو، فالأوربيون لديهم كذلك مصدر للإفلاس.

لن نتقدم أكثر في هذه الموازاة المؤسفة، التي لن تكون سوى محاكمة الانسانية جمعاء. فالناس في كل مكان متشابهون في أعماقهم، مع تواجد فروقات بارزة في المظهر، الذي يتغير مع الحضارة: هذه المظاهر تساهم في جعل علاقات رجلا لرجل أكثر أو أقل أمانا، أكثر أو أقل لطفا. لا نقوم بتعديل، و خاصة لا نقوم بتغيير مظاهر شعب بين ليلة وضحاها، و هو ما يسمى أعرافه. و لكن عدم بذل مجهود للوصول إلى ذلك، في الموقف الذي نتواجد به في افريقيا، بحجة انه من غير الممكن تحقيقه على الفور، سيكون تقريبا كالامتناع عن غرس الأشجار لأنها تأخذ وقتا طويلا للنمو. دعاة الاندماج، الذي يحلو للسيد مراسلكم تسميتهم الحالمين ، و هي محاولة بريئة ان لم تحدث أبدا، دعاة الاندماج، كما كنت أقول، لديهم فكرة ستنتصر عاجلا أو آجلا وسيجربون بأنفسهم تأثيرها المفيد، كما يحس الأعمى بالحرارة المفيدة للشمس التي لا يمكنه رؤيتها. أقول ذلك بقناعة عميقة و ودية. لا يجب ان يصدم أي أحد اللهجة الجازمة التي استخدمها لأنها تنبع من ايماني بذلك. حتى انني اطلب العفو بصدق من مراسلكم نظرا لأنه يضعني في بعض

الأحيان في ميدان علاوة على ذلك اختاره بنفسه. فنقاشاتنا يجب ان تسمو للجدية مثل الموضوع .

السيد المراسل يعلم قراءكم، انه يوجد في عالم دعاة الاندماج من أعطوا اسم حجوط لأبنائهم، كما يمكنكم اطلاق اسم أوجين أو ليوبولد على واحد من ابنائكم . فمراسلكم مخطئ باستخدام الجمع مكان المفرد. فلا يوجد سوى واحد منهم ارتكب هذا الذنب و هو أنا. و لكم المناسبة التي اذنبت فيها بجريمة إضرارا بأوربا. في شهر جوان 1834، بعد حملة ضد الحجوطيين، حملة جلبت السلام الذي ساهمت فيه، وأحضرت إلى الجزائر قايد هذه القبيلة. و في اللحظة التي عبرت فيها عتبة بيتي، الذي غبت عنه منذ أيام، تم إعلامي بأنه ولد لدي صبي. القايد ظن رؤية في هذا الحدث فألا طيبا، و ترجاني أن أعطيه اسم قبيلته و ذلك ما قمت به. هذه هي جريمتي: كان من الواجب اعطاء هذا التفسير البسيط ، بما ان السيد مراسلكم ظن انه من حقه التدخل في خصوصياتي للبحث عن مواضيع اتهامات ضدي.

فلو اننا ثابرنا في النظام الذي انتصر في تلك الفترة، لعاش الحجوطيون بسلام، و لكان اسم ابني لا يلحق ضررا مثل من يحمل نفس الاسم، و لن يكون لدينا كل هذا العدد من الضحايا الفرنسيين وهذا دوما حسب تعبير مراسلكم. هذا الأخير يبدو فيما عدا ذلك ، كثير الحقد على الاندماجيين كحقده على أفظع واحد من بين الحجوطيين. انه يتهمهم، دون المزيد من

اللغط، بالعيش مع "قتلة اخواننا بسلام أخوي". و هذا ما هو اكثر جدية. هنا الاتهام عام. يمس الآخرين مثل ما يمسني. إذن فمن الثابت أن الاندماجيين هم اناس مرعبون يريدون إبادة الأوروبيين، و إضافة لذلك تتم رشوتهم من قبل السكان المحليين لمنع نفس هؤلاء الأوروبيين من امتلاك الأراضي التي اشتروها. و هذا كذلك حسب أقوال مراسلكم التي يقولها بطريقة بارعة.

و الآن سيدي، فلتصدقوني إن شئتم ذلك، و رغم تآمري مع الحجوطيين، واخوتي مع قتلة اخواننا ، المال الذي يقدمه لي السكان الأصليون ، لمنع بقدر استطاعتي ، السيد مراسلكم من الحصول على ملكية هذه الأراضي رغم المخاطرة التي نواجهها، في بلد متحضر، بان نكون ضحية كتابات محبطة، فرغم كل ذلك كما كنت أقول، فانه حصل وأنني أريد رؤية مئة ألف أوربي بالمتيجة خاصة و ان كانوا من نمط مراسلكم في العدد الرابع وأخيرا فسأكون بشدة من الرأي الذي يدعو الى قمع كل تجاوزات اصدقائي العرب أو بدلا من ذلك التأكد من نزع حتى الفكرة بالقيام بذلك. وهذه التجاوزات لا يجب مع ذلك ان يتم الافراط فيها. عندما يعم السلام فان الجرائم ستكون قليلة هنا مقارنة بأوربا. و هذا يمكنني اثباته.

فهو لا يتعلق الأمر حصريا بالحكم على العرب ، و النظر في علاقتهم معنا، فإضافة الى ذلك يتوجب معاينة طريقة تعايشهم فيما بينهم و خاصة التأثير الذي ينتجه تعاملنا معهم على مشاعرهم. و من اطال مدة دراستهم

بالأخذ بعين الاعتبار كل تلك العناصر المختلفة سيأخذ فكرة اقل سلبية من تلك التي يريد السادة مراسلوكم ان يعطوها لنا. فالأوروبيون الذين يرغبون في المجيء الى افريقيا يجب ان يكونوا متأكدين في انه توجد وسيلة للتعايش مع العرب. و بالنسبة لي، اذا ما ادهشني امر فهو ان اعمال العنف منهم نحونا ليست اكثر حدوثا؛ لأننا لن نصدق كم هو قاسي و مهين لهم طريقة تعاملنا معهم. و لا اريد هنا جرح بعض النفوس التي سيكون مرغوبا، على العكس، التمكن من تهدئتها؛ و لكنني أرجو السادة المستوطنين الأوربيين أن يصغوا الى ضمائرهم والتساؤل بخشوع و حسن نية، إذا لم يحدث وان أذنبوا بأعمال وحشية مهينة تترك آثارا طويلة في نفوس هذه الشعوب المستعمرة.

فالصورة التي يرسمها لكم احد مراسليكم عن المزايا المادية التي يستفيد منها السكان الأصليون من الاحتلال الفرنسي بعيدة عن أن تكون صحيحة. يقال انهم يبيعون بسعر غالي، و لكنهم يشترون كذلك بسعر مرتفع. طبقة العمال الكادحة تستأجر بأسعار مرتفعة جدا الاراضي التي يحتاجونها. عائلات بأكملها ممن كانوا يسكنون نفس المزرعة منذ امد بعيد تم طردهم من طرف المالكين الجدد، الحق في المراعي العزيزة لدى الشعوب الراعية تمت اعاقته في جميع الانحاء حيث نتواجد. كل هذا كان نتيجة، مفروضة غالبا، للوضعية الجديدة للأمور؛ و لكنه في الأخير من المنطقي ان يفرز سخطا غير متصور ومن الأفضل التخفيف من حدته بإجراءات جيدة عوض شحنه

بعنف أخرق. و نذكر مثال الأتراك بكثرة ؛ نريد ان تعم الرهبة منا مثلهم و ان لا نفكر في ان نحبب الناس فينا. أخيرا، فان مراسليكم يعتقدون بان الصرامة القصوى و القوة التي لا ترحم ستخضعان لوحدهما العرب للهيمنة الفرنسية، مثلما اخضعوا لهيمنة العثمانيين. سأجيب على هذا اولا، انه عامة نحن نبالغ كثيرا حول صرامة النظام التركي. و ثانيا، فان الأتراك عندما كانوا يضربون كان الخوف وحده ما يؤثر على السكان ولمن كانت العقوبة تظهر عارية في كامل بشاعتها. ومعنا نحن المسيحيين، على العكس، فان سياسة منصة الاعدام لن تكون في اذهان المسلمين سوى خطوة نحو الحياة السماوية. الرعب سيختفي ولن يرى المؤمنون المخلصون تحت سيف الجلاد سوى مجيد و مقدس.

و لحسن الحظ ان هذه الوسائل للترهيب و المجازر،التي يبدو انها بدعة العديد من الأوربيين، ليست ضرورية إطلاقا؛ لابد هنا مثل مكان آخر و دون شك انتم معاقبة الأهواء الشريرة وضرب بعض المبادرات الشخصية. و هذا كل ما يلزم. يمكننا، دون خطر على مستقبلنا السياسي في البلاد، ان نترك الحشود تعيش والتي لا يجب أن نبالغ لا في العيوب ولا في الفضائل. هي بالتأكيد بربة قليلا و لكنه يوجد بيننا و بينهم نقاط تقارب يجب ان نعرف كيف نجدها. المهم هو ان يتم تنظيمها ، اختراقهم ، و عدم المعاناة من هذه الشعوب المشوشة على أبوابنا ، اين يمكن للمجرمين الاختباء

بأمان اكبر من اعماق الأرض. وهنا يكمن السوء الحقيقي، و مصدر كل الجرائم المميزة تقريبا والتي أسفنا عليها. فهذا ما تفكر السلطات عل الخصوص معالجته لان الافلات من العقوبة التي يتأكد المجرمون من التمكن منه بالتيه داخل سكان غير منظمين، و للجريمة إغواء لا يمكن للأوربيين مقاومته أكثر من العرب أو من القبايل انفسهم.اما فيما يخص الليونةللأعمال الخيرية للإدارة، فانه عتاب مشرف جدا، ان تقبل، أظن طواعية، و دون التأمل في الحصول على ما تستحقه دوما. و مع ذلك، فإن المحسن يمكنه، مثل اي احد آخر و غالبا افضل من أحد آخر، ممارسة السلطة الموكلة[1] اليه بيد شديدة.

---

(1) هذه الرسالة تمت كتابتها سنة 7381. هذا الاتهام بالتحيز للعرب،الذي كان بعض الناس يوجهه إلى إدارة الجنرال دامريمون Damrémont، كان يأخذ أصوله في الحاجة التي وجدتها تدفع بها الى صد،أكثر من الاخرين غالبا الأطماع ،المبالغ فيها و الغير معقولة في بعضا لأحيان، لبعض الأوربيين. اطماع متكررة بكثرة في تلك الفترة لان السلام سمح لعدد أكبر من الأوربيين بالانتشار في السهل. و سأذكر مثال من بين الكثير: عرب كانوا دون أراضي أو الذين اجبرتهم الحرب على الابتعاد من مسرح اعتيادي للمعارك ، قاموا بالزراعة في بعض الأماكن التي كانت مهملة . بينما هذه الأراضي تم امتلاكها من طرف أوربيين لم يروها من قبل ابدا، بعد ان عم السلام بحثوا عنها، وجنوها و ارادوا امتلاك محاصيل العرب. هؤلاء احتجوا على ذلك، و المحافظ قرر بان المالكين لن يتخلوها لاستغلالها سوى بعد انتهاء عملية حصاد أولئك الذين زرعوها. هذا القرار كان عدالة الأكثر صرامة. بينما جعل منه تقريبا جريمة لإدارة الجنرال دامريمون. و مع هذ، انه لمن الصعب التصديق بان الجنرال كلوزيل كان ليتصرف بطريقة اخرى، و بالتاكيد لم يكن ذلك مناسبا اكثر للعرب. و علاوة على ذلك، الادارة الخيرية للجنرال دامريمون قامت باعتقال، محاكمة و اعدام اكثر من مجرم من السكان الأصليين اكثر مما قامت به الادارات التي سبقته. و لكنها ارادت ان تكون عادلة و بالخصوص ان

لا تكون اداة اهواء أي احد. و علاوة على ذلك، العديد من الأشخاص يعانون بالجزائر، الكثير من الآمال محطمة و الكثير من رؤوس الأموال تنتظر التسوية، و ليس من المستغرب ان ينتج تهيج في الأفكار و استعداد للتهجم على الجميع. وقت الاحكام العادلة و التقييمات الباردة سيدق يوما ما بصوت مرتفع حتى يسمعه الجميع. في هذه الاوقات، من بونواووصولا إلى الشفة ، المتيجة خالية تقريبا من كل سكانها الأصليين. فالهجرات اصبحت مستمرة منذ المعاهدة المؤسفة للتافنة. العرب القليلون الباقون ستمتصهم القوة الجاذبة لعبد القادر قريبا. المجال مفتوح امام الأوروبيين و نظريات التسامح التي طالما تمت محاربتها بمرارة
أين ستصبح عاطلة عن العمل في هذا الجزء من البلاد، اين تنقص المواد لتطبيقها. فلا يجب التفكير سوى بجذب سكان اوروبيين اشداء الذين لن يتعرضوا لاي تواصل جارح أو قاسي.

3.

مذكرة موجهة للجنرال دامرمون حول السبايس غير النظاميين أو الإضافيين، و الدرك المحلي[1].

الجزائر في: 16 اكتوبر1837.

يتبني مشروع تنظيم السبايس الإضافيين الذي تشرفت باقتراحه في الواحد والعشرين أفريل الأخير، فأعطيتموني أوامر بالتسجيل الدقيق للاحظات عن التعديلات التي ستُظهر التجربة والتطبيق فائدتها. وفيما بعد، وعند ابتعادكم عن العاصمة لتسلم قيادة الجيوش بقسنطينة ، تلقيت منكم أمر تحضير عمل جديد، لحين عودتكم ،حول هذه المادة مع الأخذ كقاعدة الأنتعاش الذي سيعطيه تطبيق معاهدة تافنة للاحتلال في اقليم الجزائر، و بالحاق تنظيم الدرك المحلي بتنظيم السبايس الإضافيين ، الذي اتيتم على وضعه تحت قيادتي. هذا هوالعمل الذي اتممته اليوم بعد تحضير ناضج و الذي ينتظر هنا عودتكم التي

(1) انه من غير الاساسي تقريبا ان وفاة الجنرال دامريمون التي حدثت في الثاني عشر، لم يعرف عنها شيء بعد في الجزائر العاصمة عند كتابة هذه المذكرات و لا في الاثنين الاثنين بعد ذلك.

يجعلها الانتصار قريبة والذي أصبح مسموحا أن نراه الآن أكيدا. حسب تنظيم الواحد والعشرين من أفريل، كل موطن له الآن سبايس إضافيين خاصين به.

بني خليل لها 66. الساحل الذي تم ضمه الى مواطن بني خليل والتي لم ينفصل عنها إلا تحت إدارة سلفكم، السبايس الإضافيين لهذه المقاطعة يحملون في هذه القوة. وكان موجودا مسبقا قبل تنظيم 21 أفريل.

بني موسى لها من السبايس الإضافيين، بني سليمان و 16 فارسا من ولاد غمران ، اللذان تم خلطهما مع العريب قبل هذا التنظيم . في الإجمال 53 فارسا.

الخشنة لها 50 من السبايس الجيدين المختارين من بين نخبة الموطن ، الذين يقومون بخدمة جيدة و لكنهم لم يقبلوا الحصول على راتب.

و بذلك أصبح لكل موطن قوة عمومية منظمة ،تأسست سلطة القايد بشكل افضل، و اثبتت التجربة بشكل ناجح ، ان الجنح اصبحت نادرة اكثر وعملية قمعها اكثر ضمانا. و مع ذلك فان هذه التجربة الأولى اظهرت لي كذلك ،سيدي المحافظ، ان تدني الأجور المخصصة السبايس الإضافيين لا تكفي لحاجياتهم ونتيجة لذلك فانه يستحيل ثنيهم في كثير من الأحيان عن أعمالهم الزراعية وبالتالي مطالبتهم بخدمة تتطلب نشاطا واستمرارية مثل عمل الدرك. و ما نتج عن كل هذا هو أن القياد، الذين أطالب بان تكون الشرطة لديهم أكثر فعالية، رأوا من الضروري استدعاء رجال مجهزين ومسلحين من قبائلهم وهم ليسوا في قائمة السبايس، و راعوا استخدامهم فقط اقل من هؤلاء. سأذكر

هنا كمثال قايد بني موسى الذي كان دوما بجانبه للدوريات عشرة فرسان، ستة منهم فقط يحتسبون من السبايس المأجورين. العرب الذين فهموا ان هذه الاجراءات باختصار كان هدفها امنهم الخاص، يشاركون بكل طيبة خاطر.

ومع ذلك فمن الواضح أن السلطة يجب أن تعتمد بدرجة أقل على الفرسان غير المأجورين بالمقارنة بغيرهم، الذين يشكلون القوة الحقيقية التي يجب أن تعتمد عليها. و لكي توفر له هذه القوة دعما أكثر صلابة وأكثر ديمومة، سيكون من الضروري ان يكون الفرسان المشكلين لها ليس لهم انشغال آخر سوى تلك الخدمة، مما يعني ان تغطي اجورهم لوحدها كل وسائل معيشتهم. و لهذا الغرض، اتشرف بالاقتراح عليكم بإنشاء، في كل موطن و في كل مدينة من اقليم الجزائر، عددا معينا من وظائف الفرسان في خدمة دائمة، و التي ستعطيها تسمية موكلية، و هي مخصصة في اللهجة العربية لهذا النوع من الميليشيات. هؤلاء الموكلية لن يكونوا، مع هذا، شيئا مغايرا عن ما نسميه بالجزائر الدرك المحلي، وستتم معاملتهم مثلهم فيما يخص المنح.

ينبغي:

بالجزائر 25 تحت اوامر قايد الفحص

بالبليدة 25 تحت أوامر الحاكم

بالقليعة 10 تحت أوامر الحاكم

بني خليل 30 تحت اوامر القايد

بني موسى	20 تحت اوامر القايد
بالخشنة	25 تحت اوامر القايد
المجموع	135

بالإضافة لهذه القوة، كل العرب المجهزين والمسلحين سيشكلون، في كل موطن، ميليشية منظمة في عدد من الفصائل حسب التقسيمات الاقليمية للموطن. الفصائل ستكون تحت قيادة شيوخ هذه التقسيمات. هذه الميليشية سوف يتم تفقدها بين الحين والآخر من طرف ضباط فرنسيين، و تُستدعى في الظروف التي تتطلب مساعدتها ولكنها لن تحصل على أجرة. و بما اننا لا نقوم بأخذ الرجال عنوة من عند العرب، فمن الجيد على الأقل أن يساهموا بكثرة ومجانا للدفاع عن أراضيهم الخاصة، عند تعرضهم للتهديد.

هذا هو، سيدي المحافظ، فيما يخص السهل. و لكن المنطقة الجبلية الخاضعة لنا، أو التي ستصبح كذلك، يجب أن نهتم بها كذلك .هنا لا يلزم تواجد فرسان .البلدات تتطلب أفرادا مشاة. هذه البلدات في حد ذاتها لا تزال غير معروفة بشكل كامل بعد بالنسبة لنا حتى اتمكن من تحديد حجم هؤلاء الدرك المشاة. و لا يمكنني سوى عرض الامور المبدئية. وجب اذن لشرطة المنطقة الجبلية لكل موطن عددا معينا من الموكلية المشاة. لنفترض أيضا، وبشكل تقريبي،أن العدد الإجمالي لهؤلاء الموكلية هو 100. ومن خلال الدفع لهم حسب المواطنين،الذين يعهد لهم، في فصل الصيف، مراكز الحراسة الغير الصحية، ينبغي أن يتحصلوا على فرنك في اليوم وحصة مضاعفة من الخبز.

فلا يتبقى الآن سوى حساب التكاليف الضرورية للتنظيم الذي اقترحه. لن احسب سوى الاجرة الاجمالية للموكلية او الدرك التي تكون كأجرة الدرك المحلي الحالي، أي 2 فرنك في اليوم. أما فيما يخص حصص الغذاء و العلف المخصصة لهم من طرف الدولة، والتي تمثل لكل واحد منهم مصاريف شهرية بقيمة 51 فرنك، سيكون من العدل توفيرهم عينيا من طرف القبائل. وانطلاقا من هذا المبدأ، التكاليف المترتبة على الدولة ستكون كالتالي بتقييمها شهريا:

135 دركيا على الخيل..............8100 فرنك

100 دركيا مشاة.................3000 فرنك

المجموع ....11100 فرنك

و من هذا المبلغ، يجب اقتطاع، لـ30 من الدرك المحليين القائمين حاليا......................3330 فرنك

و بالنسبة للسبايس غير النظاميين المأجورين لبني خليل الذين سيتم الغاؤهم...............1782 فرنك

بالنسبة لبني موسى .... 1431 فرنك

المجموع ....6543 فرنك

فيبقى بذلك ارتفاع في المصاريف ب 4557 فرنك شهريا . و تجدر الاشارة الى ان خدمة المراقبة والشرطة أصبحت أفضل مما يجعل من الكثير من المعاقل دون فائدة وبذلك لن يكون علينا الدفع للمواطنين من اجل حراستهم.

ولم أكلمكم بعد، سيدي المحافظ، عن العريب، الذين تركهم تنظيم ال21 أفريل على الحالة التي كانوا يتواجدون بها عند وصولكم الى الجزائر، و اللذين يمثلون في الوقت الحالي مجموع 164 من السبايس الإضافيين المأجورين. هؤلاء العرب يتواجدون في وضعية استثنائية، فبعد أن تم جلبهم الى راسوطة من طرف الجنرال فوارول، تم تجريدهم فيما بعد من اراضيهم التي تم تسليمهم اياها في البداية بإذن من وزير الحرب. بشكل يجب أن يكون فيه الراتب الذي يتلقونه، بكل عدل، ان تعتبر كتعويض على الوعود التي لم تنفذ. و قد كان لي الشرف، في 13 من هذا الشهر، بتوجيه رسالة لكم، ارفع فيها ، باسمهم ، احتجاجاتهم التي بدت لي صائبة ، فيما يخص هذه الأراضي التي يبدو ان الظروف تسمح ان يعاد لهم جزء منها. و قبل ان يتم ارجاع الملكيات ، فان هذا الانصاف لا يسمح ربما بعدم تغيير في حياتهم ، بالضافة الى انه ،هذه السنة ، كانوا مجبرين على استئجار اراضي بأسعار جد مرتفعة. ورغم ذلك، بما انهم يشكلون ميليشية رثة، غير مسلحة و غير مجهزة جيدا ن قمت بعملية فرز لتلك الحشود. فشكلت فصيلتين صغيرتين ، متكونة من افضل ما يوجد ، وهي على الأقل فصائل قادرة على القتال. سلمت القيادة للملازم الأول علي بن سماتي و للملازم مصطفى بن شيارة. و تركت الباقي، الذي لا يعتبر سوى حشد غير منظم ، تابعا للفصيلتين دون ان يكون جزءا منها. و الآن وان منحت الحكومة أراضي، فان هؤلاء سيتوقفون عن الحصول عن الرواتب على الفور، اما بالنسبة للفصيلتين، يمكننا دراسة المسألة لمعرفة ان كان من المناسب المحافظة عليهم. ان

تميل نحو الايجاب، و لكنه في هذه الحالة ، الأراضي التي تدخل ضمن الأملاك التي سيعودون اليها، بما أنها لم تمنح لهم إلا مقابل الخدمة العسكرية، كما رتب ذلك الجنرال فوارول ، فان المساعدة النقدية التي سيتم الاحتفاظ بها لا يجب اعتبارها كراتب بل كتعويض يمنحنا الحق بالمطالبة بان يقوموا بتجهيز وإعداد أنفسهم بشكل كامل. فتتحصل بذلك على فصيلتين ستكلفاننا اقل بثنين ما يكلفه نفس العدد من السبايس النظاميين والتين تقدمان في وقت الحرب نفس الخدمات.

الى حد الآن ،سيدي المحافظ، لم نر إلا تنظيما للقوى المحلية متفرقة في القبائل، للحفاظ على النظام وإبعاد العدو الخارجي، و لكن هذه القوة يجب ان تسعى في الأخير لصالح فرنسا ، فمن البديهي ان يتم تسييرها و مراقبتها من طرف ضابط سامي فرنسي . هذا الضابط يكون تحت أوامره: نقيب وملازمين أولين و ثلاث ملازمين فرنسيين؛ واحد من هؤلاء سيمارس وظيفة الضابط الدافع؛ و ضمن مجموع هؤلاء الضباط سيكون مجملا عدد الضباط الفرنسيين من السبايس الإضافيين، القائمين حاليا.

تقبلوا مني، الخ.

.4

مذكرة موجهة للجنرال دامرمون، حول
احتلال المتيجة.

الجزائر في: 17 اكتوبر1837.

لقد تشرفت بتكليفكم لي، عند مغادرتكم إلى عنابة، بالتحضير لعند عودتكم، مشروعا لاحتلال الجزء من اقليم الجزائر المخصص لفرنسا بموجب معاهدة التافنة .و هو العمل الذي اتممته اليوم ، بعد تفكير عميق لمدة طويلة. و لا اطمع في تقديم افكاري على انها أفضل ما يمكن ايجاده في هذا المجال ، ولكني اقدمها لكم على انها أفكاري ، لأتكلم بأسلوب مونتين.

منذ اولى لحظات وصولكم إلى الجزائر، فقد صدمتم بنقائص الاحتلال الحالي. و بالفعل، هذا الاحتلال لا يتعلق بمخطط متعقل و نهائي، بل لا تعطي سوى نتائج العمليات المنجزة يوما بيوم لمواجهة مساوئ الوقت الراهن و تلبية الحاجيات التي لطالما تم فهمها بسوء. البعض من هذه العمليات لم تكن،

إضافة لذلك، إلا نوعا من التسوية بين وجهات نظر مختلفة ولا تمثل سوى زيادات حقيقية.

الوحيد من بين سالفيكم الذي كانت له أفكار صافية وعملية للاحتلال العسكري، كان الدوق دو روفيغو. و لم يتمكن من تطبيقها إلا على اجزاء صغيرة و لكنه قام بذلك بحكمة و بصيرة. لقد تبنى الاحتلال وفق خطوط دائرية متحدة المركز. الخط الأول تم تشكيله بمجموعة من المراكز انطلاقا من لابوانت و حتى الحراش . وكانت تضم معسكرات دالي ابراهيم ، تيقصراين، بئر خادم و القبة، أو كان يستند عليها.تعدد هذه المراكز كان ضروريا في الأصل ، لأنه كان من اللازم الانطلاق من قاعدة صلبة، و بهذا الغرض نشر الأمن الاكثر شمولا في هذه المنطقة ، تحيط بالجزائر العاصمة بمساحة ميلين و هو ما يدعى الفحص. و بعد انتهاء هذه العملية الأولى ، فكر الدوق دو روفيغو في إنشاء خط جديد يستند غربا على المزفران و شرقا على الحميز، واحد نقاطه ستكون الدويرة . حسب تفكير هذا الجنرال ، المراكز كان بالإمكان ان تكون اقل تقاربا على هذا الخط مقارنة بالخط الأول، و لكنها ستكون اكثر اعتبارا. مشروعه كان يرمي كذلك الى تسليم تباعا الى المجال الزراعي ، المباني التي تشيد لإيواء الفرق على الخطوط المتمركزة حين يصبح الاحتلال مترسخا و ينتقل الدفاع الى نقاط ابعد.

الجنرال فوارول، الذي تسلم القيادة الانتقالية بعد وفاة الدوق دو روفيغو،

شيد معسكر الدويرة الذي خطط له هذا الأخير، و لكنه لم يربطه بخط دفاعي. ومنذ ذلك الحين، اصبحت هذه النقطة مكانا معزولا و توجب على الفور ربط الاتصالات مع دالي ابراهيم، تأسيس معقلين بالشعاوة و بو صوار. و بلاحظون، سيدي المحافظ، انه قد بدأنا ندخل في النظام الخاطئ للخط المستقيم دون سند، و الذي يمتد حاليا حتى واد يعيش دون هدف عقلاني و محدد.

في عهد الكونت ديرلون ، الحاجة الى ضمان شرطة بسوق بوفاريك و البلدة التي يقام بها،و التي بدأنا بالتأثير و الحركة فيها، طلب مني تشيد مركز صغير محصن بحوش شاوش لإقامة فرقة حراسة محلية تحت اوامر قايد بني خليل. مشروعي تم تسليمه من طرف المحافظ للدراسة لدى الجنرالات المتواجدة آنذاك بالعاصمة و لعقيد الهندسة العسكرية كذلك. و حسب ما قيل لي فقد تم الاعتراض عليه في العموم ، و بما ان المحافظ كان يميل شخصيا نحو تبنيه، فان أحدهم قال: و لكنه عوض مركز بسيط من السكان المحليين، لم لا يتم تشييد معسكر فرنسي؟ و من هنا برز الى الوجود معسكر بوفاريك. و اقترحت اذن احتلال ممر مقطع خيرة على المزفران ، من أجل ربط المعسكر الجديد بخط دفاعي مشكل من النهر و مستنقعات واد بوفاريك. بالكاد تمت مناقشة هذا المشروع. و مع هذا ، بعد انطلاق الحرب تم ادراك عيوب الامتداد هكذا على خط مستقيم؛ و لكن عوض احتلال مقطع خيرة و هو ممر اعتيادي للحجوطيين، تم تحصين الخط ،على نفس الخط، بمراكز أولاد منديل ، جسر

شوفالي و سيدي عيد. وارادوا كذلك تغطيتها من اليمين بتشييد معسكر المعلمة الذي لم يحقق شيئا و استوجب ربطه هو ايضا بالدويرة بمراكز بن عمر وحوش خلاجي.

في عهد الماريشال كلوزيل ،تم أولا تمديد الخط المستقيم المتواصل بميلين امام بوفاريك، ببناء مركز مرّاد ؛ و بعد ذلك و في صيف سنة 1836، و ظنًا من الماريشال انه تمكن من الحصول على مصادقة الحكومة على مخطط لغزو عام للمحافظة ؛ فأراد بناء معسكر مطوق بالشفة ، و الذي كان من المفروض ان يستعمله كقاعدة في العمليات التي كان يأمل القيام بها في كل من مليانة و المدية. و لكن عدم اتفاق وجهة نظره مع آراء الحكومة دفعه الى التخلي عن مشروعه ،و الذي لم يتحقق منه سوى البناء الغير الضروري تماما لمعسكر الشفة الذي سرعان ما تم هجره و كذا مركزي سيدي خليفة و واد عيش. هذين المركزين و مركز مراد لم يوقفا تحركات الحجوطيين الذين جاؤوا في العديد من المرات و خاصة في شهر ديسمبر الأخير، لإحراق المزارع في الثغرات ما بين تلك المراكز. فتم التفكير اذن في فرض عوائق طبيعية و باستمرار لصد أولئك الجيران المزعجين، بالاستفادة من بعض حوادث الأرض مثل : الوديان ، المجاري المائية ، المستنقعات ؛ و هكذا تم انشاء ما نسميه بخط دفاعي. كان يبتدأ عند مصب واد واجر؛ اين تم انشاء معقل في تلك النقطة يعرف بذلك الاسم. ويتبع حتى المعلمة مسار الجدول مرورا بسيدي محمد اين انشئ معقل آخر . و من المعلمة يتشكل الخط من واد منحدر الحواف ليصل الى مستنقعات واد بوفاريك، مرورا

بمعقلين هما سيدي عبد القادر وبن شعبان، المتواجد بالسهل. هذا الخط لطالما قام الحجوطيون باجتيازه؛ رغم انه من المؤكد انه ضايقهم في العديد من المرات في تحركاتهم.

اعتقدت انه ليس من غير جدوى ، سيدي المحافظ ، ان اقدم لكم هذا الملخص القصير عن المادة التاريخية للاحتلال الفرنسي في اقليم الجزائر. عدم وجود استمرارية في الأفكار وغياب خطة عامة للأخطاء التي يتوجب على الادارة الجديدة تجنبها ؛ مما يفرض علينا وضع خطة و أفكار ثابتة. و في هذا الوضع ، هذه الخطة في مجملها يجب ان تنبثق من الاعتبارات السياسية للبلد، و في تفاصيلها تناسق مع الحوادث الطوبوغرافية.

البليدة و القليعة تابعتين لنا بموجب معاهدة التافنة. فاحتلال هاتين المدينتين اذن شيء محسوم مقدما. وان كانت القليعة عائقا مهما لنا أمام الحجوطيين، فان البليدة لن تكون كذلك لأنها ليست نقطة إستراتيجية في اي مجال . لذلك فان احتلال القليعة لابد ان يكون عسكريا و بليدة اداريا بحتا ،اذا ما امكنني استخدام هذا التعبير. فلا يكون الهدف منها سوى ضمان سيطرة سلطتنا على المدينة نفسها.

اهم تأثير للقليعة هو على ساحل الحجوطيين، و هو منطقة جبلية وعرة. ولذلك فان الحامية التي نقيمها هناك يجب ان تكون مشكلة، في الاجمال، من المشاة مدعومين بفصيلة مدفعية الجبال. و اقدر أن 1200 رجلا كافون بهذه النقطة. يمكننا وضعهم في ثكنة محصنة في المنطقة العليا من المدينة. و ليس

ببعيد عن هناك، يوجد ينبوع ماء، يمكننا، إن وجدنا ذلك ضروريا، ربطه بالثكنة بواسطة قناة. دراسة مفصلة للميدان عند تواجدنا هناك ،ستعلمنا ان كان هناك امكانية رسم الخط الذي سيكون بمثابة حدود في ذلك الاتجاه ، بحواجز طبيعية مطورة ببعض العمل، و التي حسب بنود المعاهدة يجب ان تمتد من مازفران الى البحر.

و فيما يخص البليدة ، طبيعة احتلالها لا تتطلب الا حامية من 500 رجل، موضوعين في قصبة صغيرة ، يتوجب بناؤها في زاوية المدينة الأقرب من واد الكبير ، باتجاه مدخل المياه. أسوار المدينة الحالية في حالة متدهورة يجب ان يتم ترميمها دون التغيير من المخطط. ولكن لا يجب الابقاء سوى على ثلاثة ابواب: باب الدزاير، باب المدية وباب الجبل.

تظهر البليدة من النظرة الأولى، صعبة من جانب الدفاع. فهي غائرة داخل ممر ضيق، يُطل عليها من عدة جوانب، و محفوفة بغابات حقيقية من البرتقال. كما ان كل ضباط الهندسة الذين تم استدعاءهم لدراستها من جانب الدفاع، قدموا مشاريع ذات تطبيق مكلف، مطول و تقريبا مدمر للمراعي الجميلة لهذه المدينة الحلوة. تبني هذه المخططات المختلفة سيجعل من البليدة في الحقيقة مكانا جد محصن يتطلب تواجد فرق عديدة في نقطة، اكرر، أنها غير إستراتيجية. و مع ذلك ، يجب ان تتمكن البليدة من القيام بالدفاع في حالة الهجوم .و في هذه الحالة ، ستكون في مواجهة الأعداء الذين علينا مواجهتهم في افريقيا و بكفاية بواسطة السور المتواجد بها بعد ان يتم

ترميمه اضافة الى القصبة الصغيرة التي اقترح بناءها. قد يعترض احدهم ربما بالقول انه يمكن لأطراف معادية وجماعات من قطاع الطرق التسلل بسهولة عبر عدد لا يحصى من الحدائق والبساتين التي تحيط بنا والقضاء على الكثير من الناس عن طريق اغتيالات جزئية. و هذه فكرة لا يجب الانشغال بها كثيرا. فمن الواجب الاحتياط من عدم التضحية بالأشجار الجميلة للبرتقال بالبليدة. بعض الاغتيالات ستحدث دون شك في الأيام الأولى من الاحتلال، اذا ما تم ترك الحامية بالبليدة تستسلم لأعمال متهورة اعتيادية لدى جنودنا. وإضافة لذلك، فالإجراءات الاحتياطية التي يجب فرضها بحزم داخل الفيالق خاصة خلال كل الوقت الضروري للسكان الأصليين للتعود على فكرة الاحتلال، و بصفتنا سادة الميدان ستمكن من منع مجرمي الخارج من الولوج داخل حدائق البليدة. شجيرات الحدائق الأبعد في المدينة تشكل في حد ذاتها سياجا بطول ميل و نصف تقريبا من الكثافة. سيكون من الجيد تعزيز هذه العقبات بسد الفتحات بواسطة نباتات شوكية مثل العود، الصبار وعدم ترك إلا ثلاث مداخل توصل بالأبواب الثلاثة للمدينة. هذا ما سيجعل الحراسة اسهل ، لان كل تلك العوائق الصغيرة والطبيعية هي غالبا شوارع لا يمكن تجاوزها من طرف العرب. وشيء مؤكد انه سيكون كذلك بالنسبة للحجوطيين الذين لا يملكون سوى الفرسان.

و لكن في نهاية المطاف، سيقال، يمكن ان تتم مهاجمة البليدة جديا من طرف حشد من المشاة. فكيف ستقاوم عندها ذلك وراء سور ضعيف

ليس له سند سوى قلعة صغيرة؟ سأجيب عن هذا ، انه سنة 1830، تمكن الجنرال روليار من المقاومة داخل البليدة ضد كل قوات بن زمون و مع حائط مفتوح من عدة نقاط و دون قصر. و بما ان هجوما حقيقيا يمكن فقط ارتيابه من الجبل، فان معسكر واد الكبير الذي يدخل في المخطط الذي اتشرف بتقديمه، سيشل حركة سكان الجبل بالتسهيل لنا للانتقال من وراءهم حين يأتون لمهاجمة البليدة. نلاحظ ان الدفاع الحقيقي عن هذه المدينة يتواجد من الخارج.

لقد توسعت كثيرا، سيدي المحافظ، حول احتلال البليدة، لأنني املك القناعة (ذكريات شهر ماي الأخير يمكن ان تعطيها لكم ايضا) انه من الممكن ان يُقدم لكم كشائك بالمصاعب. سيتم مكالمتكم دون شك عن ضرورة احتلال منبع الماء بواسطة منشأة مكلفة يجب ربطها بنظام الدفاع بمنشآت اخرى وسيطة. و لكن، سيدي المحافظ، لا يمكن للقبايل قطع الماء الذي يزود ينابيع البليدة الا بالتوجه الى مسار واد الكبير من حيث تأتي، و هذا النهر يمر تحت أسوار المدينة. و هكذا، لنفترض أن الجبليين قطعوا الماء، فالبليدة لن ينقصها بذلك. لا بد فقط من النزول إلى قاع النهر للحصول عليه. صحيح أنه في الأوقات العادية فان كتلة المياه لا تملأ القاع بأكمله، وينبغي الذهاب للبحث عن التيار بعيدا قليلا عن الأسوار، تحت نار العدو الذي من الممكن أن يأتي من الضفة اليسرى؛ ولكن بعضا من ضربات الفؤوس تكفي في هذه الحالة لفتح فجة من اجل سياقة جزء كاف

من المياه تحت السور في حد ذاته، إلى الخزان الذي تنزله فيه بواسطة قناة. كل هذا بسيط و سهل. وفي الحصيلة، رغم انه من المنتظر خلال الأيام الأولى حصول بعض الأعمال العدائية الا ان سكان الجبال بحاجة ماسة لسوق البليدة لكي لا يخضعوا قريبا.

لقد تكلمت، سيدي المحافظ، في الأعلى عن معسكر لإنشائه بواد الكبير. من المناسب ان يتم تشييده في نقطة التحام هذا النهر مع نهر شفة. من هذا الموقع المتواجد على حدودنا، على بعد ميلين غرب البليدة، يمكننا تشكيل تهديد في آن واحد على سهل الحجوطيين و جبال بني مسعود وبني صالح. ونصبح علاوة على ذلك على اهبة الاستعداد على طريق المدية. ولكن اهم نقطة ايجابية لهذا الموقع هي التغطية الكاملة للبليدة و ابعاد الحرب عن ارضها الغنية؛ لان البليدة يجب ان تكون بلدة سلمية ، بلدة زراعة و صناعية. يحتاج معسكر واد الكبير الى2000 رجل منهم 500 من الفرسان.

يجب تمهيد طريق مناسبة من هذا المعسكر باتجاه القليعة مرورا بمقطع خيرة، حيث من الضروري بناء جسر و برج لحمايته. مركز مراقبة سيتم إنشاؤه على مسافة متناصفة من هذا الجسر في معسكر واد الكبير. الضفة اليمنى من النهر،من مقطع خيرة حتى المعسكر،يمكن قطع فروتها حيث ما لبست طبيعية. ستكون عقبة صعبة أمام العرب وعملا قليل التكلفة بالنسبة لنا. ربما أن حماية حدودنا من الغرب تصبح بهذا مكتملة، كل المراكز القائمة حاليا ستتقلص لوحدها. معسكر المعلمة سيتم تسليمه للمجال الزراعي.

اما معسكر الدويرة المقلص الى حامية من سرية او اثنتين يمكن ان يستخدم كمستودع عام ومخزن لكل غرب الاقليم . اضافة الى ذلك وبما أن المكان جد معاق فانه يمكننا انشاء عنبر نقاهة به . معسكر بوفاريك ستواصل اشغاله نظرا لموقعه المركزي.

لنمر الأن الى الناحية الشرقية. في هذا الاتجاه، يمكن لأربعة منافذ رئيسية ان توصل العدو إلى أراضينا؛ الأول ،الواقع بالأحرى ناحية الجنوب منه اكثر من الشرق ، هو مضيق واد العكرة وهو الاسم الذي يحمله لاراتش في الجبل. فمن هنا يمكن ان تصلنا قبائل التيطري و القوات المرسلة من المدية. الطريق المار من واد العكرة اقصر من مسلك الثنية؛ المنفذ الثاني هو مضيق الحميز المسمى لاربعطاش، يمكن ان يستخدم من طرف بني جيد و قبائل حزة. الثالث هو منفذ ثنية بني عيشة المفتوح بيسر للعمراوة وكل قبائل الشرق. الرابع الواقع بالضبط على شاطئ البحر، هو منفذ اشرب واهرب الذي يوفر ممرا لنفس القبائل. لا اعتقد انه يجب القيام بحراسة مباشرة لكل تلك الممرات و لكن معسكرا بـ 500 رجل على لاراتش قبالة مضيق واد العكرة سيكون له فعالية مضاعفة وقت الحرب، و سيضمن لنا منذ الأن خضوع بني مصارة و جبال بني موسى. و معسكر آخر من قوات واد الكبير، اذا ما تم استقرارها في الموقع الممتاز لبودواو، يمكنها مراقبة الممرات الثلاث الأخرى بشكل جيد. و اذا ما تم ذلك، لابد من فتح طرق من البليدة و بوفاريك نحو واد العكرة، من واد العكرة الى بودواو مرورا

بسوق الأربعاء و بالحميز، ومن بودواو الى الجزائر العاصمة. بما ان كل هذه الطرق تمر بمنطقة سهلية فان تنفيذها سيكون سهلا و غير مكلف.

لم يكن علي الدخول، سيدي المحافظ، في تفاصيل بناء المعسكرات. ولكنه يوجد مبدأ يجب ان يخصص للجميع، و هو ان يكون لكل واحد منها تقليص جيد بشكل يسمح لنا، دون صعوبات، تخفيض الحامية عند الحاجة. وبمراجعة سريعة لإجمالي الحاميات المختلفة، لدينا:

بالقليعة.............................1200 رجل.
ببرج مقطع خيرة........................25 رجل.
في المركز الوسيط، بين مقطع خيرة
و معسكر واد الكبير....................200 رجل.
بمعسكر واد الكبير....................2000 رجل.
بالبليدة...............................500 رجل.
بمعسكر واد العكرة....................500 رجل.
بمعسكر بودواو.......................2000 رجل.
المجموع........6425 رجلا.

باقي القوات العاصمة ستشغل الجزائر و المعسكرات الداخلية. القوات الاجمالية لإقليم الجزائر يجب ان يتم تحديدها ، لمدة اطول بعدد طريقة يكون فيها فيلق من 7000 مقاتل دوما على استعداد لخوض حملات عند اول اشارة و دون عمليات اعدادية ، على ان يتم تقليص الحامية الى النصف. هذه القابلية الكبيرة للتحرك تعطينا سهولة للانتقال

خلال يومين من المسير الى المدية او مليانة، و بهذا فان علاقاتنا مع عبد القادر ستكون دائما جيدة ، لأن الدبلوماسية شيء سهل عندما تستند على قوة معترف بها جيدا. ان العرب بعيدون عن جهل قوتنا، بالتأكيد، ولكن التماطل في تحضيراتنا يجعلهم غالبا متوقحين، لأنهم يعلمون جيدا انه معنا تمر اياما عديدة و غالبا شهور عديدة بين التهديد والتطبيق، وانه في تلك الأثناء، يمكن لغضبنا أن يخمد وان قراراتنا يمكن ان تتغير.

لقد تركت ،سيدي المحافظ، خارج مراكزنا ، كل المنطقة الجبلية للمنطقة التابعة لنا، ليس لأنني اعتقد بانه علينا التخلي عنها لنفسها ، و لكنني اعتبر ان الاحتلال المباشر سيكون صعبا ودون فائدة. و اذا ما تبثنا بالمواضع مثلما اقترحتها، ستضمن خضوع الجبال دون احتلالها، لأنه تكفينا ساعات قليلة لاجتياحها، مما يبقي على سكان الجبال في توجس مفيد. فخوفهم من التورط معنا سيجعلهم حريصين على تحذيرنا من استعدادات القبائل البعيدة والتي يعلم بها السكان الأصليون دوما قبلنا. و هذا ما يجعلنا محاطين بمنطقة ،سكانها مهتمون بخدمتنا كجواسيس و حتى الدفاع بصد اعدائنا عن المرور بأراض تابعة لهم، خشية ان يتم خلطهم معهم بانتقامنا.

و اتجرأ على الاشادة، سيدي المحافظ، بان احتلال مبنيا على الأسس التي اقترحها، سيضع البلاد في ملجا من اجتياحات القبائل المعادية،

وربما بعض الشرطة الداخلية، فلا يجب الاعتماد اطلاقا على المراكز العسكرية للقيام بهذا الدور. فقد اثبتت التجربة و للأسف ان تعدد هذه المراكز لم يمنع اية جريمة؛ و انه في كل مرة ارادوا ان يتدخلوا كشرطة قاموا بالأمور بشكل معاكس، اما بإيقاف ، عن طريق الخطأ، اصدقاء لنا منهم انهم اعداء، او ماكان مؤسفا أكثر و هو قتلهم. و هذا عائد الى ان اغلب ضباطنا يبقون غرباء عن السكان الأصليين حتى و لو اقاموا عشر سنين بأفريقيا، اما لعدم اكتراثهم بذلك او حيطة منهم. فالشرطة لا يمكن ان تؤدي دورها جيدا الا اذا قام بها القياد اما العرب او الفرنسيين مثل قائد بني خليل. ولقد تشرفت بالاقتراح عليكم، في عمل آخر، بربط كل واحد منهم بعدد معين من الدرك ، منهم المشاة والفرسان. واقترح في هذا العمل، تشييد منزل محصن لكل قايد بالمقربة من الأسواق . هذه المنازل تستخدم كمسكن للقياد والقضاة، و كثكنة للدرك. و ستكون مقرا للأوطان ، سرعان ما يتشكل حولها قرى عربية.

قايد بني خليل سيستقر بسوق علي، مزرعة الملكية،التي تحوي مبنى شاسعا و بقليل من التصليحات يمكن استخدامه لتلك الوظيفة. قايد بني موسى، سيقيم بحوش بن سمان، الذي يحوي كذلك على مبنى سهل الترميم. اما بالنسبة لقايد الخشنة ، فيجب بناء واحد جديد له و اقامته على الضفة اليمنى للحميز قبالة موقع سوقه[1]. مسالك سهلة تربط هذه

[1] يوجد هناك نوع من المعاقل التركية يدعى فندق Fonduk.

المقرات بالجزائر العاصمة. و من الجدير بالإشارة ان حوش بن سيان و الموقع الجديد لقايد الخشنة هي تتوسط الخط واد العكرة و بودواو و بذلك تضاف هذه المراكز لنظام الدفاع العام.

خطة الاحتلال التي اقترحها يمكن ان يتم تطبيقها بطريقة سلمية تقريبا، اذا ما اظهر عبد القادر ارادة طيبة. وحتى لو افترضنا أن له دوافع خفية، فبما انه لازال يحتاج الى السلام لبعض الوقت، يمكننا دفعه الى الاثبات للعرب، بواسطة افعال علنية، أن من يريدون محاربتنا لا يتوجب عليهم الاعتماد على دعمه، أو على الأقل في الوقت الراهن، وهذا كل ما نحتاجه. وعلى هذا النحو، بمجرد أن نصبح على استعداد للتحرك، من المناسب أمر عبد القادر بتعيين مفوضين من اجل أن تكون الحدود مرسومة بالتوازي معهم. هؤلاء المفوضين، بالإضافة لأولئك المعينين من جهتكم، سيجوبون الحدود من اراضي القليعة حتى جبال الخشنة، وكل واحد يتم تحديد حقه: هنا عبد القادر، هناك محافظ الجزائر، هذا ما سيقال للعرب. و بما ان الأمير ليس له علاقة بشرق الإقليم، كما تنص عليه بنود معاهدة التافنة ، فان عمل المفوضين لن يمتد حتى تلك المنطقة، لان العكس سيكون دون مصلحة قانونية له، و يمكن أن يصبح ازعاجا لنا. لا يناسبنا ان ننغلق على أنفسنا في دائرة بوبليوس[1]. عملية رسم الحدود يجب ان تكون

(1) ليناس بوبليوس كان عضوا في البرلمان الروماني و قد رسم يوما بعصاه دائرة حول ملك سوريا ابيفان يمنعه من تجاوز حدودها حتى يجيب قطعيا على كل مطالب الشعب الروماني، و منذ ذاك الحين تستعمل عبارة دائرة بوبليوس للتعبير عن الوقوع في وضعية لا يتم الخروج منها الا بتحقيق شروط محددة.

مدعومة بفيالق من الجيش و متبوعة على الفور باحتلال البليدة. سنرسل الى هناك 2500 رجلا من اجل اعطاء دفع قوي للأشغال هناك. و بما انه يوجد بالبليدة العديد من الانقاض، بعد زلزال 1826، فإننا سنجد وفرة في المواد من اجل بناء القصبة و ترميم سور المدينة. الاشغال على وشك الانتهاء. و يمكننا اذن ان ندخل القوات، اذا ما خشينا كثيرا من تبعيات الموسم السيء، باستثناء تلك الموجهة لتشكيل الحامية و تأجيل احتلال النقاط الأخرى الى شهر افريل. و لن يمر الشتاء رغم هذا دون نشاط، لأنه بإمكاننا استعمال القوات في اشغال الطرقات التي لن تبعدهم كثيرا عن المعسكرات المقامة حاليا.

5.

مذكرة موجهة للجنرال دامريمون، حول كيفية إدارة الأهالي.

الجزائر في: 18 أكتوبر 1837.

يشرفني أن أرسل إليكم هاتين المذكرتين اللتين كتبتهما بتاريخ 16 و 17 من الشهر الجاري، مع العلم أنه ليس فيهما ما يتعلق بالأشغال التي أمرتموني بإتمامها و عرضها لدى عودتكم. حيث أنني أردت أن أعرض عليكم نظرتي إلى الكيفية التي يدار و يسير بها الأهالي.

إنه لمن الضروري تحديد الهدف السياسي الذي سوف ننتهجه في معاملتنا و إدارتنا للأهالي، ذلك أنه في حالة تكون مجتمع ما من عرقين لا متناهين في الإختلاف اللغوي و الطبائعي، حيث لا رابط بينهما إلا استعمار أحدهما للآخر، فإن المجموعة المستعمرة تتعايش مع المجموعة المحتلة وفق سياستين، إما سياسة إقصائية قمعية تهدف إلى عزل و استبعاد المجموعة المحتلة، أو سياسة سلمية مبنية على إحترام كل طرف للآخر و إشراكه إياه في كل جوانب الحياة، اجتماعية كانت أو اقتصادية. إن الوتيرة المنخفضة لقدوم المهاجرين الأوربيين لا تسمح لنا -على الأقل في الوقت الراهن- بإحلالهم محل الأهالي، حيث

يتعين على الدولة دفع كل تكاليف الهجرة أولا بهدف إحضار أكبر عدد ممكن من الأوروبيين، ثم التفكير في مخططات إقصائية تتمكن بواسطتها من إنشاء مستعمرات أوروبية محضة في المناطق المراد احتلالها و تكون خالية من الأهالي العرب. نعم، يتوجب على الدولة الفرنسية دفع كل ما يكلفه قدوم المعمرين و إلا فإننا لن نستطيع استغلال الأراضي التي سيتركها العرب. نظرا إلى كل هذه العراقيل فإنه يستحسن بل و يتوجب علينا معاملة العرب معاملة حسنة و المحافظة عليهم بيننا إذا لم نرد أن نجد أنفسنا محاطين بأراضي خالية، لا نقدر على استصلاحها و استغلالها و لا نستطيع حتى توظيف العرب لخدمتها في صالحنا.من كل هذه المعطيات التي ذكرت فإنني في إدارة الأهالي أنطلق من مبدأ إحترام الأهالي و المحافظة عليهم بهدف إبقائهم على أرضنا.

إن نظرة الشعوب نحو الدولة و طريقة ممارستها للحكم، تختلف من شعب لآخر، فمثلا نحن الفرنسيون نتقبل كل أنواع الحكم و كل الممارسات السلطوية دونما أي تذمر أو شكوى و ندرك أن كل ما تقوم به السلطة، غامضا كان أو معقدا، يصب في صالح الشعب حتما، إلا أن هذا التقبل و الانصياع لا ينفي وجود نوع من الحرية السياسية في إبداء الرأي. أما العرب فهم في معظم الأحيان خاضعون و منقادون تحت سلطة الرجل الواحد، ذلك الرجل الذي يملك حصريا حق التحكم و التصرف في كل ممتلكاتهم و حتى أرواحهم، لهذا فإن حرية إبداء الرأي و المناقشة السياسية و الانفتاح على القرارات المتخذة من طرف السلطة، تعتبر في نظرهم من أبشع صور اغتصاب السلطة. لهذا

فإنه لمن الغباء السياسي أن نتبنى نظاما سياسيا مشابها لذلك الذي نتبعه في فرنسا و نتعامل به مع الأهالي العرب. يجب علينا ترك العرب يحكمون أنفسهم بأنفسهم، أي أننا سنعتمد نظام حكم محلي ذاتي أساسه القاعدة الإجتماعية و العرف السائد في أوساط الأهالي العرب، مع إدخال بعض التغييرات التي من شأنها جعل هذا النظام يتأقلم مع عادات و احتياجات الفئة الأوروبية.في هذه الأثناء، علينا تركيز اهتمامنا و إعطاء الأهمية اللازمة لذلك الجزء من البلاد الذي يسمى "الفحص" خاصة و أنه يحتوي على مجموعة معتبرة من الأوروبيين. في عهد الأتراك كان الفحص يقسم إلى سبعة مقاطعات، على رأس كل مقاطعة شيخ، يساعده في إدارة شؤون المقاطعة قايد الفحص، أما في عهد كونت إيرلون فقد قام بتقسيم الفحص إلى قرى و وضع على كل قرية حاكم أوروبي له سلطة مطلقة على كل السكان سواء كانوا أوروبيين أو عرب. سيدي الحاكم، بتاريخ 11 ماي أصدرتم قرارا يقضي بعدم خضوع الشيخ لسلطة الحاكم، مما يخول للشيخ إصدار قرارات نافذة غير قابلة للمناقشة، إني أطلب منكم إعادة النظر في هذا القرار، ذلك لأن تواجد شعبين من أصل مختلف في فحص واحد لا يقتضي بالضرورة خضوعهما لحكم إدارتين مختلفتين، إذ أن ذلك يوحي بالإنقسام و الفرقة مما لا يخدم مصالحنا. في المقابل، أعتقد أن أفضل طريقة لإدارة الفحص في هذه الظروف تتم بتقسيمه إلى أربع مقاطعات، حيث يتولى إدارة كل مقاطعة رجل أوروبي، هذا الموظف الأوروبي المأجور سيكون تابعا للسلطة العليا للدولة الفرنسية و متعلقا بها أكثر من تعلق الحاكم الحالي الذي

يتمتع باستقلالية نسبية خاصة فيما يتعلق بإدارة الأهالي العرب و المعمرين. يحكم هذا الموظف المعمرين الأوروبيين بطريقة مباشرة و تسري القوانين التي يصدرها على الأهالي العرب بطريقة غير مباشرة عبر الشيخ. يجب أن تأخذ طريقة الحكم طابعا عسكريا يضفي عليها الهيبة و يفرض احترامها و حتى الخوف منها على كل المواطنين، يعود ذلك إلى أن المستعمرات التي نحن بصدد بنائها في إفريقيا ستتواجد وسط شعوب ثائرة اعتادت الحرية، فما من سبيل لفرض هيبتنا عليها إلا القوة و التنظيم العسكري.

الأحياء الأربعة للفحص هم، بوزريعة؛

دالي ابراهيم، وتشتمل على الأحياء القديمة التي هي بني مسوس، زواوة، وعين زبوجة؛

بئر خادم؛

القبة، وتشتمل على الأحياء القديمة للحامة و القبة).

وظائف قايد الفحص تقتصر على إدارة شرطة الفحص من الأهالي، و حراسة الطرقات، و تأمين مخيمات القادمين من مختلف نواحي البلاد بغرض التسوق في سوق العاصمة.

إننا ننتهج هذه السياسة في الفحص باعتباره مكونا من شعبين مختلفين، لكن هذه السياسة لن تتلائم و طبيعة العيش في الساحل و السهل، حيث ينعدم الأوروبيون باستثناء بعض أصحاب الحانات و الملاهي، فإنه من غير الطبيعي تحكيم أوروبيين على أغلبية ساحقة من العرب. في هذه المناطق ستبقى الإدارة العربية تحكم لوقت أطول. أما مناطق بني خليل، بني موسى، و خشنة فستكون

الإدارة فيها بالشكل التالي: يكون على رأس كل منطقة قايد خاص بها، وتحتكم كل شعبة أو حوش إلى شيخها الخاص، إذ أنه من غير المنطقي حصول الأقلية الأوروبية التي تعد على الأصابع –و الذين لا يملكون شيئا و لا يقدمون أي خدمة لنا– على حكم أوروبي، هؤلاء الأوروبيون عليهم التقيد و الخضوع لما يمليه الحاكم، خاصة بالنظر إلى عددهم الضئيل جدا، و قد أرفقت مذكرتي هاته بقائمة تضم أسمائهم و هي كالتالي :

في خشنة يوجد:

السيد سوشيه، في منطقة راسوطة، و معه حوالي خمسة أو ستة عمال.

السيد مرسييه، في رغاية، و معه من ثمانية إلى عشرة أشخاص.

في بني موسى يوجد:

المزارع السيد فيالار في حوش بكري، و معه ثلاث أو أربع رجال.

السيد مونتاني في بن شنوف، ومعه خمس أو ست رجال.

السيد سانت–قيلهام في حوش كاتب، ومعه خمس أو ست رجال.

السيد كلافي في حوش بوقندورة، ومعه خمس أو ست رجال.

السيد مونتاقو في حوش عيسوس، ومعه خمس أو ست رجال.

مأمور السيد الماريشال كلوزال في بابا علي و معه رجل أو اثنان.

السيد دو لوناي في حوش بابا اولاد احمد (المنشأة المقامة مؤخرا).

أما على مستوى بني خليل فليس هناك أي منشئات معزولة، حيث أن مدينتي الدويرة و بوفاريك لا تحتويان إلا على الملاهي و الحانات التي ملأت عقول و أجساد جنودنا بالسموم.

من المجيد أن نضع الأهالي تحت رقابة شرطة منطقتي الدويرة و بوفاريك، و منع منحها الوجود المدني التي لا تطيق أن تتحمله بعد.

ستترك العرب يمارسون حياتهم بالطريقة التي اعتادوا عليها، و سندع مساحة من الحرية للأهالي، لكننا سنشدد الرقابة على الحكام، فمن دراستنا لسلوكاتهم تبين لنا أنهم يميلون دوما إلى الفساد و الإختلاس. لكل قايد الحق في جباية الخراج المتعلق بكل النشاطات التجارية القائمة في منطقته، و يكون هذا الدخل مخصصا لاحتياجات المنطقة من إصلاحات و أشغال عمومية، وله الحق في استحداث الغرامات التي يراها مناسبة و فرضها على مرتكبي المخالفات و الجرائم. يتحصل القادة على تموين في شكل مواد غذائية استهلاكية و ذلك لإقامة المأدبات و استضافة عدد من المدعوين بموجب وظيفتهم الحكومية، لكنهم عادة ما يقومون بتجاوزات و اختلاسات لهذه المواد الغذائية و يستغلونها لمصالحهم الشخصية، و للحد من هذه الظاهرة وجب علينا وضع بعض القواعد التنظيمية و هي كالتالي :

1° تحديد العلاقات بصورة جد حازمة و منع الصداقات بين القضاة و القادة.

2° إصدار تعريفة غرامات على كل من يقوم بالاختلاس و إعلام القادة بذلك.

3° تحديد كميات المؤن الغذائية التي يتحصل عليها القادة بطريقة دقيقة حتى لا يتسنى للقادة إختلاسها.

تأكدوا سيدي الحاكم أنني لا أطلب منع هذه التمويلات أو إلغائها، لأن ضيوف القايد هم غالبا من المجلس الحاكم، و لأن للعرب باع طويل في الكرم و الجود و حسن الضيافة، و هي كما تعلمون خصال لا ينازعهم عليها عاقل.

الضباط الأوروبيين الملحقين بإدارة العرب هم المراقبون الطبيعيون للقادة وكما لا يخفى عليكم، فهي مهمة تستوجب أن يكونوا على درجة عالية من الفطنة وأن يتمتعوا ببصيرة وحس عال من الدقة، لأننا مع استفادتنا من مراقبتهم للقادة وربما نخاطر بإرهاقهم.

إن الحكم عند العرب هو من البساطة بمكان، إذ ينحصر في إجراءات أمنية ذات كفاءة عالية (شرطة، درك..) مهمتها حماية الشعب من اللصوص، مكافحة الحرائق ومحاولة الحد منها خاصة في الأراضي الزراعية باعتبارها المصدر الأساسي لقوت الشعب، التأهب لاستدراك ومنع حدوث الشجارات القبلية، التأكد من أن يحصل كل الأهالي على حقهم من الماء، وذلك بحفر السواقي ووصلها بالمسالك النهرية، وأيضا تقوم بدور السلطة التنفيذية وتتأكد من تنفيذ كل الأحكام القضائية. وكل هذا هو من اختصاص القايد. أما السلطة القضائية فهي بيد القضاة، ولفهم دورهم بوضوح، أقدم لكم هذا الشرح المختصر في الحقوق يتعين على القضاة معرفة القضايا المدنية والإجرامية، لكن الأتراك نزعوا منهم القضايا الإجرامية و تركوا حصرية الفصل فيها للقادة السياسيين (القايد و الأغا)، ولم يتبق لهم إذن سوى القضايا المدنية. حاليا يستحسن إعادة القضايا الإجرامية إلى القضاة، وقد بدأنا أصلا في تطبيق هذه التغييرات خاصة في العاصمة مطابقة بموجب المرسوم التنفيذي الصادر بتاريخ 22 أكتوبر 1830، المحتوي على الوثيقة الرسمية لـ10 أوت 1835، والذي لم يلاق أي معارضة أو خرق من القضاة في العاصمة لكنه يحتاج إلى نشر وإعلان على مستوى القرى، لأن القضاة يترددون في تطبيقه، في كل قضية جديدة تتطلب قرار

جديد، إذا كانت خطيرة. في حين يبقى من صلاحيات القايد تنفيذ العقوبات الخفيفة (القرع بالعصا، الغرامات النقدية...)، و يحق له كذلك معاقبة كل الذين يرتكبون مخالفات أثناء قيامه بجولته اليومية، أما إذا رفعت هذه المخالفات إلى القضاة الذين هم مطالبون بتطبيق القانون فإن مرتكبي المخالفات يحالون على السجن الاحتياطي ريثما يبت القاضي بالنظر في قضيتهم، و في هذه الحال غالبا ما تكون العقوبات أشد وقعا من الجلد أو الغرامة. أما فيما يخص الجرائم المرتكبة على الطرق الكبيرة، كالسرقة المسلحة مثلا أو سرقة العصابات، فإنها يمكن أن تعرض مرتكبها لعقوبة الإعدام، وتعرض في العادة على المحاكم الإدارية الخاصة حيث يعتمد غالبا على اجتهاد القاضي للفصل فيها، ومنه فإني أطلب منكم إنشاء محاكم إدارية تكون الأحكام الصادرة عنها وليدة اللحظة لا القانون. تكون هذه المحاكم مكونة من عسكريين فرنسيين وقاضي معين من طرفكم، وتقوم بمعاملة الأهالي بمثل ما كان يعاملهم به الأغا في عهد الأتراك وتكون لها صلاحيات العدالة الإجرامية، لكن مع ضمانات أكثر من حيث أن أحكامها تخضع لمراقبة الموظفين الحكوميين. إن الظروف التي نمر بها حاليا هي ما يشعرني بضرورة إنشاء هذه المؤسسة و إلحاقها بالسلطة القضائية في أقرب الأجال، لكنني أدع بين يديكم حرية إلغائها أو حلها حينما ترون ذلك مناسبا.

إن التمييز بين السلطة الجزائية العادية والسلطة الجزائية العليا أو السياسية يعتبر شيئا مألوفا لدى الفكر العربي، ولتوضيح ذلك دعوني أشارككم بعض ما أرسله لي أحد قضاة العرب المعروفين:

"...أما الأشخاص الموكلون بإصدار العقوبات الجزائية وتحديد مصير القتلة

والمجرمين، فهم بطبيعة الحال القضاة وذلك لدرايتهم بأمور القانون، في هذه الأثناء، يحق لحاكم البلاد –السلطان– إصدار قوانين من هذا الشكل، بصفته القاضي الأول في البلاد وسلطته مستمدة من القانون".

"القادة لهم الحق في التعامل مع لصوص الطرق الكبيرة، الهاربين من العدالة، ومغتصبي أملاك الآخرين بالقوة."

باختصار، سيدي الحاكم، رأيي هو أن ندع الإدارة للأهالي كما اعتادوا عليها وأن نفسح لهم فيها بقدر الإمكان، وأن نتجنب إزعاجهم بالرسميات المتعددة، ولكن ذلك لا يعني أن نهمل حراسة ومراقبة كل خطوات قادتهم و مكافحة الاختلاس بكل ما لدينا من إمكانيات، و في النهاية يجب علينا انتزاع سلطة العقوبات الجزائية من المحاكم العليا و إعطائها للقضاة.

.6

وثائق متعلقة بإدارة الماريشال كلوزال.

الوثيقة 1.

تقرير حول المؤسسة المزعوم إنشائها في مصب التافنة، مقابل جزيرة رشقون.

لقد قمنا في شهر أكتوبر 1835 باحتلال جزيرة رشقون و ذلك لعدة أهداف منها: 1° مراقبة و منع التصدير غير القانوني للحبوب، 2° فتح معبر تواصل مع تلمسان التي كانت قلعتها مشغولة من طرف الأتراك الذين قاوموا من أجلنا.

إن احتلال الجزيرة لم يعد كافيا، لأنها لا تفتح لنا أي جبهة على الساحل الممتد على طول 2000 متر، و لا تسمح لنا بربط الاتصال، و لو بالبريد، مع تلمسان.

لكن بعثتنا الأخيرة لوهران، التي قادتنا إلى تلمسان، نعترف أن الوسيلة الوحيدة للإتصال مع هذه البلدة هي رشقون.انطلاقا من هنا، لا يوجد من هذه النقطة، إلى تلمسان إلا 14 فرسخ و باستطاعتنا عبورها في يوم أو يومين على الأكثر، في حين أن المواصلات عبر البر تتطلب 6 أيام مشي تقريبا. لهذا فإن بناء منشأة على ساحل رشقون لهو أمر لا بد منه، علينا الإسراع في إنجاز هذا المشروع وإتمامه في أقرب الاجال لتموين كتيبة تلمسان.

إن الظروف هي مهيأة لنا و في صالحنا لبناء هذه المنشأة، حيث أن قبائل الشرق انصاعت لنا كليا، وأهالي الجانب الأيمن لنهر التافنة مستعدون لإيقاف المقاومة...كل هذا نتيجة للغزوات التي قمنا بها في معسكر وتلمسان والتي تركت أثرا بالغا في نفوس الأهالي، أما عبد القادر فهو لا يستطيع حتى جمع بضع المئات من الرجال.

للاستيلاء على مصب التافنة علينا أمامنا واحد من الحلين :

الأول يتمثل في القيام بإنزال عسكري،

والثاني هو انطلاق جيش من وهران مارا بكل منطقة الساحل.

الحل الثاني هو الأمثل، ذلك لأن إمكانيات النقل البحري متوفرة ولا نحتاج حاليا إلا لباخرة إضافية وبعض الزوارق القوية لنقل كل المعدات التي وصلت إلى تلمسان في شهر جانفي الماضي بعد استيلائنا عليها.

الأعمال المطلوب تنفيذها.

1° بناء جسر يمتد من الضفة الشرقية لنهر التافنة حتى موقع الإنزال.

2° وضع كازمة مدعمة في مقدمة الجسر لتوفير الحماية.

3° وضع كازمة ثانية على الجسر حتى تسهل الاتصالات مع تلمسان.

ولتأمين الحماية المنظمة يلزمنا توفير الوسائل التالية :

ثلاث مجموعات من خبراء المتفجرات حيث مجموعة منهم من العاصمة

400 إلى 500 عامل من جنود المشاة.

مجموعتين مكونتين من ثمانية رجال على الجبهة الأمامية.

مجموعتين مكونتين من ثمانية رجال يتموقعون في رأس الجسر.

أما فيما يخص الحامية فهي ستكون مكونة من 300 رجل في البداية موزعين على كوخين يتمركز أحدهما في الجبهة الأمامية والثاني في رأس الجسر، والباقي يوزع على الكازمتين.

نستطيع أن نقدر مدة العمل بثمانية إلى عشرة أيام لكن هذه المدة معرضة للنقصان حسب نوعية الأرض التي ستواجهنا وحسب عدد العمال الذين سيكونون تحت أيدينا.

وجود الباخرة التي حدثتكم عنها آنفا ضروري، وذلك لاحتياجنا إياها كسفينة جر مع الزوارق الناقلة للعدة من الجزيرة، كما أننا سنستعملها أيضا لضرب الساحل إذا ما تطور النزاع المسلح مع الأهالي العرب.

الجزائر في 14 أفريل 1836

سيادة العقيد مدير التحصينات،

توقيع لومرسيي.

يحال فورا على التنفيذ،

توقيع الماريشال كلوزيل.

نسخة مطابقة إلى:

الملازم العام، قائد القوات المسلحة في إفريقيا،

توقيع الفريق بون راباتل.

نسخة مطابقة إلى:

توقيع قال دارلانج.

الوثيقة 2.

مدونة حول الجزائر العاصمة، مكتوبة من طرف السيد دو رانسي وموجهة إلى كافة الوزراء.

19 جويلية 1936.

"الله أراد ذلك !إنها مشيئة الله، ولا خيار لنا غير الخضوع للأتراك" هذه هي العبارات التي كان يرددها العرب تحت حكم الأتراك، شعب قبل المستعمر حتى وهو في أوج قمعه.

بغرض إخضاع الشعب الجزائري وإجباره على تقبل وجودهم، استعمل الأتراك أداتين أساسيتين هما الوحيدتين اللتين على كل مستعمر لهذا الشعب استعمالها إن أراد النجاح، الأولى تتمثل في فرضهم للطاعة التامة والشاملة في كل شيء، والثانية هي إطراء وتملق كبرياء وجشع البعض منهم بهدف استعمالهم في إخضاع باقي فئات الشعب.

نتج عن هذه الخطة الشيطانية تفرق وحقد وكره تطورا ليصبحا حربا عرقية بين مختلف القبائل المكونة للشعب الجزائري، واستطاع بذلك 16000 رجل تركي فقط، إخضاع شعب بأكمله.

كان العرب يمقتون هذا الاستعباد لكن مع ذلك كان لسان حالهم يقول هذه مشيئة الله ولا مفر لنا منها.

وبهذا اندثرت الجنسية العربية.

عند قيامنا باستعمارنا الجزائر حاول الجزائريون طردنا بكل بغض وكره وذلك يرجع لكوننا مسيحيين، لكنهم تخلوا عن بعض من ذلك الغل تجاهنا لما

رأوا تخليصنا لهم من الأتراك. لقد تكون في أذهان الجزائريين صورة عن الدولة الفرنسية العظمى خاصة بعد انجازات الإمبراطور نابليون وكل الفتوحات التي قام بها في الشرق، يضاف إلى هذا التفوق العسكري الواضح لجيشنا عند استيلائنا على العاصمة، وكلها عوامل ستساعدنا على التغلغل بسهولة نسبية في أراضي الجزائر خاصة مع جهل الجزائريين بما ينتظرهم، و تراني بهم يقولون مرة أخرى:

"لقد كنا أمة عظيمة، لكننا عانينا الأمرين تحت وطأة الأتراك، فأرسل الله لنا الفرنسيين لخلصونا منهم، الفرنسيون هم أسيادنا، إنها مشيئة الله"

بإرادة وحزم عاليين من الحكومة، وبخطة إخضاع مدبرة بإحكام ومنفذة بكل حذافيرها، سيكون الاستعمار أكثر سهولة وسرعة، وستكون تكاليف هذا الاستعمار قليلة نسبيا، وسنحافظ على سمعة الإمبراطورية الفرنسية العظمى.

لكن الظروف لا تسمح لنا بكل هذا نظرا لاستنفاذنا لكل طاقاتنا الفكرية والعسكرية في أوروبا.

منذ اللحظات الأولى من احتلالنا لمدينة الجزائر، تميزت الإدارة الفرنسية بهذا الحقد، هذا الغرور، هذه الخفة، تجاه رجال لم نعرفهم حق المعرفة، لم نقدر ماضيهم، آذينا الأخلاق ومصالح الأمة، تعاملنا معهم دون خطة محددة، وقابلنا أقل مقاومة بإنكاسها وإحباطها وقابل ذلك احتقار ممزوج بحماقة ووقاحة من طرف الجزائريين.

لقد كدسنا 30 ألف رجل في مكان يستطيع بالكاد أن يحتويهم، بدلا من إنشاء المعسكرات والمواقع العسكرية، عندما نحمل أسلحتنا فإننا نفعل ذلك من أجل إظهار قوتنا فقط، من دون أي دافع نبيل، من دون أهداف حقيقية

محددة دون نتائج محتملة أو ممكنة، إننا بهذا نعلم العرب كيف يقاوموننا بل وكيف يهزموننا أيضا. الأهالي الذين يقفون بجانبنا ويدافعون عن مصالحنا، هم دائما عرضة للهجوم، السرقة، والقتل. الفوضى تعم كل المحافظات، نحن لا نقدم حكومة للذين يريدون حكمنا، ولا نعاقب بحزم من يستحقون عقابنا، نحن نقوم بعزل الحاكم واستبداله قبل حتى أن يفهم المهمة الموكلة إليه، وليس خفيا على أي عربي أن الحكومة الفرنسية لا تعي ما تفعل، وأن مبعوثيها إلى إفريقيا هم بدورهم تائهون.

حائرون لا يدرون ما يفعلون. العرب لا يعطوننا أي أهمية، وقد بدأ يتبادر إلى أذهانهم ثورة كبيرة.

إنه لبلد كبير ومحترم ومقدر وبارع.. يعتمد على الجبهة الغربية لأن هذه الجبهة تتكون من رجال أغنياء ومولعين بالتآمر، هذه الجبهة التي عاشت بيننا، رغم تحمل آمالا مشرقة وتحلم بإعادة تجديد بلدها، وقد بدؤوا فعلا بجمع القبائل الكبيرة وخاصة المحاربة منها، بهدف توسيع امتداد سيطرتها والتقليل من هيبتنا، بل واضطهادنا ثم حشرنا في بعض المناطق الساحلية، كل هذا في ظل وجود جنسية عربية، يتوجب علينا طمسها، أو التقهقر في عار وصمت أمامها.

أما فيما يخص الأمير الجديد، فإن وقت كشف القناع قد حان، لقد نصب نفسه ملكا على الأرض في إفريقيا في حين أنه منحنا السيطرة على الإقليم المائي، لكني متأكد أنه سيخرق معاهدة السلام قريبا وسيهيننا على الملأ. إنني كعقيد فرنسي لمجروح القلب ولكم أتمنى أن أدخل في حرب معه دون حساب قوتي، لكن بداية هذه الحرب بهزيمة لهو طعن في قوتنا وسيزيد من ثقة الأمير في قدرته على هزمنا والإطاحة بنا. بالفعل، فبعد انتصاره ها هو قد شكل جبهة صار فيها

الملك الحقيقي، والسيد الوحيد. إنه المسيطر في كل ربوع البلد، وحتى إن لم يكن كل الأهالي معه، إلا أنه لا أحد يجرأ على حمل السلاح ضده أو مقاومته، ما أقواه... لقد وجد مناصرين حقا، فهاهو ملك المغرب يمده ويدعمه بشتى أنواع الأسلحة، وهاهي تركيا تبارك خطوته وتعلن صراحة أنها لن تتوانى في تقديم الدعم له، وما يدور هي خلدها هو التخطيط لتسخير هذه الانتفاضة لخدمة مصالحها في المنطقة، نعم إنها الجبهة الغربية وهي تعمل بكل ما أوتيت من قوة من أجل عرقلة مشاريعنا، لم تعد تختبئ خلف الظلال كلا، هي اليوم تعمل في وضح النهار وتحيك مؤامرات بيننا أقل ما يقال عنها أنها جد فعالة، استطاعت جمع مناصرين في كل المناطق، حتى في باريس لديه مبعوثون معروفون.

كل هذه الظروف السيئة في إفريقيا ضدنا ولا تخدم مصالحنا البتة، وتجعل المعنيين بالتحرك -الحكومة- يشعرون بقهر لا مثيل له، جعلهم يصمتون عن هذه الهزائم، هذه الحكومة التي لا تنفك تطالبنا بالانتقام لهذا الإخفاق العسكري، وبإعادة الهيبة للجيش الفرنسي.هي حتما منشغلة بمصالح أخرى في مناطق متفرقة من إفريقيا، قد نست أو تناست جزءا من جيشها هو الان محاصر في الشمال الإفريقي، منهزم، انقطعت عنه المئونات إلا بعضا منها عن طريق البحر، يهان هذا الجيش من طرف الشعب ويعود عبد القادر ليهزمه في كل مرة.

"أنا أقوى من الملك الفرنسي -هكذا يقول عبد القادر في تصريحاته- يلزمه وقت ليستجمع قواه بعد الهزائم التي ألحقتها به، أما أنا فلدي20 ألف و 30 ألف رجل جاهزون عند إشارتي!...".

من حسن الحظ، و من أجل تكذيب هذه التصريحات الوقحة بطريقة صارمة، فإن وريث العرش بنفسه جاء ليهدينا الإنتصار تحت راياتنا: في حملات معسكر و

تلمسان، قللت من غرور الأمير عبد القادر و قوته. لماذا هذه النجاحات الباهرة هي فقط مؤقتة؟ لماذا يتوجب علينا اليوم مجابهة هذه العوائق التي قصمت ظهر الأمة الفرنسية؟ لماذا يفرض علينا مشاهدة كل المجهودات التي قمنا بها طيلة ست سنوات تتلاشى؟ لماذا يهان جنودنا و يهزمون من جديد؟ لماذا يحربون؟ هل كانت كل انتصاراتنا مجرد بريق زائل؟ وهل هي بداية الزوال؟ إن أسمى معاني الفخر عند هؤلاء لهو يتمثل في إهانة العلم الفرنسي.إن كل هذه الهزائم المتوالية قد أدخلت الشك في نفوس جنودنا و شعبنا العظيم، فهاهم اليوم يتساءلون عن تلك الانتصارات التي حققنا في معارك تلمسان و معسكر، هل كانت مجرد حظ؟ هل كان الانتصار عائدا إلى ضعف خصمنا أم إلى قوتنا؟ هل انتصاراتنا أقرب لأن تكون نزوات منها إلى خبرة حرب؟ وإذا ما كانت انتصارات وفق معارك مدبرة ومخططة بإحكام، فلماذا يا ترى تأتي هذه النكسات الآن؟ أين لنا نحن بإجابات عن هذه الأسئلة إذا كانت حتى الحكومة الفرنسية لا تملك أدنى فكرة عما يجري.

كل الفرنسيين يتذكرون حجم الميزانية -1.200 مليون فرنك- التي أعددناها لغزو إفريقيا ورغم أننا دخلنا في سلام مع كل أوربا، مما يعني أن جيشنا يقاتل على جهة واحدة فقط، إلا أننا ننهزم ونتقهقر على سواحل إفريقيا مهانين مسجونين مضطهدين.

بقي الرأي العام الفرنسي ساكتا، ذلك لأن لا أحد يقبل أن يرى الدولة الفرنسية مهزومة وأن فكرة احتلالنا للعاصمة الجزائر تسيل لعاب الكثير من الفرنسيين وبهذا فهم يوقعون مسئولية كبرى على الحكومة الفرنسية، التي يجب عليها في هذا الوقت الحرج دعم احتلال افريقيا بكل ما أوتيت من موارد. لقد حان الوقت لفعل شيء في إفريقيا، الرجوع إلى الوراء مستحيل، خاصة بعد كل ما أنجزنا، هزيمتنا في

المعركتين السابقتين يجب أن لا تتكرر، و لن تتكرر، و إلا فإن كل المسئولية ستقع على عاتق الحكومة الفرنسية وحدها.

علينا، وبدون أي تأخير، تبني نظام استعماري في إفريقيا، نظام محكم ومدبر، مكون من جنود وقادة، من تدعيمات مادية، من أموال، من مواد غذائية، ويفترض على كل هذه العناصر العمل لاحتلال الجزائر بكل تنظيم، ليس كما يفعل الجيش الحالي، الذي حتى بـ 30000 جندي لم يستطع بل ولم يعرف حتى إتمام الحرب.

كفانا ذلة، كفانا انهزامات، كفانا ضعفا، ما يلزم بلدنا الآن هو القوة والكفاءة، من أجل إظهار قوتنا وسط أوروبا الطامعة. من كلامي أرى الأمثلة تتبادر إلى أذهان الفرنسيين، هل يستوجب هذا حملة روسية، هل هذا يعني صرف المزيد من الأموال؟ هل يعني إفراغ الخزينة واستنفاذ الموارد؟

وأجيب قائلا أن لا شيء من هذا القبيل سيحدث، وأن خطتنا الجديدة لا تستلزم عددا أكبر من الجنود ولا حتى أموالا أكثر، سنحافظ على نفس الميزانية التي أقررناها منذ ست سنوات، وسنعتمد في تغييرنا على أمور تنظيمية بحتة، وسنأخذ بيد إفريقيا إلى التعمير والحضارة، وإن لم نستطع القيام بذلك، فالأحسن لنا أن نعدل عن احتلال إفريقيا ونعود إلى ديارنا. كل ما يلزمنا هو إرادة حديدية وأن نصرخ بأعلى أصواتنا، وأن يصرخ أهالينا في فرنسا معنا: كفانا ذلا، كفانا ضعفا، كفانا مهانة.

يلزمنا لتحقيق هذا الهدف تدعيمكم بـ 50.000 رجل يكونون في أظهركم ويكون من مهمتكم جميعا الإطباق على العدو بين جبهتين بحيث لا يتسنى له الفرار، ومن ثم إعمال الذبح والقتل فيهم كما ينقض الصياد على فريسته، بهذا نبتعد عن البحر وندفع بهم إلى التوغل في أرضهم ومن ثم بناء مناطق عسكرية تسعنا وتكون لنا محميات دفاع ومعسكرات نعود ونتقهقر نحوها في حالة الضعف والانهزام!

إذا لم نحكم القبضة على تلمسان في أسرع الأوقات، فإننا نواجه خطرا أكبر من خطر مواجهة أهاليها لنا، وهو خطر استيلاء ملك المغرب عليها أو زحف جيوش أوروبا الموجودة غرب إفريقيا والتي تتحين فرصة استسلامنا للانقضاض عليها إذ أنها تعتقد أن الخلل موجود في جيشنا وأنه لو كان الأمر إليها لاستطاعت إخضاع تلمسان بسهولة، تلمسان هذه المدينة التي صمدت أمام أعتى آلياتنا وأرتنا الويل منذ وضعنا أقدامنا على التراب الجزائري.

بعد ذلك تأتي مدينة قسنطينة التي تستوجب مكانتها الاستراتيجية السرعة في إعداد خطة لاحتلالها خاصة وأن احتلالها سيسمح لنا بمراقبة واحتواء وقمع كل المؤامرات التركية المعادية ومن قسنطينة نكون في نفس مستوى المستعمرات الأخرى مثل تونس وطرابلس.

إذا لم نستطع السيطرة على هاتين المدينتين وأبقينا في نفس الوقت 50.000 جندي من قواتنا على تخوم سواحل الجزائر ووهران و عنابة فإننا سنجد أمامنا ثورات شعبية لا تخمد، يكون أبطالها رجال لا يكلون ولا يملون همهم الوحيد مجابهة الجيش الفرنسي وإضعاف معنويات جنوده بل وإحباطهم ومن ثم إرغامنا على استدعاء مدد من 30 إلى 50 ألف رجل والزج بهم في خضم المعركة حتى تكون نهايتهم كسابقيهم من الجنود، محاصرين من دون مؤن.

لاشيء يمنع هذا الشعب الجزائري رغم كل فروقاته وعصبياته من التوحد والتكتل من أجل تجويعكم وتشتيتكم، بهدف إعادتكم من حيث أتيتم، لكنه لن يقدر عليكم إذا تحليتم بالعزم والإرادة وإذا جعلتم هدفكم نصب أعينكم وعملتم بتخطيط محكم، أحكموا إفريقيا بقبضة من حديد ولا تدعوا هؤلاء الذين يبغون هلاككم فرصة للتنفس إلا بأمركم، عليكم بتشكيل شبكة من المستعمرات يكون لكم فيها الحكم المطلق وبهذا توهنون ضربات عدوكم وتحاصرونه.

من أجل القضاء على هذا العدو المبالغ كثيرا في قوته علينا -كما قلت مرارا وتكرارا- إيقاف زحف قواتنا المتواصل منذ ست سنوات، ويتعين علينا إيقاف الحملة التي نقوم بها كل خريف...في الوقت الراهن يجب علينا الاهتمام أكثر بكل ما هو إداري وكل ما يتعلق بتنظيم ما يوجد تحت أيدينا أصلا، علينا مراقبة العرب عن كثب في كل النقاط ومنع كل التجمعات وكل المناقشات التي تنحصر أصلا في إعداد المؤامرات من أجل الإطاحة بنا، على البايات المعينين على رأس كل منطقة فرض وجودهم واحترامهم على الأهالي، وسنعمل على ذلك بمساعدة القوات الفرنسية الموجودة بجانبهم، علينا الشروع في بناء المستعمرات بوتيرة أكبر، إلى جانب ذلك فإن قوافل المعمرين الأوربيين التي بدأت في الوصول إلى الجزائر ستأخذ قريبا مكانها في المستعمرات وتجنب قسطا كبيرا من جنودنا عبء التعمير.

النقطة السوداء فيما يخص مقاطعة وهران هي أننا لا نحتل فيها إلا نص دائرة، في هذه الأثناء من المستحسن إضافة 4.000 أو 5.000 رجل يستطيعون التقدم من منطقة لأخرى مع انتصارهم على كل من يواجههم.

أما فيما يخص مقاطعة الجزائر فأنتم لم تتقدموا فيها إلا حتى بوفاريك، في حين سنرسل 4.000 رجل منتصرين إلى المدية مارين بمضيق الثنية الشهير.

أما في منطقة قسنطينة، فقد تقدم جيش قوامه 1200 رجل، نصفهم فقط فرنسيون والباقي هم من الأهالي المتمردين، وقد استطاعوا التقدم واحتلال ثمانية عشر منطقة ليس فقط من دون إطلاق أدنى رصاصة، بل أكثر من ذلك، فقد تلقى القائد الأعلى لعنابة مبايعة العديد من القبائل، وهي من أعتى وأشد القبائل المعروف عنها بأسها في الحروب والمواجهات. إننا نسعى إلى التموقع بالطريقة التالية في محافظة الجزائر. في مقاطعة وهران سوف تحتل:

	أهالي	فرنسيون
مستغانم (بايلك)	500	200
مسرغين	0	300
وهران	0	2.000
التافنة	0	1.000
تلمسان (بايلك)	500	500
معسكر	1.000	0
السيق (مستعمرة متنقلة)	0	5.000
المجموع	2.000	9.000

مقاطعة الجزائر مع تيتري.

	أهالي	فرنسيون
الجزائر، مخازن، مرضى، و إداريين دون حساب المعمرين في المستوطنات	0	3.000
المراكز بين الجزائر وخط البليدة إلى القليعة	0	2.000
خط البليدة إلى القليعة (مستعمرة متنقلة)	0	5.000
المراكز المتقدمة إلى مصبي نهر التافنة	0	1.000
مدية (بايلك)	500	500
مليانة (بايلك)	500	500
المجموع	1000	12.000

مقاطعة قسنطينة.

	أهالي	فرنسيون
بجاية	0	2.000
عنابة	0	2.000
معسكر كلوزيل (مستعمرة متنقلة)	0	4.000
القالة	200	
قسنطينة	1.800	1.000
المجموع	2.000	9.000

ملخص.

	أهالي	فرنسيون
مقاطعة وهران	2.000	9.000
مقاطعات الجزائر و تيزي	1.000	12.000
مقاطعة قسنطينة	2.000	9.000
المجموع	5.000	30.000

الخمسة آلاف رجل من الأهالي سيجندون خلال مدة سنة، أما الثلاثون ألفا من الجيوش الفرنسية فسوف تعمل على إنقاص عددهم وذلك بسبب العدد الكبير من المعمرين الذين ننتظر إسكانهم في المستوطنات.

بهذا فإن كل المستعمرة ستكون خاضعة لنا، ومنظمة تنظيما محكما، المستعمرات المتنقلة ستحرص على استتباب الأمن بالتنسيق مع المجموعات العسكرية للباي.

أما بالنسبة للحرب، فتكون قد انتهت.

الوثيقة 3.

رسالة الماريشال كلوزيل

إلى العقيد راباتل.

باريس في 2 أوت 1836

سيادة العقيد،

إني أقترح عليكم في رسالتي هذه، مخططا يهدف إلى السيطرة التامة على المستعمرة القديمة، والتي توقفت العمليات فيها بأمر من الحكومة.

من أجل وضع هذا المخطط قيد التنفيذ، يكون تحت إمرتي 30.000 ألف رجل من الجيش الفرنسي، يحتوي على كل من الزواف و السبايس النظاميين، بالإضافة إلى 5.000 رجل من جنود الأهالي النظاميين، وأخيرا 4.000 رجل من الملحقين الذين جندناهم خلال فترة العمليات على قسنطينة.

في هذه الأثناء سيصدر الماريشال السيد وزير الحربية أمرا يقضي بإرسال العدة اللازمة للحملة على عنابة والمتمثلة في :

وحدة حملة ثانية

أربع قطع مكونة من 12 فرقة

ثمانية قطع مكونة من 16 فرقة

أدوات التخييم ل 10.000 رجل

وسائل نقل للجرحى والمصابين

وبما أنه من المستحيل إرسال العدد الكافي من الأحصنة من فرنسا فإننا نستأذنكم في الاستيلاء على بعض الدواب التي تساعدنا في النقل.

العمليات المزمع إجراؤها تنطلق في نفس الوقت في كل المقاطعات وعلى كل حملة التقيد بالوصول إلى الأهداف التي سطرناها:

احتلال كل المدن الهامة في البلاد وإنشاء كازمات فيها،

إنشاء مراكز ومخيمات في وسط المقاطعة وموزعة على مختلف النقاط العسكرية التي يجب احتلالها بطريقة دائمة.

التكتل، في منطقة مركزية وإنشاء مستعمرة مركزية من الجنود الفرنسيين يكون بإمكانها التنقل من نقطة إلى أخرى بالسهولة المطلوبة.

وعلى الجنود في نهاية الحملة التمركز بالطريقة التالية في كل مقاطعة:

مقاطعة وهران.

	أهالي	فرنسيون
مستغانم	0	500
وهران	0	2.000
التافنة	0	1.000
تلمسان (بايلك)	500	500
معسكر (بايلك)	1.500	0
المستعمرة المتنقلة	0	5.000
المجموع	2.000	9.000

مقاطعة الجزائر و تيتري.

	أهالي	فرنسيون
مدينة الجزائر	0	3.000
المخيمات بين الشفة ومدينة الجزائر	0	2.000
طريق الشفة، بليدة والقليعة (مستعمرة متنقلة)	0	5.000
مضيق الشية	0	1.000
مدية (بايلك)	500	500
مليانة (بايلك)	500	500
المجموع	1.000	12.000

مقاطعة قسنطينة.

	أهالي	فرنسيون
عنابة	0	2.000
بجاية	0	1.500
مخيم دريعان و مستعمرة متنقلة	0	4.500
قسنطينة (بايلك)	2.000	1.000
المجموع	2.000	9.000

ملخص.

	أهالي	فرنسيون
وهران	2.000	9.000
مدينة الجزائر و تيتري	1.000	12.000
قسنطينة	2.000	9.000
المجموع العام	[1]5.000	30.000

فلابدا الآن التنفيد بسرعة، بشدة، كاملة، أتكل،السيد اللواء، على تعاونكم. سوف أذهب الى الجزائر العاصمة: و الى ذلك الحين لكم اتخاذ التدابير في كل مكان و خاصة كل ما يساهم في انجاح الحملة.

---

(1) أصل هذا الجدول، أعطي لوزير الحرب، بهذه الملاحظة المكتوبة بأيدي الوزير.

" هذا الرقم يصبح 38.000، بما فيه الزواف و السباهي العاديين، المعتبرون كقوات فرنسية. لابدا من تنظيم القوات الغير منتظمة التي سيتم إنشاؤها في نقط مختلفة، لهذا الشيء أنا مستعد (من 4 الى 5 ألاف رجل). أوافق أيضا، إذا ذهبنا الى قسنطينة، على قوات مساعدة من الفرسان، سوى شهر أو ستة أسابيع، مكونة من 4 ألاف رجل، بقيمة 50 سنتيم يوميا، و بعض المؤونة.

ماركيز ميزون."

و الذي يكون إيجابيا من 30.000 رجل من فرق فرنسية، 5.000 رجل من فرق الأهالي العاديين، و4.000 رجل من فرق الأهالي الغير منتظمين، كليا: 39.00[illegible]

اقليم وهران.

تلاحظون، انطلاقا من حالة القوات، من الفرنسيين كما من المحليين، المستوجب أن تحتل الاقليم تماما، ان بيلك مستغانم سيتم تحويله الى معسكر اين من المفروض ان يستقر الباي ابراهيم والمزاري، مع 1500 رجل من القوات المحلية المأجورين بسعر 1 فرنك لليوم ولكل رجل.

اطلبوا من الجنرال دوليتانغ الاتفاق مع الزعيمين التي قمت بذكرهما لضمان تشكيل فيلق لأجل الأول من سبتمبر، متكون من 1500 من المحليين ن كلهم لديهم القدرة على حمل السلاح سواء من الفرسان أو من المشاة، مستعدين للخدمة تحت أوامر باي معسكر والذين سيحصلون ابتداء من يوم تجمعهم وانطلاقهم لهذه المدينة الأجرة المتفق عليها.

سيدرج في هذه التشكيلة الأتراك، الكراغلة و العرب، الذين يخدمون في الوقت الحالي بمستغانم، وكل الدواير والزمالة والعرب الآخرين الذين يلبون نداء القائدين ابراهيم ومزاري، بشرط أن لا يتحصل على اجرة سوى الرجال اللائقين للقيام بالحرب. يجب استشارة مصطفى بن اسماعيل فيما يخص هذا التنظيم.

هذا الزعيم الحاذق يجب ان يرتب كذلك مع الجنرال دوليتانغ التنظيم النهائي والأكثر أهمية لفرقة من 500 من المحليين الذين سيواصلون او سيتم استدعاؤهم للخدمة بتلمسان، تحت أوامر الباي. انه يتطلب ايضا من كل رجل يتحصل على راتب، كل شروط اللياقة لخدمة فعالة.

يتوجب على الجنرالات الذين يتحكمون بقيادة الاقليم أن يواصلوا بصرامة الحرب على القوات والقبائل التي تعترف وتخدم عبد القادر. ابعثوا بأمر للجنرال بوجو لبحث واختيار، ليس ببعيد عن تلمسان باتجاه معسكر، موضع محاذي للحطب والماء وملائم من كل النواحي الأخرى، من أجل إنشاء مخيم معطوق.

بقدر ما تسمح به الظروف، وبعد اختيار مدروس بعناية، سيقوم الجنرال بوجو بالبدء أو إتمام أشغال الحفر والتسييج التي ستجعل من المعسكر مركزا آمنا ومهما، بحيث انه سيأمن الاتصالات بين تلمسان و معسكر.

عليكم بالتداول مع المشرف العسكري مالسيون دارك حول الوسائل الواجب استخدامها، عندما يحين الوقت لذلك، للإنشاء و المتابعة بشكل دائم لعملية التموين بالمواد الغذائية بكل من مستغانم، بالتافنة، بتلمسان وحتى بالمعسكر المحصن بين تلمسان ومعسكر، إذا ما رأينا فيما يخص ذلك الاستقرار في مركز ثابت، والتي يمكن للفرق المشكلة للدعامة المتنقلة استخدامها والتزود منها في كل مرة يزوورون فيها أو يمرون بأحد النقاط التي قمت بذكرها.

وفي الأخير عليكم التنسيق مع عقداء المدفعية والمهندسين لترتيب، فيم يخص مجالهم، التدابير التي ترونها مناسبا اتخاذها في دائرة التعليمات الحالية

إقليم الجزائر والتيطري.

بمجرد وصولي إلى الجزائر، سأبدأ عملياتي على البليدة، القليعة، المدية ومليانة. خدمات التموين و النقل يجب ان يتم تأمينها. نقطة الانطلاق ستكون بوفاريك، ففي هذا الميدان و في الأول من سبتمبر، سيتم تجميع المؤن و المعدات بها في ذلك المعاقل التي سيتم وضعها في النقاط الوسيطة بين المواقع التي ستتخذها القوات من الشفة حتى المدية ومليانة.

ستقومون بالتقديم لي عند وصولي، الترتيبات التي حضرتموها لتأمين بأقل عدد ممكن من القوات أمن الميدان بالجزائر والمعسكرات أو المراكز انطلاقا من تلك المدينة وصولا إلى الشفة.

يتوجب على الحرس الوطني المشاركة، بطبيعة الحال، في خدمة الميدان. وكل أعوان (الضباط وغيرهم)الإدارة العسكرية يمكن استخدامهم بنسب معقولة.

في الوقت الذي أغادر فيه بوفاريك، معسكر الشفة سيصبح مقرا للعمليات العسكرية لقوات الحملة والذي حسب موقعه سيعتمد على البليدة والقليعة.

سيتم اتخاذ إجراءات مسبقا من طرفكم، لأجلان يتم إتمام هذا المقر بشكل مناسب، وكي يتم نقل المئونة من بوفاريك بطريقة سهلة.

بالسير نحو المدية، سأستقر عن طريق مراكز محصنة عند سفح جانبي مضيق الثنية وعلى مضيق الثنية نفسه.

نتيجة لذلك، سيكون جيش الحملة مزودا بالمعدات الضرورية للأشغال الواجب تنفيذها، وخدمات نقل المئونة والمعاقل سيتم تأمينها من الشفة الى المدية، لنقل المؤن والذخائر التي من الواجب أن تملكها القوات الباقية بهاذين الموقعين.

وأخيرا، سأنتقل من سفوح الأطلس (بالمتيجة) نحو مليانة أين سيترك 500 رجل من القوات الفرنسية سيكون لي مثل ما في المدية وفرة لتموينهم بالزاد والمعدات.

سوف تقومون بالتشاور، والتحضير لكل شيء، فيما هو من اختصاص رؤساء المدفعية والهندسة، مع المشرف العسكري.

اقليم قسنطينة.

سأتوجه الى عنابة في اجل اقصاه 15 اكتوبر ، لأتسلم شخصيا قيادة العمليات العسكرية ضد قسنطينة.

وبذلك، فانه في ذلك الموقع على الخصوص، يجب انهاء العديد من التحضيرات وخطوات كبيرة نحو الأمام قبل التاريخ الذي قمت للتو بالإشارة إليه.

تم إصدار أوامر من طرف وزير الحرب للإرسال الفوري إلى عنابة :

1°-الكتيبة الانضباطية المتواجدة حاليا بكورسيكا؛

2°-الكتيبة الثالثة من الصف 47 (الفوج المخصص للخدمة بإقليم قسنطينة)، وهي الكتيبة التي تكون أو التي سوف تصبح مكتملة بواسطة التجنيد لجنود ذوي إرادة صلبة مأخوذين من الأفواج بفرنسا.

3°- معدات المدفعية، لوازم التخييم والمركبات الضرورية للحملة.

وفور وصول القوات إلى عنابة، سيقوم العقيد دوفيرجي بمسيرة إلى أمام معسكر الذرعان وسيختار موقعا ايجابيا من كل النواحي بين الذرعان وقالمة وإنشاء معسكر محصن.

عليكم الاتفاق معه على الفور حول هذه العملية من أجل مساعدته بقدر ما يحتاج إليكم وعلى الخصوص إرسالكم له لثلاث أو أربع معاقل التي ستكون ضرورية له بالتأكيد.

وبمجرد الانتهاء من تشييد هذا المعسكر الذي يجب دفع الأشغال به بنشاط كبير، سيتوجه العقيد دوفيرجي إلى قالمة اذا ما سمحت الأحداث وعلاقاته الودية مع القبائل، أو سيتثبت في الموقع بصلابة وعلى الفور بطريقة تسمح بالتحويل المتتالي للمئونة والمعدات من عنابة إلى الذرعان ومن الذرعان إلى المعسكر المتقدم أماما ومن ذلك المركز إلى قالمة التي ستصبح نقطة انطلاق جيش الحملة ضد قسنطينة.

من المحتمل أن يحدث نقص في وسائل النقل ، خاصة الخيول ، لدى العقيد دوفيرجي، فيتوجب عليه سد هذا النقص بشراء عدد معين من البغال واستخدام الجمال وحتى الثيران التي يمكن ان يتم تزويدنا بها من طرف القبائل الحليفة.

لقد لاحظتم من خلال حالة وضعية وتنظيم القوات، أن 2000 من المحليين غير النظاميين براتب 1 فرنك لليوم ، يجب ان يخدموا بقسنطينة تحت أوامر الباي.

عليكم بتوصية العقيد دوفيرجي بالتشاور مع الباي يوسف حول حمل العدد الاجمالي على الفور الى 2000 لفيلق المحليين والذي تم تعليق عملية تجنيدهم قبل بعض الوقت. وليتم اختيار الرجال بحكمة وبصيرة.

وباستخدام الألفي رجل والدعم المرسل من عنابة، كورسيكا وفرنسا، سيتمكن العقيد دوفيرجي دون شك من التقدم على التوالي الى قالمة كما وضحت فيما سبق.

وبناءا على هذه التعليمات، يتوجب على المشرف العسكري ارسال طلب ملح الى وزير الحرب من اجل ارسال المعدات الضرورية لتأمين الخدمات التي يعنى بها في كل المواقع وبدون أي تأخير.

ويتوجب عليكم وبنفس الفعالية، و بعد الاتفاق مع رؤساء المدفعية والهندسة، التسريع بإرسال المدفعيات والمركبات لفرق الحملة بعنابة. يتوجب عليكم القيادة المباشرة لكل العمليات أو التحضير لها، في الأقاليم المختلفة: وبالنهاية، كل تفكيركم وكل مهاراتكم يجب أن ترمي الى هدف الوصول بنهاية السنة الى الهيمنة الكلية، الإخضاع والتهدئة للوصاية السابقة للجزائر العاصمة.

يجب الاعلان بعنابة عن وصول جيش معتبر لترهيب الأعداء وتشجيع أولئك الذين يسيرون او على استعداد للمسير معنا.

سأنطلق بعد بضعة أيام ، تواصلوا مباشرة مع وزير الحرب الى حين وصولي الى الجزائر.

فكما ترون، ايها الجنرال ، الظروف أصبحت ملحة وخطيرة : أدعو إلى التفاني و إلى النشاط الذي سبق وان قدمتم العديد من البراهين و هو ما يستحق الثناء.

تقبلوا مني، السيد الجنرال، الخ.

7.

الأجزاء المتعلقة بمعاهدة التافنة.

الوثيقة 1.

ملاحظات الجنرال دامرمون حول الاتفاق المبرم، في الـ30 من ماي، بين الجنرال بوجو وعبد القادر، موجهة إلى السيد رئيس المجلس وإلى وزير الحرب.

الجزائر في : 15 جوان 1837.

تم ابرام اتفاقية في الثلاثين من شهر ماي بين الجنرال بوجو والأمير عبد القادر. بدونه لا يمكن تفسير هذه الاتفاقية والتي تثير آلاف الاعتراضات: تتساءل كيف كان بالإمكان التكهن بنتيجة مثل هذه لكل المشاريع المعلنة والمجهودات المبذولة من اجل اضعاف الأمير. ونحن بصدد البحث عن الأسباب التي ادت الى نتائج كتلك الغير متوقعة والجد مؤسفة ، والنتائج المترتبة عنها على قوتنا ومدة استقرارنا في شمال افريقيا.

هذه الاتفاقية جعلت من الأمير حاكما على الواقع لكل الوصاية القديمة للجزائر منقوصا منها إقليم قسنطينة والمكان الضيق الذي أعجبه ان يتركه لنا على الساحل المحيط بالجزائر ووهران . تجعله حاكما مستقلا بما انه: معفيا من دفع اي جزية، تم تبادل لمجرمي المنطقتين، و لم يتم الحفاظ على الحقوق المتعلقة بالأموال و الصلاة، وانه سيصبح له أعوان دبلوماسيين عندنا مثلما سيكون لنا عنده.

وفي الوقت الذي تم فيه تجميع 1500 رجل بوهران من القوات الجيدة القيادة بإحكام ، والمجهزة بوفرة من المعدات؛ وبعد أن تم صرف مبالغ معتبرة ، وفي الحين الذي تم فيه الإعلان عن حرب ضروس، حرب إبادة بجلاء دون ان يستل السيف من الغمد؛ وفي الوقت الذي كان فيه كل شيء جاهزا للإطلاق الحاسم للحملات بوهران كما بالجزائر. أقول انه، وفجأة تم إعلامنا بإبرام معاهدة اكثر ملاءمة للأمير الذي لو انه كان قد فاز بألمع الامتيازات الا اذا تعرضت قواتنا الانتكاسات الأكثر عارا. فما الذي يمكنه المطالبة به مما يمكننا ان نقدمه له بعد خسارة تامة؟ قبل ايام قلائل ، كنا نريد أن نجبره وأن نفرض عليه السلام بمعنى وعلى ما أظن أن نملي عليه الشروط، وفجأة ودون أن يغير أي ظرف من الظروف الظاهرة من وضعيتنا او من وضعيته ، قمنا بإعطائه اكثر مما فكر في طلبه، و لم يتجرأ على تأمله بالتأكيد اشد المتحمسين المعارضين لاستقرارنا بشمال افريقيا.لقد قمنا بتوقيع معاهدة غير مشرفة لفرنسا،و قد تخلينا دون رحمة عن حلفائنا الذين عرضوا انفسهم للخطر من اجلنا و الذين سيدفعون ثمنه بأرواحهم؛ ويتم وضعنا بشكل ما تحت اهواء أعدائنا. وقبل بضعة أيام كنا نعطي الأوامر بعدم السماح وتحت أي حجة لعبد القادر بالخروج من مقاطعة وهران، وحتى أننا كنا نتكلم عن إيقافه بواد الفضة، و كنا نصر بكل حق على اهمية الحفاظ على المدية و مليانة من اجل تعيين بايات مستقلين وتجنب تركز كل القوة العربية في يد رجل واحد ، وهكذا و بمجرد خط ريشة تنازلنا لهذا الرجل عن إقليم التيطري، شرشال، جزء من المتيجة وكل أراضي منطقة الجزائر المتواجدة على حاشية الحدود التي سطرها لنا والتي لم تكن له مسبقا عليها اي سلطة او أطماع. و بهذا، كل تحضيراتنا وكل مصاريفنا وتهديداتنا لم تؤد إلا إلى نتيجة اسوء من تلك التي كان من الممكن التوصل اليها لو قمنا بالتفاوض من باريس من خلال افضل اعواننا الدبلوماسيين دون نقل اي جندي او صرف اي فلس.

نتائج الحرب كانت محسومة بما أننا قمنا بالتحضير لكل شيء؛ من اجل القيام بما عبد القادر لم يكن ليقبل المعركة وان كان قبلها كان سيهزم في كل مكان، سيتم تدمير فرق مشاته وتشتيت فرسانه وكان سيتم طرده شخصيا الى الصحراء كانت قواتنا قادرة على التجول بحرية في كل البلاد . كانت ستسلب ما يمكن وتقوم بإحراق الباقي. كانت ستنشر الرعب وستؤثر بقوة على مخيلة العرب وتقوم بإفهام الجميع انه يجب الاختيار بين السلام مع فرنسا او هجر بلاد يمكننا تدميرها كل سنة، حتى باستخدام فرق صغيرة. كان من المفروض على الأقل تجربة ذلك، فكل شيء كان جاهزا ؛ المصاريف تم استهلاكها ، جيش مليء بالثقة والحماس، فما الذي كنا سنخاطر به؟ و مهما افترضنا كون عبد القادر عنيدا ومتعاليا فان من المستحيل ان كل من هزائمه وتخلي فرقه عنه وانشقاق العديد من الزعماء عنه ، لم تجعل منه سهل المعاملة ؛ وانه في مجلسه لم تتعالى اصوات بان نجاحاتنا كانت من صنع الله وانه يتوجب الاستسلام. وحتى ولو انه تم تقرير اعطائه كل البلاد التي تقدمها له المعاهدة ، كان بسياسة أفضل لو تم ذلك بعد إقراره بقوة سلاحنا ومشاهدة العرب لقواتنا تدخل الى كل مكان، وهم وأملاكهم تحت رحمتنا.

وبالنهاية ، ما كانت أهمية التفاوض اذا ما اردنا القيام به بهذا الشكل ؟ لدينا القوة الكافية حتى لو دخلنا في حدود الميزانية العادية لأفريقيا من اجل استقرارنا الراسخ بالمتيجة وحوالي وهران. فمن كان يمنعنا من فعل ذلك؟ أن يعلن انه في الوقت الراهن، سننغلق داخل هذه الحدود ، وأننا نريد العيش بسلام مع العرب، وانه من الآن فصاعدا اسلحتنا لن تستخدم الا لحماية، داخل حدودنا، المستوطنين وحلفائنا أو لصد كل الاعتداءات.هذا النظام اذا ما تم اتباعه بكل مثابرة ، اعتدال و بكل طاقة ، كان من المفروض ان ينجح في وقت قصير جدا وكان العرب سيفهمون مزاياه بسرعة. وبما أنهم يعلمون جيدا انه من المستحيل

مقاومتنا او اكثر من ذلك اخراجنا من البلاد، كانوا سيعودون شيئا فشيئا الى عاداتهم التجارية وكان الهدوء سيعم لوحده. كان من الممكن ربما لعبد القادر ان يكبر رغما عنا ولكنه على الأقل ستبقى المسألة كاملة، سليمة ، لما كنا مربوطين، ولكنا حافظنا على إمكانية الاستفادة من كل الظروف المواتية وعلى الخصوص عدم المساس بشرفنا ولم يتم إهانتنا والتقليل من شأننا عند العرب.

بفرنسا توجد الأفكار الخاطئة كثيرا حول عبد القادر: نفرط من قوته، موارده، نظنه أميرا كبيرا ونضعه تقريبا على نفس المستوى مع باشا مصر. و يغيب عن نظرنا ان هذا الرجل لم يكن شيئا قبل أربع سنوات وانه نحن من أعطاه هذه المكانة والنفوذ الذي يتمتع به بسبب أخطائنا فنحن من صنعناه. وننسى تماما: كم تم إذلاله السنة الماضية، ولم نأخذ بعين الاعتبار حجم الكراهية والتناحر الذي أثاره، من اعمال السلب، انهاكه للعرب، و حاجتهم للتجارة معنا، البؤس و الاحباط الذي اصابهم، و أخيرا ،و هو أسوأ ما في الأمر، اننا لا نراعي سكان المناطق النائية الذين بعد ان طالبوا حمايتنا ، قاوموا العدو المشترك ورفضوا دفع جزية له وهاجموه وحاربوه وقاموا غالبا بإلهاء مفيد لقضيتنا. فكيف سيكون مصيرهم؟ وخاصة قادتهم الذين كدسوا اليوم كراهية وانتقام الأمير؟ هذه المعاهدة لا تنص على شيء لصالحهم. وبالتالي فإنهم سيشترون خضوعهم بإدانة تحالفنا وبالشروط الأكثر قسوة وكذا سيقوونه بدماء بعض المهمين من بينهم. و اذا ما نجحوا في الهجرة و طلبوا اللجوء منا فما الذي يكون مسموحا لنا الرد به؟

وأخيرا، لنرى المستقبل الذي تحضره لنا المعاهدة على حسب ما تم اقتراحه. أعترف اننا ننوي المحافظة عليها و انها ستدوم بضع سنوات؛ لأنه لو تفاوضنا فقط للحصول على هدنة لبضعة أشهر، أعترف انني سأفهم اقل هذا النظام، لأننا لن نكون ابدا في موضع في ظروف احسن للحرب مما نحن عليه اليوم؛ ولكن إن افترضنا أن السلام سيدوم ، مثلا ، ثلاث سنوات (و هذا الافتراض

ليس مستحيلا لأنه من مصلحة عبد القادر تمديد وضعية امور جد مواتية له) وربما سنراه يحسن استخدام الوقت لصالحه ليصبح القائد الروحي لهم حينها نعامله نحن مسبقا كحاكمهم المؤقت، لتشكيل دولة واحدة وكبيرة متراصة وجد منظمة، ولتجميع كنز كبير من الضرائب التي لن نجرؤ على رفضها وأكثر من ذلك بالتجارة التي ورغم الحرية المزعومة في المادة العاشرة ، لن تتم إلا بموافقته ولحسابه، وفي الأخير خاصة ، تحسين والرفع من وسائل الدفاع والعدوان ضدنا. محتاط جدا لكي لا يتحضر لصراع جديد محتوم من الآن فصاعدا، جد واعي لكي لا يعترف بتفوق تنظيمنا العسكري، ولكن جد حكيم على ان يقلدنا لمجرد المحاكاة وكي يفقد العرب مزايا خفتهم وتحركهم، بل سيستحوذ على اختراعاتنا التي يمكنه استخدامها. وعندما يحين الوقت لاستئناف الحرب سنجد عربا أكثر عددا، وأفضل تسليحا، وأكثر وعيا وأكثر ثقة. ستكون وسائل مقاومتهم قد ازدادت بقوة وحظوظ انتصارنا ستكون قد انخفضت بنسبة متعادلة.

قلت إن عبد القادر سيصبح الزعيم الروحي للعرب و للوصول الى ذلك سلوكه سيكون جد حاذق كما سيكون سلوكنا أخرقا. الصلاة كانت تقام في المنطقة كما لا تزال تقام في كامل المشرق باسم سلطان القسطنطينية. وقد تحصل الأمير على ان لقب السلطان سيتم تغييره إلى إمبراطور المغرب والذي يدعي انه قائم مقامه. فلنتركه يقوم بذلك وقريبا ستصبح الصلاة تقام تحت اسمه. واذا ما امسك يوما بهذا السلاح الفتاك في يده فانه سيصبح متحكما وباستطاعته تحريض الناس حسب إرادته وشحنهم ضدنا بذريعة مضاعفة من الدين والكراهية تجاه الأجانب.

واذا ما انتقلت الان الى تفحص بنود المعاهدة ، فإنني أجد أولا بأن الاعتراف بسيادة فرنسا كلمة مفرغة بما انه لم يتم شرح ما تتمثل عليه هذه السيادة تجاه عبد القادر. بل على العكس، ففي كل مكان يتعامل معه على قدم المساواة. يسخر

بعدم دفعه الجزية ، لديه الحق في اقامة العدالة باسمه ، صك النقود ؛ لأنه من الواضح انه اذا ما اردنا منعه كنا سنحرص على ذكر ذلك. عبد القادر ليس برجل يتجاهل هذه الملاحظة . فما هي إذن هذه السيادة التي بتفاوضنا معه جعلت منه الحاكم لكل البلاد؛ باستثناء زاويتين صغيرتين ابقتهم فرنسا لها؟ انه لمن الصحيح ان الأمير قد التزم بان لا يقوم بالتجارة الا بالموانئ المحتلة من طرفنا ، و بعدم وهب اي نقطة من الساحل الى اي قوة أخرى دون تفويض من فرنسا. أو ليس هذا الالتزام الذي اضفناه في الشرط الأخير يعتبر افضل اثبات على السلطة المستقلة لعبد القادر؟ و من ناحية أخرى هي غير واقعية قليلا، لان ما لن يفعله بدلس أو بشرشال، سيقوم به في أول ميناء صغير بالمغرب مع من لا ننوي عرقلة تجارته.

اذا ما تفحصت تعيين الحدود الناتج عن البند الثاني، أرى أنه بإقليم وهران، ستبقى مستغانم ومازقران منفصلتين عن وهران و أرزيو، بمعنى انهما ستبقيان في حالة دائمة من الحصار. بما اننا كنا سنحتفظ بهاتين المدينتين كان من الطبيعي ربطهما بالناحية التي في حوزتنا. ولهذا الغرض، عوض الانحصار في المقطع كان من المفروض الاحتفاظ بالجبال ما وراء النهر والتي تمتد على طول البحر ومنحدراتها في السهل ، وان لا نتوقف إلا عند مصب الشلف. هذا الملحق أفضل من ريو سالادو[1] والمناطق المحيطة بها.

في اقليم الجزائر، تعيين الحدود اكثر اختلالا ايضا. فما هي الحدود المماثلة للشفة التي في ثلاثة ارباع السنة لا يصل منسوب المياه سوى قدمين مما يمكن من اجتيازه من كل ناحية وتسكن الضفة المقابلة منه قبيلة من اكثر القبائل لصوصية و اضطرابا بالمنطقة؟ فلم لا نحتفظ على الأقل بالمتيجة ولم التنازل عن جزء من اكثر المناطق ثراءً دون مزايا ودون ضرورة؟

من المؤكد ان اطماعا كهذه كانت جد متواضعة، ولم يتم التشكيك ابدا ،

(1) ريو سالادو هو الاسم القديم لمدينة المالح بعين تيموشنت.

حسب معلوماتي، في حيازة هذا السهل وباحتلالها الكلي من شنوة التي تشرف على شرشال وصولا الى قمم الجبال التي تحدها جنوبا، لقد كنا سادة على طرق المدية ومليانة و مضيق موزاية (الثنية) ، هذا الممر الصعب الذي يعتبر مفتاح المتيجة من جهة والمدية من جهة أخرى.

البند التاسع يتم التنازل فيه، للأمير، عن جزيرة رشقون[1]. كان الهدف من حيازة هذه الجزيرة اعاقة العرب عن الحصول على السلاح والذخيرة بالتافنة . والمقرات التي أقمناها هناك كانت تستجيب لهدفها. فلم يتوجب التخلي عنها وما هي مصلحة عبد القادر من هذا الاخلاء؟ الامر له شقين، اما ان يحترم المعاهدة بإرادة حسنة وبالتالي وحسب البند 14 فانه سيتوقف عن القيام بالتجارة بالتافنة؛ او يعد بخرق هذا البند وفي هذه الحالة فان حيازة رشقون ستكون ضرورية لنا لضمان المراقبة.

البند الخامس عشر والأخير، هو كذلك اعتراف بالسيادة المستقلة لعبد القادر، لأنه سيضع أعوانا على قدم المساواة مع أعواننا. صفتهم الرسمية لم يتم تحديدها بعد، ولا شيء ينص على انه يتوجب عليهم الاعتراف بسيادة فرنسا واعتبار أنفسهم كمبعوثي نظام معين من طرفها وتابع لها.

وأخيرا ما هي ضمانات هذه المعاهدة؟ وما هو الرهن الذي يقدمه عبد القادر لفرنسا عن رغبته في احترام الشروط، عن صدقه وحسن إرادته؟ لا شيء. وقد ذكر الجنرال بوجو ذلك بنفسه. تطبيق المعاهدة لا يعتمد سوى على الطابع الديني والفكري للأمير. وانه للمرة الأولى التي تستخدم فيها ضمانات مماثلة في تسويات دبلوماسية . ولكن بعد ذلك كيف ستكون في مأمن من انقطاع غير متوقع ، من غزو مفاجئ وشامل، الذي سيفلس مستوطنينا ويكلفنا أرواح العديد منهم.

(1) الجنرال دامريمون كان مخطئا هنا. هذا الخطأ ناتج عن ما اسماه المعاهدة برشقون لموقع التافنة التي هي من قمنا بالتنازل عنها. انظر ملاحظة الصفحة 522.

وباختصار. المعاهدة ليست مكسبة، لأنها تجعل الأمير أكثر قوة مما يمكن لانتصار باهر القيام به، وتضعنا في وضعية متزعزعة، دون ضمانات ومتضايقين داخل حدود سيئة. وليست مشرفة، لان حقنا في السيادة لا يستند الى شيء وقمنا بالتخلي عن حلفائنا. لم تكن ضرورية، لأنه لم يتوقف علينا الترسخ بالمتيجة وحول وهران، وجعلنا ممن لا يمكن مهاجمتهم حفاظا على المستقبل.

من المؤكد ان السلام يمكن ان يعطي تقدما مؤقتا للبلاد؛ ولكن لنحترس منه! لا ننسى ان هذا السلام هدنة فقط، لمجرد تجنب نهاية فظيعة، يجب البقاء مسلحين، الحفاظ وتحسين وسائل حركتنا والاستعداد دوما لصد الاعتداءات الجزئية أو اتمام الحرب بشرف عندما يتم استئنافها. اذا ما اعتمدت الحكومة على المصداقية العابرة التي تلي هذا السلام، وان سحبت عددا كبيرا من قواتها، وان خفضت ولو بقليل من ميزانية المصاريف، فإنها ستفشل في مهمتها ومن شأنه تهديد مستقبل البلاد وكل المصالح القائمة وتلك التي ستوجد أكثر اعتبارا قريبا.

الوثيقة 2.

رسالة من الجنرال بوجو الى السيد الكونت مولي، رئيس مجلس الوزراء.

بمعسكر التافنة: 29 ماي 1837.

سيدي الوزير؛

لقد اعتقدت دائما انه يتوجب على جنرال أو رجل دولة ان يعرف تحمل جزء كبير من المسئولية أثناء المناسبات الكبيرة، إذا كانت لديه القناعة بأنه يخدم جيدا مصلحة بلاده. هذا المبدأ المحفور منذ زمن بعيد في ذهني قد نمت باستخدامه. لقد اعتقدت انه كان من واجبي ، كفرنسي جيد ومواطن مخلص ومطيع للملك، التفاوض مع عبد القادر حتى ولو أن تعيين حدود الأقاليم كانت مختلفة عن تلك التي اعطيت لي من طرف وزير الحرب.

ولقد قلت أن الوزير ومكتبه لا يمكنهم الحكم على الفروقات الدقيقة للمسألة بنفس طريقتي وانا متواجد بعين المكان ومع كل تلك الصعوبات.

وإضافة إلى ذلك فقد تعرفت من برقية لوزير الحرب في السادس عشر،انه لا يزال يسودنا بباريس أفكار كان من الممكن ان تكون صحيحة منذ سنة او ثمانية عشر شهرا، ولكنها لم تعد كذلك على علاقة مع الظروف.

ولقد أعلمتكم في برقية مني في السابع والعشرين(التي مرت بإسبانيا) الأهمية القليلة التي اربطها بعدم اعطاء عبد القادر هذه او تلك القطعة من الأراضي؛ و انني اجد مكاسب في اعطائه أكثر لأنه كان يوفر لنا ضمانات اكبر من الأمن

ومكاسب تجارية أكثر من بايات دون نفوذ أردنا إقامتها بيننا وبين الأمير. ان هذا الترتيب في الأفكار هو من دفعني الى تخطي التعليمات التي اعطيت لي. و فيما تبقى، فان الشروط هي اما مساوة او عليا مقارنة بتلك المصادق عليها من طرف وزير الحرب.

احتفظ لفرنسا على مستغانم وأراضيها، حتى لا نتخل عن اي نقطة ساحلية، مع أن التعليمات كانت تسمح لي فقط الاقتصار على مستنقعات المقطع.

وتحصلت على موقع جديد للتجارة مهم الى حد ما من الساحل، وهو مصب ريو سالادو الأحسن من التافنة؛ وأخيرا، تحصلت على تعويضات عن الحرب على شكل أغذية يمكن ان تطعم ألفي رجل وألف حصان بوهران لمدة تفوق السنة.

وبالتالي لا توجد سوى نقطة واحدة تخص تعيين الحدود اين بقيت فيها تحت الأوامر. آمل ان الحكومة سترى ان هذه النقطة لوحدها ليس بإمكانها ان تفشل معاهدة ستعطينا وعلى الفور علاقات سهلة ومضمونة في أكبر قسم من المنطقة؛ وستنشر الأمن الزراعي في سهل المتيجة وناحية وهران، ستوقف نزف دماء جنودنا وستسمح بالتأسيس في الأخير لشيء ما لمستوطنتنا واستقرارنا القوي على ارض إفريقيا، كما سيغلق الباب على التضحيات النقدية التي هي موضوع نقاشات حادة كل سنة في البرلمان.

ونأمل قريبا، أن انخفاض أسعار السلع الأساسية ستسمح بإطعام القوات التي نريد للحفاظ عليها في المنطقة، أرخص مما كانت عليه في فرنسا، وكذا خفض الرسوم الجمركية، مما سيجعل مكاسب التجارة ابتداءا من هذا العام تسترد النفقات التي صرفناها.

وانتظر أن يقال لي: أليست هذه سوى أوهام؟ من يضمن لكم صدق عبد

القادر؟ هل انتم متأكدون من انه سيطبق حرفيا المعاهدة وسيمدكم بالأمن التجاري والزراعي على أراضيكم وأراضيه؟ أشير إلى أن المعرفة التي اكتسبتها حول النزعة الدينية والصادقة للأمير، و نفوذه لدى العرب، أعطتني قناعة عميقة بأن جميع الشروط سيتم تنفيذها تماما. وانا أتكفل كضامن للأمير وأثبت إيماني وجوده بتحمل هذه المسؤولية الكبيرة على عاتقي.

ومع هذا ساعترف، بان فكرة واحدة جعلتني أتردد: فقد قلت في نفسي انه يلزم ثلاثة أسابيع الى شهر من أجل الحصول على مصادقة الحكومة على المعاهدة. هذه المساحة الزمنية هي الفصل وقت للحرب ضد العرب وستكون حملة بنصف ضائع، فما الفكرة التي سيأخذونها علي كعسكري؟ ولكم كيف تغلبت على كل تلك الوساوس: في البداية كنت أتصور كل ما هو بربري ومؤلم في إحراق حصاد شعب لا يطلب سوى التفاوض ومع من تفاوضت بالفعل؛ وبعدها، اعتبرت أن الحملة ستكون أكثر عكسيا اذا ما تمت في شهر جويلية الذي سيكون هذه السنة الوقت الفعلي لحصاد الحنطة، وبجانب ذلك سأجد في المخازن الشعير المحصود في شهر جوان، و اذا ما انطلقت الحملة في وقت لاحق، يمكن ان تمتد مدة أطول، بما انه وحتى الأول من جويلية سنحافظ على فرساننا، وسائل النقل وصحة جنودنا بحالة سليمة.
ولكن هل توجب أن نخسر كل الحملة، وهل هي أيضا اعتبار كاف لكي لا نحاول وضعية جديدة سوف تعطينا، حسب ما أظن، كل المكاسب التي ذكرتها؟ و اذا لم تعطني المعاهدة كل ما ننتظره منها، فألا يمكننا ان نقوم في السنة القادمة بما كنا نريد فعله هذه السنة؟ وهذا ما يخشاه العرب لأنهم فهموا جيدا كل القوة المدمرة لدعامة منظمة مثل التي أوردها، وقد ذكروا ذلك علانية ومبعوثو عبد القادر كذلك، انهم يعلمون جيدا انه من الصعب عليهم مقاومتي ومنعي من إحراق محاصيلهم بل سيفرون الى الصحراء لو كانت لديهم مؤن احتياطية وانهم سيعودون حين يجبرنا التعب على العودة الى مواقعنا.

ربما سيقال لي: كيف لم تتمكنوا من حصر عبد القادر في اقليم وهران مع كل تلك الأفضلية؟ لقد قمت، رغم الرأي الذي اظهرته مسبقا، بفعل كل ما هو ممكن فعله انسانيا للوصول إلى الهدف، وكنت حصلت من عبد القادر، المسلم نفسه، بعض التنازلات ، ولكن القادة الأخرين والمرابطين صرخوا عدة مرات انهم يفضلون الموت على التنازل أكثر من ذلك. فتوجب النقاش عدة مرات للتوصل الى البند الرابع الذي ينص على ان المسلمين الذين سيعيشون على أراضينا لن يكونوا خاضعين لسلطة الأمير. هذه النقطة كانت تخص الدين الذي يتمسك هؤلاء الرجال به إلى حد التعصب. ولم يلزم اقل من تلك النقاشات للحصول على تنازلات عن بعض الأراضي التابعة لقبائل مخلصة وكانت السباقة الى حماية عبد القادر من اي خطر. وباختصار، لا يوجد أي بند لم يتم احتدام النقاش حوله.

لقد طالبت بقوة بكل من تنس وشرشال، ولكن عبد القادر أجاب ان هاذين الميناءين محاطين بالقبايل والذي لا يملك عليهم سوى نفوذا دينيا، وأن هذه القبائل جد برية وجد مستقلة وإذا ما استقرينا هناك فإننا لن نتوقف عن الدخول معها في حروب كما يحدث معنا ببجاية و لكنه يعتقد انه يمكنه ضمان حصوله على حرية ممارستنا للتجارة بهاذين الميناءين. كان من الضروري الأخذ بهذه الأسباب التي أعتقد أيضا أنها صحيحة بناء على ما لدي من معلومات.

وأتشرف بان ألفت انتباهكم إلى انه اذا ما اعدنا تلمسان التي كانت مكلفة لنا، يمكننا الحيازة على مدينتين لم نحتلها بعد بشكل جاد وهما البليدة والقليعة.

أنا مقتنع تماما أنه كان من المستحيل الحصول على المزيد قبل القيام بحرب طويلة مكللة بالنجاح.

فما الذي سنخسره من تجربة نظام سيكون مبنيا على اسس الترتيبات التي أقدمت على القيام بها؟ فستمكن أولا من تقليص كبير من المصاريف الجارية ومن الخسائر التي تنتج عن الحروب من الرجال والخيول والبغال واللباس والمعدات والذخائر والسعر المفرط للمواد الغذائية،الخ.، الخ.، الخ.

ورقة وهران لن تكلفنا شيئا لإطعامها خلال هذه السنة من الاختبار، وسيكون لنا متسع من الوقت للتحضير ، في كل موقع، لاستئناف الحرب في شهر أفريل المقبل اذا شعرنا بخيبة أمل.

وفي انتظار ذلك، يتم إخلاء معسكر التافنة، ذو المقر المعيق، وتباعا لمبالغ أكثر من ثلاثمائة ألف فرنك بالمواد الغذائية التي تقدم لي كتعويض.

كلما أمعنت تفحص الاعتبارات التي قدمت، كلما ازدادت قناعتي بأن هناك حكمة في هذا العزم. النقاشات الأخيرة للبرلمان حول قروض إضافية للجزائر تدعمني على الأرجح. جميع الآراء التي تم الإعراب عنها تم تجميعها في المعاهدة التي عقدتها، والسيد تيار شخصيا الذي كان مرة من اشد مناصري الاحتلال المطلق وأصبح ينحصر الآن في منطقة معينة حول قواعدنا وله علاقات صداقة مع العرب. وبهذا كل شيء يخول اتفاقيتي، باستثناء فقرة واحدة من تعليمات وزير الحرب وهي: " يجب الإصرار على نحو مطلق، وأنتم تعلنون عن نية الحجز على المنطقة التي حددتموها حول وهران، ولحصر عبد القادر في اقليم وهران. وفي تلك المنطقة كذلك يتوجب ان تصروا على أن تكون الحدود واد الفضة أو على الأقل الشلف ولا تتنازلوا لعبد القادر لا على مليانة ولا على شرشال."

وال الأسفل :

"النقاط الثلاثة التي لا يجب ان تتنازلوا عنها هي : السيادة الفرنسية، حصر عبد القادر في اقليم وهران محدودا على الأقل بالشلف، بمعنى تركه خارجا عن شرشال ومليانة، والاحتفاظ بالمنطقة التي قمتم بتحديدها من الهبرة حتى ريو سالادو."

وما حثني على تخطي تلك التعليمات، هو أن الفكرة الأولية لتلك الحدود على ما يبدو انها أخذت من مراسلاتي مع الوزير، وبالتالي هي أفكاري نوعا ما التي أقوم بتعديلها بنفسي.

بعد ثلاث أو أربعة أيام سأغادر التافنة للعودة إلى وهران، إذا ما صادقتم على اتفاقيتي، اطلب البقاء شهرا او شهرين لوضع أسس استقرارنا بالمنطقة المحجوزة، ووضع البنيات التحتية لمستوطنة عسكرية او اثنتين. سأحضر لوزير الحرب تقريرا مفصلا حول كل ما اراه أساسيا القيام به، وأنوه منذ الآن الى البركات المالحة لأرزيو و ميناءها الجيد حيث من المفروض أن نقيم بالقرب منها منشآت لتجارة يمكن ان تصبح معتبرة .البركات المالحة يمكن ان توفر مدخولا جيدا. الروس من البحر الأسود و الشعوب الأخرى القادمة نحو اسبانيا لجلب الحديد ويعودون محملين بالملح سيفضلون المجيء الى أرزيو لأن الحديد يباع بسهولة ويجدون الملح هناك ولأنها اقرب من السواحل الاسبانية والمرفأ أكثر أمانا من فالنسيا حيث تتجه السفن عادة.

اذا لم تصادقوا على اتفاقيتي، أطلب مع ذلك البقاء للقيام بحملة جويلية، أوت وسبتمبر. وهذه ليست تضحية صغيرة لإصرار كبير اعتقدت انه من واجبي اتخاذه، لأنني ساحصل على تعويض كبير عن المضايقات التي تعرضت لها، عن خطأ دون شك في بداية مفاوضاتي، بكسب رؤية عائلتي الناتجة عن اعادة استدعائي. ولكنه إن توجب، لسوء الحظ، علينا القيام بالحرب، سيكون من العار علي العودة الى فرنسا قبل ان اثبت مرة أخرى انني بعيد عن الخوف منها.

فمع كلإحتراماتي،

سيدي الوزير،

خادمكم المطيع جدا والمتواضع، اللواء قائد فرقة وهران.

توقيع: بوجو.

ملاحظة: لقد قمت باطلاع بنود المعاهدة لكل الجنرالات والضباط السامين لفرقتي. وتم الارتياح لها بالإجماع، وتم التصريح بأنه ليس من الحكمة رفض شروط مماثلة. ومع ذلك كان الجميع يتوقون للقيام بالحرب.

الوثيقة 3.

رسالة الجنرال بوجو إلى الجنرال دامرمون.

بمعسكر التافنة: 29 ماي 1837.

جنرال،

انا أدين لكم بتصحيح وسأقوم به بكل صراحة. يؤكد عبد القادر انكم لم تقوما بتقديم اي اقتراحات من اجل السلام. اذن فقد تم خداعي من طرف دوراند الذي كان يلعب لعبة مزدوجة للحصول على تنازلات من الجانبين المتعاقدين بالكذب على الواحدة والأخرى. كان يعمل على الخصوص لمصلحة ثروته: انه رجل دنيء. لم استخدمه في هذه المفاوضات الأخيرة : بل تفاوضت بطريقة مباشرة.

تقبلوا اعتذاري، جنرال، وانزعوا من ذهنكم الانطباعات التي تركتها انتقاداتي التي ليس لها أساس.

تلقوا مني،.الخ

توقيع: بوجو.

الوثيقة 4.

رسالة عبد القادر للجنرال دمريمونت، التي كتبت بعد انتهاء السلام.

الحمد لله وحده.

أمير المؤمنين، سيد الحاجي عبد القادر، والمحافظ والحاكم اللامع دمريمونت، رئيس القوات الفرنسية في الجزائر العاصمة.

ليعم الخلاص والسلام ونعمة من الله ورحمته، على من اتبع طريق البر والعدل.

يجب أن لا نتجاهل السلام الذي حققناه مع الجنرال بوجو. وكنا نتمنى لو أن السلام قد تحقق من خلالكم، لأنك رجل حكيم، لطيف، و متعود على ما يمارس في مكتب ملوك، ولكن جنرال وهران، الذي كتب لنا أن لديه توقيع الملك للتعامل، كما حدث ذلك، كما أمضينا معه قرارا (مرسوما) مصدقا حول هذا الموضوع، كما وصلكم الخبر بأكمله. أنا الآن معكم حول النية الصادقة والمعاهدة الواقعة بيننا وبين الأمة الفرنسية. لتهدئوا اذا من جانبكم، وثقوا بأن كل شيء سيصبح جيدا وفقا لرغباتكم. وإنكم لن تصابوا بأي سوء مما يمكن أن يقوم به عرب الأراضي الموجودة تحت قيادتي، بجانب بوفاريك، ومتيجة والمناطق المحيطة بها. وفي بعض

الأحياء، ان شاء الله، سوف ساكون الى جانبكم. سأوقف الفوضى، وسوف أجعل كل المسائل والقضايا واضحة، سواء معكم أو مع الآخرين، بحيث لن يبق شيء يتنافى مع العقل. إذا كنتم بحاجة إلى شيء تحت سلطتنا، فسوف نرضيكم ولن نتراجع الى الخلف. ويجب أن يكون الوضع نفسه من جانبايم بالنسبة لنا. وبوصول رسائلكم ، أطلبوا ما تريدون، كما فعلتم ، كما سيكون الحال ذاتها بالنسبة للأمراء الأصدقاء. أنا أيضا، سوف أكتب لكم حول كل ما يتعلق بقضايا هذا العالم.

كتب يوم الجمعة مساء، في الثالث من شهر ربيع الثاني من العام الهجري 1253، بأمر من أميرنا أمير المؤمنين، الذي يجعل الدين منتصرا، ليحمه الله وليأت الخلاص من طرفه. - كما هو الآن.

الوثيقة 5.

مقابلة عبد القادر والجنرال بوجو [1].

الجنرال بوجو، الذي كان مدعما بموقف فارض لوجوده، تمكن من التغلب على الكثير من الصعوبات، وبعد العديد من الرحلات ذهابا وإيابا بين المعسكرين، وجهت له رسالة مغلقة وغير موقعة، ولكنها تحمل ختم الأمير لأن العرب لا يوقعون أبدا.

اقترح الجنرال بوجو لقاء (مواجهة) عبد القادر في اليوم الموالي، كان لقاء على بعد ثلاثة أميال من المعسكر الفرنسي وستة أو سبعة أميال من معسكر العرب. ثمت الموافقة على المقابلة دون تردد، ذهب الجنرال بوجو في اليوم التالي الى المكان المتفق عليه وكان هناك في الساعة 9 صباحا، مع ستة كتائب، ومدفعيته ومجموعة من الفرسان. وهذه هي المرة الأولى التي اضطر فيها إلى التواجد أمام الرئيس العربي، من غير حمل الأسلحة. لا يكون اللقاء ليخلو من تقديم فائدة كبيرة، وكان، في الواقع، واحدا من أكثر المشاهد المثيرة التي يمكن تخيلها.

تواجد الجنرال بوجو بعد تسع ساعات في الميدان مع القوات التي رافقته مع العديد من الضباط الذين طلبوا مرافقته، ولم يتم العثور على الأمير. هذا التأخير يفسر بشكل طبيعي بالمسافة الزائدة عن معسكره. كان على عبد القادر قطع سبعة أميال، في حين كان على الجنرال الفرنسي التنقل على بعد ست أميال فقط من جيشه. وبناء على ذلك، لم نقلق أبدا. مضت خمس ساعات من الانتظار، دون رؤية أي شخص، ودون أن يظهر أي شيء عن الزعيم العربي. وفي الأخير،

(1) هذا المقال، الذي نشر في ذلك الوقت في كل الصحف، يبدو ان لديه شكل شبه رسمي. كنا نظن أنه من الواجب تكراره.

الجزء الثاني

في حوالي الساعة الثانية بدأت بعد بعض العرب يلتحقون بالجنرال الفرنسي من بين العرب الذين كانت لديهم علاقات معنا، في الأيام الماضية، وقدموا بعض الكلمات كنوع من الأعذار عن التأخير.

كان الأمير مريضا ولم يغادر معسكره الا في وقت متأخر جدا، وربما كان سيطلب تأجيل المقابلة لليوم التالي. لم يكن بعيدا، وبعد ذلك كان قريبا، لكنه لم يصل . وفي الأخير، جاء رابع متكلم باسمه ليجعل الجنرال بوجو يتحرك قليلا الى الأمام، قائلا انه لا يستطيع تأخير لقاء عبد القادر. كان قريبا بحوالي خمس ساعات، أما الجنرال الذي أراد أن يعود الى المعسكر رفقة قواته، فقد قرر أن ينهي المسألة في نفس اليوم، فمضى قدما الى الأمام، متبوعا بأركانه.

كنا نسير دون خوف أو ارتياب. كان المسار صعبا جدا، وكان عليه عبور ممر ضيق، عبر التلال، حيث لا يمكن الرؤية بعيدا جدا. بعد المشي لأكثر من ساعة دون الالتقاء بالأمير، لاحظ الجنرال بوجو الجيش العربي بالقرب من الوادي، حيث وقفوا جانبا، في حالة منظمة إلى حد ما، على تلال صغيرة مبعثرة من أجل المراقبة بشكل جيد وواضح. في هذه اللحظة، جاء رئيس "ولهاسة" القبيلة، بوحاميدي، لمقابلته وليقول له أن عبد القادر قريب من هناك، على تلة أشار إليها باصبعه، وقال انه سوف يأخذه هناك.

كان الجنرال والوفد المرافق له في مواقع قريبة من العدو، وقد كان بامكاننا أن نحس ببعض الارتياب، ولكن لا يمكننا التراجع. كان الجنرال بوجو مطمئنا تماما، ولكن عددا قليلا من علامات التردد كانت تنجلي من حوله، وقال القبائلي: "كونوا هادئين، لا تخافوا." – أجاب الجنرال: أنا لا أخاف من أي شيء، وأنا معتاد على رؤيتكم، ولكن أجد أنه من غير اللائق من رئيسك أن يجعلني أنتظر وقتا طويلا ويأتي من بعيد. – انه هناك، ستراه بعد قليل."

إلا أن الأمر استغرق نحو ربع ساعة أخرى من السير من أجل لقائه. واصلنا السير وفي الأخير، رأينا الوفد المرافق للأمير الذي تقدم قليلا نحو الفرقة التي كانت بقيادة الجنرال بوجو. كان المظهر يفرض نفسه : يمكن أن نحسب (نحو) 150 أو 200 من رؤساء المرابطين، ذوي البنية الجسدية المميزة، والزي المهيب. كان جميعهم يمتطون خيولا رائعة كانت تضرب الأرض بأرجلها وتحملهم بأناقة ورشاقة كبيرة. وكان عبد القادر على بعد خطوات قليلة إلى الأمام، على حصان أسود جميل وهو يديره ببراعة مذهلة، في بعض الأحيان كان يحركه على أربعة أقدام لبعض الوقت، وأحيانا كان يمشيه على رجليه الخلفيتين. وقف العديد من العرب من أتباعه وقد أمسكوا الركبان، وأجزاء من برنوسه، و في اعتقادي، ذيل حصانه.

لتجنب تأخير الحفل وليبين الجنرال بوجو أنه ليس لديه أي تخوف، قام الجنرال باطلاق حصانه في عدو، وعند الوصول اليه، وبعد أن سأله إن كان هو عبد القادر، حاول أن يصافحه حيث مد يده مثل الفرسان فأخذ الأمير بيده وصافحه وهزها مرتين، ثم سأله عن حاله. - حسن جدا، أجاب الجنرال، وقام بسؤاله نفس السؤال، ومن أجل اختصار كل هذه التمهيدات، والتي عادة ما تكون طويلة جدا بين العرب، دعاه للنزول الى الأرض ليكون الحوار أكثر سهولة. نزل الأمير من الحصان ثم جلس، دون أن يجعل الجنرال بوجو يفعل مثله، ثم جلس الجنرال بوجو بجانبه. وكانت الموسيقى تتألف من صوت المزمار، تمنع المحادثة. أمره الجنرال بوجو بأن يصمت، فصمت، وبدأت المحادثة.

كان عبد القادر يبدو شاحبا، وكان يشبه كثيرا تلك الصورة (البورتريه) التي تعطيها تقليديا ليسوع المسيح. كان فمه واسعا، لم تكن أسنانه قليلة البياض الى حد ما وغير منتظمة، كما كان يتميز بالعيون واللحية البنية، و جمجمة متطورة (كبيرة). لم

يكن زيه يبدو مختلفا عن أزياء هؤلاء العرب الأكثر سوقية. كانت ملابسه في ذلك اليوم على الأقل، قلرق، وثلاثة أرباعها خشنة وبالية. هناك أيضا بعض البحث عن البساطة.

قال له الجنرال بوجو "هل تعلمون أن هناك القليل من الجنرالات اللذين تجرأوا على وضع معاهدة مثل تلك التي قمت بها معك. أنا لست خائفا من توسيعها والانضمام الى قوتك، وذلك لأنني متأكد من أنك سوف تسعى للفائدة والمصالح الكبيرة للحياة وستعمل من أجل تحسين الأمة العربية والحفاظ على السلام والانسجام مع فرنسا. - شكرا لمشاعرك الجيدة تجاهي، أجاب عبد القادر، إن شاء الله، سأعمل من أجل تحقيق سعادة العرب، وإذا ما تم تحطيم السلام، فإن ذلك لن يكون خطئي. - وحول هذه النقطة، حاولت أن أتحدث الى الملك الفرنسي. - عليك أن تكون آمنا للقيام بذلك، لدينا الدين والأخلاق اللذان يتطلبان منا أن نفي بوعدنا، وأنا لم أخلف وعدي أبدا". - أنا أعتمد على ذلك، و لهذا السبب أقدم لكم صداقتي الخاصة. - أنا أقبل صداقتك، لكن على الفرنسيين الحرص على عدم الاستماع الى الفتنة! - لا يجب تسيير الفرنسيين من قبل أي شخص وليست بعض الوقائع الخاصة التي يرتكبها الأفراد، التي قد تحطم السلام، والذي يشكل خرقا للمعاهدة أو تصرف كبير للعداء. أما بالنسبة الى المذنبين من الأفراد، فإننا سوف نعاقبهم بالمقابل. - هذا شيء عظيم، ماعليك الا أن تعلمني، وسيتم معاقبة المذنبين. سأوصي الكرغل الذين مازالوا في تلمسان. - يمكنك أن تطمئن لأنه سوف يتعامل معهم مثل "الحضر". لكنك وعدت بوضع "دوار" في بلاد "حفرة" (جزء من الجبال الواقعة ما بين البحر وبحيرة سغبة). - بلاد "حفرة" ربما سوف تكون غير كافية، لكنهم سيوضعون بطريقة لا تتداخل مع الحفاظ على السلام.

وقال الجنرال بوجو هل أمرت، وبعد فترة من الصمت، باستعادة العلاقات التجارية في الجزائر العاصمة وحول جميع ما تملك من المدن؟ - لا، سوف أفعل

[illegible] واستعادتي لتلمسان. - أنت تعرف أنني لا يمكن أن أعيدها لك ما لم تتم الموافقة على المعاهدة من طرف ملكي. - اذا ليست لديك القدرة على التعامل معها؟ - بالطبع يمكنني، ولكن يجب أن تتم الموافقة على المعاهدة: هذا ضروري لضمانك، لأنه اذا أمضيتها وحدي، فيمكن لجنرال آخر أن يحل محلي وينقض المعاهدة؛ وبدلا من اعتمادها من قبل الملك، سوف يكون خليفتي المحافظ عليها. - إذا كنت لا تريد أن تعيد لي تلمسان كما وعدت في المعاهدة، فأنا لا أرى ضرورة للسلام، وستكون هدنة فقط. - هذا صحيح، وهذا قد يكون هدنة فقط، ولكن أنت الذي يفوز في هذه الهدنة لأنه خلال الوقت الذي تستمر فيه، لن تدمر المحاصيل. - يمكنك تدميرها، ونحن لا نهتم، ونحن الآن صنعنا السلام، وسوف أعطيك تفويضا خطيا لتدمير كل ما تستطيع، ولكن لا يمكن أن تدمر سوى جزء صغير جدا فالعرب لا تنقصهم الحبوب. - لا أعتقد أن جميع العرب يفكرون مثلك، لأنهم يريدون السلام كثيرا، والبعض سيشكرني على ادخار الحصاد، من "شكيكة" الى هنا، وكما وعدت ل"أمادي ساكال". - ابتسم عبد القادر ابتسامة المتكبر ثم طلب كم من الوقت سيستغرق للحصول على موافقة للملك الفرنسي. - سيستغرق ثلاثة أسابيع. - انها مدة طويلة جدا. - أنت لن تخسر شيئا، أما أنا فبلى". اقترب خليفته "بن حراش"، من الجنرال ثم قال: " ثلاثة أسابيع فترة طويلة، ولا يمكن أن تنتظر أكثر من عشرة الى خمسة عشر يوما. - هل يمكنكم القيادة في البحر؟ أجاب الجنرال الفرنسي. - حسنا! في هذه الحالة، أجاب عبد القادر، سوف لن نعيد العلاقات التجارية إلا بعد وصول موافقة الملك وعندما يكون السلام نهائيا. - انك تؤذي اخوانك في الدين بأذى عظيم، لأنك تحرمهم من التجارة التي يحتاجون إليها، يمكننا أن نحول دون ذلك، لأننا نحصل عن طريق البحر على كل ما نحتاج إليه.

لم يعتقد الجنرال بأنه ركز بشكل جيد، وتسآل عما اذا كانت المجموعة التي تركها مع بعض الأمتعة في تلمسان يمكن تأمين مستقبل انضمامها إلى وهران، عما

أجاب عبد القادر بشكل مؤكد. وقف الجنرال، ولكن الأمير بقي جالسا، وبشكل يشير الى الرغبة في الحفاظ على الجنرال الفرنسي واقفا أمامه. ولكن ذلك لم يكن لفترة طويلة. قال الجنرال بأنه اذا وقف، أي الجنرال بوجو ، يجب أن نفس الشيء كذلك، ودون انتظار الإجابة، أخذ بيده وابتسم ورفعه من الأرض، مما أثار دهشة كبيرة لدى العرب الذين ربما كانوا قد وجدوا أن هذه الحركة خفيفة قليلا، وفتحوا أعينهم بشكل كبير. هذه اليد، التي مدها الجنرال بوجو اليهم كانت لطيفة وجميلة، ولكن صغيرة وضعيفة، والرجل نفسه لم يبد قويا جدا.

كان الوقت متأخرا عندما ودع عبد القادر الجنرال بوجو وافترقا، وقد حياه الأول بهتافات أصحابه المرافقين الذين كان عددهم كبيرا، والذين تواجدوا على طول التلال التي حملت الجيش كله. وفي نفس الوقت اندلعت موجات رعد طويلة وعنيفة، والتي تضاعفت أصداؤها لتضاف الى ما يمكن أن يفرضه هذا المشهد. كان الموكب يهتز بصرخات الإعجاب التي تسمع، والتحقت بالقوات التي جلبها الجنرال، للحفاظ على استمرار زعيم العرب والمنظر الجميل الذي شاهدناه والذي لا يمكن لأحد من هؤلاء الناس الحاضرين هناك أن ينساه أبدا في حياته.

شهود عيان قدروا ما يقرب من 10000 من الخيول في جيش عبد القادر، جمعت في عمق كبير من أسفل إلى أعلى التلال الصغيرة المنتشرة في الوادي، على طول خط أكثر من ميل. ولكنه لا يحمل آثارا منظمة وحساسة للغاية من الانضباط والتي من دونها يكون العدد غير مهم في الحرب. عثر الجنرال بوجو على قوته الصغيرة التي تركها على بعد أكثر من ميل، قلقا بعض الشيء حول رحلته المليئة بالمغامرة وبالفعل، عندما عاد مع المرافقين له، كنا ننظر فيما إذا كان علينا المضي قدما لدعمه صدفة. على الرغم من 10000 رجل التابعين لعبد القادر، اعتبر الجنرال بأن الفرص لم تكن

متكافئة للغاية. قال إن "العدد، لا يفعل شيئا في القضية؛ ليس هناك وجود الا للتفرد وليس القوة الشاملة. وهذا من شأنه أن يسرع مع كتائب المشاة الست لدينا خطوط المدفعية الخاصة بنا".

وهكذا انتهى هذا اليوم الذي من شأنه أن يترك ذكريات لا تمحى. لقد ثبت ان عبد القادر كان يريد السلام بجدية ، والآن، إذا كان هذا السلام مصادقا عليه، مثلما يعلن عنه الجميع ، فإن هذا سيشير لقواتنا، التي لا تقل ذكاء عن شجاعتها، وعبقرية تعليم ضباطنا في الجيش الأفريقي، الى بداية حقبة جديدة ومثمرة.

8.

العلاقة المفصلة للاعتداء والاستيلاء على قسنطينة، في 13 أكتوبر 1837.

من طرف السيد النقيب دو لا تور دو بان، من الهيئة الملكية للأركان.

كانت الساعة تشير الى 07:00 وكان كل شيء جاهزا: العقيد لامورسيار والفرق الأولى للزواف وقفت ملتصقة بجانب بطارية الحامية، وكان رأس الطابور يضغط على الفتحة التي هيئناها في المتراس. أعطى الدوق دي نيمور، الذي عين منذ البداية، قائدا للمقر، ووفقا لأمر الجنرال العام، الإشارة لبدء الاعتداء. وعلى الفور، خرج العقيد لامورسيار ومجموعة من ضباط الهندسة والزواف، تليهم قواتهم بسرعة من التطويق مع نوع من الاندفاع والتهور الوارد والمنضبط، وهي في حالة فرار إلى سفح الحامية. وفي لحظة، وعلى الرغم من صلابة المنحدر والانهيارات الأرضية والأنقاض التي انهارات في عداد المفقودين، مع كل حركة، تحت أقدام وأيدي المهاجمين، وقد تم تحجيم ذلك، ويمكن القول أن ذلك كان لصالح طلقات نار بنادق المحاصر، لأنه في بعض الظروف المعينة، يكون الخطر مساعدا وليس

عقبة. وقريبا تم وضع (غرس) العلم بالالوان الثلاثة من طرف كابتن (النقيب) الزواف غاردوورون، على قمة الحامية (الفجوة). وبمجرد ظهور أول رؤوس الفرنسيين من البطارية خارج ، كان أعلى المتراس (السور الواقي أو المعقل) وكأنه اشتعل بالنيران، كان اطلاق النار على طول هذا الخط مستمرا، وكل المساحة التي كان جنودنا قد خصصوها للبطارية في الحامية قد عبرت باستمرار بالرصاص: ومع ذلك أصيب عدد قليل من الرجال في هذه الرحلة. كان المنحدر والسفح والأرضية الصغيرة فوق الحامية، نيران الجانب بجدران (بناء) قديمة، كما لا يزال قائما لدعم السور الحديث، والذي كان يمتد إلى ارتفاع كبير. كان بين خطرين، مثل ميناء صغير حيث أعمدة الهجوم يمكن إصلاحها: الجهد المبذول لتسلق المنحدر الوعر، تم تنفيذه على الأقل بدون مزيد من الصعوبات التي تقف في هذا المجال. وصلنا إلى قمة الحامية، وكان هناك شيء أكثر ترويعا، أكثر شرا من وجود العدو. لغز جارح، على استعداد لابتلاع من لا يحله؛ هي منشئات غامضة وغير مفهومة وطعجات (غرز) تضم مقاطع والتي لا تؤدي إلى أي مكان ومظاهر المدخل بدون أي مخرج، مداخل ونتوءات مختلطة، أشباه المنازل التي لا أحد يعلم لها أي اتجاه، أو الاتجاه الى الأمام، إذا جاز التعبير، أين يوجد سراب خطير يوفر صورة مخيبة للآمال عن زاوية المدينة، حيث لا شيء يفهم عما يشكل مدينة حقيقية. لكن رصاصات العدو تعرف الطريق، وكانت تصل دون معرفة المكان الذي تمر عليه،

وكانت تضرب دون أن نستطيع الإ عليها. في الأخير، بعد أن تم تفتيش الأراضي جيدا، مرت الفرقة التي تم تعيينها في دور العمل على اليمين، عن هضبة صغيرة مكونة من الانقاض المكدسة، التي تظهر أسفلها، وفي سطح مبنى كبير نلاحظ قوسا كبيرة مزينة لـ"كوديات عاطي"، واحدة من البطاريات غير المحاطة بالسور، وتظل المدافع ثابتة فيها وراسخة على استعداد للدفاع عن أجزائها. وفقا لأمر قائدهم، النقيب سانزي، الذي كل لحظات قليلة بعدما ، تسرع الزواف، دون اطلاق رصاصة واحدة إلى الحربة على العدو، على الرغم من التصرف الرهيب الذي قام به من مسافة قريبة، من وراء قطعة الأرض التي تحميه، وعلى الرغم من اطلاق النار الذي كان غزيرا والمنبعث من الأسوار ذات الفتحات التي أحدثت في المنزل الكبير. قتل وجرح العديد من الزواف، وملازم الفرقة كسرت ذراعه بثلاث رصاصات،ولكن المدافعين دفعوا غاليا ثمن جرأتهم. سواء اندهشوا من الاندفاع في الهجوم، لم يكن هناك الوقت للاعتراف، وسواء كانوا قد حسموا أمر موتهم في مناصبهم، فإنهم لم يحاولوا الهرب وقتلوا جميعهم في البطارية. كانت الفرقة المنتصرة أمامها، لا تزال ترى الأعداء: أبعد بكثير على طول الجدار، في أرض منخفضة، خارج زاوية المبنى تقريبا توجد بطارية ثانية، مدافع تركية تنتشر وراء المتراس، وقد تشكلت مع كارة (عربة تستعمل للجر) و عربات مكسرة (محطمة) ويبدو أنها مصممة على تحمل العبء الأكبر من المهاجين. لكن هؤلاء (المهاجين) لم يسمحوا

لأنفسهم بعيدا أن يأخذهم النجاح بعيدا وفي الأخطار الأخيرة حيث يتم تقديم الفخ لهم، إذا ما خاطروا بالمزيد وبهذه الطريقة، سيتم اسقاطهم بنيران المبنى الكبير: انهم يشعرون بذلك، وهم يعودون أعقابهم، سوف يحاولون دخول المنزل لطرد المدافعين، وبالتالي ضمان سلامة الجزء الخلفي من مجموعتهم قبل الاستمرار في مطاردة العدو من موقع الى آخر في الاتجاه الذي أملي عليهم. في الواقع، عادوا إلى نقطة البداية، انتهى بهم الامر باكتشاف، وراء الحطام المحيط بهم، مدخل هذا الموقع الكبير (الواسع) والذي أصبح موضوع الاستيلاء عليه ضروريا. تم تحطيم الباب ، قتل بعض العرب وهم يدافعون عن أنفسهم، هرب البعض الآخر، ولكن بقي أكبر عدد، من دون مقاومة فهربوا، ولا أحد يعرف أين كان المخرج. أصحاب هذه المباني العظيمة، التي كانت مخازن للحبوب، وجنود الهندسة الزواف الجنود لا يتلاعبون مع محاربة رجال المتراس، وفتح منافذ حديثا قد يستغرق جهدا، فنزلوا عبر عدة نوافذ بمساعدة سلم حملناه معنا، وسرنا الى الأمام نحو العدو. كان هذا الأخير يرى أن الأمر انقلب عليه، وكان يبدو أقل تحمسا للموت بكل فخر ما لم يكن عليه جنود المدفعية في البطارية الأولى. قتل بعضهم في المعركة، ولكن معظمهم سرقوا: كان هذه جبهة المقاومة الأخيرة التي من شأنها المشاركة للقضاء الطابور الأيمن. بعد هذا النجاح الثاني، مشى جنود الهندسة وضباط مختلف المجموعات بصعوبة كبيرة، بعد أن حفروا الجدار لينشئوا بالفأس منافذ أكثر بدلا مما

هي عليه، وتلقي طلقات نارية دون أن تتمكن من ردها؛ لكنها لن تعود للقاء العدو لمنع مسارهم وإجبارهم على تمريره على الموقع. كان لديهم الاستعداد للوصول إلى الباب الأول على يمين الحامية وعلى استعداد لفتحها عندما يتوقف القتال.

فمن أمام الطابور الأوسط تواجد عقدة الصعوبات والمركز الرئيسي للمقاومة والمخاطر: كان العقيد لامورسيار يقود بشكل أكثر تحديدا هذا الهجوم. فقد حان الوقت للمضي في المساحة الضيقة التي مسحتها قذائفنا في أعلى الحامية، دون فهم كيف يمكن للتواصل أن يكون موجودا على هذه النقطة بين الأرض المليئة بالأسوار وداخل المدينة. خلق المدفع أرضا من تربة وهمية وأنقاض، التي تتداخل مع التربة الأصلية، والتي أثارت خارج، قطعت الطريق وسدت المنافذ، وغيرت كليا حالة الأماكن. اتجاه العبارات النارية تشير إلى أن السقوف كانت نقطة البداية. و على الفور جلب العقيد لامورسيار السلالم، وصعد على سطح أحد البيوت الذي احتللناه، وقد كان لديه فوق القتال الأرضي كطبقة عليا للقتال الجوي. كان النقيب (الكابتين) سانزي، قادما ليحل محل العقيد في هذا التنظيم ليتلقى رصاصة قاتلة. بعد فرز ممرات عدة كانت تبدو هناك شوارع لا تؤدي الى أي نقطة، وانتهى بنا الأمر بمقابلة شخص على بعد خطوات قليلة، ذو أهمية في الوجهة اللاحقة. على كلا الجانبين يتم تنفيذ هذه الفرز المربعة، والتي تستخدم في المدن الأفريقية في المحلات التجارية.

كان معظمها نصف مغلق، تم بلوحات وأنواع من مصراع النافذة. وبمجرد دخول هذا الممر، من طرف بعض الجنود واذا بتفريغ (اطلاق نار) مزدوج، آت من هذا المحارب (جمع محراب) على اليمين وعلى اليسار، ليحذر من هذه الأماكن التي تستخدم ككمين للعدو. لكنه هذا الأخير الذي اعتقد انه باطلاق النار قد أوقف مشي المهاجين، وقد رأوهم يصلون الى الحراب بثبات الى الأمام، ولم يكن هناك وجود لوسيلة دفاع أخرى غير ياتاغانه منذ تم تجريده من نيرانه، لقد كان يندفع في هذه الثقوب دون مخرج، بدلا من أن تكون مأوى بالنسبة له، أصبحت فخاخا. العديد من هؤلاء الهاربين قتلوا، والبعض الآخر هرب واختفي كما لو كانوا قد تمكنوا من التغلغل في الأرض أو الجدران. كنا نتقدم، وبعد بضع خطوات، وجدنا أنفسنا قبالة الباب، وكان قوس بناء يعبر الشارع، ولوحات خشبية صلبة تعيق المرور. لم يكن يشتبه في وجود هذا الحاجز، الذي يعتبر شرح سبب وجوده صعبا، كان يبدو كخط متواصل من المنازل، السائدة على طول وداخل الجدار واعتبرت كضميمة ثانية، ومن خلال هذا الباب، يتم وضعها في اتصال مع الجدار أو معزولة. ويضرب هذه اللوحات بأعقاب الفأس والبندقية ندرك أنها ليست مثبتة بشكل دائم، بل بشكل متحرك، ومصممة لتوفير عبور سهل للمدافعين، إما للتراجع أو لحركة هجومية. ومع ذلك، وبسبب المخاوف من العجز وعد قدرة الوسائل المستعملة في هذا الممر، وقد جلبنا الحقائب، ومسحوق البارود، حيث كلف العديد

من خبراء المتفجرات بمسؤولة التصرف بها في الظروف المماثلة، ولكن قبل أن يضطروا إلى اللجوء الى استخدام هذا المورد، تمكنا من تخفيف هذا الحاجز. اجتمع العرب معا في الشارع، ووراء الباب، ولجأوا في هذا الوقت الى حمل أسلحتهم الجاهزة، عندما يرون الوقت المناسب لاطلاق النار، ويجعلونها تشبه السماء الممطرة بالرصاص في صفوفنا (موقعنا). أصيب نقيب الهندسة لوبلان بكسر في الفخذ بعيار ناري كاد أن يكون قاتلا، فيما كان العديد من الجنود ضحية هذه النيران. ثم اندفع نقيب الزواف ديموايان ، لإغلاق الباب، وبينما يسلط جهده على هذه الكتلة، ضرب في الحنجرة، برصاصة فأصيب بجروح قاتلة، ولكن لا يزال يتنفس، تحت تأثير الأخطار الأخرى الأكثر فظاعة، والتي سيتسلم في وسطها قريبا. على بعد خطوات قليلة وراء هذا المشهد كانت تحدث واحدة من أكثر الأشياء اثارة للحزن والكتابة . إسقاط مبنى صغير، ليكون سببا في تشديد ضيق الممر ليسفر عن خنق كل حشد الجنود. كان ذلك اما عن طريق تأثير صدمة صاخبة وغير منتظمة لحركات الفرقة العسكرية ، أو نتيجة لمؤامرة من العدو ومن الضغوط التي مارسها عمدا على هذه القطعة من البناء، مما من شأنه أن يجعل الجدار يدمر في نهار. ضربت هذه الكارثة القوات خصوصا الفرقة 2 من المشاة، وأصيب العديد من الرجال دفنوا كليا. قائد الكتيبة سيريني الذي عاش تحت الأنقاض التي غطته حتى الصدر للحظات قليلة ملأها العذاب في صرخات يائسة مناشدة للإغاثة واختنق في غياب

الوقت لإغاثته، حيث استنفد جهوده غير المجدية لتحريك الكتلة المؤلمة الموضوعة عليه وشهد جسمه وهو يتحطم ويلقى حتفه الجسم ببطء.

وبمجرد انتهاء هذا الحادث واذا بمصيبة أخرى اندلعت هي الأخرى وهي أكثر بشاعة. وضعت نار قناصة عل الأسطح وربما بسبب الخوف قليلا لتجاوز هذه العقبة والتقدم إلى الوجهة المركزية، ومن أجل توضيح وضمان الممرات، بدأ العقيد لامورسيار للتو باطلاق المجموعة 2 من كتيبة أفريقيا. وفجأة شعر أولئك الذين كانوا في الساحة في هذه الأحداث وكأن وجودهم في انهيار. وضربوا بقسوة في كل الاتجاهات وفي آن واحد، بحيث أصبحوا لا يشعرون بما يمرون به، كانت الحياة لحظة وانتهت بالنسبة لهم. وعندما استعادوا وعيهم قليلا، كانو يبدو لهم أنهم يغرقون في الهاوية، وأصبح الليل يخيم عليهم، مع إحساس بغياب الهواء وشلل في الحركة، وكأن شيئا سميكا، وصلبا، يغلف كل أجسادهم، كانت هذه قذيفة أحرقت جلدهم في أجسادهم. العديد ممن تمكنوا من الخروج من الصاعقة عانى من ألم حاد، و النار تأكل أجسادهم، وتعلق عل ملابسهم وتتبعهم أينما ذهبوا؛ اذا كانوا يريدون بذل جهد بأيديهم، فيجدون أيديهم تحترق. يجب الاعتراف بأن هذا اليوم ولدنا فيه من جديد، كنا نسعى لتمييزهم وما يحيط بهم، وقد أدركوا أن عيونهم لا ترى مجددا أو لا ترى إلا من خلال وجود سحابة. العديد منهم لم يمر الا بمجرد أزمة كئابة وصدمة من الدرجة الأولى من تلك المعاناة. البعض،

ثم تجريدهم من ملابسهم، وقد جردت بشكل كامل تقريبا من بشرتهم المسلوخة، والبعض الآخر في هذيان عشوائي وصرخات غير واضحة. ومع ذلك، فإن الكلمات الأولى التي تسمع بوضوح تلك التي تقول: إلى الأمام! إلى حربة! وقد تلفظها من كانوا أقل اصابة، وبعد ذلك كررت بشكل كبير حتى من قبل أولئك الذين لم يعودوا يفهمون معناها. حدث انفجار في المكان. كان أول مركز رئيسي لهذا الانفجار يبدو أنه قد تم عند الباب، ولكن اذا حكمنا من خلال المدى الأرضي للحركة والاضطراب وبعدد الحوادث المماثلة التي تكررت من حولها فانها مختلفة وبعيدة تماما عن بعضها البعض وعن هذه النقطة، كنا نعتقد أنها ستشتعل بشكل متعاقب وسريع في عدة منازل. وربما يجد المحاصرون، في المكان الذي يوجد فيه رأس نقيبنا مخزنا لمسحوق البارود، والذي اشتعلت فيه النيران قبل وقوع الحادث، بدلا من تنفيذ خطة معدة مسبقا للعدو. عندما انتشر الهواء زادت أكياس مسحوق البارود التي كانت عل ظهور عدة خبراء المتفجرات، من قوة الانفجارات وتضاعفها. كما كانت الخراطيش التي حملها الجنود أيضا، بمجموعة كبيرة مراكز ونقاطا للنار، ومصدرا للاشعاعات، التي تعبر في كل اتجاه، وهي مليئة بالنار لتسفر عن هذه المشاهد الكارثية في هذه الحلقة الرهيبة. في كل هذه الصدمات، وفي إطار عمل القوات المتباينة جدا، كانت التربة قد تأثرت وحفرت، وقد تمزقت الأرض وارتفعت كدوامة عالية في الهواء. انهارت الجدران وسقطت

إلى أسفل، وكان الجو متصلبا. كنا نتنفس رمال الحطام فقط ، يبدو وكأن النار تمكنت من الدخول عن طريق الفم و الخياشيم، والعيون، وكل المسام. كانت هناك بعض لحظات من الارتباك، ولا أحد يعلم أين كان مكان الخطر: انتابتنا الرغبة في الفرار، من كانوا خارج مجال نشاطها جاءوا والتحقوا بالبقية، والبعض ممن أمكنهم الهروب، جعلوا النيران تلتحق بهم، معتقدين أن كل المساحة متضررة وأن الجميع سيكون معطوبا تحت هذه الجدران وكان عليهم رمي أنفسهم أمام الموت. المحاصرون، الذين قمنا بابعادهم عن الأماكن الأقرب الى فوهة هذا الانفجار، كانوا أقل معاناة، خارجين من الاضطراب الذي ظل فيه المهاجمون في نطاق هذه الكارثة، وعادوا إلى الشارع مرة أخرى حيث تخلوا عن العديد من الأسلحة النارية لدى مجموعات من المحروقين بشكل جزئي، من جراء الانفجار، والتي كانت مكدسة في جميع أنحاء الباب، وبعد الانتهاء من تحطيم كل ما هو صالح للاستعمال من أجل الدفاع عن أنفسهم، لجأوا إلى الياتاغان حيث وجهوا (الطعنات) لكل من لا يزال يتنفس، وحتى الجثث.

ومع ذلك، وبمرور اللحظة الأولى من المفاجأة الماضية، وبمجرد تلاشي الحجاب الكثيف من الدخان والغبار الذي سيطر على الجو بعض الشيء اليوم، من كانوا قادرين على إعالة أنفسهم و استخدام أسلحتهم، على الرغم من أن عددا قليلا جدا منهم كان في حالة جيدة، ساروا بأنفسهم الى المواقع الأكثر أهمية للاحتلال. تم إرسالالطابور الثاني من الهجوم لدعم الأول،

وبمجرد حفر هذه الأخيرة أخدودا في المدينة حتى اختفت، وتركت فجوة حرة واضحة. وجاء العقيد كومب مع مجموعات من الفيلق الخارجي 47، تقريبا عندما كان هذا الحادث قد وقع، وتسلم القيادة من العقيد لاموريسيار، الذي تعرض للجروح وفقد بصره في ضوء الانفجار الذي توقف قبل بضع لحظات. وبعد التعرف على حقيقة الوضع والحفاظ على البعض من رجاله بطريقة لضمان ما تم الحصول عليه، مما يعني توسيع دائرة الاحتلال. تراجع الأعداء الذين عادوا بعد الانفجار بجرأة الى الخلف، وهم يعتقدون أننا أبعدنا الغبار من الانقاض، وانسحبوا قليلا مرة أخرى، ولكن دون الخروج من الشارع الذي كنا نريد فتح ممره. تعرضوا لكمين تقريبا قبالة الباب، خلف كومة من الحطام و من الجثث التي شكلت نوعا من الحاجز أين كانت النار القاتلة، وبات من الضروري طردهم من هذا الموقف المفاجئ بدافع من القوة. أمر العقيد كومب فرقته لإزالة هذا الحاجز، واعدا بالصليب أول من يحقق ذلك . كانت الفرقة تندفع ضد التطويق، وهرع الملازم أكثر، عندما سقط تحت اطلاق نار الأعداء. ومع ذلك لم يصب هذا الضابط، فبعد أن تعثر ضد عقبة، هوى بالاتجاه المعاكس لاطلاق النار، ومن كان في الخلف أصيب بالنار قليلا. اصيب النقيب بضربة قاتلة، وقتل العديد من الجنود وسقط الكثير من الجرحى. وكان في هذا الوقت العقيد كومب، المشرف على هذه العملية، قد تعرض لاطلاق نار برصاصتين، أصابته واحدة منهما في الصدر. بعد

ضمان النجاح الكامل للحركة التي أمر بها، انسحب ببطء من ساحة المعركة، وعاد وحده، بهدوء وبرودة، إلى بطارية خرق، وأعلم القائد العام حول الوضع في المدينة، وأضاف عددا قليلا من الكلمات البسيطة ، قائلا انه يشعر بأنه مصاب بجروح خطيرة. و برؤيته صامدا في مشيته، وطبيعيا في موقفه وتصرفاته وكلامه، لم تكن لنصدق أن هذا الرجل ترك مكان المذبحة للموت. كان هناك في هذا المشهد شيء من الخطورة، من الافتخار الهادئ، والجمال الصارم من الموت العتيق، ما يشبه الاجلال المسرحي.

وبملاحظة أن البطارية راقبت صف القوات التي دخلت بالفعل الى البلدة فتراجعت واختفت من الأماكن التي يمكن رؤيتها فيها، وأرسلت قوات جديدة معدودة، لسد الثغرات التي تشكلت واستجابة للمتطلبات المتعاقبة حسب الموقف، ولكن دون إعاقة حركة أو التضييق على مسرح العمل. كان الطابور الثالث من الفرقة، تحت قيادة عقيد المشاة 17 ، وكان بشكل كلي تقريبا في المكان ، بالرغم من أن دائرة العمليات لم تكتسب بعد الا تمديدا بسيطا جدا. اختفاء الزعيمين، العقيد لامورسيار والعقيد كومب، اللذان قادا أول حركة، ترك الأمر معلقا و غير مؤكد. لم يتمكن الجنود من رؤية أي هدف كان في أي اتجاه معين يشار اليهم بشكل إيجابي، دائما بنفس الجرأة وتحدي الخطر، ولكن بقوا دون حل حول كيفية الهجوم،

والتراجع كثيرا، والتقدم قليلا، وتضييع الوقت في القتال والموت. على يسار الطريق كان لدينا الخط الرئيسي للهجوم، أطلق العنان لتقاطع الطريق الذي وصل بواسطته الى الجانب الأيسر للمهاجمين اطلاق نار رهيب. أمضينا فترة طويلة في التصدي في هذه النقطة لطلقات النار، ولكن في هذه المعركة لا يمكن تحقيق السيطرة على العدو الذي لا يطلق النار الا من جدران المنازل أو عن طريق فتحات المباني. ومع ذلك، فإن موقف القوة الذي بدا عليه، تم توجيهه بصمت واختفى تحت قيادته. تحلت مجموعة من الزواف، بدعم من خبراء المتفجرات عن الحرب في الشوارع، وهو أمر خطير وغير ناجح للمهاجمين، وبدأوا في حرب المنازل، والتي كانت لصالح الطرفين بالتساوي تقريبا. مجموعة أخرى من نفس التنظيم، رمت بنفسها تماما إلى اليسار ، مما أدى هجوم متماثل تماما، والتي وجهت البداية ضد بطاريات اليمين. ووجد أيضا جنود من المدفعية التركية الذين دافعوا عن أنفسهم حتى الموت، في بطارية معقل. من هناك كانت تسير ببطء وبصعوبة، وغالبا ما كانت شبه عمياء، عبر الأزقة وباحات المنازل السرية، وغالبا ما يفقد أثر ادارتها، وقال انه للعثور عليها، وجب ثقب الجدران وكسر الأبواب بأعقاب البنادق والفأس، لقهر العقبات والعبور على الطبيعة الخاملة. ولكن بمجرد أن أفزعنا الجانب الدفاعي، جعلناه يكفر غالبا على جهوده البطارية، وكان يبدو في هذا الطريق أكثر خجلا

وغير واثق، وان كان العدو خائفا، فقد تأخرنا في التركيز على المحيط، وايجاد أنفسنا محصورين بين مختلف الخطوط الفرنسية التي فرضت في المدينة، وهذا ما يعني أنه ما كان أكثر تصميما كان أكثر تركيزا على الوسط ولم يعد في الطرفين، حيث ظلت أجزاء من السكان الأقل دفئا، والأقل سطوعا والأقل كثافة.

تقدمنا إلى الأمام دون الاقتراب كثير جدا من الجدار، ونجح الزواف دون معرفة الأماكن وتحت التأثير الوحيد لإلهامهم، الشارع المؤدي إلى القصبة، كبرى الممرات في المدينة، والتي تمر الى كل موقف، والشارع الاستراتيجي الحقيقي من خلال عبور هذا البلد العدو. إذا منحت لهم لحظات قليلة قبل أن يتوقف الناس عن الأعمال العدائية، لتم تطويق المدافعين في جميع المواقع حيث وقفوا وجها لوجه لهجومنا المركزي، و هددوهم بقطع تراجعها، وألقوا بالرهبة بينهم لمنحهم القوة للمقاومة لفترة أطول.

في الأخير، سلكت ثالث مجموعة من الزواف اتجاها وسيطا بين الجدار والشارع الرئيسي، وتغلغلت من بيت إلى بيت، وساعدت على إيقاف أو إزالة نار العدو على يسار الهجوم الكبير. كما وصلت الى مخزن واسع للحبوب، حيث واجهت مقاومة قوية جدا. العناد الذي دوفع به عن هذا المبنى جعلنا نفترض أنه مركز النشاط. في الواقع، بعد الدخول بالقوة في

هذا الموقف، عبرنا على جثث العديد من الأتراك و"القبايل"، الذين قتلوا هناك، وعبرنا عن طريق الممرات والسلالم الداخلية التي توصل الى باب منزل حيث كان يخرج صوت ووقع أقدام معلنا احتلال المنطقة بالقوة، ورائحة العطور أشارت الى أن هذا المنزل ربما كان لشخصية فخمة وأنيقة. فتحنا الباب، و قبل أن يكون لدينا الوقت للاعتراف بأن جميع الغرف العلوية مليئة بالمدافع، بدأت هذه المدافع باطلاق النار عند المدخل بكل هذه الأسلحة. وكان نقيب المجموعة على رأس الفرقة بين نائب ضابط وجندي، وقد قتل أحدهما فيما تعرض الأخر لاصابة وكان النقيب الوحيد الذي لم يصب. أغلقوا الباب ثانية وملئوها بالثقوب، والتي استخدمناها كمنافذ لاطلاق النار على المدافعين في الفناء الداخلي. عندما لاحظنا ضعف صفوفهم وقرارهم، بالرصاص، قمنا باقتحام المنزل. معظم الأعداء هربوا، إلا عددا قليلا ممن حارب حتى آخر لحظة، حيث هلكوا والأسلحة في أيديهم. كان هؤلاء يبدون عبيد هذا المنزل، وكانوا محملين بالذهب، كان لديهم كنز ملاك المنزل. وقد كانت امرأة زنجية خاضعة لسيدها، من بين جثث الموتى، حيث قتلت عن طريق اطلاق النار، وكانت مسلحة بياتاغان ومسدس. وعثرنا في زاوية من الشقة على صندوق صغير مليء بالذهب، ومن الأرجح أننا أخرجناه من مكان اخفائه، ووضعناه تحت الحراسة، عندما فوجئنا بالهجوم. كان هذا منزل

بن عيسى، ملازم باي "أحمد". عندما بحث الرابحون وجدوا أمامهم شارعا كاملا من المقاتلين من الأهالي. كان هذا الشارع نفسه الذي انطلق منه اطلاق النار الذي وصل الى الخط الرئيسي للعمليات، وأوقف صفوف المهاجين. عندما كان تركيز اطلاق النار خلف المنزل الذي جاء الزواف للاستيلاء عليه، قام هؤلاء بعمل فتحة في الجدار من الجانب العلوي من الطريق، ورموا من خلالها الأثاث رميا والوسائد، والسجاد والجثث التي تم العثور عليها في الشقة، وشكلوا كتلة بين المتحاربين ومقدمة مجموعتنا الرئيسية، كنوع من الحاجز الذي اعترض اطلاق النار الكثيف. يمكن بالتالي لحركتنا المركزية أن تستأنف مسارها. وعلى بعد مسافة قصيرة وراء هذه النقطة التي توقفنا عندها، كان تقاطع عدة شوارع متباينة، وقد أصبح من الممكن جمع أكبر عدد من قواتنا في مختلف الاتجاهات، وذلك لتداخل وقطع خطوط العدو، وتوسيع وتطوير عمليات شبكة الدفاع بأكملها، والتي ينبغي أن نضيقعليها ونخنقها. ربما كان هذا بدون شك نتيجة كبيرة سرعان ما أدت بالسكان الى وقف الأعمال العدائية.

ومع ذلك، فإن القائد العام، كان متمنيا أن يعطي الهجوم مزيدا من الوحدة، وأمر الجنرال روليار أن يذهب لتولي قيادة القوات التي كانت في المكان. عندما دخل هذا الجنرال الى المدينة، عرف أن المسافة التي تفصله عن الأعداء لا تزال قصيرة جدا، بما أن وصول رصاصهم كان على بعد

خطوات قليلة من المكان حيث وقع الانفجار. بعد التأكد من أنه يمكن وصف مساحة كبيرة إلى اليمين، ولكن هذه الطريقة، بتحويل العدو سوف تكون بطيئة وغير فعالة بشكل كبير، لأن كل هذا الجزء من المدينة تحل عنه السكان المسلحون، وتقدموا إلى الأمام لعبور أول شارع على اليمين، حيث كانت النيران تحدد الحركة المركزية. كانت نيته بالعودة بعد ذلك الى اليسار لربح أعلى منطقة من المدينة، واتخاذ المدافعين في نصف دائرة الهجوم، ولكن لم يكن لديه الوقت لتنفيذ مشروعه. وصل الى مستوى المتحاربين الأكثر تقدما، وعندما شهد أحد المور مقبلا إليه وفي يده ورقة مكتوبة: كان الرجل الذي كان يمثل سلطة المدينة ليطلب منا التوقف عن الأعمال العدائية. قام الجنرال بوقف إطلاق النار ووجه المبعوث الى القائد العام. وعندما عرف هذا الأخير بالرسالة التي يلقي بواسطتها كبار ونبلاء المدينة، مسؤولية الدفاع على "القبايل" والأجانب المرتزقة، وهم يتوسلون أن نقبل باستسلامهم، أعطى ردا إيجابيا، وأمر الجنرال روليار بالاستيلاء على المدينة. مضى هذا الجنرال على الفور الى القصبة، والمحيط لاحتلال هذا الموقع الهام، لو كان حرا أو يدخله بالقوة، إذا كان بعض أتراك أو "قبايل" حامية المدينة يعتقدون أنهم سيحتوون الدفاع عنها كما هو الحال في القلعة، على الرغم من استسلام السكان. ويدخول هذا المبنى، اعتقدنا في البداية أنه مهجور، ولكن بالتقدم عبر المباني التي

كان مزدحما بها نحو حافة المنحدرات المحيطة بالجانب الخارجي، لوحظ آخر المدافعين، من أولئك الذين لا يقبلون الهزيمة، وفضلوا الغرق في الوديان، الطريقة الوحيدة التي تمنع تراجعهم . أما البعض منهم، وقبل ان يختفي في الأعماق، استداروا مرة أخرى لتفريغ بنادقهم على الفرنسيين الأوائل الذين كانوا هناك.

عندما كنا فوق الهاوية تماما، اكتشفنا مشهدا فظيعا. منحدر سريع للغاية وقع على أرض القصبة على رأسي الجدار الصخري الذي توجد قاعدته على الحجارة الضخمة الحادة. عند سفح هذا الجدار، في هذا الطابق من الجرانيت، تواجدت أجساد محطمة ودموية من الرجال والنساء والأطفال. كانت موضوعة الواحدة فوق الأخرى، ولونها قاتم وغاضب، من الكيفية التي ألقيت بها في الزقاق أمام الجميع في مشهد بشع، يمكن اعتبارها في البداية كومة من الخرق . ولكن بعض الحركة التي خانت الحياة جاءت للكشف عن الحقيقة الرهيبة. لقد لاحظنا أيادي وسيقان منفصلة تلوح وترتجف في لحظاتها الأخيرة من التشنج. كسرت السلاسل، التي كانت تعلق على الأوتاد العلوية من الصخور، حيث يمكن رؤيتها وهي مازالت معلقة، وهو ما أوضح هذا اللغز المخيف: أيقظ السكان من السكينة التي كانوا ينامون فيها، حتى لحظة السقوط في الكرب والفزع، فهرعوا إلى أجزاء المدينة التي كانت مأوى

لضرباتنا، بهدف ايجاد طريقهم إلى الريف. هؤلاء المساكين في دوارهم، لم يعتمدوا على العدو الأكثر وحشية وعنادا، الذي يمكن أن يكون نحن الفرنسيين المنتصرين، على هذه الأماكن المميتة التي لا يمكننا عبورها دون الإفلات من العقاب. وهناك عدد قليل من الآثار للماعز والرعاة "القبايل" موجودة في اتجاهات مختلفة وكثيرة، ولكن الحشد كان متوجها من خلال هذه المنحدرات التي لم يمكن التوقف عندها: وصلت التيارات (المجموعات) الأولى الى حافة الشلال، مدفوعة بالتي سبقتها، ولا يمكن احتواؤها وهي تدخل الهاوية، وأصبحت تشكل شلالا مخيفا من البشر. عندما تم تخفيف الضغط بالموت، اعتقد هؤلاء الفارون الذين هربوا من هذا الخطر الأول أنهم تمكنوا من إيجاد وسيلة آمنة لمواصلة الطريق المحفوفة بالمخاطر، حيث انزلقوا على طول الحبال المثبتة على الصخور، ولكن بعدم القدرة على تنفيذ هذه المناورة أو التسرع، هو بكون الحبال غير قوية، تكررت نفس النتائج لأسباب أخرى، وهناك كانت سلسلة طويلة من السقوط القاتل.

بعد وضع موقع في القصبة، ذهب الجنرال رولبار إلى شيخ المدينة، لضمان حفاظ السكان الرئيسيين على النظام، والاعلان عن المنشآت الكبيرة والعامة والمتاجر المملوكة للدولة. انتقل بعد ذلك عبر الشوارع، بتجميع قوات الجنود التي بدأت في الانتشار دون أمر في جميع الجوانب،

و وضع الحرس في جميع النقاط الهامة. أصبحنا أسياد قسنطينة، وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات من الوقت بعد الاستسلام (التنازل عن المدينة)، دخل الجنرال العام والدوق دو نيمور الى المدينة و ذهب لاحتلال قصر الباي أحمد. لقد كان مشهدا غريبا ومخيفا بالنسبة لأولئك الذين كانوا في القلعة، القادمون من الخارج، دون إعداد لهذا المنظر: إنه يشبه مشهدا من الجحيم، مع السمات البارزة، لدرجة أنه تحت هذا الانطباع، يقتنع العقل، من صدمته، أنه يتصور ذلك، لأن هناك أهوال إذا كنا خارج جميع معطيات التجربة، فمن الأسهل أن تبدو وكأنها مسوخ يولدها الخيال من أن تظهر ككائنات قدمها الواقع. ومن خلال الصعود الى القلعة، والوصول الى القمة، كان الجو يبدو دافئا سميكا؛ يملأ الفضاء تدريجيا. بالوصول الى الجدار، لم نعد نتنفس هواء الأحياء، كان بخارا خانقا، مثل الذي ينبعث من المقابر المفتوحة، مثل غبار عظام محروقة . وبالمضي قدما، يمكن أن نرى رؤوسا وأيادي بارزة من تحت كومة من الركام في الأرض، فيها البعض ممن لقوا حتفهم تحت أنقاض منزل منهار، وأبعد من ذلك، كانت الفوضى من الجثث مكدسة فوق بعضها البعض، محروقة ومسودة ومشوهة للعديد من العرب والفرنسيين، من القتلى والمتوفين. كان هناك جرحى تحت الجثث الغارقة في الانفجار الذي أطاح بأقدامهم. رأينا أن اللون الطبيعي قد اختفى تماما في الظل الذي صنعته النار والبارود،

وجثث أخرى تلاشت ملابسهم تماما وتركتهم عراة. لم يبق هناك الا شيء وحيد ليس له اسم، شيء أسود، مترهل، ذابل، تحول تقريبا الى فحم، مع سطح في حالة يرثى لها، والدم يخرج من كل المسام، ولكن دون أن يتمكن من السيلان، وهذه المجموعات الصغيرة عديمة الشكل التي تصدر نوعا من الصراخ، وآهات والأصوات الكئيبة، التي كانت تشكل منظرا مهيبا، يجمد من الخوف. ما تسمعه الآذان وما تراه العينان، وما تتنفسه الخياشيم لا يمكن التعبير عنه بأي لغة.

بينما كان الهجوم جاريا، وحتى قبل أن يبدأ، ومنذ الصباح الباكر، ظهرت حركة غير عادية للهجرة موجودة حول المكان. من "كوديا آتي"، رأينا الحشد العالقة بين المدينة والمنحدرات، والمتواجدة في هذه المساحة، التي تتعرض للمد والجزر الذي تسببت فيه دون أي أدنى شك صعوبات وكوارث التسرب. على حافة واد عميق وجميل يبرز المشهد الذي كان يحدث فوق قمة الصخور، وتختفي عن الأنظار بعد ذلك كل تلك التقلبات المتعددة، ولكن عثر عليه في وقت لاحق، عندما يخرج من الوادي ليتخذ الف اتجاه، وعلى طول المنحدرات التي تحيط بمعسكر الباي أحمد. نحو هذا المركز كانت صفوف الرجال المسلحين الخالية من الرجال الكبار العزل والنساء والأطفال، وجميع المجموعات الموجودة بين الخطوط الرئيسية المحتشدة عبر الحقول. كان جزءان من

الجبل، يوصلان نحو الحافة العلوية للجزء الأمامي لـ"كوديات أتي"، وتم اطلاق بعض القذائف القليلة في منتصف هذه المساحة المتحركة للرؤوس والبرانيس التي تغطي ضواحي المدينة الأقرب إلى مواقعنا. الهزات التي تلت سقوط كل قذيفة أشارت الى وجود آثار قاسية ناجمة عنها. ولكن بتقدم الاعتداء، تباطأ طلقات أسلحتنا، كما لو أن النجاح كان مضمونا مرة واحدة، ونخاف من سحق العدو المهزوم.

وبمجرد تعرفنا على المباني الرئيسية في قسنطينة، تم اختيار واحدة منها لتأسيس مكان للإسعاف؛ مباشرة بعد وقف الأعمال العدائية، تم جمع الجرحى من مكانهم، وأخرج الموتى من تحت الركام، ووضعوا أمام احدى بوابات المدينة. وتم نقلهم بعد أن أصبح الملتجأ الجديد المتوفر على الأفرشة الكثيرة التي وفرتها المساكن المجاورة بشكل كبير. وفي الوقت نفسه، خصصت مواقع أمام كل مخازن الدولة خوفا من أيتناولها التبديد والفوضى ، مثل الدودة القارضة، التي تعتمد على هذه الودائع، في كثير من النواحي، لاتخاذ قرارات مصيرية في احتلالنا. وكان جزء من قواتنا في المدينة، في حين أن البقية واصلت انشغالها بالمواقع السابقة. الجنود المتواجدون في الداخل والخارج، الذين مروا من خلال المراوغة والمسارات الحادة التي كانت ممنوعة عليهم، انتقلوا بحيوية مدهشة الى جميع البيوت التي بقيت مفتوحة، والتي تم التخلي عن معظمها، حيث

تمت إزالة الأغطية، والسجاد والفرش والملابس، وكل الأشياء التي وقعت بين أيديهم. العديد من الضباط أظهروا، في هذه المناسبة، سخطا كبيرا وتقشفا رواقيا (رزينا)، لأسباب خاصة تعود الى حال بعض الجنود المساكين الذين اعتقدوا، بعد الحرمان الشديد، أنه يمكنهم الاستمتاع بعناصر الرفاه. هؤلاء، في الواقع، اعتقدوا بذلك في قوانينهم، عند العمل على التزود ضد اضطرابات الطقس وصعوبات التخييم على حساب العدو الذي وقع بعد استنفاد قواه بدلا من التراجع، لتجنب كلا الطرفين المصائب الشديدة، والذي لم يمد فرع السلام لخصومه الذين يسبحون في الدم. في صباح اليوم الثالث للاحتلال، تم استعادة النظام. كان الجنود الموزعون في الشوارع التي تم تعيينها بشكل منتظم للفرق المختلفة، مشغولين بتنظيف أسلحتهم وملابسهم، كما هو الحال في الماضي في شوارع أوروبا. قل عدد السكان كثيرا بسبب هروب خمسة أو ستة آلاف شخص بسبب الخوف من أسلحتنا التي فصلتهم عن منازلهم على التوالي، وتم تغيير ذلك بعودة كثير من الأسر. رأينا السكان في بعض الناس الشوارع التي تم التخلي عنها على وجه التحديد في مساء يوم دخولنا، جالسين أمام أبوابها بكل هدوء، وهم يشكلون أمام منازلهم دوائر صغيرة، حيث جثم البعض أمام البعض الآخر، وهم يتحدثون بلامبالاة كبيرة، كما لو أنه لم يتم تجاوز حدث غير عادي في هذا اليوم،

وكان عليهم فقط أن يرووا قصصا من الماضي أو عن بلدان بعيدة، وليست حقائق لا تزال ساخنة، والتي كانوا من الجهات الفاعلة فيها، والتي كانوا فيها ضحايا.

9.

ملاحظة على ممتلكات الدولة في الجزائر، والاستحواذ على المباني التي شيدت من قبل الأوربيين.

قلنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، أنه توصلت إدارة المنطقة (الممتلكات) بقوة البحث والعمل، الى المعرفة بدقة كبيرة إلى حد ما ما تملكه الدولة في الجزائر. يجب أن نشكر الرجال الذين يعملون بجد لتحقيق ذلك الأمر الذي يعتبر مهمة مفيدة، التي أصبحت صعبة للغاية والمصالح الفردية التي يتآمرون من أجل تضليلها، و تشتيت الوثائق الرسمية، والنتيجة المؤسفة لاضطراب الغزو.

قدمنا في المجلد الثاني من الحوليات، في الجزء الثاني عشر، صفحة 127، أسماء المزارع المعترف بها ضمن ممتلكات الدولة في ذلك الوقت في محافظة الجزائر العاصمة، والتي وضعت في مكان يسمح لنا بالتحرك الفوري. وقد قدمت الكثير من هذه المزارع تسليمها بمسح الأراضي المنتظم العادي، والذي أرشد الى المساحات والموارد المضبوطة. تم منح معظمها بشكل طفيف مابين سنتي 1835 و 1836، لكنه عادت في وقت لاحق الى الإدارة والتجار الذين لم يكملوا التزاماتهم، حتى تتمكن الدولة، والتي بدت للحظة مجردة تماما،

وعادت لتصبح المالك لهذه الأرض الجميلة جدا والتي قد تصبح لصالح الاستعمار الحقيقي. وبعد ذلك تم اكتشاف ممتلكات جديدة للدولة. نذكر تلك الموجودة في فرغن، ما بين بوفاريك والقليعة، وهي كبيرة وجميلة جدا.

الممتلكات الريفية، الأكثر أهمية بالنسبة للاستعمار هي نتاج ما يقرب لاثني للضريبة في هذا الوقت. وهي لا تمثل الا القليل جدا في دخل 187.349 فرنك فرنسي، التي أجريت في عام 1837، والتي لا تتكون بالكامل الا من إيجار المباني الحضرية المملوكة للدولة بأعداد كبيرة، والذي تقدره الادارة قيمة رأس المال 1.100.000 فرنك فرنسي. في مجموع 187.349 فرنك فرنسي، التي تحدثنا عنها في وقت سابق، لتنضم الى 44.445 فرنك فرنسي التي جمعت من إيجارات ممتلكات الأتراك المحتجزة في عام 1830. من حيث المبدأ، يجب أن تعاد هذه الممتلكات، وقد أعيدت جزئيا عندما ظهر أصحاب الحقوق وقدموا سندات الملكية. ولكن هذا التعويض كان يمشي ببطء، سواء بسبب إجراءات معالجة الطلبات، أو فقط بسبب عدم وجود أكبر عدد من المالكين.

جزء من الدخل من الممتلكات يتم تخصيصه لمنحة النوافير في المدن والباقي يدفع للخزينة.

خلال وقت قصير من تكليف الجنرال دمريمونت بالقضايا المدنية، أنشأ سجلا من عمليات الاستحواذ خارج الجزائر العاصمة، والفحص في ضاحية الجزائر العاصمة من بداية الاحتلال إلى 1 جانفي 1837[1]، وجد أن هذه المقتنيات بلغت الرقم 1.134 من الممتلكات في جميع الأنواع بالنسب التالية:

الحدائق والمنازل الريفية	201
المنازل والمحلات التجارية	223
المزارع والأراضي الصالحة للزراعة	710
المجموع	1.134

هذه الممتلكات، وفقا لبيانات عقود المبيعات تنقسم الى المواقع التالية:

بني خليل	358
بني موسى	185
خشنة	71
متيجة (دون تسمية أخرى)	20
حدائق البليدة	179
المنازل والمحلات التجارية في البليدة	203
حدائق القليعة	3
المنازل والمحلات التجارية في القليعة	28
عمراوس، ايسير، بني جاد، حيجوط، وصوزاية سوماتا (صومعة)	43
بوحي أو بجاية (التذاكرة)	7
دون أي تسمية	38
المجموع	1.134

ويترتب على هذا البيان أن هناك ثلاثة أرباع من الممتلكات على الأقل تم

(1) تم هذا العمل بوعلية واهتمام السيد فرعون، المترجم التابع للإدارة الأهلية الرابعة

اكتسابها والحصول عليها خارج الإقليم المخصص لفرنسا بموجب معاهدة التافنة. أقول، على الأقل، لأنه لا يمكن لنا أن نعرف بالضبط أين تقع هذه الممتلكات التي لا تحمل تسمية أخرى في مواد عقود البيع، في تلك الخاصة بمتيجة الغامضة جدا، وأكثر من ذلك تلك التي لا تحميل أي تسمية.

من المحتمل ان تكون مفاجأة أن تعلم أن البيع قد جرى دون تعيين المباني التي تم بيعها. ولكن أعني بغياب التسمية اشارة دون معنى، والغش واضح نتيجة جهل المشتري، الذي كان غالبا ما يشتري، ما لم يكن له وجود في الواقع. كما تمنح عقود البيع من قبل الأفراد المعرفين تحت اسم "وليد" أو "بن"، المرتبطة بممتلكات تسمى الحوش أو التراب، والتي تقع في أماكن تدعى "أوتان". ومع ذلك، كل هذه الأسماء هي عامة: "وليد" "بن" تعني الابن، والحوش يعني المزوعة والتراب يعني الأرض و "أوطان" تعني البلد. يبدو الأمر كما لو، في فرنسا، عند تقديم عقد للبيع يلخص على النحو التالي: الابن باع للسيد أرضه التي تسمى الأرض، والتي تقع في القسم . بالتأكيد سيكون من الصعب جدا تحديد موقع هذه الخاصية (الملكية).

على أي حال، الممتلكات 1134، سواء كانت حقيقية أو وهمية، تم الاستحواذ عليها من 1830 حتي 1836، من طرف 539 فردا مصنفا على النحو التالي:

الأوربيون..476

المسلمون..39

اليهود..24

المجموع........................539

تم تقسيم عدد الباعة 1082 كما يلي:

المسلمين..989

الأوربيون..90

اليهود..3

المجموع........................1.082

إذا طرحنا مجموع عدد تلك المقتنيات من تلك التي تمت من قبل المسلمين واليهود، و 90 عملية بيع التي ظهر فيها الأوربيون كبائعين، نجد أنه لا يزال في أيدي الأوربيين 981 ملكية. وتنقسم هذه الممتلكات كما هو موضح فيما يلي:

المزارع والأراضي الصالحة للزراعة 609

الحدائق والمنازل الريفية 177

المنازل والمحلات التجارية،
الواقعة بالقليعة والبليدة........................ 195

هذه الممتلكات المختلفة المقدمة وفقا لحسابات تعتمد على المساحات المعلنة في عقود البيع، المقدرة ب164523 هكتار. إذا طرحناه من هذا الرقم 11070 هكتار، وهي مساحة الممتلكات التي تم شراؤها خارج أراضينا من قبل الأوربيين، سيكون هناك 153453 هكتار بالنسبة الى العقارات المكتسبة على المكان نفسه أن الحسابات الأكثر براعة لا يمكن أن تعطي أكثر من 140000. ولذلك نرى، أنه لو كان بامكان الأوربيين شراءها كلها، فلا يزال وجود سوء تقدير لمساحة 13453 هكتار. لكنهم بعيدون من شراء كل شيء. ومع ذلك،

أعتقد أن لديهم نحو ربع مباني البلاد، والذي هو كبير عندما نفكر في أن كل هذا موجود بين أيدي 476 فرد فقط.

العديد من المعطيات الخاصة بالمساحة خاطئة في عقود البيع. قام المور بإجراء لعبة مفيدة، بفضل سذاجة من الأوروبيين، الذين يعتقدون أنهم يشترون أماكن مربعة مقابل عدد قليل مئات الفرنكات. والآن، عندما يصلون الى التحقق من ذلك، غالبا ما يجدون الا 20 هكتار، حيث سعوا لاكتساب مئتين أو ثلاثمائة. منذ بعض الوقت، كان الاوروبيون مختصون في عقود البيع، الذي يدفعه البائع للمشتري كمقياس للأرض التي ستكون أقل من المساحة المعلنة.أصبح أحد المور الذين تم تطبيق هذا الشرط عليه مدينا للمشتري بمبلغ أكبر بكثير من سعر العقار.

وعلاوة على ذلك، أدى الاستحواذ من قبل الأوروبيين الى مصدر غير منتهي من المحاكمات، بدءا بالتسميات الغامضة التي جعلت العديد من عمليات الحيازة صعبة جدا. يمكننا أن نرى بالفعل أن الأوروبيين، منذ السلام، سعوا الى البحث عن ممتلكاتهم في سهل، دون أن يتمكنوا من العثور عليها. الباعة تركوا المحافظة، ولا يعرفون أي مستجدات عنه. كما بيعت العديد من الممتلكات غير مقسمة بالكامل من قبل أحد المالكين، دون موافقة الآخرين، كما تم بيع أطفال من أجل آبائهم، وفي الأخير، فان فحص السجلات يثبت في بعض الأحيان أن نفس الممتلكات بيعت لمشترين مختلفين.

في البليدة، معظم المنازل المباعة لم تعد موجودة منذ وقوع زلزال 1826.

بدأت المحاكمات بالفعل بشأن هذه المسألة.

المنح السنوية المدفوعة، أو على الأقل منح جميع عمليات الاستحواذ ارتفعت الى 295.220 فرنك، لتمثل رأس مال قدره 5.904.400 فرنك؛ التسجيل الوارد عن كل عمليات الاستحواذ هذه، قدر ب295.220 فرنك.

الترتيب الجيد الذي سبق الاستيلاء على قسنطينة، سمح في هذه المدينة، بجمع وثائق إيجابية بشأن تنظيم وأهمية عقارات الدولة، في هذا الجزء من الجزائر. مساحة العقارات الريفية هناك كانت كبيرة وبأعداد كبيرة، وندعوها "عزلة". تم تأجيرها للعرب، مع رسم سنوي، يدعى "حكور"، بقدر 13 بوجو وربع زويجة (قياس 25 فدانا) مخصصة للزراعة. يقوم المزارعون، باستغلال "العزلة" التي تخضع للعشور أو العشر، مثل غيرهم من المزارعين. ومعظم "العزلات"، بالإضافة إلى ذلك، توفر كمية مهمة من حزم التبن.

ينتج ال"حكور" سنويا 596.250 فرنك فرنسي كمتوسط للانتاج،

أما التبن؛

فما يعادل : 26.469 فرنك فرنسي.

لم تكن جميع "العزلات" تخضع لنفس القواعد؛ فالبعض منها يدفع بعض الرسوم السنوية الثابتة من القمح والشعير، وتدعى "الجبري" وهي مستقلة عن مساحة الأراضي المزروعة في العام. و"الجبري" المعفاة من

العشور. قبل 1828؛ كان نظام "الجبري" ينطبق على جميع "العزلات". ومنذ تلك الفترة طبق فقط على العدد المحدود والمتبقي من "العزلات"، وقد أنتج سنويا 86.800 فرنك فرنسي.

كان البيلك يملك أيضا، في محافظة قسنطينة، العديد من القطعان التي يعطونها كماشية للعرب، نسميهم "عزيب". تحدثنا عن ذلك في المجلد الثاني من الحوليات.

تنتج المباني الحضرية لممتلكات الدولة ما يقرب من 50.000 فرنك.

كانت الإدارة العامة لممتلكات الدولة لمحافظة قسنطينة بين أيدي قايد الدار أو أمين مخازن القصر.

10.

مرسوم منح راسوتا.

نحن الملازم العام، نظير فرنسا، الحاكم العام للممتلكات الفرنسية في شمال أفريقيا.

باعتبار أن الممتلكات العقارية الواقعة خارج نطاق الحراش غير مزروعة الآن،

وبالنظر إلى أن ملء هذا الجزء من السهل، واستخدام هذه الأراضي البور من أجل انشاء مؤسسات، و بإعطاء قيمة لهذه الممتلكات، سوف تساهم في التوطيد والدفاع عن الجزء الشرقي من متيجة؛

بناء على اقتراح من مدير المالية، ومجلس الإدارة المتفق عليه،

أصدرنا مرسوما وأمرنا بما يلي:

المادة الأولى.

تمنح إلى الأبد، الى ثيوفيل، أمير ميرميرسكي، لاجئ بولندي، وفقا للبنود والشروط التي تأتي فيما بعد، الممتلكات العقارية الموالية

تعرف بـ:

حوش راسوتا باستثناء المباني[1] وجناح عمالها، والتي تم حفظها للدولة،

(1) تم وضع هذه المباني بأمر آخر تحت إدارة المارشال كلوزيل ، المكلف بمهمة إنشاء مساكن للمجموعات التي قد ترسل الى هذه النقطة.

حوش مراد، حوش مريدجا، حوش وباي، حوش بن زرقة مع تبعياتها والأراضي الشاسعة والشاغرة المجاورة، سوف يعترف بعدم وجود مالك لها.

المادة 2.

لا يستمتع صاحب التنازل بحيازة بعض الممتلكات التي تمثل موضوع هذا التنازل، الا على تقرير فعلي لحيازته مكتوب من طرف وكلاء الممتلكات بإذن من مدير المالية. لا يمكن إعطاء هذا الإذن من دون تنفيذ شروط التسوية مع القبائل المجاورة أو مع العرب، التي كانت تخضع لمصادقتنا من خلال وسيط لمدير المالية، والتي تمت مناقشتها في المجلس[1]. وأي نزاع في هذا الشأن سيخضع وسيحاكم إداريا.

المادة 3.

تحتفظ الحكومة بالقلاع والحصون المسماة المنزل المربع والماء ومجموعة خدمهم المعينة كما سيحاكم بشكل ضروري. كما ستحتفظ أيضا بجميع المواقع التي قد تحتاج لها في وقت لاحق لبناء الحصون والمعسكرات أو المؤسسات العسكرية الأخرى، دون أن يكون يطالب صاحب التنازل بأي تعويض عن المؤسسات المعنية، وكذلك الأراضي التابعة لها. ومع ذلك، قد يسمح لصاحب التنازل أن يحتل كل أو جزء من الحصون والمنشآت المتعلقة بالأمر، شريطة أن لا تغير الوجهة، ما عدا اذا كان هناك إذن الهندسة، التي سوف تبقى مسؤولياتها الرقابية.

اذا كانت الحكومة ستتخلى في يوم من الأيام عن أحدى هذه الحصون، أو المنشآت، يمكن بيعها إلى المتنازل عنها بالتراضي بعد الخبرة المتناقضة وباتباع الشكل القانوني المنصوص عليه في مثل هذه الحالات.

---

(1) لم تتم مراعاة هذه الأحكام

المادة 4.

يلتزم صاحب الامتياز (التنازل)

1° الإصلاح على نفقته الخاصة، في غضون سنتين من تاريخ المحضر الفعلي لحيازة المباني التي سيتمتع بها من خلال هذا المحضر؛

2° الانتقال الى الزراعة الكاملة، في غضون خمس سنوات من نفس التاريخ، التي منحت له فيه الأراضي الصالحة للزراعة؛

3° تطهير أجزاء المستنقعات بالنزف أو القنوات؛

4° تحديد الأراضي الممنوحة له، في الجانب حيث تتجاور مع الأراضي التي تملكها قبائل أو أشخاص آخرون، بالخنادق، أو المنحوطات ذات عرض 1 متر و33 سنتيمتر وعمق يساوي 66 سنتيمتر؛

5° أن يرتب على نفقته الخاصة، عن طريق المساحين المعتمدين أو المصادق عليهم من طرف مدير المالية، لوضع مخطط بمقياس 4/5 على ألف للأراضي التي سيتم وضعها تحت الحيازة. ينبغي صياغة هذا المخطط في السنة الخامسة بعد تاريخ محضر التنفيذ الخاص بالتمتع به، ويتم التحقق من ذلك من قبل عملاء في هذا المجال، موافقين على اقتراح مدير المالية، ويستخدم في التحديد بشكل نهائي مدى الامتياز، يتحمل المتنازل تكاليف السكن والطعام الخاص بالمراقبين المستخدمين في هذه العملية؛

6° التقديم سنويا لادارة المالية، جدول الزراعات، وفقا للنموذج الذي يقدم له.

المادة 5.

هذا التنازل خالي من الإيجار والضرائب لمدة عشر سنوات، والتي سوف تكون

انطلاقا من تاريخ الموافقة على هذا الأمر. ومع ذلك، لا يتم تضمينها في الضرائب المعفاة، وتكاليف العمليات المساحية التي تخضع لها كافة الممتلكات الأخرى.

المادة 6.

عند انتهاء مدة عشر سنوات، يدفع الوكيل للدولة في كل ثلاثي ويدفع مقدم في يد مستلم العقارات في الجزائر من أجل الأراضي المزروعة وغير المزروعة، الصالحة للزراعة وغير الصالحة للزراعة، المحددة في المخطط الذي تحدثت عنه المادة 4، وعلى كل ما يوجد هناك، قسطا سنويا يقدر ب 50 سنتيما للهكتار الواحد. هذا الرسم مستقل عن الضرائب التي قد تكون موجودة بعد انقضاء تلك المدة أو أي المعمول بها لاحقا.

المادة 7.

يمكن للمانح (المتنازل أو صاحب الامتياز) تخليص (اعادة شراء) القسط السنوي، عندما يتم تحديدها من خلال الدفع للدولة رأس مال يصل الى 5 بالمئة من هذه الأقساط.

المادة 8.

في الحالات التي تكون فيها الإجراءات القضائية تتدخل نسبيا للحد من حق ملكية الأراضي التي ستكون تحت الحيازة على التوالي ، وسوف تتبع المناقشات على نفقته. وسوف تعود الممتلكات الى الجانب المدني، ولكن دون أن تكون تكاليف المحضرة قادرة على البقاء في مسؤوليته. في حال كان المانح قد اشترى ممتلكات أخرى لمالكين آخرين غير ممتلكات الدولة، مساحات الأراضي الواقعة في منطقة أولئك الذين يخضعون لهذا الترخيص، لن يكون قانون التملك صالحا في نظر العديد من ممتلكات الدولة رغم مصادقته عليها، وبدون هذا الاجراء الشكلي، فإن المساحة الأرضية بأكملها سوف تعتبر جزءا من الامتياز (التنازل) وسيدفع 50 سنتا للهكتار الواحد.

المادة 9.

إذا خسر المتنازل في محضر أو دعوى قضائية بمساعدة ادارة ممتلكات الدولة، فلا يمكنه طلب تعويض عن الأراضي المدرجة في التنازل، ولن يكون له الحق في الحصول على تخفيض متناسب مع سعر القسط السنوي؛ ولكن بعد ان يكون قد اشترى هذا القسط، لا يكون له الحق في أي تخفيض. ومع ذلك فإنه قد يتذرع دائما بدعم ادارة ممتلكات الدولة ضد كل طعن قضائي للحد والقانون.

المادة 10.

لا يتم نقل الترخيص على الرهن العقاري المرهون كليا أو جزئيا الا بإذن صريح من الحكومة، تحت طائلة بطلان النقل وحقوق الرهن العقاري المتفق عليها. وهذا الشرط يفرض على المتنازل عند اعادة تخليصه للأقساط السنوية.

المادة 11.

في حالة عدم الوفاء بالأحكام والشروط الواردة في هذا الأمر، سيتم إلغاء الامتياز تلقائيا دون أن يتمكن المتنازل (المانح) المطالبة بأي تعويض عن الزيادة في قيمة العقار الذي يمكن أن يحصل عليه.

المادة 12.

التنازل لن يكون نهائيا الا بعد موافقة وزير الحرب.

المادة 13.

مدير المالية هو المكلف والمسؤول عن تنفيذ هذا المرسوم (الأمر).

حرر في الجزائر العاصمة، 3 جوان 1835.

توقيع د. كونت ايرلون.

أنا الموقع أدناه، أمير "مير ميرسكي"، أعلن عن تقبل هذا التنازل الحالي مع جميع البنود والشروط المذكورة أعلاه.

الجزائر، 29 يوليو 1835.

توقيع الأمير مير ميرسكي.

لنسخة طبق الأصل.

وزير الحكومة.

توقيع فاليت دو شيفيني،

تمت الموافقة عليه بقرار من وزير الحرب، 7 جويلية 1835.

وزير الحكومة.

توقيع فاليت دو شيفيني.

11.

ملاحظة على الإيرادات الحكومية في الجزائر.

لقد تحدثنا في المجلد الثاني من الحوليات عن رقم الدخل العام في عام 1835. حيث كان يقدر بـ2.593.472 فرنك فرنسي و58 سنتيما، طبقا للوثائق التي تم الحصول عليها، ولكن الإدارة في جدول الوضع، لم تحدده إلا بـ 2.518.521 فرنك فرنسي و 47 سنتيما. هذا الاختلاف هو على الارجح بسبب غياب بعض القيم التي نحن تجاهلناها. منذ 1835، زادت الإيرادات العامة وارتفعت في عام 1837 إلى 3.665.603 فرنك فرنسي و24 سنتيما كما سيظهر فيما يلي:

	فرنك	سنتيم
ممتلكات الدولة	181.349	50
التسجيل	187.159	47
الجمارك	1.285.752	35
البراءة	84.562	01
تراخيص بيع المشروبات	100.321	00
المحطات والبواخر (1)	162.204	24
الاحالة	2.007.348	12

(1) تنقل البواخر التابعة للدولة ركابا يدفعون مقابل ذلك.

	فرنك	سنتيم
المقرر	2007348	212
بيع مسحوق النار (البارود) مختلف المنتجات، بما في ذلك	9727	53
مساهمة قسنطينة	627278	69
إيرادات البلدية	1021248	90
المجموع	3665603	24

تنقصنا المعطيات الإيجابية على التدفقات النقدية المستوردة في الجزائر من خلال التجارة والأفراد؛ ولكننا نعرف من الوثائق التي قدمتها الإدارة، أن الشحنات النقدية تقوم بها الخزينة، وقد بلغت في عام 1836 إلى 5.511.567 فرنك فرنسي و92 سنتيم. وفي 1837، 7690958 فرنك فرنسي. تمت تغطية النفقات المترتبة عن هذه الشحنات عن طريق الايرادات المحلية، و باتفاقيات تم التفاوض عليها في البلاد.

نفقات مؤسساتنا في أفريقيا، تتعلق بوزارة الحرب، وكانت تقدر ب 3.982.716 فرنك فرنسي في عام 1837، والتي يجب أن تضاف 4451100 فرنك فرنسي. للقوات البحرية. بإجمالي أو مجموع 44278867 فرنك فرنسي. نحن نعلم أنه ولبعض سنوات، ميزانية الجزائر، في وزارة الحرب، أقل من تلك المتعلقة بالبحرية، في جميع النفقات دون استثناء. وفي السابق كانت الأفواج القادمة من فرنسا، لا تمثل الا على أساس الفرق بين قائمة السلام وقائمة الاستعداد للحرب. ونحن نرى أن ما زال هناك تفاوت كبير بين الإنفاق والإيرادات. فمن الصعب التنبؤ متى سينتهي كل هذا، لأن الحكومة لا تعرف ذلك حقا وهو ما يبدو أكثر وضوحا من أي وقت مضى، فهي لا تعرف ماذا

تريد أو ماذا تفعل في أفريقيا، وهو ما كان الوسيلة للإنفاق دائما، دون أن تنتج شيئا. وهو ما يثير القلق بالنسبة للمستقبل، ليصبح من المفيد لمنع الإحباط، لوضع موارد البلاد أمام عيون الجمهور.

قلنا في المجلد الثاني، أن الحكومة المركزية في الجزائر تحت حكم الأتراك لم يكن لديها دخل منتظم، الا على ما قيمته ثلاثة ملايين فرنك، ولكن كان لديها القليل جدا من النفقات لدعم البايات الثلاثة في وهران و قسنطينة وتيطري، حيث يقومون بتغطية نفقات محافظاتهم بأنفسهم، من خلال الضرائب التي تسحب والتي يرسل جزء ضئيل منها فقط إلى الجزائر. ومع ذلك، كانت الحكومة تعرف بالضبط ما تجلبه كل محافظة، فقد كانت لديها قاعدة للحساب، على الأقل ثروة الحاكم السابق. كانت هذه القاعدة لدينا بالنسبة الى قسنطينة. واستنتج من الوثائق التي جمعتها الإدارة، ووضعها في الجدول الأخير، والمقتبسة من مصادر أصيلة تقول أن إيرادات بيلك قسنطينة كانت تقدر بـ 5.026.705 فرنك فرنسي، دون احتساب الحقوق المحددة والخاصة ب القايد (القادة) ومسئولين آخرين. هذا المبلغ هو أكبر بالتأكيد مما لم نفترضه، وإذا كنا نفتقر إلى معطيات إيجابية، سوف تبدو كبيرة عند النظر الى سوء إدارة البلاد. مع إدارة ذكية تدفع الى الانتاج، لكانت لدينا نفس قوة النشاط والعمل مثل الأتراك، ولكان بامكاننا مضاعفة الأرباح. نختتم هذا المقال بجدول الإيرادات، الذي أعطينا فيه الرقم الكلي.

بيان الدخل في محافظة قسنطينة تحت ادارة الأتراك.

أموال الضرائب، التي تم جمعها من القبائل ....1202281 فرنك.

متوسط قيمة العشور أو العشر ....2.880.000 فرنك.

قيمة ضريبة الزبدة أو البقراجي......................19.690 فرنك.

قيمة الضريبة على الأغنام أو"غرامة الجلب"............38.985 فرنك.

قيمة الضريبة على الخيول أو "مورح الباشا"............64800 فرنك.

"بشيرة" أو هدايا الباي ....36.000 فرنك.

"حكور" أو الايجار الخاص بـ "العزلة"[1] ....596260 فرنك.

قيمة تكاليف التبن المفروضة على "عزلة" ....26.469 فرنك.

قيمة الحبوب التي قدمتها "عزلة" التي تخضع

لـ"الجبري" ....86.800 فرنك.

البراءة على التجار في متجر ....1800 فرنك.

الرسوم التي يدفعها أمناء الشركات ....12.852 فرنك.

قيمة اللوازم التي يقدمها الدباغون ....1800 فرنك.

المجموع.......... 4.967.727 فرنك.

(1) انظر القسم التاسع لشرح هذه الكلمة.

ايرادات الجزائر

التقرير (الدخل)..4.967.727 فرنك.

الضرائب المفروضة على اليهود ....9000 فرنك.

كل المنحة المالية والعينية ....43200 فرنك.

المنتجات المتنوعة.......................................6778 فرنك.

المباني أو البيلك الحضرية ....50000 فرنك.

المجموع ....5076705 فرنك.

12.

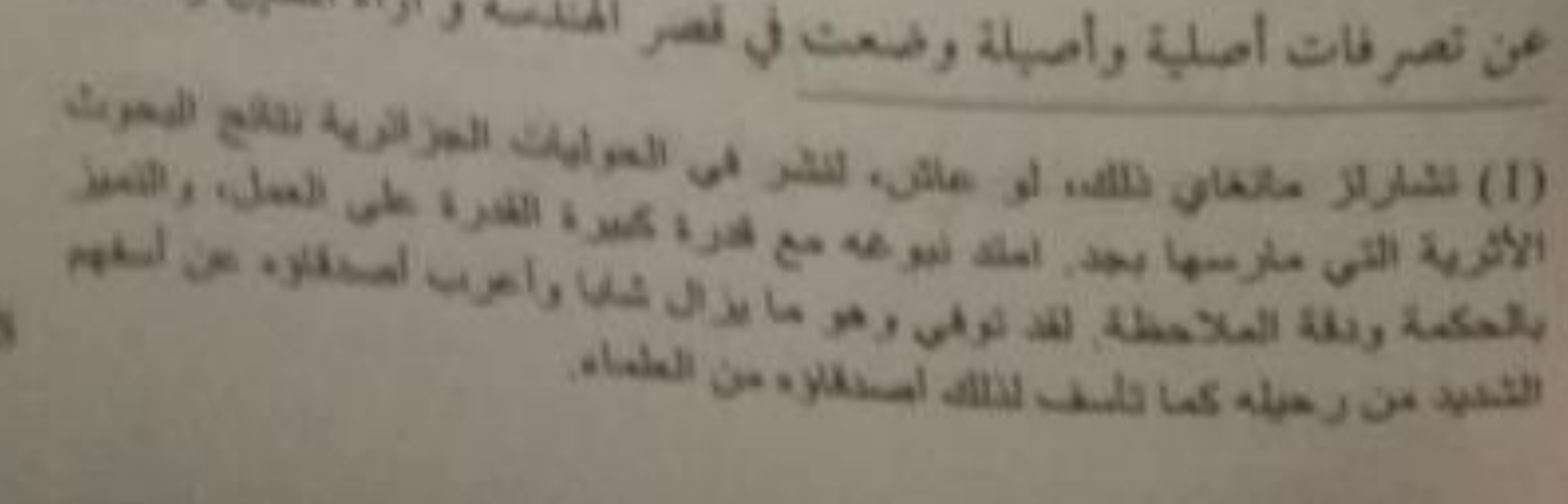
ملاحظة على الممتلكات في الجزائر، قبل الاحتلال الفرنسي، بواسطة تشارلز مانغاي، قائد الهيئة الملكية الهندسة[1].

الخدمة الخاصة التي نحن مسئولون عليها تلزمنا بمحاولة حل السؤالين التاليين:

1° قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر، ما هي الفئات المختلفة للملاك؟

2° كيف كانت تمتلك كل طبقة من هذه الطبقات ؟

وسائل البحث التي قدمت لنا من قبل المنظمة خدمتنا لحل هاتين المسألتين بطريقة اعتقدنا بأنها كاملة الى حد ما. وعلاوة على ذلك، كانت سلطاتنا عبارة عن تصرفات أصلية وأصيلة وضعت في قصر الهندسة و آراء المفتين والقضاة



(1) تشارلز مانغاي ذلك، لو عاش، لنشر في الحوليات الجزائرية نتائج البحوث الأثرية التي مارسها بجد. امتد نبوغه مع قدرة كبيرة القدرة على العمل، والتميز بالحكمة ودقة الملاحظة. لقد توفي وهو ما يزال شابا واعرب اصدقاؤه عن أسفهم الشديد من رحيله كما تأسف لذلك اصدقاؤه من العلماء.

المختلفة، "ايدول" و"أوكيل" الذين كنا على اتصال وعلاقة معهم منذ عام 1834.

سنقدم ملاحظاتنا بإيجاز من خلال ما تحصلنا عليه للاجابة على هذين السؤالين.

السؤال الأول.

قبل الاحتلال الفرنسي، ما هي مختلف فئات المالكين في الجزائر؟

تنتمي المباني الى :

1° الأفراد؛

2 °الشركات ؛

3° بيت المال؛

4 ° البيلك.

§ I.

الأفراد.

أي فرد، بغض النظر عن أمته ودينه، ولونه أو شكله، قد يصبح مالكا قانونيا بالهدية أو الميراث أو الشراء. الاعتقاد السائد أن الإسرائيلين لا يمكنهم أن يكونوا مالكين، وكانت هذه واحدة من العديد من أخطائنا.

§ II.

الشركات.

الشركات التي تملك والتي يمكن أن تملك مقسمة إلى سبع فئات هي:

1° المكة المكرمة والمدينة المنورة،

2° المرابطون؛

3 ° المساجد؛

4 ° الاندلس؛

5 ° الإنكشارية؛

6 ° المياه؛

7 ° الطرق.

مكة والمدينة المنورة.

إدارة مؤسسة مكة المكرمة والمدينة المنورة من قبل أوكيل أو وكيل يساعده كاتب العدل أو الموثق، الذي نسميه ايدول. العقارات العائدة للشركة هي أربعة أنواع، وهي:

1 ° تلك التي تستخدم الايرادات لإغاثة الفقراء، الذين تقدم لهم التوزيعات النقدية والخبز كل أسبوع ؛

2 ° تلك التي تستخدم الايرادات لصيانة المباني الدينية المقدسة ومكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث ينبغي أن ترسل كل عام؛

3 ° تلك التي تستخدم الايرادات لشراء المسلمين الذين يقعون في الرق في بلد أجنبي؛

4 ° تلك التي تستخدم الايرادات للصيانة والمحافظة على المباني الدينية في الجزائر العاصمة.

أوكيل (وكيل) مكة المكرمة والمدينة المنورة مسئول أيضا عن إدارة العقارات العائدة إلى ثلاثة مساجد الحنفي في الجزائر، والتي هي:

1 جامع مقريين: - مسجد ثكنة مكارون.

2 ادموزومورتو. - مقابل مستشفى باب عزون.

3 اد علي باشا. - من الثكنة المدني العليا.

رواتب الموظفين، والتكاليف التي تفرضها الإدارة من مسؤولية الأوكيل، على مستوى ايرادات المباني التابعة للشركة.

§ III.

المرابطون.

المرابطون هي تلك المباني التي تضم قبر القديس أو عن طريق التبرعات بالمباني، أو دفع التبرعات بمبالغ كبيرة من المال يقوم بها أوكيل المرابطين، وبعض ما يتحصل عليه من المسلمين الملتزمين من خلال مراسيم الدفن.

تتم خدمة هؤلاء المرابطين من طرف أوكيل أو اثنان أو أكثر، اعتمادا على أهمية أو اتيهان أو قديس.

يوجد عدد كبير جدا من المرابطين، ولكن هناك تسعة عشر فقط من الذين لديهم مباني.

كل من هؤلاء المرابطين 19 والمباني التابعة لهم، والتي تدار مداخيلها بواسطة أوكيل المرابط. وتستخدم هذه الإيرادات في صيانة المبنى ونفقات الزخرفة، والضوء والاهتمام بالأوكيل والـ"الطَلَبة"، وهم مثل الأئمة الذين

يقرأون القرآن على قبر القديس (الوالي). هؤلاء المرابطون 19 الذين لديهم مباني هم:

في المدينة:

1° مرابط سيدي هلال شارع سيدي هلال.

2° مرابط سيدي علي وفحصي، شارع فيليب رقم 64 .

3° المرابط سيدي الشايب شارع تمبايتو.

4° المرابط سيدي وجودي، شارع الألوان الثلاثة رقم 91.

5 ° المرابط سيدي بن أيوب، شارع الألوان الثلاثة رقم 60.

6° المرابط سيدي حامد بن عبد الله، ساحة باب الواد .

7° المرابط سيدي الميراعيشي شارع المدية، رقم 127 .

8° المرابط سيدي محمد شريف، شارع دو بالميي.

9° المرابط سيدي رمضان ، شارع رمضان رقم 16 .

10 ° المرابط سيدي أوليداودة، شارع ديفان، رقم 108 .

11° المرابط سيدي منصور، ساحة ماسينيسا، رقم 29-31 .

خارج المدينة، في باب الواد:

12° المرابط سيدي عبد الرحمن بالقرب من إقامة ضباط المدفعية.

13 ° المرابط سيدي عامر لتنسي ، مسكن السيد فينكلير، حراسة الهندسة.

14 ° المرابط سيدي سعدي بالقرب من مقر الشرطة (الدرك).

15 ° المرابط سيدي يعقوب، التابع لى ساليباتريير.

خارج المدينة، في باب عزون:

16 ° المرابط سيدي بتكة، ثكنة "السفاهي" بالقرب من الباب.

17 ° المرابط سيدي عبد القادر، في منفذ المنحدر، في رصيف الميناء.

18 ° المرابط سيدي عيسى بالقرب قطار الهندسة.

في جبال الشرق، جرجرة.

19 ° المرابط سيدي محمد بن عبد الرحمن.

من المساجد.

المسلمون منقسمون، في تقرير الدين، هناك أربعة طوائف الأرثوذكسية أيضا، والتي اتخذت اسم الأئمة الذين يتبعون المذهب. هذه الطوائف الأربع هي: 1° حنفي، 2 °مالكي، 3° حنبلي، 4° الشافعي. ليس هناك في الجزائر الحنبلي والشافعي: الأتراك هم الحنفيون، والمالكيون هم العرب. الحنفية كان لديهم 14 مسجدا، والمالكيون كان لديهم 89 مسجدا وجامعا. المسجد صغير حيث يجتمع المؤمنون لتأدية الصلاة كل يوم وخلال الأسبوع، دون اضاعة الكثير من الوقت والذهاب بعيدا للبحث عن مسجد كبير. لا يمكن تأدية صلاة الجمعة في المساجد، بل تؤدى في المساجد الكبيرة أو الجامع.

كل مسجد مالكي لديه مباني تابعة له. وتدار هذه الممتلكات (المباني) بواسطة أوكيل المسجد، وتستخدم ايراداته لتغطية نفقات العبادة والاهتمام بالأئمة، و"الطلبة"، والمؤذنين، وما إلى ذلك ممن يخدمون المسجد.

الحنفيون ليسوا مثل المالكيين، فلكل مسجد مالك منفصل ومختلف. لقد رأينا في السابق ثلاثة من مساجدهم وهي مقرين وموزو موترو ومسجد علي باشا، وكانت تدار من قبل أوكيل مكة المكرمة والمدينة المنورة.

كما يتوحد مسجدان من مساجد الحنفيين في منطقة واحدة لتجمع في مسجد علي بتشين ومسجد خير الدين باشا، الذي يدير مبانيه أوكيل جامع سيدي علي بتشين.

المسجد السادس يدعى جامع زنقة سطاوالي ومبانيه التي يديرها القاضي الحنفي للجزائر العاصمة.

أما بالنسبة للمباني التابعة إلى ثمانية مساجد حنفية أخرى، فتدار من قبل أوكيل معروف باسم أوكيل أملع سول خيرات، مدير الممتلكات معا. توجه ايرادات هذه الممتلكات عن طريق المفتي الحنفي، لتقسم بين المساجد الثمانية، التي تشكل معا مجموعة أو مؤسسة سول خيرات، وفقا لاحتياجات كل هذه المساجد، والموظفين لنفس الغرض الذي تهدف اليه ايرادات المساجد المالكية. وبهذا نجد المساجد الحنفية أربعة مالكين (ملاك) محددوهم على النحو التالي:

1- أوكيل مكة المكرمة والمدينة المنورة لـ:

1° جامع موقرين شارع مكارون، رقم 31.

2° جامع ميزو مورتو، شارع كارتر، رقم 14.

3° جامع علي باشا، شارع المدية، رقم 95.

2- أوكيل سيدي علي بتشنين لـ:

4° جامع علي بتشنين نهج القصبة، رقم 19.

5° جامع خير الدين باشا، شارع الحكومة، هيئة الحراسة.

3- القاضي الحنفي للجزائر من أجل:

6° جامع زنقة سطاوالي، شارع أورليان رقم 41.

4- أوكيل سبول خيرات لـ:

7° جامع قادر باشا، شارع باب عزون، رقم 222.

8° جامع القصبة (الخارجي)، شارع القصبة، رقم 237.

9° جامع القصبة (الداخلي)، في المناطق الداخلية من القصبة.

10° جامع شعبان خوجة، شارع القناصل؛ هدم.

11° جامع حسن باشا، شارع دو ديوان، رقم 100.

12 جامع صيدا، شارع الحكومة. هدم.

13° جامع الجديد مدخل شارع البحرية.

14° جامع السفير، شارع كليبر، رقم 136.

المساجد المالكية تجسد أربعة وثمانين ملكية في الجزائر

تسعة ملاك مختلفين، يتم تمثيلهم بواسطة أوكيل الجامع أو المسجد وأسماؤهم كالتالي:

1° جامع الكبير، في منتصف شارع دي لا مارين (شارع البحرية).

2° جامع سيدي رمضان شارع رمضان، رقم 8.

3° جامع الكشش (القشش)، شارع القناصل، رقم35.

4° جامع بلاطة، شارع دي تيمور، رقم 57.

5° جامع سويقة عمور، شارع كارتر، رقم 150.

6° سوق جامع قبايطية، شارع كارتر، رقم 207.

7° جامع سوق سمن، شارع كارتر، رقم 257.

8° جامع حمام الكبش شارع ليزار.

9° جامع سوق الكتان، شارع باب جديد، رقم 221.

10° جامع كوشات بولاية شارع بولاية.

11° جامع الملاك شارع بلو رقم (1).

12° جامع سيدي ملباح، شارع جيتول، رقم (1).

13° جامع سيدي حامد مشدالي شارع سالوست، رقم 13.

14° جامع سيدي حامد الشفار، شارع لا جيراف (شارع الزرافة) رقم 42.

15° جامع سيدي بوقدور، شارع كليبر، رقم 39.

16° جامع سيدي عبد المولى، شارع الأهرامات، رقم 9.

17° جامع حوانت سيدي عبد الله، شارع سيدي عبد الله، رقم 32.

18° جامع عبص سلاوي.

19° جامع صباغين، شارع الحكومة. هدم.

20° جامع خوجة بيري، شارع باب عزون، رقم 24.

21 ° جامع السويير، زقاق هيئة الأركان، رقم 52.

22 ° جامع فوكين عبد الله الحاج، شارع القصبة، رقم 147.

23 ° جامع سيدي محمد الشريف، شارع دو بالمي (شارع النخيل).

24 ° جامع بن غاوور علي شارع سطاوالي، رقم (1).

25 ° جامع سيدي حامد بن عبد الله، شارع الإشراف، رقم (1).

26 ° جامع سيدي درفود (داوود) شارع السودان. هدم.

27 ° جامع بير جبة شارع قاريا، رقم 7.

28 ° ش هدم جامع كوشات الأوكيد شارع بتولومي. هدم.

29 ° جامع عين شاع، حسين، شارع باب الجديد، رقم 238.

30 جامع باتيستن، ساحة الحكومة، هدم.

31 ° جامع عقبة شرشال شارع أكرميموت، رقم 4.

32 ° جامع عين عبد الله الحاج شارع القصبة، رقم 110.

33 ° جامع أكمت شكور، شارع دي تولون، رقم 14.

34 ° جامع الراتة، ساحة الحكومة، هدم.

35 ° جامع قبل فندق، الزيت شارع باب عزون ،رقم 191، هدم.

36 ° جامع الفيارين شارع باب الواد، رقم 84.

37 ° جامع دار القاضي الملكية، شارع باب الواد، رقم 100.

38 ° جامع حامن بن عبد الله الزواوي، شارع سوكجيا، رقم 48.

39 ° جامع سيدي علي والحفصي؛

40 ° جامع عقبة سلام، شارع دوكين، رقم 39.

41 ° جامع سيد علي ومليانى؛

42، جامع الحمامات، شارع باب جديد، رقم 227.

43 ° جامع سيدي الماريشي، شارع المدية، رقم 127.

44 ° جامع حومة سيلاوي، شارع سنتور، رقم 11.

45 ° جامع سيدي عبد الرحمن، شارع الميثاق، رقم 66.

46 ° جامع سيدي علال؛

47 ° جامع مسجد حومة وبتحة، شارع القناصل، رقم 82.

48 ° جامع كاحاسور؛

49 ° جامع مسجد خرب وجنان، شارع لاهوم رقم 23.

50 ° جامعبيراجناز شارع العقرب (شارع سكوربيون)، رقم 24.

51 ° جامع قبب حمام يتو، شارع التجارة، رقم 17.

52 ° جامع قدام حمام يتو، شارع القصبة، رقم 12.

53 ° جامع سيدي العربي شارع تورفيل، رقم 5.

54 ° جامع شطبي، شارع لوكدور، رقم 27.

55 ° جامع ملياني، شارع القصبة، رقم 60.

56 ° جامع أولاد سلطان، شارع كاروجيل رقم 30، هدم.

57 ° جامع حومة تيراوتي، شاريع دي لير، رقم 7.

58 ° جامع رمضان باشا؛

59 ° جامع سيد والعربي، شارع سيدي عبد الله رقم 3.

60 ° جامع قايد علي، شارع السودان، رقم 47.

61 ° جامع كتشاوة شارع بوتان، رقم (1).

62 ° جامع بن شمون، شارع باب جديد، رقم 196.

63 ° جامع الأجي عبد العزيز؛

64 ° جامع سيد حامد بن علي، شارع الامبراطور، رقم 76.

65 جامع حام وقايد موسى، شارع طية، هدم.

66 ° جامع الست وآرس شارع الفلتة، رقم 2.

67 ° جامع سيد عبد العزيز بونحالة، شارع الجمل (دو شامو)، رقم 2.

68 ° جامع برخيزة، شارع المسلمين، رقم 3.
69 ° جامع بربر، شارع القصبة، رقم 303.
70 ° جامع حمام القصبة، شارع بالين، رقم 14.
71 ° جامع باب الجديد، شارع دي لا فيكتوار، رقم 4.
72 ° جامع جامع الزيتون، شارع باب جديد، رقم 352.
73 ° جامع آرس سلاوي، شارع غرينادا، رقم 28.
74 ° جامع سيدي منصور، ساحة ماسينيسا.
75 ° جامع سيدي جودي، شارع الألوان الثلاثة (تروا كولور)، رقم 25.
76 ° جامع سيدي فلشحة، شارع دو شيفال، رقم 3.
77 ° جامع تسادولي، شارع فيليب، رقم 35.
78 ° جامع حبيسوكا.
79 ° جامع بن سلطان، شارع الألوان الثلاثة، رقم 95.
80 ° جامع ستنا مريم، باب الواد، رقم 295.
81 ° جامع سيدي حبيسوكا؛
82 ° جامع ركروك، شارع القفطان، رقم 17.
83 ° جامع سيدي عبد الرحمن قرب اقامة ضباط المدفعية.
84 ° جامع سيدي عامر تسنتني، في خندق باب الواد.
85 ° جامع سيدي جامع، خارج باب الواد.
86 ° جامع المسالة خارج باب الواد.
87 ° جامع مسجد سيدي بتكة خارج بابعزون.
88 ° جامع زويتز المولى الحسن، شارع بوتان، رقم 34.
89 ° جامع العباس. شارع دلتا، رقم 2.

الأندلسيون (الأندلس).

الأندلس ينتمون الى الشعب الجزائري والذين ندعوهم المور (المغاربة).

ينحدر الأندلس من عرب إسبانيا الذين كانوا يبحثون عن ملاذ آمن في أفريقيا، بعد فتح مملكة غرناطة، ويدعون النسب الى بني أمية ويطلق عليهم اسم الأمويين.

وقد احتفظ الأندلسيون بشيء من التعليم الذي توارثوه عن آبائهم، كما أن تقاليدهم وبعض استخداماتهم ذات اختلاف كبير عن تلك الخاصة بسكان الجزائر.

عندما هرب العرب الى أفريقيا ضمن العائلات التي جاءت إلى الجزائر، كان العديد منها تعيش في الفقر المدقع. أما المهاجرون الأغنياء فقد ساهموا في مساعدة هذه الأسر واشتروا بعض المباني التي تفرض أن تستخدم ايرادتها في إغاثة الأندلس الفقراء. في وقت لاحق، انظمت بعض المباني الأخرى إلى الأولى بنفس الوجهة والغرض.

تدار جميع هذه الممتلكات من قبل أوكيلين المعروفان باسم أوكيل الأندلس، اللذان يطبقان رسوم الإدارة على ما تم جمعه من ايرادات هذه المباني لإغاثة الفقراء من الأندلس (الأندلسيين)، دون صرف الانتباه عن بقية الفقراء بلا حول ولا قوة من المسلمين.

الإنكشارية.

كانت اللانكشارية سبع ثكنة في الجزائر وهي:

1° دار انكشارية خراطة، مستشفى كاراتين.

2° دار انكشارية باب عزون دار، مستشفى باب عزون.

3° دار انكشارية الخديمة، ثكنة المدية العليا.

4° دار انكشارية جديمة، ثكنة المدية السفلى.

5 ° دار انكشارية ستة موسى، ثكنة باب فرنسا.

6 دار انكشارية امتى دروج، ثكنة القناصل.

7 دار انكشارية مكارون، ثكنة مكارون.

وينقسم كل مركز إلى عدد من الثكنات التي تضم من 100 الى 200 رجل.العديد من هذه الثكنات، أو بالأحرى أرقامهم، هم ملاك لمباني مختلفة. هذه المباني تدار من قبل أوكيل يعينه المضجع، والذي يستخدم ايراتها لتحسين موقف وجود الإنكشارية، الذين ترقوا في وظائف بارزة ومهمة، وحصلوا على ثروة كبيرة. ليس من الممكن أن نحدد عدد المضاجع التي يملكونها، وليس هناك معلومات كافية. ومع ذلك، يبقى ذلك غير مهم جدا، وجميع العقارات العائدة للإنكشارية، تنتمي حقوقها الى الحكومة الفرنسية.

المياه.

قنوات المياه، النوافير، وصنابير المياه، وما إلى ذلك، وعموما كل شي° يتعلق بالمياه من مسئولية إدارة خاصة برئاسة زعيم يعين قائدا العيون.

بصفة عامة، كانت المباني المملوكة للمياه تدار من قبل قائد العيون، وايراداتها موجهة لصيانة القنوات مثل قنوات المياه، الخ.، وفقا للشروط التي يفرضها قانون إدارة المياه، والمباني التي وضعت تحت تصرفها لجمع الايرادات. لكن في بعض الأحيان لا تكون المباني المتعلقة بالمياه تحت ادارة "قايد العيون"، ولكن ادارتها تكون بواسطة شيخ البلاد (نوع من المحافظين أو الحكام)، الذي يجب أن يسهر على ضمان استعمال الايرادات بواسطة قايد العيون وفقا لنية ورغبة الجهة المانحة. كما نجد في بعض الأحياء، وفيما يتعلق بالمجاري المائية أو بعض النوافير الخاصة، وكيل من نوع خاص، مكلف بإدارة الممتلكات المخصصة لهذه النوافير أو المنابع أو المجاري المائية، والذي يستخدم ايرادات هذه المباني للاهتمام المستمر بهذه المباني والمنشآت الخاصة بهذا الميدان.

الطرقات.

تخصص بعض المباني القليلة لصيانة الطرق التي يتم تحديدها بشكل خاص. في هذه الحالة، هناك وكيل واحد مختص بإدارة المباني المخصصة للطرق المحددة، ولديه ايرادات من هذه المباني يتم توفيرها للصيانة المناسبة لهذه الطريق.

§ III.

بيت المال.

بيت المال عبارة عن ادارة يسيرها قاضي (بيت الملجي)، ويساعد القاضي

"عادل" أو كاتب العدل. هذه الإدارة تدفع لحكومة باشا، 400 بوجو شهريا (720 فرنك فرنسي.) والتي يكون لها الحق من خلالها في:

1° إدارة العقارات العائدة لتركة الأفراد الذين ليس لديهم ورثة؛

2° البيع في المزاد العلني للملكيات الخاصة بتركة الأفراد المتوفين دون ورثة؛

3° البيع أيضا في المزاد العلني للممتلكات التي صودرت من قبل باشا على الأفراد. في الحالتين الأخيرتين، تدفع عائدات البيع في الخزينة العامة. بيت المال ليس مالكا، وهو مجرد مدير للممتلكات التابعة للدولة أو للأفراد. يتكفل بيت المال بما يلي:

1 ° تغطية نفقات دفن الفقراء؛

2 ° تقديم صدقات لـ 200 فقير كل يوم خميس؛

3° تقديم الهدايا للباشا خلال الاحتفال السنوي بالعام الجديد، الى جانب الضباط وأهل بيته.

VI §.

البيلك.

وتعود ملكية هذه الممتلكات من المباني الى البيلك. أصبح البيلك صاحب ممتلكات بطرق أخرى، وهي:

1° بتملك العقارات التي يقوم بها

لأفراد، وانشاء المباني بنفقاتها؛

2° عن طريق تبرعات الأفراد، أثناء حياتهم، في خزينة الدولة ؛

3° بالوراثة، يدعو عدة أفراد الدولة لترث منهم كليا أو جزئيا؛

4° وأخيرا عن طريق مصادرة الممتلكات الخاصة لفائدة الخزينة العامة. كيف تتم المصادرة؟ لن نستطع الاجابة على هذا السؤال لعدم وجود معلومات كاملة مؤكدة. ومع ذلك، فإننا نعتقد بأن القانون لا يسمح للباشا بمصادرة الملكيات الفردية، الا بعد مداولة (مجلس) كبيرة أو صغيرة؛ ونتيجة لهذا القرار من تلك المداولة أو أخرى، يتم بيع البيلك في مزاد علني للملكيات التي تمت مصادرتها. إذا احتاجت الدولة الى المباني المصادرة يقوم الخزناجي (نوع من وزير للمالية)، بجلب عدد من المزايدات بحيث تتجاوز مزايداتهم تلك الخاصة بالأفراد. في الواقع، يمكن للباشا أن يفعل ما يريد من خلال اتخاذ المسئولية على عاتقه. والمثقفون في البلد قالوا لنا أن الباشاوات في أغلب الأحيان، يتصرفون دون استشارة أحد أو دون اجراء مداولة أخرى، ولهذا كانت هناك تغيرات كثيرة على هؤلاء القادة ذوي السيادة الذين تنتهي حياتهم المهنية تقريبا دائما بكارثة دموية.

المباني التي تملكها الدولة والتي تقع في المناطق الداخلية من المدينة كانت تدار من قبل الخزناجي.

المباني التي تملكها الدولة والتي تقع خارج المدينة كانت تدار من قبل

خوجة الخيل (كاتب الخيول)، وهو ما يشبه الرئيس التنفيذي العام للعقارات الريفية.

الايرادات والمباني المملوكة للبيلك، مثل تلك التي تقع في الداخل وتلك الواقعة خارج مدينة، يتم دفعها إلى الخزينة ليتم استخدامها لتسديد نفقات الدولة، بعد خصم المصروفات (النفقات) الإدارية.

السؤال الثاني.

قبل الاحتلال الفرنسي، كيف كانت مختلف الطبقات تمتلك العقارات؟

§ I.

ممتلكات الأفراد.

المباني المملوكة للقطاع الخاص. يقع "الملكية" أو الأوقاف (أو الحبوس).

ما معنى ممتلكات "الملكية".

"الملكية" يعني الحر والمستقل، و مباني "الملكية" هي التي يمكن لمالكها ايجارها، أو تبديلها، أو رهنها، والتصرف بها بمحض ارادته، وحسب رغبته.

ما هي ممتلكات الأوقاف (الحبوس).

الحبوس يعني المسجون والملتزم والمحتجز. في بناء الأوقاف الحبوس، تكون الممتلكات المباشرة والممتلكات المفيدة الميدان تنتمي (تعود) إلى شخصين مختلفين.

دستور الأوقاف (الحبوس).

فصل الممتلكات المباشرة والممتلكات النفعية يتم بمادة دستورية لأوقاف

الحبوس. يتقدم المشرع أوالذي توهب له الملكية في "المجلاس". "المجلاس" هو المحكمة العليا للمسلمين، في البلدان المسلمة، ويتألف من العلماء أو المفتين و القاضي، ومبعوث من الجيش المجيد، وهذا يعني السلطات الدينية والقضائية، ومندوب عن رئيس الدولة. يظهر الموهوب له حقوق الملكية، ويؤكد أن المبنى الذي يريده في الحبوس ينتمي الى "الملكية".

ثم يعلن عن تشكل مبنى أوقاف الحبوس.

ويبدأ بنفسه ليستمتع بذلك مدى الحياة؛

ثم أولاده من خلال تحديد حصة كل واحد منها للتمتع بحق الانتفاع من البناء؛

ثم نسل أبنائه والأجيال القادمة الآتية من بعد ذلك، عن طريق قسمة حسب السلالة والفرع، طالما مازالوا مرتبطين بالمبادئ الإسلامية، وتحديد النسب بالنسبة الى الذكور والإناث للتمتع بها والاستفادة منها.

واذا مات الجميع، وبالتالي اختفت الأسرة وانطفأت، تنتقل الضمانات الى الشركة التي يريد المشرع وهبه هذه الهدية.

يعلن هذا الدستور الخاص بالأوقاف عن طريق "المجالس"، و تبقى مدى الحياة، ولا يمكن أن تغير، و لا يمكن التنازل عنها في تقرير الأحكام، حتى يجمع الله أفضل الوارثين، ميراثه، والأرض وكل من يعيش فيها، و من يجرؤ على إجراء أية تغييرات على أو تنازلات، سيعاقبه الله على جريمته، كما

سيكون مصير كل أولئك الذين ينتهكون هذه الأحكام بصفة غير عادلة.
يصدر القاضي حكمه حسب بيان هذا "المجلس" وهذا ما يجعل دستور أوقاف الحبوس مؤكدا بشكل نهائي.

آثار أوقاف الحبوس.

بالنسبة الى هذا الدستور الخاص بالأوقاف أو الحبوس، ينتمي الممتلكات المباشرة للمؤسسة أو الشركة، ولا يمكن للشركة أن تفرط فيها.

وبوجود أحفاد و نسل الموهوب له (الممنوح له)، سيمتلكون الممتلكات النفعية، و لا يمكن التفريط فيها الى الأبد.

لأنه، أولا، لا يمكن إلزام الشركة التي تعود اليها هذه الممتلكات النفعية بانقراض الأسرة.

كما لا يمكن اقحام أطفالهم الذين يأتون للاستمتاع بهذه الممتلكات، ولا يكون ذلك عن طريق رئاسة آبائهم، بل لأنهم مدعوون بموجب القانون الذي تفرضه أوقاف الحبوس، والرئيس الموهوب له الأصلي.

لا بد على اصحاب الممتلكات النفعية سحب الضريبة على دخل (ايرادات) الممتلكات، وهو المبلغ المطلوب للحفاظ على المبنى في حالة على الأقل مساوية لتلك التي كانت دائما عندما تواجد دستور الأوقاف (الحبوس).

هذا الالتزام بالصيانة كان سببا لإدخال نوعين من المعاملات، وهي عقد إيجار "الجلسة" وبيع "أنا".

استئجار "الجلسة".

مباني الأوقاف بحاجة إلى إصلاح، و صاحب الملكيات المفيدة أو النفعية لا يرغب أو هو غير قادر على الإصلاح بنفسه، ويتعامل بالتراضي مع فرد يعطي له المبنى بعقد الإيجار بناء، شرط أن يقوم بالإصلاحات اللازمة، و يتفق على الإيجار السنوي المناسب.

عند القيام بالإصلاحات، يصبح للمبنى قيمة أكبر. ويقوم المستأجر بموجب هذا بتأجير المبنى بثلث الإيجار السنوي الذي يتجاوز أكثر أو أقل المبلغ المنصوص عليه بين المستأجر والمؤجر الأصلي.

هذا الفرق بين مبلغي الايجار هو ملكا للمستأجر الإيجابي، وهذا هو الحق الذي نسميه "الجلسة" في القاطعات الغربية، وبين علماء الناس في الجزائر، أما في الجزائر العاصمة فنسميه " القعدة" في اللهجة السوقية المبتذلة، و"خالو" في مصر.

ماهية "الملكية".

منتفع الأوقاف، الذي هو المؤجر البدائي (الأولي)، لديه الحق فقط في القسط المنصوص عليه في البداية بينه وبين المستأجر أو مالك "الجلسة"، لكن هذه الأقساط يجب أن تدفع دائما له كما تم الاتفاق عليه، هذا القسط أو بالأحرى الحق في هذا القسط هو ما يدعى "الملكية". "الملكية" اذا هي الحق في القسط السنوي الثابت وغير المتغير، التي تعود الى منتفع الحبوس، والذي أجر بموجب الشروط المنصوص عليها أعلاه، إلى شخص آخر.

الجلسة.

إجمالي قيمة استئجار المبنى يتكون اذن من "الجلسة" "الملكية" معا. لكن

القيمة الإيجارية الإجمالية للممتلكات متغيرة، فقد يتغير بتغير الظروف المختلفة من سنة الى أخرى. ومع ذلك، فإذا كانت "الملكية"ثابتة، يجب أن تكون "الجلسة" متغيرة، ولذلك يمكن أن تكون إيجابية، أو سلبية أو حيادية، وهذا يتوقف الإيجار الحالي الذي يكون أكبر، أو أصغر أو يساوي "الملكية" أو الإيجار المنصوص عليه في الأصل. هذه هي مخاطر مستأجر "الجلسة".

صاحب "الجلسة" يقدم وفقا لتقديره.

كلما احتاج البناء الى اصلاح جديد، والإصلاح ضرورة قصوى للمحافظة على قوة المبنى، حيث يكون التزيين والتحسينات مسؤولية "الجلسة"، صاحب "الملكية" و "الجلسة" تساهم بشكل متناسب في القسط الذي يسحب من المبنى.

وتبقى سندات "الملكية"بحوزة المالك.

المترجمون الفوريون يترجمون كل كلمة "الجلسة" بحق الإشغال. وربما هذا ما يفسر أن صاحب "الجلسة" هو صاحب الحق الحصري لتقديم المبنى للتأجير، وبالتالي تقديم الحق في الاشغال.

من البيع الى "الآنا".

النوع الثاني من المعاملات الفرعية من خلال ضرورة الحفاظ على المباني هو البيع للـ"آنا": ويتجسد فيما يلي:

يجد صاحب الملكية النفعية نفسه غير قادر على القيام بالإصلاحات اللازمة لبناء الحبوس لصالحه، فيبيع، بالمتوسط القسط السنوي والدائم، والذي يجب أن

ينظر فيه ويعترف به حتى لا يعود بأية مشكلة لهؤلاء الذين لديهم حق الانتفاع من بيع الحبوس، بالقول أن بيع المبنى للفرد هو لإجراء بعض الإصلاحات اللازمة أو إعادة البناء.

والإنشاءات التي يقوم بها المشتري لاتخاذ اسم "زينا"، وتصبح ملكيته المطلقة يتمتع بها ولديه وفقا لتقديره.

جميع الإصلاحات في البناء بعد هي من مسؤولية المشتري.

المبنى يصبح ملكية "الملك" بين يدي المشتري، إلا أذا كان مرهونا، بامتياز ليقدم له قسطا (أجرا) منظما متفق عليه، و يستمر الى الأبد، دون زيادة أو نقصان.

وهذا ما يسمى "آنا" (القسط السنوي)، حيث أن "آنا" هو تمثيل للحبوس الأولية، والذي بعد موعد انقراض الأسرة يدفع الى الشركة (المؤسسة) التي سيعود لها الحبوس، والتي جعلتها المؤسسة رهنا عقاريا بامتياز على المبنى لتقدم لها الـ"آنا".

سندات الملكية الأصلية بين يدي صاحب "الزينا". صاحب "آنا " يحتفظ بنسخة من هذه السندات.

الاختلافات بين "الجلسة" و"آنا".

هناك اختلافات جذرية ما بين "الجلسة" و"آنا"، فقد ربطنا الأولى بالايجار والثانية بالبيع. فمن الضروري أن نلاحظ هذه الاختلافات التالية، وهي:

1° في "الجلسة"، إصلاح للمبنى، بعد المعاملة البدائية، يتطلب دعم صاحب "الملكية"، ودعم "الجلسة". في "آنا"، صاحب "الزينا" هو وحده المسؤول؛

2° في "آنا"، المشتري يأخذ السندات الأصلية للملكية من يد البائع؛ "الجلسة" تبقى السندات في يد المؤجر؛

3° في "الجلسة"، المستأجر لديه الحق في أخذ المبنى المؤجر عندما يناسبه، وهو المالك ملزمة بإعادة أخذه: هذا عادل بما فيه الكفاية، لأن المستأجر لا يعيد المبنى الا بقدر الإيجار الذي سيكون أقل من المنصوص عليه في الأصل مع المالك، وبهذا يخسر المستأجر، ولكن المؤجر لا يخسر شيئا، لأن المستأجر جعل البناء أفضل مما كان عليه عندما تم تأجيره، في "آنا" ليست هي الحالة نفسها؛

4° والإحالة إلى "الجلسة" تحدث بالتراضي بين المستأجر والمؤجر، والمؤجر يوافق على عدم اقحام الورثة في ذلك، في حين أن الإحالة إلى "آنا" يكون فقط عن طريق العدالة، ويفصل حكم "المجالس"؛

5° في الأخير، الاحالة الى "آنا" لجميع أنواع المباني. أما الاحالة في "الجلسة" لا يتم الا بتعيين المحلات التجارية، والحمامات، والمصانع، وما إلى ذلك..، ولكن لا يمكن أن يحدث نفس الشيء مع المنازل أو العقارات الريفية.

§ II.

ممتلكات الشركات (المؤسسات).

ممتلكات الشركات تأتي كما يلي:

1° الاستحواذ الذي تقوم به الشركات عن طريق وكيل على الأموال وحساب هذه الشركات؛

2° التبرعات المباشرة لهذه الشركات؛

3° الأوقاف (الحبوس) بسبب انقراض نسل منشئي الأوقاف.

أيا كان مصدر ممتلكات الشركة، لا يمكن التخلي عنها. لا يجوز للمؤسسة أن تحصل على الممتلكات النفعية لأكثر من ثلاث سنوات. ومع ذلك، وبعد إذن حكم "المجالس"، يمكن للشركات بيع المباني ب"آنا" ما لم يكن لديهم وسيلة للإصلاح حتى تنتج دائما تقريبا نفس الحصة من دخل المباني الأخرى، أو تبادل المباني مقابل مباني أخرى ذات نسبة متساوية على الأقل؛ تعطي هذه المباني المصلحة العامة بإعادة استثمارها بالايرادات التي تتلقاها لهذا الغرض، وذلك ليحل محل خاصية النقل من مبنى الى آخر ذي القيمة المتساوية.

§ III.

ممتلكات بيت المال.

المباني التي توجد بين يدي بيت المال تعتبر مؤقتة لأن:

1° بيت المال يقوم فقط بإدارة المال الموروث في غياب الورثة، ويجب أن ترجع الممتلكات إلى الورثة لدى عودتهم؛

2° يمكن أن تديره فقط حتى وقت المناقصة العامة لصالح خزينة الدولة.

والمباني والأثاث التي يتركها الأفراد المتوفون دون ورثة، أو من المصادرة على ممتلكات بعض الأفراد.

يمكن لبيت المال استئجار للمدى القصير فقط، أو البيع في المزاد العلني لصالح من الدولة.

VI §.

ممتلكات البيلك.

ممتلكات البيلك هي "الملك". يمتلكها البيلك بناء على اختياره، ولكن لا يمكن أن يبيعها إلا في المزاد العلني العام ومن خلال وساطة بيت المال.

13.

نظرة على عين ماضي وحمزة.

عين ماضي.

عين ماضي هي مدينة صغيرة محصنة، على بعد رحلة أيام إلى الجنوب الغربي من المدية، في الصحراء تماما وخارج إقليم محافظة الجزائر العاصمة نفسه. لا نعرف فترة تأسيسها. ولكن نحن نعلم جيدا أن ذلك كان قبل دخول الأتراك إلى الجزائر، كما هو الحال بالنسبة إلى توقورت عاصمة إمارة صغيرة، حيث حكمت عائلة أولاد علي، التي لا تزال موجودة. لقد جردت هذه الأسرة بظهور أسرة تيجيني التي قاومت في العام الماضي حصارا طويلا ضد عبد القادر. كانت هذه الأسرة مغربية الأصل، حيث ما زالت لديها ممتلكات هناك.

عندما استقر الأتراك وفرضوا سيطرتهم في الجزائر، حاولوا عدة مرات اخضاع عين ماضي، ولكن هذه المدينة كانت قادرة على المقاومة أو تحويل العاصفة الى هدايا. ومع ذلك، كانت في احدى المرات مرغمة على الاستسلام لمحمد الكبير، باي وهران: كان ذلك في 1783. وكان هذا الاستسلام مؤقتا، لأنه بعد مرور عامين، وجد محمد الكبير نفسه في حاجة الى التوجه عين ماضي،

وهي الرحلة الثانية التي كانت فاشلة بعد حصار دام أكثر من شهرين. بين هذه حملتين، قام الأمير العربي الذي حكم في عين ماضي والذي كان جد التيجيني الحالي بإصلاح وزيادة حصون ووسائل دفاع المنطقة.

في عام 1826، رأى شقيق تيجيني نفسه، الذي كان يحكم، بأنه قوي بما يكفي لاتخاذ الهجوم ضد الأتراك. سار حتى ماسكارا (معسكر)، وحاصرها. كان قد سيطر بالفعل على ضاحيتين، عندما أسرع حسن باي الى وهران لإنقاذ المكان. خاض تيجيني معه معركة في سهل غريس ولكن خيانة مجموعة من العرب له، جعلته يهزم ويقتل بعد أن دافع وقاتل ببسالة. استمر حسن باي، في السعي نحو مصالحه، وجاء دوره لمحاصرة عين ماضي، لكن التيجيني الحالي الذي يدعى الحاجي محمد بن سالم تيجيني، الذي خلف شقيقه، أجبره على التراجع بعد حصار دام أربعة عشر يوما. تمت ملاحقة الباي، في تراجعه ففقد الكثير من محاربيه (جنوده).

لا تملك عين ماضي أكثر من ثلاثمائة منزل، وتحتوي على قصبة صغيرة ذات جدار من الحجارة في حالة جيدة ، وسميكة جدا، ومحاطة بالأبراج. لها ثلاثة أبواب وبوابة. يغطى كل باب بحصانة خارجية من البناء. وتحيط بالمدينة حدائق جميلة، تشكل جدرانها الخارجية هي أول جدار صد متحد ومركز في المدينة، وقادر على الدفاع عنها. ينبوع عين ماضي، الذي يعطي اسمه للمدينة، لا تجري مياهه داخل جدرانه،لكنه قريب جدا. هناك في المدينة ثلاثة آبار وفيرة تلبي احتياجات السكان.

ملاحظة على عين ماضي وحمزة

هناك طريق بدا لي مثل ذلك الموجود في المدية وفي عين ماضي: في اليوم الأول من السير، والذي كان قويا جدا، وهو يؤدي إلى "القصر"، وهي قرية من قبيلة زيناكرة. المنطقة ما بين المدية و"القصر" هي أرض جبلية.

بالخروج من "القصر" و بعيدا قليلا عن هذه القرية، يدخل المرء الى سهل واسع، مزروع بشكل جيد ويسقى من عدة أنهار، وأهمها واد وارك (وارق). وتقطنه قبائل مختلفة، وأول من واجهناها (التقينا بها) هي قبيلة أولاد مختار، ثم أولاد سيدي عيسى، في المركز الذي وصلنا اليه في اليوم الثاني من السير.

في اليوم الثالث قمنا بعبور جزء من سهل يسمى تاجين، وينتهي عند أولاد الشايب.

في اليوم الرابع، فإننا كنا لا نزال نجوب سهل تاجين ، ووصلنا إلى الشوفرة، في قرية تسمى سيدي بوزيد. هذه القرية، التي بنيت بالحجر قبل الحدائق التي تسقى جيدا، عند سفح سلسلة من الجبال المنخفضة التي تسمى جبل عامر.

في اليوم الخامس، قمنا بعبور جبل عامر، حيث وجدنا منابع كثيرة في كل خطوة ووصلنا إلى بلدة صغيرة تسمى تجمونت، في الجزء السفلي من جنوب المنحدر. هذه المدينة، التي هي ذات أهمية في البليدة، بفضل الحدائق والمياه التي تتوفر فيها بكثرة.

في اليوم السادس من رحلتنا الى عين ماضي. عبرنا للوصول إلى هناك، الجزء الشمالي من سهل المزي، الذي تقع هذه المدينة في وسطه. ويقطن هذا

السهل الخيرة (قبيلة). نرى وفقا هذا الطريق، أننا لم نستغرق الا ستة أيام من السير على الأقدام للوصول الى عين ماضي انطلاقا من المدية. ولكن هذا يسافر العرب بشكل منفرد. قوافل عبد القادر استغرقت سبعة ايام للوصول خلال الحصار. ورحلة مثل هذه ستتطلب عشرة أيام بالنسبة الى جيش أوربي. وفي رحلة يومين من السير شمال غرب عين ماضي توجد بلدة صغيرة تدعى لقرونات، والتي لا تزال بعيدة عن حمل نفس الأهمية العسكرية.

حمزة.

لقد كنا مهتمين بحمزة منذ بعض الوقت، وهذا هو السبب الذي جعلنا نعتقد أنه يجب أن نضيف بعض المعلومات الجديدة إلى ما سبق أن قيل في هذا البلد في المجلد الأول من الحوليات.

الطريق المؤدية من الجزائر إلى حمزة، من خلال العبور عبر معسكرنا قارا مصطفى، وجسر بن يني، الموجود على بعد ثلاثة أميال. كانت الطريق بين المخيم و الجسر صعبة جدا وهي أسوأ جزء من الطريق. الجسر موجود على واد بني ايني، والتي تأخذ القليل من اسم ايسير وواد الزيتون (نهر الزيتون). هذا هناك يتلقى نهر أورانجي، الذي يتدفق من الغرب إلى الشرق: في هذه المنطقة التي تسقى وتروى بهذين النهرين تعيش قبيلة الكرغل، والمعروفة باسم وادي الزيتون، التي لجأ جزء كبير منها الى أراضينا منذ 1838.

لدى جسر بني ايني ثلاثة أقواس، وقد كسرت واحدة منها بحيث يكون الطريق الى حمزة على هذا الجسر، يقطع الآن النهر على جسر موجود في الأعلى

فوق الجسر بما أن النهر عميق جدا في هذا المكان، وهو يتلقى تيارات جبلية، وخلال فصل الشتاء، حيث الأمطار غزيرة، يكون العبور في معظم الأحيان مستحيلا.

فوق بني ايني وصولا الى ذراع برقال (برغال)(الهضبة موليه)، يتبع الطريق مسار الوادي، الذي هو يكون مفتوحا للغاية في هذا الموقع: على يمين الطريق توجد جبال بني جياد، وعلى اليسار جبال بني خلفون، ولكن على مسافة كبيرة جدا لديها تأثير كبير على الاتصالات (الممرات والطرقات). الطريق فوق الجسر، أو بالأحرى جسر بن ايني أفقي ويقطع النهر ثلاث مرات، ويدعى المعبران الأولان جسر الرخام (مقطع الأبرام) أما الثالث فيسمى معبر وداع البرغال. ومباشرة بعد هذا المعبر تظهر الهضبة التي تحمل نفس الاسم. هذه الهضبة ترابية، ويمدخل سهل لكن الفرسان ينتشر فيها، وفي الأعلى هناك مصدر وفير للمياه. كان هذا المكان في النقطة الثالثة للقوات التركية، التي ذهبت من الجزائر الى حمزة ، وكانت النقطتان السابقتان هما فندق الخميز وبن ايني.

الهضبة المسماة ذراع البرغال يعلوها منحدر حساس يجمعها بسهل حمزة، وهو على بعد ميلين من أصله: الطريق جميلة على هذه الهضبة ، ومع ذلك ولمدة نصف ساعة من المشي وبعد الناظورة، كانت وعرة و مقطوعة ببعض الحفر.

يستغرق العرب أربع ساعات من المشي، من ذراع برغال الى حمزة. البلاد مفتوح و من السهل الوصول إليه ودخوله؛ عثرنا في الطريق على بعض الجداول التي

تكون جافة في الصيف، ما عدا الكبيرة منها ، وتسمى واد الكرم، و-الحيط، وهو تقريبا في ثلثي الطريق.

حصن حمزة، الذي يسمى أيضا في البويرة المنزل المربع. هذا النوع من المباني المقبية، يجمعها جدار قوي، حيث تكون منصاته عبارة عن مدرجات في هذه المباني. هذا الحصن أو كما يسميه العرب البرج، ليس أكبر من حصن ماتيفو وهذا يعني، أنه أصغر بكثير من جصن (برج) باب عزون في الجزائر العاصمة. الستائر الأربعة (المتراس أو الجدار الواقي) تخلو من التصدعات و الحصون والقلاع . هناك باب واحد ونقطة خندق. يقال أنه لا تزال هناك أربعة مدافع، رفعها "القبايل" في عام 1830 . يقع الحصن على الضفة اليسرى لمجاري مائية، والتي يشكل اتحادها النهر الذي يصب في البحر قرب بوجي (بجاية)، ويحمل على خرائطنا اسم أدوز. يمر هذا التيار أو المجرى المائي جنوب الحصن، على بعد مئات الأمتار القليلة. يتدفق في هذا المكان في اخدود ذي عمق كبير.

كانت هناك مسيرة يومين من حصن حمزة الى البيبان: الأولى كلها سهل، والثانية نصف تضاريسها سهل والنصف الآخر جبل.

بعد أربع ساعات من السير غرب حمزة، على طريق المدية، يوجد الحصن المدمر لصور الغزلان، وهناك توجد أنقاض (آثار وبقايا) أوزيا، وليس في حمزة، ، كما قلت عن طريق الخطأ في المجلد الأول. هناك بالفعل أطلال قرب حمزة، ولكن ليست تلك التي تسمى صور الغوزلان.

14.

عودة الى الماضي.

لقد تحدثت في بداية نشر حوليات جزائرية، عن الأخطاء اللاارادية التي سقطت سهوا في الأجزاء الأولى من اصداري، والتي قمت بتصحيحها في الأجزاء التي كان من المفترض أن تصدر في تلك الفترة. وأن بصدد اكمال هذا الالتزام . لقد تلقيت بعض الشكاوى المباشرة أو غير المباشرة. كان علي أن أنظر اليها بعناية واهتمام ، وتصحيحها بالاستناد على أدلة أخرى، لانني لا أريد من ذلك الا العدالة والحقيقة. هنالك أيضا بعض الأخطاء الواقعية التي أتيحت لي الفرصة للاعتراف بها شخصيا، بعد نشر الجزئين الأولين. في الأخير، وبما أنني لم أتمكن من مراقبة طباعة هذه المجلدات، ظهرت هناك أخطاء مطبعية في مقطعين أو ثلاثة مقاطع، والتي تقول عكس ما كنت قد كتبت. بعد هذه المقدمة القصيرة، سأدخل في الموضوع.

قلت في الصفحة 59، من الكتاب الثاني، من المجلد الأول، بأن مجموعة الاحياط التي عقدت اجتماعا في تولون، بعد رحيل جيش حملة الجزائر العاصمة،

كانت تحت قيادة الجنرال لاتور فواساك. لقد أخطأت في كتابة الاسم بسبب تشابه في الأسماء. لم يكن السيد دي لاتور فواساك الذي قاد هذه المجموعة، بل كان السيد فيريمساك.

قلت في الصفحة 89، الجزء الثالث، المجلد الأول، بأن شخصا كان في وضعية الحصول على معلومات صحيحة، قد أخبرني بأن الباي حسين قد قاد بخصم على مبلغ كبير للسيد دو بورمونت، خلال تسجيلات القسط السنوي لانجلترا. ظهرت صحيفة تشير الى الاعتقاد بأنني قلت بأن ذلك كان مناسبا للسيد دو بورمونت. أنا أنكر رسميا هذا التفسير. وأنا على اقتناع الآن كما سأكون دائما، بأنه لو حدث هذا الخصم لتم ادراك ذلك لصاحب الحق.

قلت في الصفحة 93 من المجلد الثاني، الكتاب الحادي عشر، بأنه تم تخفيض عدد رجال الكتائب الموجهين الى حملة بجاية الى 800 حتى 600 رجل، وأن هذا التخفيض لم يكن له سبب آخر غير إرادة قائد الحملة، الذي كان على استعداد للمبالغة في تسهيلات الادارة. وقد تم اعلامي بأن هذا القائد كان السيد تريزيل، والذي أعلن خلال قراءة هذا المقطع، لا دخل له في هذا التخفيض، وأن حديثه الذي ذكرته فيما بعد، لم يظهر أي تعبير مؤكد من الذي أعطيته للموضوع. واستنتج من هذا أنني كنت على خطأ، وأن السيد الجنرال تريزيل المحترم كان يتوقع المقاومة، والتي وجدها بالفعل ببجاية. الى جانب ذلك، حتى لو أن الجنرال تريزيل يعتقد بأنني أسأت اليه، الا أنني ربطت شخصيته النبيلة والجميلة دائما بالعدل.

روايتي لقضية ماكتا (مقطع)، لم تذكر فرقة هندسية، بقيادة النقيب جاكين،

الذي يتصرف بشجاعة كبيرة. وهذا ما كان يتوفر في جزء معتبر من المشاة القدامين في مؤخرة الجيش، للحفاظ على التراجع في اللحظات الأكثر صعوبة. كان العقيد موسيون من بينهم. كتب لي هذا الضابط السامي بأنه لم يقتل ثلاثة خيول ، كما قلت، ولكن اثنان فقط، وأنه لا يتدخل في التزامات الفرسان، وأن موقفه كان في الواقع أكثر فائدة من محاربة الفوضى وقيادة المحاربين.

بالحديث عن الصفحة 278 من المجلد الثاني، حول المحاولة التي كانت تحت قيادة الكونت دي ايرلون لإنشاء بن عمر في البليدة، أقول أن السكان رفضوا لقاء السيد تلقي ماريي، ولم يجد آغا العرب أنه من المناسب التفكير في اجبارهم، وجلب هذا المغاربي الى الجزائر العاصمة. وهذا ما ترتبت عنه رغبة السيد ماريي تفسيرات حول الموضوع، وأن هذا لم يكن السبب الحقيقي لسلوكه. علم هذا العقيد من العرب الذين كانوا في البليدة عن قضية ماكتا، التي لا تزال غير معروفة في الجزائر العاصمة، وهذا ما جعله يقرر جلب بن عمر، لأنه كان يخشى أن لا يكون رد الفعل على هذا الحدث حياديا، لدى سكان الجبل، وهو التمرد الذي لا يمكنه القتال ضده. سأكون آسفا جدا لأنه لم يتم تصديق نيتي ورغبتي في تقديم أعمال إدارة السيد ماريي في وضع غير مستحب. ونحن نختلف في الرأي في الكثير من الحالات، بحيث استطعت إلقاء اللوم على التدابير التي لا نحكم عليها بنفس وجهة النظر، ولكن هذا كل شيء. ومع ذلك، لدي تجربة شخصية لصعوبات موقف الوسيط بين الأوروبيين والعرب، وهو الموقف الذي وقع فيه السيد ماريي ووقعت فيه

أيضا. لم يكن هناك شيء أكثر صعوبة، من أن يحكم عليك بالخطأ أو أن تكون عرضة لسوء الفهم.

نعود الآن إلى بعض الأخطاء المطبعية التي تغير معنى كلامي.

في الصفحة 181 من المجلد الأول، بدلا من السيد جيرونت، يقرأ اسم السيد جيراندو.

نقرأ في الصفحة 343 من المجلد الأول، أن القليعة توجد على الضفة اليمنى لمازافران. يجب استبدال هذه الكلمات بالضفة اليسرى.

في الصفة 207 من نفس المجلد، بدلا من هذه الكلمات بدأ الحرب مع العرب والأكواخ، وهي تقرأ كما يلي: بدأت الحرب مع الأشجار والأكواخ.

في الصفحة 286 من المجلد الثاني، بدلا من كلمات البابا كان من الأهالي نقرأ: كان البابا حقيرا، وأسفل هذا المقطع بقليل، بدلا من هذه العبارة: دين الله لم يفهم، فإن نصها كما يلي: دين الله فهم.

في الصفحة 377 من نفس المجلد، وبدلا من هذه الكلمات، ما لم تكن تفكر في كيفية العد في **Erlon**، قراءة: ما لم تكن تفكر في القيام بذلك تحت قيادة الكونت دي ايرلون، العبارة المقصودة هي ما لم تفكر القيام به إلا تحت قيادة الكونت دي ايرلون .

وبالإضافة إلى هذه الأخطاء الخمسة الكبرى، هناك بعض الأخطاء الواردة في المجلد الأول بما يتعلق بأسماء عربية. ولكن كل هذه الأسماء تقريبا أعيد ذكرها في المجلد الثاني بشكلها الحقيقي.

15.

نظرة على الحاضر.

الاحتلال والاستيلاء على قسنطينة كان بداية فترة لم يكن علينا الاهتمام بها في هذا المجلد. ومع ذلك، فإنها ترتبط بنقطة البداية، أي معاهدة التافنة، التي لديها بالفعل صفة حساسة لتقييم دقيق، ومن ناحية أخرى، من الطبيعي أن يبحث القارئ في هذا الكتاب عن شيء يضعه في أرضية الأحداث الحالية، ووجدت نفسي مضطرا لتقديم هذا المقال من بعض أسطر والذي ينهي المجلد الثالث من حوليات جزائرية.

في محافظة الجزائر العاصمة، كان الاحتلال الفعلي لمنطقة متيجة، والذي احتفظت لنا به معاهدة التافنة، قد انتهى. في الغرب، كان لدينا معسكر في وادي العلايق على بعد ميل من الضفة اليمنى للشفة. وفي الشرق، كان لدينا معسكرين في موقع سوق الخميس، ونطلق عليه معسكر الفندوق، أما المعسكر الآخر فيسمى قارة مصطفى، على بعد ميل ونصف من المعسكر الموجود على التلال، على الضفة اليسرى من بودواو، بالقرب من النقطة التي يترك فيها النهر اسم واد قدارة، والذي تحمله في الجبل. يوجد معسكر آخر عند مدخل واد

ضيق واد الأكرا (واد العكرى). نحن نحتل الآن منطقة البليدة والقليعة، ولكن الوصول إلى هاتين المدينتين لا يزال غير مسموح للمستوطنين المتواجدين في بوفاريك والمعالمة والدويرة، التي لا تزال محتلة بواسطة الحاميات الصغيرة، الى جانب المعسكرات الأولى التي بنيت تحت قيادة الدوق روفيغو. هناك أكثر من ذلك في الدويرة، وهو المستشفى العسكري الجميل جدا. ترتبط المعسكرات فيما بينها بواسطة المخابئ وبعض المواقع الوسيطة الأخرى.

الاستعمار يسير ببطء خارج فحص، وقد تخلى العرب إلى حد كبير عن البلد للذهاب الى أراضي عبد القادر. أما رجالنا فكانوا قلقين باستمرار من سكان حجوط ، الذين يقومون بسباقات مستمرة. لم يعد يمكن للمرء أن يتوقع ايقافهم بعقلانية، ونحن نحتل بلدهم. لا يجب أن نفهم أن الحجوطيين هم فقط الأعضاء السابقون من القبيلة، ولكن المغتربون في أراضينا أيضا، من الذين انسحبوا وغادروا بلدهم بأعداد كثيرة. فهم خصوصا الذين ارتكبوا أعمال لصوصية كان علينا أن نشكو منها، ولم يستطع عبد القادر فعل شيئ لمنعهم، وعلى العكس، فقد كان يدفعهم الى ذلك.

في محافظة وهران كنا مزدرين من احتلال المنطقة بأكملها من الاقليم العقيم الذي خصص لنا . ومع ذلك، كان لدينا قوات ميسرغين وفي مخيم فبغي. ومن المفهوم أنه لدينا أيضا معسكر في رشقون في أرزيو و في مستغانم، أين شهد السكان الأصليون بعض الزيادة. كانت هذه النقطة في تقدم. الدوار والزميلة

الذين ما زالوا دائما معنا، يحتلون ضواحي بريدية وميسرغين. أما تلك الموجودة في وهران فهي بعيدة عن التمتع بأمان تام. يعتبر الغرابة (القرابة) بالنسبة لى هذا الجزء من البلاد مثلما يعتبر الحجوطيون بالنسبة لمتيجة.

كنا نمتد (نتوسع) في محافظة قسنطينة، أكثر من أي مكان آخر. كان هناك خطان للاتصال تضمنهما المعسكرات، وهما يربطان العاصمة و عنابة، والآخر مع ستورا، أين استقرينا هناك عشرة أشهر. وعلاوة على ذلك،نحن نحتل "لا كال"، على حدود تونس، وميلاح، وهي قرية كبيرة تقع بين قسنطينة وجيجل، وهي بلدة صغيرة وميناء صغير وضعت تحت قبضتنا حديثا . لا تزال بجاية محتلة، و تستمر في كونها نقطة عديمة الاتصال مع الآخرين.

هذا فيما يخص الوضع المادي، ولنتطرق الآن للوضع السياسي.

انتهك عبد القادر علنا المعاهدة، التي كانت محرجة (مزعجة) بالنسبة له. أسس سلطته في منطقتين مهمتين في محافظة قسنطينة، أين كان ممنوعا من تمديد عمله (نشاطه). هاتان المنطقتان هما مجانة، التي جعلته سيد موكب البيبان، التي نسميها الأبواب الحديدية، ومنطقة الزاب، أين توجد بسكرة وكل مدنها الصغيرة التي تحدثنا عنها في المجلد الثاني، الكتاب العاشر. كان لديه خلفاء في هاتين المنطقتين، وليس هناك شك في أنه كان يسعى للتوسع أكثر. هذا ما كان ينبغي أن يكون وهذا ما هو عليه. نعتقد جيدا أن الأمير، الذي استولى على الأراضي مع أن المعاهدة لا تعطيه أي حق لذلك ، لا يريد التنازل تحت أي ظرف

من الظروف، حتى عن تلك التي يسودها الغموض في تلك المعاهدة للتنافس حول حيازتها بوجود سبب واضح. تلك المناطق هي حمزة وسيباعو، والتي كان حريصا على الحصول عليها مباشرة بعد الاستيلاء على قسنطينة، لكي لا يكون المدعي، ولكن المدعى في هذه العملية الدبلوماسية، والتي تعتبر دائما الموقف الأفضل. لم يكتف بهذا النهب (اغتصاب السلطة) الذي جرى باصرار رجل كان يعتقد أنه يثق في نفسه وما قام به، كان عبد القادر، كما تعلم، يعيق التجارة، ولا يدفع المساهمة في الحبوب، وفي الأخير، ما هو أكثر خطورة على مستوطناتنا الاستعمارية، هو قيامه بتنظيم عملية سطو ضدنا، أو على الأقل لم يفعل شيئا لقمعها. لو كانت لديه اعتبارات لصالح معاهدة التافنة، لكانت بالتأكيد رؤية القبائل المجاورة تخضع لنظام منتظم وسياسة دقيقة. ومع ذلك، لم يكن هناك شيء، على الأقل بالنسبة للعلاقات مع هذه القبائل، التي تتصرف تماما كما تفعل في زمن الحرب.

انتهت مسألة أحمد باي، الذي كان يتسكع مع مجموعة الفرسان على حدود تونس. لقد اختفى بريقه بتواجدنا، بلا شك، ولكن أيضا بوجود عبد القادر، الذي طاردته قواته من بسكرة، حيث كان يأمل في العثور على حق اللجوء.

الآن ما الذي سنقوم به؟ من المحتمل جدا أن الحكومة لا تعرف، وأنها سوف تتحرك تحت تأثير بعض الأحداث غير المتوقعة، وربما غير المجدية والغريبة والبعيدة عن هذه المسألة. يكاد يكون هذا ما يحدث دائما، على ما يبدو،

في قضايا هذا العالم. قال رجل دولة يعرف الكثير، بأنه لا يمكن أن تصدق كيف أن جرعة المنطق الذي ينظم المصائر (الوجهات) السياسية للشعوب ضعيفة جدا. ومع ذلك، كانوا يسيرون، وبعد مرور بعض الوقت، وصلوا إلى الهدف الذي اختاروه. كانت هناك قوة تعلوهم وهي التي كانت تقودهم، وتتكفل بجمع الجهود غير المتماسكة والمختلة للحكام و المحكومين في نتيجة منطقية. ومع ذلك، لا يجب أن نغفل عن المبدأ الحكيم الذي عبر عنه أجدادنا في هذه الكلمات: ساعد نفسك، تساعدك السماء! هذا هو الأمر المؤكد.

نهاية المجلد الثالث

جدول المحتويات

الواردة في المجلد الثالث.

الجزء الأول

الكتاب 17.

الكتاب 18.

الكتاب 19.

الكتاب 20.

الكتاب 21.

الكتاب 22.

الكتاب 23.

جدول المحتويات

الجزء الثاني

نهاية جدول المحتويات



هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الـ 50 لعيد الاستقلال

Assala

57، شارع ديدوش مراد، الجزائر
هاتف/فاكس: 700 444 021
www.assala-culture.com

